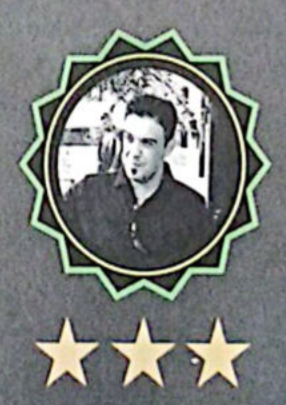
مارغريت كوكر
مديرة مكتب صحيفة نيويورك تايمز السابقة في بغداد

صائد الدواعش

القصة الكاملة
للنقيب حارث السوداني
بطل خلية الصقور الاستخبارية



★★★

ترجمة:
عمار كاظم محمد





صائد الدواعش

القصة الكاملة للنقيب حارث السوداني
بطل خلية الصقور الاستخبارية

مارغريت كوكر

ترجمة: عمار كاظم محمد

صـــائد الدواعش

القصة الكاملة للنقيب حارث السوداني

بطل خلية الصقور الاستخبارية

مارغريت كوكــــر

ترجمة، عمار كاظم محمد

الطبعة الأولى- سنة 2022

ISBN: 978-9922-628-58-5





دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا

هاتف، 07711002790 - 07700492567

Email: bal_alame@yahoo.com



SUMER

Printing, Publishing & Distribution

LUXEMBOURG - 2-c Craulhemerstraass - L-3334 HELLANGE

+352 671531017

مارغريت كوكر

مديرة مكتب صحيفة نيويورك تايمز السابقة في بغداد

صائد الدواعش

القصة الكاملة للنقيب **حارث السوداني**
بطل خلية الصقور الاستخبارية

ترجمة: **عمار كاظم محمد**



الإهـــداء

إلى العراقيين الذين يعملون بجرأة وشجاعة لتطوير بلدهم الأم

نرجو أن لا تذهب تضحياتكم هباءً

وإلى المحررين الذين كانت ملحوظاتهم ونصائحهم

قد جعلت مني كاتبة أفضل

إلى كريج صديقي الودود كاثنين يغامران لرؤية العالم

لقد كنت أفضل رفيق تتمناه امرأة على الإطلاق.



المحتويات

مقدمة المترجم

تمتلئ رفوف المكتبات عادة بالعديد من العناوين التي تتحدث عن تورط الولايات المتحدة الطويل والدامي في العراق، هذه الكتب كلها تقريبا سواء أكتبها قادة عسكريون أم ضباط في العمليات الخاصة أم مجرد صحفيين عاشوا في العراق وتشبعوا بأحداثه المريرة، كانت تسرد إما أعمالا عسكرية أو سياسية أو عمليات استخبارية من منظور الشخص الأجنبي الذي ينظر إلى الداخل العراقي وواقعه بعد الاحتلال، وقد يكون الشخص الأجنبي عاطفيًّا ومراقبا حريصا، لكنه مع ذلك يبقى غريبا عن واقع حياة الناس اليومية في البلاد وتاريخهم.

عادة ما يكون المثقف الأمريكي أو الأوروبي أكثر معرفة بتاريخ الولايات المتحدة أو تاريخ أوروبا من العربي، مثلما لا يمكن أن يكون الأمريكي أو الأوروبي أعرف من المثقف العربي بتاريخ بلاده والأحداث السياسة المعاصرة التي مرت به، خصوصا من عايشها في حينها، من هنا تنبع الإشكالية المتمثلة في هذه الملحوظات عن الكتاب التي ربما تكون المؤلفة قد أخطأت في فهمها أو إنها تبنت مصادرَ قد لا تكون محايدة في سرد بعض القضايا التي وردت في الكتاب، وخصوصا في تاريخ العقائد والمذاهب الإسلامية والتسميات لبعض الأماكن والأشخاص.

لقد حاولت المؤلفة مارغريت كوكر مديرة مكتب نيويورك تايمز

السابقة في بغداد إضفاء بعض الإثارة على سردها الذي يفترض أنه مبني على أحداث واقعية عن بطولات العراقيين في محاربة داعش، وخصوصا قصة الشهيد البطل حارث السوداني الذي تسلل إلى داخل التنظيم الإرهابي وأبطل عشرات العمليات الإرهابية التي استهدفت العاصمة العراقية، إلى جانب سرد جزء من حياة خلية الصقور الاستخبارية وقائدها أبي علي البصري، لكنها منذ مقدمتها وقعت في تناقض بين ما هو واقعي وما هو خيالي، ولا ندري أحيانا هل هي تتحدث عن عالم من نسج مخيلتها، أو هي التي تتحدث بلسان الشخصيات، مفترضة أنهم يفكرون بحسب تصورها عن الواقع العراقي.

كان الخطأ الأول وهو خطأ تاريخي بالطبع حينما قالت وهي تصف أبا علي البصري «لقد نشأ وهو يقرأ عن ماضي وطنه المجيد باعتباره مهدا للحضارات. كان العرب القدماء يحبون حكايات التجسس المثيرة، مثل أسطورة كلكامش، حيث يقتل الملك أعداءه بفضل البراعة والتجسس». المشكلة أن ملحمة كلكامش ليس موضوعها عن التجسس ولا الاستخبارات، كما أن الخطأ التاريخي الآخر يتمثل في أن الملحمة قد كتبت في الألف الثالث قبل الميلاد تقريبا، ولم يكن العرب يعرفون شيئا عنها، فقد اندثرت من الذاكرة منذ ذلك الحين، ولم يتم اكتشافها إلا بالصدفة عام ١٨٥٣ واستغرق العمل قرنًا من الزمان حتى تم ترجمتها إلى العربية، وإلى الآن ما زالت بعض الألواح المفقودة من الملحمة والتي سرقت في فترة الغزو وتم العثور عليها مؤخرا غير مترجمة.

الخطأ الثاني الذي وقعت فيه هو تسمية جامع المحسن في مدينة الصدر والذي وقعت فيه انتفاضة ضد نظام صدام عام ١٩٩٩ احتجاجا على اغتيال آية الله محمد صادق الصدر، والذي أطلقت عليه تسمية جامع الحسين، كما أنها أخطأت في الفصل الخامس في تسمية زعيم القاعدة في العراق باسم أيمن الزرقاوي، بينما لا توجد شخصية تزعمت القاعدة في العراق بهذا الاسم، والذي تزعمها هو الإرهابي الأردني الجنسية أبو مصعب الزرقاوي واسمه الحقيقي أحمد فضيل نزال الخلايلة.

الخطأ الفادح الآخر كان في معرفة الرتب العسكرية، فقد منحت المؤلفة رتبة ضابط المخابرات أو الاستخبارات العراقي على الحدود التركية تسمية (major) وتعني «رائد»، لكن الحقيقة أن النجوم الثلاثة على الكتف لدى الجيش العراقي السابق كما وصفتها هي رتبة نقيب (Captain).

من المشاكل الرئيسة لدى المؤلفة هي تعرضها لقضايا عقائدية ودينية ذات إشكالية خاصة في التاريخ الإسلامي ومنها قضية الإمام الثاني عشر أو المهدي المنتظر، فعلى الرغم من أنها قالت إنها عاشت في بغداد لسنوات عدة لتغطية الأحداث عن العراق لصحيفة نيويورك تايمز، لكنها لم تكلف نفسها أن تسأل أحد المتخصصين من رجال الدين في البلاد عن قضية المهدي، وكتبت «وبحسب العقيدة الشيعية، فإن الإمام الثاني عشر سيجلب الخلاص للعالم عندما يخرج من سرداب تحت الضريح ويقود الأتقياء إلى الجنة» في حديثها عن

تفجير مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء عام ٢٠٠٦، وهي رواية مفتراة يرويها غير الشيعة للاستهزاء بعقيدتهم، حيث أن جميع الروايات لدى الشيعة وغيرهم من المذاهب الإسلامية تؤكد أن «ظهوره سيكون في مكة ويبايع بين الركن والمقام» وليس من سامراء ولا من تحت ضريح الإمامين العسكريين هناك، كما أن فكرة المسيح الموعود أو الإنسان المُخلِّص هي فكرة موجودة في كل الأديان، حتى أن مسرحية «في انتظار غودو» للكاتب الشهير صموئيل بيكيت هي في وجه من وجوهها انتظار للمُخلِّص، لذلك لا أدري على أي مصدر اعتمدت في هذه الرواية الساذجة عن المهدي المختبئ في السرداب في سامراء، وقد صدق ابن حجر العسقلاني حينما قال ذات مرة «من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب».

من الأخطاء التاريخية التي أوردتها أيضا على لسان إحدى شخصيات الكتاب وهي الإرهابية أبرار الكبيسي التي حاولت تسميم مياة الشرب في بغداد قولها «ثم بدأت بتجميع قوائم لأعظم العقول العلمية التي جاءت من العالم العربي، وفي أثناء دراستها لعملهم الرائد في مجالات تخصصاتهم اكتشفت شيئا مشتركا بينهم، فهم مثلها كانوا جميعهم من السنة». ولا أدري من أين تبين للمؤلفة أو حتى لأبرار، إن كان هذا استنتاجها، أن أعظم العقول العلمية من العالم العربي جميعهم من السنة، فابن سينا والمسعودي وجابر بن حيان شيعة، وابن النديم معتزلي، وأبو بكر الرازي متهم بالإلحاد وإنكار النبوة، وحنين بن إسحاق وابن البطريق مسيحيان، أما أنهم في الأصل من غير العرب، فالأمثال لا تعد ولا تحصى، فمعظم علماء

العربيـة من سـيبويه إلى ابـن جني إلى الجرجـاني إلى الفـيروز آبادي، وعلـماء الحديث مثل البخاري والترمذي والنسـائي من غير العرب، بالإضافـة إلى الخوارزمي والفـارابي والرازي، ولكنهم عاشـوا تحت ظل الخلافة العباسـية، باعتبارهم من علماء العرب. والحقيقة إن كان هذا استنتاج المؤلفة أو الشخصية فهو متعسف ويتجاهل الحقيقة.

الأمـر الآخر والمهـم حقيقةً هو تناقـض المؤلفـة في طرحها، ففي الوقـت الذي قالت فيـه في مقدمتها إنها أرادت أن تسـجل بطولات العراقيـين بعيدا عـن خطايا ومعانـاة وانتصارات الأمريـكان وإلقاء الضوء عـلى تضحيات العراقيين وبطولاتهم، تجاهلت تماما وبشـكل متعمـد جهـود ١٦٠ ألـف مقاتـل مـن الحشـد الشـعبي مـن الذين تطوعـوا للدفـاع عن بلادهـم وقدمـوا التضحيات تلـو التضحيات مـن أجل تحريـر أراضي البلاد من احتـلال تنظيم داعـش الارهابي، سواء على المسـتوى الميداني العسكري في تحرير المدن أو على المستوى الاسـتخباري والاسـتطلاعي، وفي الواقـع فـإن الدافـع وراء هـذا التجاهـل وإغفال جزء ليس بالقليل من الصورة العامة للحرب على داعش هو الأسباب السياسية، فدهاليز أمريكا وإعلامها غير المحايد يتعمد دائما إبراز دور الجيش الأمريكي وتجاهل كل القوى الأخرى، وبالتالي فإن المؤلفة ناقضت مقولتها ولم تلتزم بما وعدت به.

مـع ذلك فإن الكتـاب وإن كان يظهر جزءًا مـن صور البطولات التي قام بها الشـهيد حارث السـوداني ورفاقه في خلية الصقور، فإنه أول كتاب في بابه من ناحية الجهد والتنظيم، فقد بذلت المؤلفة جهودا

كبيرة من خلال اللقاءات والمعلومات التي تمتلكها في طرح صورة لعمل بطولي خارق، رغم الأخطاء، وكتبت ما عجز عنه الكثير من الأدباء والمثقفين في العراق في إبراز جزء من الوجه الحقيقي لواحدة من أعظم الملاحم التي خاضتها البلاد ضد أكبر وأخطر تنظيم إرهابي ووحشي غزا البلاد في غفلة من الزمن.

إن من حق الدول أن تتباهى بأبطالها وصانعي انتصاراتها وتحتفي بأعمالهم من خلال الأعمال الأدبية والفنية كالروايات والأفلام والمسلسلات ونصب التماثيل لتلك الشخصيات، لكننا في العراق وللأسف، لا نمتلك مثل هذا التقليد، فلم نر عملا واحدا يخلد حارث السوداني وإنجازاته في حماية بغداد من عشرات السيارات الملغومة والانتحاريين، بل ربما قد نسي البعض أو لا يعرف أصلا من هو حارث السوداني وما الذي قام به من تضحية في سبيل الوطن.

لقد صنعت مصر من رأفت الهجان جاسوسها في الكيان الإسرائيلي شخصية أسطورية بمسلسل واحد، وصنعت بريطانيا من شخصية جيمس بوند الوهمية تراثا، لكننا في العراق وأقولها بأسف، لا نحتفي بتاريخنا الحي ولا برموزنا ولا بمن ضحوا بأنفسهم في سبيل أمن البلاد والعباد، ولم نقدِّر العملية الخطيرة التي جازف بها السوداني بحياته وعاش مع التنظيم وفي وسط الإرهابيين لستة عشر شهرا، وهو يرى أن أي خطأ صغير قد يكلفه حياته في أية لحظة».

لقد قيل حقًّا إن مطربة الحي لا تطرب، فنحن لا نحتفي بأبطالنا إلا حينما يشير الآخر إلى ذلك، وكم كنت أتمنى أن يتصدى لهذا

العمل البطولي مؤلف عراقي يكشف واقع الحرب المريرة التي عاشها العراق والمآسي التي مرت به وهو يحارب عن وجوده ضد أعتى قوى الشر التي حاولت تدمير البلاد، لولا الرجال الذين وقفوا لصد العدوان من الجيش العراقي والشرطة الاتحادية وفرق مكافحة الإرهاب والحشد الشعبي البطل وخلية الصقور الاستخبارية في واحدة من أقسى الظروف الاقتصادية التي مرت بالبلاد فألف تحية لهم ولمن ساهم ولو بكلمة في دعم هذا الجهد المبارك.

بقيت كلمة أخيرة، غالبا ما يظهر عند البحث عن شخصية أبي علي البصري على شبكة الإنترنت صورة لشخصية تدعى أبا علي البصري لكنه في الحقيقة ليس الرجل الذي تحدثت عنه المؤلفة في كتابها، فأبو علي البصري الذي يظهر في الصور هو عدنان إبراهيم محسن المحسني، والرجل من كوادر منظمة بدر، أما أبو علي البصري الحقيقي فاسمه كما يقال هو عبد الكريم عبد فاضل حسين من حزب الدعوة ترأس استخبارات خلية الصقور، كما تولى منصب مدير استخبارات وزارة الداخلية والرجل يحمل الجنسية السويدية وقد يكون له اسم آخر، فلا توجد معلومات كثيرة عنه، وليس لديه صورة، وربما يكون ذلك من باب الاحتياط الأمني لرجل شغل عدة وظائف حساسة في مجال الأمن، ونحن نحترم هذه الخصوصية لإنسان يعمل بكل جهد بعيدا عن الأضواء.

لقد أبقينا على جميع ما ذكرته المؤلفة حفاظا على أمانة الترجمة، وحاولنا جهد الأمكان إصلاح بعض الأخطاء التي وقعت فيها

بملحوظات في هوامش الكتاب، نتمنى أن تكون على نفس القدر من الإيضاح في جهد الترجمة الشاق.

في النهاية أتقدم بخالص الشكر لدار سطور وكادرها في رفد المكتبة العراقية والعربية بكل ما هو جديد، وتسليط الضوء على بقعة مضيئة من بطولات شعبنا في محاربة الإرهاب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

عمار كاظم محمد

بغداد

تشرين الأول ٢٠٢١

إشارة المؤلفة

لقد أشاد القادة السياسيون والعسكريون، منذ بلاد ما بين النهرين القديمة وحتى العصر الحديث، بالصبر والدهاء الذي تمثله مهنة التسلل والتجسس حينما تستخدم للدفاع عن أوطانهم وتحقيق الانتصارات العسكرية، وخلال الحروب الأخيرة التي خاضها العراق ضد القاعدة وداعش لم تكن هذه الحكمة التقليدية إلا أكثر جدارة مما كانت عليه.

في عصر تمتلك فيه الجيوش الوطنية أكثر الأسلحة تقدما من الناحية التكنلوجية في العالم يكون قتل الإرهابيين أمرا سهلا، لكن عملية العثور عليهم هو التحدي الأكبر، وعلى الرغم من كل ذلك فإن معظم الكتب التي كتبت عن الغزو الكارثي للعراق عام ٢٠٠٣ وما تلاه من أحداث قد تم سردها من خلال عيون ضباط الجيش والجنود وصانعي السياسات، وعبر محاولاتهم المختلفة لتحقيق الاستقرار بعد الإطاحة بصدام حسين، وإصلاح النظام السياسي في العراق، ومحاربة الميليشيات التي أرهبت البلاد وحكومته الجديدة الهشة.

غالبا ما تكون تلك القصص جذابة ومؤثرة عن كيفية قيام أفراد من الجيش ووحدات المارينز بالقتال والموت والنجاة خلال فترة انتشارهم، وتنتهي في موضوع شائع وهو: كيف أن الفوضى السياسية والأمنية التي أنشأها الغزو الأمريكي قد أدت إلى تغذية

الدعاية الراديكالية الإسلامية التي تبناها مؤسس القاعدة أسامة بن لادن، وزعيم الجماعة الأول في العراق أبو مصعب الزرقاوي ومن جاؤوا من بعده كخلفاء له؟

إن ما تغفل عنه معظم تلك الروايات هو القتال المنفصل الذي اندلع في ظل المعارك العسكرية الكبيرة، وهو العمل البوليسي للجواسيس لتعطيل وتفكيك الخلايا الإرهابية التي كانت تقتل الآلاف من المدنيين العراقيين والجنود الأمريكان، والقبض على القادة الذين كان يوجهون تلك الأعمال الشريرة.

إن هذا الإغفال مقصود جزئيًا، فالكثير من مؤلفي الكتب عن الحرب على الإرهاب ينحدرون من خلفيات عسكرية وسياسية، ويريدون بشكل مفهوم تلميع سمعتهم وتواريخهم، لكن هذا الإغفال يتعلق أيضا بطبيعة عالم الاستخبارات نفسه، حيث لا يمكن إنجاز أفضل أعمال التجسس المضاد وأكثرها فعالية إلا بعيدا عن الأضواء.

هناك قلة ممن يصفون بغداد بأنها باهرة كما كانت الدار البيضاء في الثلاثينيّات أو برلين خلال فترة الحرب الباردة، لكنها منذ عام ٢٠٠٣ وفي أعقاب الغزو الأمريكي أصبحت مثل هاتين المدينتين مركز جذب للجواسيس، فقد نزل عملاء الاستخبارات من جميع أنحاء العالم إلى هذه المدينة القديمة التي دمرتها عقود من سوء الحكم الديكتاتوري لصدام والفوضى الأمنية، ويعود ذلك جزئيًا إلى تزايد القلق الدولي من نمو تهديد السلفية الجهادية الذي تشكله القاعدة،

والتي حولت العراق بحلول النصف الأول من أعوام العقد الأول من الألفية الثالثة إلى مقر للإرهاب العالمي بالنسبة لها، وفي وسط هذه المؤامرات، برز رجل لا يمكن توقعه من بين الأجهزة الأمنية العراقية كلاعب رئيسٍ في تحديد شبكات القاعدة والتسلل إليها.

لقد قضى أبو علي البصري معظم حياته كبالغ هاربًا من شرطة صدام السرية كجزء من المعارضة السياسية التي عملت على إسقاط نظامه الديكتاتوري، ومثل معظم العراقيين نشأ وهو يقرأ عن ماضي وطنه المجيد باعتباره مهدا للحضارات. كان العرب القدماء يحبون حكايات التجسس المثيرة، مثل أسطورة كلكامش، حيث يقتل الملك أعداءه بفضل البراعة والتجسس، حتى في روايات النبي محمد (ص) كانت هناك روايات تصف كيف أنه أرسل عملاء سريين وراء خطوط الأعداء، لإبقائه وأتباعه بمأمن من القبائل المتنافسة.

لقد أحب أبو علي هذه القصص عن الشجاعة والجرأة، لكنه لم يطمح أبدا إلى أن يكون جاسوسا، فقد بدأ حياته المهنية كمتخصص في الاستخبارات كطريق للبقاء على قيد الحياة، فخلال السنوات التي قضاها في الحركة السرية العراقية صقل خبرته في المراقبة، والقصص السرية، وتقليل الضحايا، وخصوصا فيما يتعلق بزرع العملاء الذين يكونون في وضع يسمح لهم بنقل المعلومات المنقذة للحياة.

عاد البصري من منفاه الطويل ليعمل مع أول رئيس وزراء عراقي منتخب ديمقراطيًّا بعد عام ٢٠٠٣، وكانت لديه المهارات

التي يمكن أن تساعد في مواجهة أحدث تهديد للأمن القومي في البلاد.

لقد استخدم البصري بهدوء، نفوذه المثير للجدل داخل الحكومة العراقية لتجميع وحدة استخبارات النخبة التي تدعى (الصقور)، وقد عمل هو ورجاله بشكل مستقل عن الأجهزة الأمنية المعاد تأسيسها حديثا، والتي أعاد الأمريكان تشكيلها للعراق بعد عام ٢٠٠٣، وهي مؤسسات كلفت مليارات الدولارات من أموال دافعي الضرائب الأمريكان، لكنها فشلت في الحرب على الإرهاب.

عمل مدير الاستخبارات النامي، أولا، من مكتب مؤقت في زاوية نائية من مجمع رئاسة الوزراء في بغداد، ولاحقا من مبنى عسير الوصف على طول طريق ترابي محفور بالقرب من مطار بغداد الدولي، ومن هناك أطلق مهمات مطاردة المسلحين الإسلاميين السنة، ومن ثم عمل على تحويل أولئك الذين تم القبض عليهم من قبل خلية الصقور إلى مخبرين رفيعي المستوى.

إن هذه التقنية، على عكس أجهزة الاستخبارات العراقية الأخرى التي اعتمدت على الوحشية والتعذيب، طورت معلومات استخبارية عالية المستوى وقابلة للتنفيذ، مما جعله ووحدته من أقرب حلفاء الجيش الأمريكي في مكافحة الإرهاب في الشرق الأوسط.

لا يستطيع أي شخص معرفة سمعة العراقيين من التاريخ الرسمي للجيش الأمريكي عن حرب العراق والذي يغطي صراعات مكافحة الإرهاب من عام ٢٠٠٣ حتى انسحاب القوات

الأمريكيـة من البلاد عـام ٢٠١١، وهـي الفترة الزمنيـة التي انفجر فيهـا تهديد تنظيم القاعـدة مثل طاعون خبيث عبر أنحاء العراق قبل أن يتـم القضاء عليـه بالكامل تقريبا، حيث أن خليـة الصقور تغيب عن تلك السـجلات، كما هو الحـال من تقارير صحفية لاحقة تغطي الفترة من عـام ٢٠١١ إلى عام ٢٠١٣، عندما أعادت القاعدة تجميع صفوفهـا تحـت قيـادة أبي بكر البغـدادي في قوة كبـيرة جديدة تدعى الدولة الإسلامية في العراق والشام.

عندمـا شـن البغـدادي حربـه الخاطفة عبر جنوب سـوريا وشـمال العراق في حزيـران من عام ٢٠١٤، وذبح آلاف العراقيين، وتمكن من السـيطرة على أربعة ملايين من السـكان، كان عدد قليل من قادة العالم يتوقعون مثل هذا الهيجان الكارثي، أو حتى يعرفون اسم الرجل الذي أعلن الحـرب على العالم الغربي، وكان هذا عـلى الرغم من التحذيرات المتعـددة التـي أرسـلها رئيـس خليـة الصقـور إلى سلسـلة قيادته وإلى شركائـه الدوليـين، ذلـك أن أبـا علي البصري ظـل يراقـب، حتى بعد انسـحاب شركائه الأمريكان من العراق وتخليهم عن عمليات المراقبة الإلكترونيـة للخلايا الإرهابية في أجواء البلاد على مدار السـاعة، فقد أمـضى أياما ولياليَ طويلـة في مكتبه المتواضع والضيـق داخل مبنى من خمـس غـرف تم تحويلـه في مجمع رئاسـة الـوزراء بالمنطقـة الخضراء في بغداد، يقوم بتحديث ملفات قادة الإرهاب الذين ما زالوا طليقين.

وكان على مدير الاسـتخبارات العراقي، بدون الشبكة الأمريكية الهائلـة لبيانـات الهاتف والإنترنـت، الاعتماد على شـبكة متنامية من

المصادر البشرية، سواء داخل الجماعات الإرهابية أو عبر شبكات الأسر الممتدة داخل العراق.

في عالم الجواسيس، فإن معلومات الاستخبارات البشرية، أو فريق جمع المعلومات الاستخبارية، يمكنه أن ينتج العديد من الشائعات، كما يمكنه أن ينتج معلومات على درجة عالية من الجودة، ففي أوائل صيف عام ٢٠١٤ أخبر أحد هؤلاء العملاء السريين خلية الصقور بأن الدولة الإسلامية أنشأت معسكرات تدريب في صحراء العراق الغربية كمقدمة لعملية طموحة لتأسيس دولة دينية.

كان لدى أبي علي خطة للحرب، لكنه لم يكن يعرف التاريخ الدقيق لبدء الغزو العسكري، وحينما عاد الأمريكان إلى العراق كشريك رئيسٍ في التحالف الدولي الذي يعمل على هزيمة الدولة الإسلامية، استأنفت خلية الصقور شراكتهم الوثيقة في مجال مكافحة الإرهاب، غير أن العراقيين تجرؤوا أيضا (هذه المرة) على التصرف بمفردهم.

منذ أوائل عام ٢٠٠٣ إلى عام ٢٠١٩ كنت أكتب تقاريرَ من العراق، وقمت بتدوين فترات طويلة كانت فيها بغداد والأرياف المحيطة بها مشهدا للرعب، وبعد سنوات من الاقتتال الطائفي والتفجيرات الإرهابية، أصبحت المدينة مرادفة للقتل والفوضى، فالجثث المجهولة الهوية كانت مكدسة في المشارح ومشوهة لدرجة يصعب التعرف عليها، وكانت فرق الموت تجوب الشوارع، والهجمات الإرهابية شائعة جدا، لدرجة أن الآباء حينما كانوا يذهبون إلى العمل، لم يكونوا متأكدين من أنهم سيعيشون طويلا بما

يكفي لكي يعودوا إلى منازلهم في المساء ويروا أطفالهم مجددا.

إن الوضع في بغداد لم يبدُ سيئا قط، كما كان عليه في صيف عام ٢٠١٤ بعد أن سيطرت داعش على ثلث الأراضي العراقية، وإهلاك القسم الأكبر من القوات المسلحة، وتقدم جبهة القتال إلى خمسين ميلا فقط شمال العاصمة. لقد كانت المدينة في حالة ذعر، وبدأ الدبلوماسيون أوامر الإخلاء، وكان السكان يخشون أن يتركوا لمصير مشابهٍ إلى حدٍّ كبير لما فعل المغول من سلب ونهب في طريقهم عبر بغداد في القرن الثالث عشر.

لقد كنت أعلم عن أبي علي البصري من خلال تقديم تقارير عن مهمات في العراق لصحيفة وول ستريت جورنال، قبل وبعد الحرب الخاطفة التي شنتها داعش، لكن لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن مآثره ومآثر الصقور حتى عام ٢٠١٧، ففي ذلك العام عدت إلى بغداد للعمل مع صحيفة نيويورك تايمز وكنت مندهشة من التحول الذي طرأ على المدينة.

في الشمال كان الجيش العراقي ما زال يقاتل تنظيم الدولة الإسلامية، وكانت المجموعة الإرهابية تهدد باستمرار بشن موجة من الهجمات داخل العاصمة، وعلى الرغم من ذلك كانت بغداد أكثر أمنا مما كانت عليه في أثناء فترة الغزو الأمريكي، فقد كانت هناك مقاهٍ جديدة تفتح أسبوعيًّا، والعائلات كانت تتنزه في الحدائق الواقعة على ضفاف النهر مزدانة بالملاعب التي تم إصلاحها دون خوف من هجوم إرهابي. وكان الشبان والشابات يزدحمون في النوادي الليلية

للاستماع إلى موسيقى الروك الحية ويتغازلون. لقد كنت أريد معرفة كيف تجنبت المدينة العودة إلى ماضيها الدموي، عندما كانت القاعدة قبل عقد من الزمن قد جعلت بغداد مرادفا للقتل والتدمير؟.

لقد سألت لعدة أشهر، العشرات من المسؤولين العراقيين والأمريكان الذين نجحوا في جعل العاصمة العراقية آمنة للغاية، لكن لم يستطع أحد أن يقدم لي جوابا، وكان الرجلَ الوحيدَ الذي قد تكون لديه الإجابة هو أبو علي البصري، والذي عين في ذلك الوقت رئيسا لمكافحة الإرهاب في وكالة المخابرات الوطنية، وقد تجاهل طلبي الذي طال انتظاره لإجراء مقابلة، لكنني هنا أعدت صياغة قول الاستراتيجي الصيني العسكري المحترم لسون تزو «يجب أن لا يكشف أي سر قبل وقته المناسب».

في أحد الأيام العاصفة من شهر آذار، دعاني أبو علي، فجأة، لزيارة إلى مكاتبه المعزولة في الضواحي الغربية للمدينة. جلسنا في غرفة انتظار في مكتبه الرئيس وقيم أحدنا الآخر، بينما كنا نحتسي عدة أكواب من الشاي الأسود المحلى. لقد لبَّى أبو عِلي العديد من التصورات المسبقة لدي عن مدير الاستخبارات والتي تشكلت من ميلي الطويل لجون لي كير في روايات توم كلانسي، فقد كان يرتدي بذلة رمادية مصممة بذكاء، وقميصًا بأزرار بدون ربطة عنق، وهو نوع من الزي غير المعروف والذي يرتديه جحافل من المحاسبين والبيروقراطيين. كانت عيناه البنيتان الداكنتان متيقظتين، لكنه أظهر القليل من العاطفة وهو يتحدث بهدوء وثقة عن الوضع الأمني في العراق. كل شيء عن

سلوكه كان مكتفيا بذاته، فقد بقيت يداه في حضنه أو يمسك بعناية بفنجان الشاي الزجاجي على شكل الخزامى، وقد تردد قبل الإجابة على أسئلتي، وكان يختار كلماته بحذر ويمنحها كل انتباهه.

عندما انتهت المجاملات والضحكات ركز مدير الاستخبارات في العمل، لقد سمع عن استفساراتي وأراد وضع الأمور في نصابها الصحيح قائلا لي «لدينا أعين في الداخل» مستخدما العامية العربية للتعبير عن التجسس، مضيفا «لقد اخترقنا داعش» وكان ذلك بداية ما سمعت، ولأول مرة، واحدة من أكثر حكايات التجسس في زمن الحرب، والتي تم فيها على مدار ستة عشر شهرا إيقاف ثلاثين انتحاريًا وإحباط ثمانية عشر هجوما إرهابيا كبيرا منفصلا على العاصمة العراقية، كان لكلٍّ منها القدرة التدميرية المساوية لقصف مدينة أوكلاهوما سيتي عام ١٩٩٥.

على مدى العامين التاليين عقدت أكثر من عشرين مقابلة مع البصري وأعضاء فريق استخباراته من الصقور، وقد أخبروني عن المهمات السرية التي تضيف طبقة غنية ومهمة للتاريخ العراقي الحديث، وكشفوا عن الدور الذي لعبوه في تحديد مكان وقتل القادة المنعزلين السابقين للقاعدة في العراق، والرجال الذين قتلوا القوات الأمريكية قبل انسحابها عام ٢٠١١ من الذين سبقوا البغدادي عبر شبكة المخبرين الذين تتبعوا صعود داعش وعملياتهم السرية التي سمحت لهم بالتنصت بشكل مباشر على المعلومات ضد أعدائهم خلال الحرب البرية والجوية الضخمة لهزيمة المنظمة الإرهابية،

وروايـات مروعة عن أعمال إرهابية مخطط لها ضد بغداد، بما في ذلك هجوم بالأسلحة الكيمياوية تم إحباطه بنجاح.

إن هـدفي من هذا الكتاب، في النهاية، إعـادة ضبط تاريخ العراق بعيـدا عن ذلك التاريخ الـذي ركز على خطايا ومعانـاة وانتصارات الأمريـكان حتـى الآن، وإلقـاء الضوء عـلى الدور المثير للإعجاب الـذي لعبـه العراقيون، والتضحيـات التي قدموها مـن أجل بلدهم والعالم في الحرب على الإرهاب.

هنـاك ملحوظة عـلى الحروف والأسـماء؛ وهي إن نظام التسـمية العربيـة لا يتوافـق دائما مـع نظام اللغـة الإنكليزية في الاسـم الأول والأوسـط واسـم العائلة، ففـي الصحبـة المهذبة يخاطـب الضيوف بشـكل عـام المضيفين والشـيوخ ليـس بأسـمائهم الأولى، ولكن من خلال اصطلاح مشـترك ينقل القيمـة المعطاة للأبوة والأولوية لأكبر طفل في الأسرة، على سبيل المثال أم حارث والتي تعني والدة حارث، وأبو حارث ويعني والد حارث، وقد استخدمت هذا الإصطلاح في الكتاب حينما يعكس الشكل المفضل لمخاطبة العديد من شخصياتي، وبالنسبة للشخصيات الأخرى فإني استخدمت الأسماء المفضلة التي تتناسب مع الاصطلاح الانكليزي للأسماء الأولى والأخيرة بدلا من عرف التسـمية العربي الأطول، أما فيما يتعلـق بالترجمات الانكليزية للأسـماء العربيـة فهـي غـير متسـقة بشـكل ملحـوظ في كتـابي، فقد اسـتخدمت تهجئات اللغة الإنكليزية التي تفضلها شخصياتي نفسها أو تلك التي تعتبر أكثر قبولا في العراق.

المقدمة

في أواخر تشرين الأول من عام ٢٠١٩، كانت السماء تتلألأ مثل العقيق اليماني الداكن، حينما طار فريق من العمليات الأمريكية الخاصة بالمروحيات إلى شمال غرب سوريا لقتل أسوأ إرهابي في العالم.

لقد غدا أبو بكر البغدادي الأصولي المغمور من بلدة عراقية متوسطة الحجم في صيف عام ٢٠١٤ كارثة الغرب عندما قاد جيشا من المتطرفين الدينيين عبر شمال العراق وجنوب سوريا واستولى على أراض تعادل مساحة المملكة المتحدة. نصب نفسه خليفة وقائدا لـ ١,٨ مليار مسلم في العالم، ليشرف على عهد الإرهاب لمدة خمس سنوات، ويستعبد عشرات الآلاف من النساء، ويعدم بوحشية منتقديه، ويلهم شن هجمات إرهابية في بلدان متباعدة مثل تركيا وفرنسا والولايات المتحدة وسيريلانكا.

لقد وصف البغدادي نفسه، أن ما فعله تنظيم الدولة الإسلامية هو شيء لم يكن يعتقد أحد بإمكان حدوثه سوى القلة في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول، فقد فاق القاعدة في الطموح والتطور التقني والفظاظة، وتفاخرت الحركة باحتياطيات مالية عميقة، وآبار نفط، ومختبرات أبحاث عسكرية، وخدع الآلاف من المؤمنين الحقيقيين للانضمام إلى ما يقدر بستة ملايين عراقي وسوري محاصرين تحت حكمه.

لقد قاوم معظم العراقيين هذا التحدي الوجودي لشعبهم، فقد تطوع مئات الآلاف من الرجال وبدعم من التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، لتحرير أراضيهم، فيما أصبح حربا برية شاقة استمرت لـ ٣٢ شهرا، والتي تضمنت بعضا من أعنف معارك المدن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد نجح هذا التحالف، وإن كان بتكلفة عالية، حيث قتل في المعارك ما يقدر بعشرة آلاف من قوات الأمن العراقية وما لا يقل عن عشرين ألف مدني، في هزيمة هذا التنظيم الإرهابي، وفي ظل الحرب، كانت مهمة فريق النخبة العراقي – الأمريكي مطاردة وقتل العديد من كبار قادة المسلحين السنة، فالرجال أمثال البغدادي أمضوا أكثر من عقد بعد الإطاحة بصدام حسين في عام ٢٠٠٣ في مقاتلة القوات الأمريكية في العراق والحكومة المنتخبة ديمقراطيًّا بقيادة الشيعة التي أعقبته، لكن مدعي الخلافة هذا ظل فريسة مراوغة، فبينما كانت إمبراطوريته تنهار في خريف عام ٢٠١٧ فر البغدادي وزمرته المقربة من الأقارب والمستشارين الموثوق بهم من القوات العراقية المتقدمة وتسللوا عبر الحدود إلى سوريا، حيث مكنتهم الحرب الأهلية المستعرة هناك من الاختباء بين أولئك المتمردين الذين يشاركونهم آراءهم الدينية المتطرفة وعلاقات القرابة.

في تلك الليلة الخريفية المنعشة بعد عامين، كان يأمل الكوماندوز البالغ عددهم ستين شخصا أن بحثهم الطويل على وشك أن ينتهي. فحينما هبطت عناصر قوات الدلتا من المروحيات على الأرض المتربة

الصلبة، كانوا مسلحين ببعضٍ من أكثر المعدات تقدما في العالم، بما في ذلـك الروبوتات المخصصة لتعطيـل ذلك النوع من الأفخاخ القاتلة المنفجرة التي أصبحت تقنية تنظيم داعش السيِّئ السمعة شهيرا بها، لأنها يمكن أن تحدد الشـخص الذي أمروا بقتله، ومع تحرك الوحدة نحو المجمع الزراعي النائي، عزز سـلاح سري إضافي ثقتهم بوجود الهدف، هذا السـلاح كان معلومات من الداخل من أحد مسـاعدي البغدادي الأكثر موثوقية.

إن عمليـة مطـاردة البغـدادي كانـت قـد بـدأت منذ عدة أشـهر بمسـاعدة وحدة اسـتخبارات عراقيـة غير معروفة تدعـى الصقور، ففي وقت سـابق من ذلك الصيف تلقى رئيس الوحدة نبأً من عميل مـزدوج لديه سـجلٌ حافلٌ بالمعلومـات الموثوقة، فقـد أخبر المصدر مسـؤول التجسـس الخاص به عـن موقع لعـدد من البيـوت المؤمنة في سـوريا والتـي يسـتخدمها البغـدادي وعائلتـه، وقـد أدت تلـك المعلومـات السرية إلى بحـث مكثف، حيث تعقـب فريق المخابرات العراقيـة الزعيـم الإرهابي عبر سـوريا، مرسـلا خيوطـا ومعلومات جديدة للأمريكان خلال هذه الفترة.

حينـما حـاصرت القوات الخاصـة الأمريكية المزرعـة التي يعيش فيها البغدادي، كانوا يعرفون تفاصيلها، وبالطبع عدد الأشخاص في الداخل معه، وكذلك الروتين اليومي لزعيم داعش نفسه، فاندلعت الغـارة بسرعة. لقـد طلب الفريـق الأمريكي من النـاس في الداخل الاستسـلام بـدون مقاومة، وقد قتل أربع نسـاء ورجل واحد داخل

المبنى حينما لم يلتزموا بالأمر، بينما تم اعتقال رجلين وأحد عشر طفلا، ولم يكن البغدادي بينهم، فقد سحب زعيم الدولة الإسلامية اثنين من أولاده واندفع إلى سرداب تحت الأرض، فطارده كلب بوليسي من الجيش الأمريكي، وحينما حوصر العراقي فجر سترته الانتحارية الناسفة فقتل نفسه وأبناءه.

لقد أدى الانفجار إلى انهيار الغرفة التي فر إليها البغدادي، لذا حفر أفراد الكوماندوز في ألواح الخرسانة المحطمة والرمل الخانق والتراب لاستعادة أوصال من جسده المقطع لإثبات أنهم تمكنوا من رجلهم المنشود، وبعد خمس عشرة دقيقة، بينما كان الفريق المهاجم يجمع الوثائق وأجهزة الكومبيوتر والهواتف من المجمع، أعلن الفنيون العسكريون الأمريكان تحديد هوية الشخص المطلوب بالإيجاب من الرفات البشرية، وقد بث قائد فريق العمليات الخاصة بالراديو الخبر قائلا «الجائزة مائة بالمائة».

على بعد آلاف الأميال، كان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب وفريقه للأمن القومي الذين يصغون لتفاصيل العملية مبتهجين، فقد أصبح أكثر الإرهابيين المطلوبين في العالم ميتا، الرجل الذي اعتدى جنسيًّا وعذب العاملين الأمريكان في المجال الإنساني، وقدم تبريرا دينيًّا للعبودية، وتسبب في معاناة لا يمكن تصورها تجاه مواطنيه العراقيين.

لقد استعادت القوات الأمريكية مجموعة جديدة من الأدلة

لضباط الاستخبارات من أجل فحصها والبحث عن المزيد من الأدلة بشأن مسؤولي داعش الذين ما زالوا طلقاء.

لقد بدأ الرئيس الامريكي يشيد على الفور بمقتل البغدادي باعتباره أهم حدث في الحرب على الإرهاب، لكن حينما أشرقت الشمس صباح اليوم التالي على العاصمة العراقية وبدأت وسائل الإعلام العالمية ببث تفاصيل العملية الناجحة، كان أبو علي البصري(*) الرجل العراقي في منتصف العمر والرقيق الكلام والذي أمضى عقودا في فن الحيلة والاستخبارات المضادة أكثر هدوءًا، فقد جلس خلف مكتبه الخشبي الفسيح المغطى بأكوام من الملفات، فقد أصبح رئيس مكتب مكافحة الإرهاب في وضع أفضل لتقييم الغارة الأمريكية.

لم يقتل البغدادي فحسب، بل أيضا مصدر أبي علي أيضا منذ فترة طويلة، وهو مقاتل سني عراقي وافق على التجسس على زعيم داعش مقابل وعد من مسؤول الاستخبارات العراقية النافذ بتوفير

(*) أبوعلي البصري: غالبا ما يظهر عند البحث عن شخصية أبي علي البصري على شبكة الإنترنت صورة لشخصية تدعى أبا علي البصري لكنه في الحقيقة ليس الرجل الذي تحدثت عنه المؤلفة في كتابها، فأبو علي البصري الذي يظهر في الصور هو عدنان إبراهيم محسن المحسني، والرجل من كوادر منظمة بدر، أما أبو علي البصري الحقيقي فاسمه كما يقال هو عبد الكريم عبد فاضل حسين من حزب الدعوة ترأس استخبارات خلية الصقور، كما تولى منصب مدير استخبارات وزارة الداخلية والرجل يحمل الجنسية السويدية وقد يكون له اسم آخر، فلا توجد معلومات كثيرة عنه، وليس لديه صورة.

الحمايـة له وعائلته. لقد صـدم الخبر أبا علي مثل ضربة قوية على فكه، فقـد كانـت تلك المرة الثانية التي مات فيها أحـد رجاله في أثناء تأدية واجبـه، تعهـد أبو علي لنفسـه بعد الخسـارة الكارثيـة الأولى بأنه لن يسمح بحدوثها مرة أخرى.

الفصل الأول

بركات الطفل الأكبر



ولـد حارث السـوداني بعيـون بنية وجبين واسـع وذقن ضعيف، مما يخلق إحساسـا بعدم التـوازن. لا شيء في مظهره ونشـأته في حي فقير شرقيّ بغداد يمكن أن يدفع أي شـخص للاعتقاد بأنه سـيغدو بطلا، ومع ذلك كان والداه يعدّانه بركة واستجابة لدعاء استمر ثماني سنوات من أجل الوريث.

بالنسـبة لوجهة نظر والدته؛ فقد كان حـارث سرورا، حيث كان طفـلا سـهل الانقياد ومتلهفًـا دائما للإرضـاء، يجلب الأشـياء إلى أم حـارث ويضع ألعابه بعيـدا ويحافظ على المنزل مرتبـا كما تحب، لكن بمجرد أن أصبح حارث يسـير ويتكلم، بدأ والده أبو حارث بالقلق من أن ابنه يعاني قليلا من عموده الفقري، ولم يكن من اللائق بالنسبة لأبي حارث أن يكون ولده الأكبر مع ما كان يطمح إليه فيه أن يكون فتـى مدلـلا بدافع الابتسـامة والعنـاق، فمن وجهة نظـر أبي حارث فـإن الرقة كفائدة الجراد وقت الحصاد، علاوة على ذلك كان الوضع خطيرا في العراق بداية أعوام الثمانينيّات.

كان أبو حارث النحيف مثل سـاق الفاصوليـاء والشـجاع كتراب حقـول القمـح التي يملكهـا والده في جنـوب العراق، ولـذا قرر في وقت مبكر أن يقسو على ابنه، حيث يجب على الأب الصالح أن يعلم الطاعـة والثبـات، وهي الصفـات الضرورية للبقاء عـلى قيد الحياة، بالنظر إلى أن السـودانيين كانوا متمسـكين بالتقاليد الدينية، وعاشوا في أسوأ الأحياء ولم يكن لديهم صلات سياسية.

عندمـا كـبر حـارث أحاطته والدتـه وعماتـه بالقبـلات، فقد كن

يقارنُ تجاعيد شعره ذي اللون البني وابتسامته الجميلة بالملاك، لكن أبا حارث لم يظهر أي حب للصبي، ولم يعانقه مرة أو يربت على رأسه، وحينما كان رفاقه يأتون لزيارته، كان الأب يجلس على كرسيه الخشبي المطلي بالوارنيش ويحاضر عن مزايا الحب القاسي، ويتلقى حارث صفعة على رأسه إذا سكب الشاي على الأرض، ويضربه على ساقيه بعصا الخيزران إذا لعب بصوت صاخب، ويجلده بالمكنسة الخشبية الموضوعة إلى جانب الفرن في المطبخ إذا رد عليه بالكلام، فقد كان أبو حارث يرى أن ابنه الأكبر إذا تحمل ما ألحقه به والده من (عذاب) فإنه يستطيع البقاء على قيد الحياة في العراق.

لم يكن حماس أبي حارث نحو الانضباط أمرا غير عادي في العراق، فقد كان صدام حسين يسيطر على البلاد بهذه الطريقة، وكان الشعب مليئا بالديكتاتوريين الصغار، ففي كل عائلة تقريبا كان هنالك بطريارك يحكم بقوة ولدت من التقاليد القبلية العميقة في العراق والتي تفتحت على التسلسل الهرمي والخضوع.

وبصفته أكبر رجل في عائلة السوداني المتسعة، تكلف أبو حارث الحق الطبيعي كراعٍ للأسرة، وهو الوضع الذي منحه سلطة على عدد من الأرواح هم زوجته وأطفاله العشرة، بالإضافة إلى عائلات ثلاثٍ من إخوته الأصغر الذين يعيشون في مدينة الصدر، وكان كلٌّ منهم ملزمًا بشرف الحصول على موافقة أبي حارث على القرارات الكبرى في الحياة مثل؛ بمن يريدون الزواج، وأين يريدون العمل، وحتى ما يجب أن يدرسه أطفالهم في المدرسة، في المقابل، كان أبو حارث ملزما

بترتيب تلك الوظائف والمساعدة في تكاليف زواجهم، وإذا وقع أي فرد من أفراد الأسرة في مشكلة مع الشرطة، فإن على أبي حارث أن يقف ضامنا في الأمر. في كل ذلك، كان أبو حارث يخفي حلما واحدا، أن ابنه البكر سينتشل عائلة السوداني من الفقر.

لقد كان حارث، برغم كل شيء، جيدا في العمل الدراسي، وذلك يعني أنه فاز بنصف المعركة، لكن كانت الحلقة المفقودة هي الانضباط والصرامة، وهي السمات التي اتخذ والده على عاتقه تعليمها له، فعندما كان أبناؤه الباقون يسيئون التصرف، فنادرا ما يقوم أبو حارث بضربهم، فقد كان ينقل العقوبة إلى حارث، وبالمكنسة التي كانت في يده كان يخبر الصبي أن الابن الأكبر في العائلة يعني استيعاب أوجاع وآلام وقلق الآخرين، كما كان يفعل أبو حارث دائما.

كان هذا هو العالم الذي ولد فيه حارث، والعالم الذي كان من المفترض أن يرثه، والعالم الوحيد الذي كان فيه من البطولة النجاة من الحب القاسي للأب وتدخل البيروقراطيين الأشرار ونزوات الديكتاتور الذي كان يرى الناس مثل عشيرة السودانيين كأعداء للدولة.

تلك هي بركات الابن الأكبر التي كان يرويها حارث لنفسه دائما، هذه هي بركاتي، فقد كان أبو حارث يقول لزوجته التي كانت تتساءل عن سر معاملته لابنه البكر، في أن الضرب كان من أجل مصلحته.

حينما حصل الشاب على أعلى الدرجات في المنطقة في الامتحان الوزاري العام للمدارس الثانوية، وهي النتيجة التي ضمنت

أفضل مقعد له في جامعة بغداد، شعر أبو حارث بالمسوغ في ذلك الاحتفال، فقد كان يتجول في الحي متفاخرا بأن ابنه هو أول فرد في عائلة السوداني يصل إلى كلية الهندسة، وسيحصل على وظيفة محترمة مثل أي شخص آخر في العراق، فأبو حارث يعلم أن الحياة لا تسير بالضبط كما يأمل المرء أو يخطط له.

في السبعينيَّات حينما حولت الطفرة النفطية العراق إلى قوة اقتصادية نشطة، كان أبو حارث يحلم بتحقيق حياة كريمة لنفسه ولعروسه الشابة، وقد سافر الاثنان من قريتهما الزراعية على نهر دجلة على بعد مائة ميل شمالا إلى بغداد منجذبين بوعود العاصمة المزدهرة، ومثل مئات الآلاف من القرويين نزل أبو حارث من القطار ووجد منزلا مريحا من الطين للإيجار في الحي الجديد على الحافة الشرقية من العاصمة يدعى في ذلك الوقت الثورة أو مدينة الثورة، وتم الإعلان عن الشوارع والمباني الجديدة البراقة كخطوة لبناء عراق حديث، لكن في غضون عقد من الزمان وجد العراقيون أنفسهم يختنقون تحت نير الديكتاتور الجديد صدام حسين وهم ينزفون من حرب وحشية مع إيران.

في غضون ذلك وجد سكان الثورة أنفسهم محاصرين بتيار سياسات صدام، فسكان الحي جميعهم من الشيعة، وهو فرع الإسلام الذي يمثل مذهب غالبية الناس في العراق ماعدا حاكمهم، وقد عدَّ صدام مواطنيه من الشيعة طابورا خامسا محتملا بسبب هويتهم الدينية المشتركة مع عدو العراق اللدود إيران، ولذا بدلا

من أن يصبحوا طليعة شعب جديد، تم عزل سكان الثورة جغرافيًا عن بقية بغداد بواسطة قناة بعرض خمسين قدما، وهو مظهر من مظاهر الحاجز الموجود بالفعل بين الطبقة الدنيا من الشيعة الجدد في العاصمة والعائلات الحضرية التي كانت في بغداد منذ أجيال.

وكانت العائلات مثل السوداني لا تستطيع فعل شيء إزاء انهيار ثرواتهم السياسية أو الاجتماعية، باستثناء محاولات تجنب الخوض في السياسة وإبقاء رؤوسهم منخفضة، عالقين في غيتو أعاد الحاكم تسميته باسم مدينة صدام، ولم تكن لديهم صلات سياسية ولا ثروات عائلية للانتقال إلى حي آخر.

عندما كان يبني رجل ثري من الطبقة العليا في حي الجادرية قصرا على طول ضفاف نهر دجلة كان مهندسه المعماري يستأجر بنَّائين من سكان مدينة صدام، وعندما تبحث الشرطة عن مشتبه بهم في عملية سطو كانوا يقومون بتمشيط شوارع مدينة صدام، أما الأوقات الوحيدة التي كانت تتجاهل فيها الحكومة المنطقة فهو حينما كانت السلطات تبحث في تجنيد ضباط للجيش أو موظفين مدنيين أو مهندسين، فلم تكن هناك طريقة أسرع لحرمانك من الوظيفة من السطر المكتوب على هوية الأحوال المدنية والذي يوضح أن مكان إقامتك الدائم هو مدينة صدام.

هكذا ترعرع حارث وإخوته دون العديد من الأبطال أو إلهام بالعظمة، فالبلاد لا تملك سوى ميدالية أولمبية واحدة منذ عام ١٩٦٠ في رياضة رفع الاثقال، وتأهل المنتخب الوطني لكرة القدم

مـرة واحدة إلى كأس العالم، لكنه خرج من الدور الأول، وكان هناك كاظـم السـاهر المطرب الذي يفخر بـه العراق، لكنـه كان محبوبا من الديكتاتـور والشـعب على حد سـواء، وعلى أية حـال كانت المحطة التلفزيونية الوحيدة في البلاد تملأ موجات الأثير بقصص مروعة عن الخونة وعن المزيد من الخونة.

ومثـل معظـم الأطفـال الآخرين في الحـي، عاش حـارث حياته المبكـرة حـذرا مما يخبئه له المسـتقبل، فـكل يوم على طـول طريقه إلى المدرسة كان يتعرج عبر شبكة من الأزقة، مارًّا ببيت عمه وعبر قطعة أرض فارغـة ومليئة بالأوسـاخ حيث يلعـب أولاد الحي كرة القدم، كان يأخذ أفضل صديقين له هما علي ووسـام، ثم يتمشـى الثلاثة معا إلى المدرسـة، لينعطـف غرب منزل عـلي، حيـث كان الصبية يمرون بمنزل مهجور من طابقين تيقنوا هم وجميع من في الحي أنه مسكون.

حينـما كان حارث طفلا صغيرا، اختفت تلـك العائلة التي كانت تعيش في ذلك المنزل في إحدى الليالي، ورحل الأب والأم والأطفال الثلاثة جميعهم، وفي اليوم التالي تظاهر جميع الجيران بأنهم لم يسـمعوا أو يـروا شـيئًا، بعـد ذلك بوقـت قصير قـام الحي كلـه بمحوهم من ذاكرتـه، فقـد كان زمـن الحرب، حيث يتـم تجنيد الرجـال للقتال في الخطـوط الأمامية، وكان صدام يعتقد أن الغالبية الشـيعية في العراق سـتثور ضده بأوامـر سرية صادرة مـن الحكومة الثوريـة في طهران، ولذلك امتلأت السـجون بالأشخاص الذين انتزعتهم شرطة صدام السرية من منازلهم وممن سـحبوهم من مسـاجد الشيعة للاشتباه بناءً

على جنون العظمة لدى الديكتاتور، وليس على أساس الأدلة، وقليل منهم تم السماع عنهم مرة ثانية.

لقد كان لدى العراقيين إيمان حماسي بعالم الجن والأرواح التي يمكن أن تكون قوى الخير أو الشر. بعد ظهيرة أحد أيام الشتاء، عندما كان حارث وأصدقاؤه في الثالثة عشرة من العمر يسيرون بجوار البيت المهجور صرخ علي، وأقسم أنه رأى عفريتا، وهو نوع من الأشباح المعروف بأنه يسكن الخرائب، يتجول في الداخل، لم يره أحد غيره، لكنهم جميعا لم يشكُّوا به أيضا، فالعائلة التي كانت تسكن فيه لا بدَّ أنها ماتت بطريقة لا توصف، بحسب رأي الأولاد، وإلا لكان أتى أحد الأقارب للمطالبة بالممتلكات أو بيع الأرض، لكن، وبدلا من ذلك غرق الهيكل المتهالك، شهرا بعد شهر، في نفسه وسقطت نوافذه المكسورة، ولم يرد أيٌّ من الأولاد المخاطرة بالتعرض لغضب العفريت أو تمسهم اللعنة التي حلت بالأسرة، لكنهم لم يرغبوا بالاعتراف أيضا بأنهم خائفون.

في اليوم التالي حينما اقترح وسام طريقا مختلفا إلى المنزل وافق الصبيان الثلاثة بسرعة دون أن يذكروا أي كلمة أخرى، لكن خبر العفريت انتشر بسرعة، وكذلك رفض الثلاثي السير في الشارع بجوار المنزل المسكون.

كان هناك صبي متنمر في الحي يدعى حسين، يكبر حارثًا بعام واحد، وجد في ذلك فرصة للتسبب بالأذى فصاح فيهم «أيها الشذاذ، انظروا إلى من يخافون من ظلهم» كان علي ووسام قد أطاعا

قوانين الغاب، فقررا عدم استعداء الصبي الأكبر منهم عمرًا، لكن حارثًا فقد أعصابه وصرخ قائلا «تبا لك ولأمك، أنا لست شاذا وسأثبت ذلك».

حينما انتهى دوام المدرسة ذلك اليوم انضم حارث وعلي ووسام وبصحبتهم مجموعة لا تقل عن عشرة صبيان آخرين بما فيهم حسين، وفي الدقائق الخمس التي استغرقها السير من باحة المدرسة إلى المنزل المسكون، واصل حسين وعصابته ثرثرتهم المستمرة من الاستهزاء، واثقين من أن حارثًا سوف يفترق عنهم ويهرب، لم يتذكر علي ووسام أن حارثًا نطق بكلمة، فقد كان في واد آخر، وحينما وصلوا إلى المنزل المهجور، لم يتردد حارث وسار بسرعة إلى المدخل المنحني للمنزل ووقف على ألواح الأرضية المتعفنة، وأطل في الداخل، وتردد لحظة ثم دخل إلى داخل المنزل واختفى عن رؤية أصدقائه، ومرت الدقائق، لكن حارثًا لم يعاود الظهور، وبدأ قلب علي يدق أسرع من قلب أرنب وقع في فخ، إن تهور حارث سيتسبب في موته، فقد كان يعتقد أن الجن حاصروا صديقه في الداخل، وصرخ علي على حارث وكذلك فعل وسام أيضا، لكن في داخل المنزل ساد الصمت ولم يتلقوا جوابا، فصاح علي على حسين، لقد قتلته، لقد أخذه الجن! وحث وسام عليًا على الذهاب للعثور على والده الذي يعمل في محل على بعد بضعة شوارع فقط.

لقد كان على شخص ما أن يذهب إلى داخل المنزل ليجد حارثًا، لكن لم يكن أحد يملك الشجاعة للقيام بذلك بنفسه، ثم انفصل علي

عنهم، وبينما كان يسير نحو المنعطف سمع ضحكة عالية، فاستدار ليرى أن حارثًا عاد إلى الشارع بالقرب من وسام ثم صاح عليه حارث، يا علي يا حمار، عد فلست ميتا، على الأقل ليس اليوم. لم يسأل علي حارثًا عما أثاره من شجاعة في ذلك اليوم، وبعد سنوات، كشخص بالغ، أخبر حارث صديقه أنه كانت لديه رغبة لا يمكن تفسيرها لرؤية من ماذا هو مصنوع، وكان يسمي ذلك بالرحلة إلى عرين الأسد.

في شوارع مدينة صدام الوعرة والمتداعية، حيث كان العقاب البدني هو القاعدة، كان أيضا هناك هوس متناقض بالشعر، حنين يستحضر العصر الذهبي للإسلام، عندما كانت بغداد مركز العالم وتدعم الباحثين والعلماء والفنانين.

في كل يوم جمعة كان هناك مجلس في بيت عائلة السوداني؛ في غرفة موجودة في كل بيت عراقي مخصصة للضيوف، حيث كان الرجال يجلسون على الوسائد الأرضية المنتشرة في جميع أنحاء الغرفة، وهم يحتسون الشاي ويستمعون إلى أبي حارث وهو يتلو القصائد التي كان يحفظها وهو صبي أو قرأها ذلك الأسبوع في الجريدة.

كان حارث يستمتع بتلك العصريات أكثر من أي شيء آخر خلال الأسبوع، حيث كان مفتونا بإيقاع المقاطع ونسج مجازات القصائد (الأبوذية)، وكان يحلل تلك القراءات مثل عالم رياضيات، ويجد الجمال في الشكل والوزن بقدر ما يمكن أن تثيره تلك القصائد من مشاعر، وحينما وصل إلى المرحلة الثانوية، وجد حارث طريقه

للاستفادة من هوايته.

كانت ثانوية الجولان للبنين تبعد عشر دقائق سيرا على الأقدام من بيت السوداني في مدينة صدام، وهي مبنى لا يمكن وصفه، فهي لا تزيد عن كونها بناية من الخرسانة المجصصة، كواحدة من آلاف المباني التي تم بناؤها في إطار حملة التعليم الحكومية في السبعينيات والثمانينيات، ومثل معظم مباني المنطقة بدت المدرسة قديمة منذ اللحظة الأولى التي افتتحت فيها، فقد كانت أشعة الشمس الحارقة في صيف بغداد قد تسببت في تبييض جدار المدرسة المصبوغة بلون صفار الكناري أو لون صفار البيض، ولم يتمكن الجص المرقع في الممرات من إخفاء الشقوق تماما على طول مفاصل السقف التي سببتها الرطوبة.

في منطقة حارث لم تكن تلك العيوب مهمة على أية حال، فلن يأتي أي مفتش مدرسة للتحقق من عمل المقاولين، ولا السكان أنفسهم كانوا يرفعون الأمر الى السلطات، فلن يحدث شيء جيد إذا تقدم أحد بالشكوى، وربما يعرض نفسه كشخص محتمل مثير للشغب بالنسبة لمن هم في السلطة.

لقد جعلت سمعة مدينة صدام عملية توظيف المدرسين أمرا صعبا، لذلك لم يكن أحد ليسأل لماذا كان الصبيان في ثانوية الجولان لديهم ساعات فراغ في يومهم الدراسي، دون إشراف باستثناء الصور الإلزامية لصدام حسين، وهي تتطلع إليهم بشاربه الكثيف وعينيه الميتتين.

بـدون إشراف مـن الكبار، ذهـب معظـم الأولاد بطريقة جامحة، فالبعـض كان ينظـم مباريـات للمصارعـة، وآخـرون ذهبـوا للعب بالخيـط والكـرة، وجلـس الكثـيرون في مجموعات يتناقشـون شـأن الفتيـات اللواتي سـيقعون في حبهن، وما إذا كن يسـمحن لهم بسرقة قبلة منهن أم لا، ومن منهن يسمحن بالمضي بأكثر من ذلك.

مع ذلك، كان حارث يمضي السـاعة بمفرده على الرحلة الخشبية الضيقة والتي كان عادة ما يتقاسـمها مـع صبيان آخرين، ففي الثالثة عـشرة من عمره أثبـت حارث أنه أذكى فتـى في الصف، وهو وضع لا يعـزى إلى ذكائـه الطبيعـي بـل بدرجة أكـبر إلى ضبط والـده له في الواجبات المنزلية، كما أنه كان جيدا في كتابة الشعر.

لقد امتدت سـيطرة أبي حارث على حـارث في كل نواحي الحياة، حيـث فـرض عليه كل شيء، من لـون البنطال الـذي يرتديه - البني فقط وليس الأسـود - إلى عدد السـاعات التي يمكن للصبي أن ينام فيها، وقد كان من حسن حظ حارث أن والده اعتبر الشعر أيضا أحد أسس التربية المحترمة.

باع حارث قصائد الشـعر التي كان يكتبها إلى زملائه في المدرسـة الراغبين في التأثير على صديقات أخواتهم أو بنات الجيران، وسرعان ما انتشر الخبر في جميع أنحاء الحي بأن أشعار حارث تجتذب الفتيات مثلما ينجذب النحل نحو الأزهار، مما صنع له سمعة في المنطقة، لكن مـع كل النجاحـات الرومانسـية لأصدقائه لم يحالف الحـظ حارثًا في استمالة أي فتـاة، لذلك كان صديقاه علي ووسـام يمزحـان دائما بأن

الجن في المنزل المهجور قد لعنوه حينما كان في داخله، وكان حارث في بعض الأيام يعتقد أنهم كانوا على حق.

حينما بلغ حارث الخامسة عشرة من العمر، لم يعد لديه الوقت لكتابة الأغاني والأشعار، فقد كان الزمن منتصف التسعينيَّات وأعمال والد حارث التجارية الصغيرة في الطباعة التي كان يعمل فيها قبل وبعد المدرسة تتجه نحو الإفلاس، فبعد الحرب الكارثية مع الأمريكان مزقت العقوبات الدولية الاقتصاد العراقي، وفي تلك الفترة تضاعفت عائلة السوداني، وكان على شخص ما أن يقوم بمساعدة أبي حارث على إطعام أطفاله العشرة، لذلك رتب لابنه الأكبر العمل مع عمه في أحد أسواق الجملة المفتوحة في بغداد.

كان حارث وعمه يستيقظان قبل الفجر ولمدة ستة أيام في الأسبوع، حارث كان يرتدي أحد زوجي البنطالين البنيَّين اللذين اشتراهما، ككل أولاد السوداني، من أسواق البالة في بغداد الجديدة، أحد أحياء بغداد جنوب مدينة صدام، ويزرِّر قميصه الذي قامت والدته بكيِّه له في الليلة السابقة، آخذا معه قطعة من الجبن الأبيض والخبز لفطوره، ويقوم بأكلها وهو يسير لمسافة ثلاثة أميال إلى سوق جميلة، ولمدة ست ساعات كان حارث وعمه يقومان بتحميل ٧٥ رطلا من أكياس الرز والسكر والدقيق بين شاحنات التوصيل وأكشاك السوق، واشتكى حارث الذي كان قصير القامة وممتلئ الجسم مثل عمه من أنه يشعر أن عضلاته كانت تتوتر مثل أوتار العود الجاهزة للعزف.

ولأن حارثًا كان فقيرا جدا بحيث لا يستطيع امتلاك ساعة يد،

فقد نجا من عذاب العد التنازلي للدقائق حتى أذان الظهر حينما يبدأ السوق بالإغلاق، فقبل أن يذهب مالكو الأكشاك إلى المسجد، كان حارث يأخذ أجره اليومي منهم ويشتري الطعام ليأخذه إلى عائلته، صفائح من الزيت النباتي، أكياس من الخيش تحتوي على الحمص والبرغل المجفف، ويركب عائدا إلى مدينة صدام وبعد أن ينزل الأكياس يمضي ماشيا إلى مدرسته.

بعد شهر من هذا العمل الشاق، فاجأ العم حارث بأنه ادخر ما يكفي من المال لشراء عربة دفع يمكن للمراهقين استخدامها في النقل، وبالتالي مضاعفة كمية البضائع التي ينقلانها، مما يعني مضاعفة الأجور اليومية لهما. لقد أصبحت مبادرتهما مصدرا للنكات بين التجار، فقد غدا حارث الشاب كناقل التمر إلى هجر وبائع البساط لتاجر السجاد، وسرعان ما أصبح لدى الاثنين ما يكفي من المال للدخول في المتاجرة وشراء البضائع بسعر الجملة وإعادة بيعها إلى تجار التجزئة حول مدينة صدام، ومن دون تخطيط لذلك كان حارث يصنع ثروة شخصية، فقد كان حارث يجلب إلى البيت حوالي ١٥ دولارا يوميًّا، وهو مبلغ أفضل بكثير من راتب والده.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، وبينما كان يرتدي ملابس العمل، سمع والدته تخبر أختها الزائرة بمدى فخرها به. كان التجار ينتظرونه كثيرا لأنه كانت لديه براعة في الصفقات، وفي المنزل اعتمدت عليه الأسرة في الملابس والطعام، وبينما كان يعبر جسر القناة الذي يفصل مدينة صدام عن بقية بغداد في ذلك الصباح، سار

حارث أطول قامة في أعقاب ذلك الاستحسان النادر، وفي طريق عودته إلى المنزل لم يكن يستحسن شكواه المعتادة من آلام القدمين، لكن مزاجه ساء عندما رأى والده في الفناء وعصا المكنسة بيده، فقد سمع بطريقة ما أن أداء حارث كان سيئًا في امتحاناته الدراسية الأخيرة.

فقال له والده «أنت لست سوى حمار متبجح، ما لم تتخرج في الجامعة، فلن تكون أبدا أفضل من بهيمة «لقد لسعته تلك الكلمات أكثر من الضرب.

في صباح شتاء قارس في شباط من عام ١٩٩٩، كان حارث يمشي إلى المدرسة من أجل امتحانات نصف السنة في عام الدخول إلى الجامعة، وقد غمرت الأمطار الغزيرة الشوارع، وسرعان ما تغطى حذاؤه بالطين السميك، كان وزنه دائما ما يذكره بعبء آمال والده، مشى في طريقه مارا بالمكان الذي يقع فيه المنزل المسكون، لكنه لم يرد اختبار القدر وجذب الحظ السيِّئ.

في وقت لاحق من نهاية الربيع وبداية الصيف، وحينما أعلنت النتائج حصل حارث على أعلى الدرجات في مدينة صدام كلها، وهي نتائج كانت تضمن له قبوله في الكلية. في ذلك اليوم استقبل أبو حارث سيلا متدفقا من الضيوف لتهنئته بما أنجزه ابنه، لكن فكرة مدح حارث أو منحه هدية على نجاحه لم تخطر ببال والده أبدا.

في عام ٢٠٠٢ وجد العراق نفسه مرة أخرى محشورا بين صفائح التاريخ التكتونية، فقد كان الأمريكيون ينوون شن الحرب، ولم يكن

صدام حسين لائقا لمنع الكارثة. كانت عائلة السوداني بالكاد على دراية بالجغرافيا السياسية التي استهلكت الكثير من العالم، وكانوا يخوضون معركتهم الملحمية.

كانت المواجهة تتصاعد منذ أن بدأ حارث بحضور الدروس في جامعة بغداد، ففي كل صباح، وكالعادة كان حارث ينهض مع شروق الشمس، ليغسل وجهه بقليل من الماء الفاتر من الحمام الوحيد للأسرة مقابل المطبخ، ثم يقوم بتقطيع الخبز الساخن المسطح الذي تضعه له والدته على صينية الصفيح للتقديم، ثم يشرب كأسين من الشاي الحلو الأسود، ثم يستقل الحافلة الصغيرة في الرحلة التي تستغرق عشرين دقيقة، مرورا بشوارع الكرادة التي تحيط بها الأشجار نحو المساحات الخضراء في جامعة بغداد.

من خلال بوابات الحرم الجامعي، شعر حارث أنه سار في بوابة تصطف على جانبيها الأزهار إلى أرض أخرى، مكان حيث الناس ينظرون ويتكلمون مثله لكنهم يعيشون حياة أفضل بكثير. فمياه المجاري لم تكن تجري في شوارعهم، والكهرباء لم تكن ترمش ولو للحظة في صفوفهم، أما الأرصفة فكانت خالية من الإطارات المثقوبة ومخلفات البناء الصدئة، وكان الطلاب يتوقعون أن تقدم لهم الحياة ما هو أكثر من الضرب بخلاف مدينة صدام، ولأول مرة في حياته شعر حارث أنه تمكن من الوصول إلى المعرفة، والموسيقى، والكحول، والفتيات، لكن ليست بالضرورة بمثل ذلك الترتيب.

لم تكن عائلة السوداني من نوع الأسر التي تتلو الآيات القرآنية،

لكن كان لأبي حارث خط أخلاقي رهيب، ففي تفكيره كان الكحول سيئا لأنه يكشف عن خيانة الإنسان وعدم ثقته وضعف شخصيته مما يلوث سمعة العائلة كلها.

كان للمواعدة أيضا نفس المفعول، فإنه إن ترك الفتيان والفتيات يقضون وقتا طويلا جدا معا دون مراقبة فإن الجن سوف يصحبهم، وسيصبحون متوحشين ومخادعين ولا يمكن التنبُّؤ بتصرفاتهم، حينئذ سينقلب النظام رأسا على عقب وستتلوث سمعة العائلة.

حينما دخل حارث إلى صفه الأول في الجامعة تمهيدا للهندسة، وانزلق إلى المكتب الخشبي الضيق، لم يكن مستعدا للصدمة، فعلى عكس المدرسة في مدينة صدام كانت الجامعة مختلطة. لم يكن حارث بمثل هذا القرب الجسدي من النساء في عمره طوال سنوات، لم يستطع التركيز على أي شيء قاله الأستاذ، فقد كان أنفه مليئا بعطر من الزهور من الشابة الجالسة أمامه، كانت تفوح منها رائحة أزهار البرتقال وتضحك كالملاك، وشعرها الكستنائي يتموج ويلتقط الضوء حيث تحرك رأسها إلى الوراء، لم يكن حارث يعرف اسمها، لكنه عرف أنه كان يحبها، وكان يعرف بالضبط كيف يمكنه أن يظهر ذلك.

بعد انتهاء دروسه ذلك اليوم، ذهب إلى شارع المتنبي، الشارع الشهير لبيع الكتب في بغداد، لشراء ورق كريمي سميك وقلم حبر للخط، ثم عاد إلى المنزل، وكتب ثلاث روائع من النثر المنسوج بشكل معقد بهدف جذب الفتاة التي أسرت قلبه، ولمدة ثلاثة أسابيع كان

يأتي بشكل مبكر إلى الصف ويلقي برسالة مغلقة في مكان جلوسها، وعندما كانت تصل، كان يراقب خلسة بينما هي تلتقط الرسالة وتقرأ قصائده ونثره، وقد كان من الواضح أنها كانت تتفحص الصف بفضول، محاولة معرفة من ترك تلك الإشارات، لكنها لم تكن تنظر إلى حارث قط.

في الأسبوع الرابع كانت رسالته الأخيرة تحتوي على قصيدة كتبها نزار قباني الشاعر العربي الحديث المشهور، وهي تضم الأبيات الآتية:

تسألني حبيبتي:

ما الفرق ما بيني وما بين السما؟

الفرق ما بينكما

أنك إن ضحكت يا حبيبتي

أنسَ السما

في أسفل الصفحة كتب حارث طلبا للقاء بعد ظهر اليوم التالي في متنزه أبي نؤاس على ضفاف نهر دجلة، وكتب أن الوقت قد حان لتقديم نفسه.

في تلك الليلة لم يستطع حارث النوم من شدة القلق، وظلت أمه تسأله إن كان مريضا وهي لا تفهم سبب هياجه، فقد كان حارث يشعر أن كل أعصابه على نار، لكنه كان يجيبها بأن كل شيء على ما يرام.

كان حارث يعلم أنه قد تخطى العديد من المحرمات بملاحقة

امرأة من صفه، وخلال أربعة أسابيع من المراسلات كان يسأل بحذر عن زميلته نسرين، وتبين أنها لم تكن شيعية، ولم تكن حتى عربية، فقد كانت من عائلة كردية في السليمانية، وهو مزيج من شأنه، بقدر ما كان يعني ذلك لوالده، أن يجعلها خيارا غير مناسب لابنه مثل الشمبانزي.

حاول حارث، ولمرة واحدة، تجاهل الصوت المزعج في رأسه، صوت والده الذي كان يطيعه بشكل روتيني قائلا لنفسه: إنه إذا جاءت نسرين للقائه فستكون هي قسمته، وهو أمر لا يمكن أن يتدخل فيه والده حتى لو حاول ذلك.

بعد ظهيرة اليوم التالي، وحينما وصل حارث إلى المتنزه كانت نسرين موجودة بالفعل، واتسعت عيناها حينما رأته، فطالما أخبرها والداها أن سكان مدينة صدام إما أن يكونوا متطرفين أو حيوانات، ولم تكن تظن أبدا أن الشعراء يعيشون هناك أيضا.

كان حارث يخشى أن ينعقد لسانه، لكن بدلا من ذلك، بدأت الكلمات تتدفق منه، واشترى لنفسه ولنسرين عصير الرمان من كشك خشبي بالقرب من جسر ١٤ تموز وتحدثا عن الكتب والمدرسة وعن عائلتيهما، واتفقا على اللقاء مرة أخرى وأخرى بعد ذلك، وسرعان ما استغرقت مواعيده مع نسرين وقتا أطول من واجباته الدراسية.

لقد شكا والده من أن حارثًا لم يعد يحضر في المنزل بما يكفي، لكن الشاب اختلق أعذارا بشأن حاجته للدراسة في المكتبة مساءً، وهي كذبة جيدة، على الرغم من أنها غير دقيقة تماما، ففي منزلهم

مع عشرة أطفال مشاغبين لم يكن لديه المساحة أو الهدوء الكافي للقيام بذلك. أصبح حارث، مع تحول الخريف إلى شتاء، ثملا من هذا الشعور بالحرية، وكانت ساعاته مع نسرين قد جعلته يعتقد أن حياته قد تأخذ اتجاهًا مختلفا، اتجاهًا تمنى فيه لو أنه لم يعش في مدينة صدام، حيث يمكنه اختيار زوجته والعيش بسعادة دائمة مع من يحب، وبحلول فصل الربيع حمل عدم اهتمامه بمقرراته الدراسية عواقبَ سيئة، فحينما نشر قسم الهندسة نتائج امتحانات نهاية العام، كان حارث يقبع أسفل الخط الأحمر السميك الذي يشير إلى من نجح ومن فشل، فجأة أصبح رجلا بحبل يلتف حول عنقه، وكأن باب المشنقة انفتح من تحته.

مهما كانت الحياة عنيفة في حيهم، لكن مطبخ عائلة السوداني ظل دائما مكانا دافئا ومليئا بطاقة المحبة، فقبل الفجر كانت أم حارث تستيقظ من نومها لتخبز الخبز وتحضر الشاي، فيما كانت تقشر الخضار طوال النهار وتحمل أباريق مياه الشرب من مورد الحي، وفي الوقت الذي كان حارث فيه في الجامعة، كان لديها أيضا عشرة أطفال آخرون في المنزل يجب أن تطعمهم مع عدد قليل من الأدوات التي تساعدها في ذلك.

بعد ظهر اليوم الذي علم فيه حارث برسوبه في الامتحانات عاد مباشرة إلى المنزل، وهو متلهف لأن يكون محاطا بطقوس الطهي المريحة التي لم تتغير مذ كان صغيرا، في طباخ أم حارث ذي الشعلتين كان هناك قدر فولاذي واسع الفوهة يغلي بالحمص وإلى جانبه قدر

آخر مليء بالفاصولياء البيضاء المطبوخة بمعجون الطماطم وقليل من لحم الماعز للنكهة.

قامت أخوات حارث بتجهيز غرفة العائلة للطعام بنشر مفرش طاولة من البلاستيك مزين بحبات الكرز الأحمر على الأرض، ثم وضعن اللبن في أقداح بلاستيكية للأطفال وأكوامًا من الخبز الطازج والخضراوات المغسولة حول منطقة الجلوس، لقد أراد حارث أن يخبر والدته بكل ما حدث له وكيف فقد قلبه في الحب والآن مكانه في الجامعة، لكنه لم يقوَ على إخراج الكلمات من فمه.

كانت أم حارث منشغلة بمهماتها المتعددة، حيث اعتادت أن تدعو الأطفال للجلوس وحمل الأطباق إلى سفرة الطعام، ووضع قطعة القماش على أرضية غرفة المعيشة التي جلست الأسرة حولها لتناول الطعام ولم تلاحظ أي شيء خطأ في الوضع.

عندما جاء والده وغسل يديه استعدادا للوجبة، كان التلفاز يبث أخبارا في الشريط بشأن خطط أمريكا لقصف البلاد، ثم جلس أشقاء حارث حول حواف السفرة، وكلٌّ منهم يغرف من الطعام ويضع في فمه مع الخبز الطازج ويضحكون على رسوم متحركة كانوا قد شاهدوها ذلك الصباح.

جلس حارث على ركبتيه وهو يلف منديلا في يديه، فقد كان يعلم أن مهمة تقديم الأخبار السيئة ليست أسهل من تأخيرها، فقال والكلمات تتسارع من فمه مثل فيضان الربيع: أبي لدي بعض الأخبار السيئة، لقد رسبت في امتحاناتي والكلية ستطردني، لوحت أم حارث

بقطعة قماش أمام وجهها وكأنها شعرت بالإغماء، بينما استمر حارث بالكلام.

لقد أخبر والديه أن سبب أدائه الأكاديمي السيّئ قد حدث لأنه وقع في حب فتاة سنية من كردستان العراق. كاد أبو حارث أن يغص بلقمته. وكان التلفاز يستمر بالثرثرة عن الغدر والإخفاق الأمريكي، بينما ظل البقية في الغرفة صامتين. لقد كان الجميع يعلمون أن اعتراف حارث قد ألحق دمارا أكبر مما لو سقط صاروخ أمريكي على منزلهم.

صرخ أبو حارث على ابنه بنفس الشتائم التي كان يتفوه بها حينما كان صغيرا، لكن قوة تحمله قد انهارت في داخله، فلم يستطع النوم طوال تلك الليلة، فلا بدَّ من القيام بشيء ما لإنقاذ مستقبل ابنه وسمعة الأسرة.

في صباح اليوم التالي توجه أبو حارث مباشرة إلى موقع الجامعة في منطقة الجادرية، وقد ساعد سلوكه المهتاج في إقناع الحراس بالسماح له بالدخول، وجلس أبو حارث في ممر قسم الهندسة في احتجاج صارخ، وتوسل بالعميد لإعادة ابنه وحينما رفض، حاول أبو حارث الصعود إلى أعلى السلم الإداري بحثا عن رئيس الجامعة نفسه.

لم يكن من المهم بالنسبة لأبي حارث أنه كان يرتدي الدشداشة البراقة، القميص التقليدي الفضفاض حتى الكاحل الذي يفضله رجال العشائر العربية واليشماغ المنشى. كان وجهه المتغضن بعمق وجسده النحيل يفتقد إلى القيمة في مباني جامعة بغداد المهيبة، لذا جلس لمدة ست ساعات على أريكة خشبية خارج مكتب سكرتير

رئيس الجامعة وهو يشاهد نهرا من الناس يتدفق أمامه داخل وخارج منطقة عمل الرجل المهم ولم ينتبه إليه أحد، وكان يأسه يحوم حوله مثل النسور فوق وحش يحتضر، وفي النهاية كان شعوره بالإهانة أكثر مما يحتمل.

في طريق عودته الطويل بالحافلة إلى المنزل، كان مزاج أبي حارث المتعكر قد تخثر وتصلب إلى مرارة عميقة، ولم يكن يستطيع رؤية ما وراء دثار الخجل المحمر الذي كان يستقر على كتفيه وعلى عائلته. وعندما دخل من الباب الأمامي، كان حارث جالسا في الزاوية يقضم قطعة معجنات أعدتها له والدته.

كان الجو في بيت السوداني قاسيا وحادًّا، وبعد سنوات من ذلك اليوم لم تمل الأسرة أبدا من امتصاص العظام الجوفاء لذلك النزاع الذي تلا ذلك، فقد رمى أبو حارث بحذائه على ابنه بسخرية جامحة صائحا: لطالما قلت عنك إنك لست أفضل من حمار، وانظر إلى نفسك الآن تأكل الطعام كالحيوان، وتلوح بقضيبك عند الكلية، كل نفس تتنفسه احتقار لي وتمنيت لو أنك لم تولد أبدا.

كان حارث قد أمضى عشرين عاما وهو يقبل أن يضرب بخنوع، لكنه انفجر في ذلك المساء، فقفز حارث ورفع يده على والده قائلا: يا بن القحبة، هل يمكن أن تصمت ولو لمرة واحدة فقط؟ أم حارث صرخت وسقطت على الأرض بإغماء مميت، أطفالها الآخرون اندفعوا إلى الغرفة مذعورين من هذا الهيجان. تجمد حارث، وبدلا من أن يضرب والده، تحرك نحو والدته المستلقية وقلبها نحو الوسائد

وفحصها ليرى ما إذا كانت تتنفس، وانفجر عدد من أشقاء السوداني بالبكاء وهم يعولون بأن والدتهم ماتت.

شعر حارث بموجة جديدة من الغضب تجاه والده، وهذه المرة لتعريض صحة والدته للخطر قائلا له: إن طغيانك سيتسبب بموتنا، وطالما نموت بصمت وشرفنا سليم فأنت لا تهتم، من هذا اليوم فصاعدا سأرفض الاستماع لأوامرك وسأتزوج من نسرين مهما تقل.

تحول وجه أبي حارث إلى اللون الأرجواني من الغضب، هل ابنه ممسوس من الجن؟ لم يكن أبو حارث شخصا يؤمن بالخرافات مثل زوجته، لكنه في تلك اللحظة صدَّق ما قالته له في الليلة التي علموا فيها بأخبار حارث، لا بدَّ أن تلك الفتاة الكردية قد ألقت بتعويذة على ابنهما، فلو كان عقله سليما، لم يكن ليحدث شيء من هذا.

صرخ أبو حارث: إذا تزوجت من تلك الساحرة ستكون سببا في وفاة والدتك وليس وفاتي، إذا قمت بذلك فسوف أتبرَّأ منك، وأقسم بشرف والدي ستكون ميتا بالنسبة لنا جميعا.

تبخر الأدرينالين لدى حارث فجأة كما بدأ، كانت شقيقاته يبكين ويتوسلن بأمهن أن تستيقظ، وكان حارث مثل والده يعرف أنه لا يستطيع العيش بدون عائلة، فلم يكن لديه عمل ولا مكان ليعيش فيه ولا مكان آخر يلجأ إليه، ووالده سيضمن أن بقية عائلة السوداني سيقاطعونه أيضا، كما دار في خلده فكرة مرعبة جديدة، فربما نسرين لا توافق حتى البقاء مع شاب مفلس من مدينة صدام، كما أنه لم يرها منذ أن علم برسوبه في الامتحانات، ما الذي كان يحمله والداها في

ذهنهما عنه وعن جيرانه؟ هل هم حيوانات مثلما وصفه والده للتو؟.

اندفع حارث خارج المنزل إلى الفناء الأمامي الصغير، في محاولة يائسة لإيجاد مساحة للتفكير في الزاوية التي حاصره والده فيها. لقد كانت لأبي حارث اليد العليا في مباراة الإرادات تلك، لكن ابنه لا يريد الاعتراف بذلك بعد.

بعد فترة قصيرة انفتح الباب الأمامي وخرج مناف شقيق حارث الأصغر وجلس إلى جانبه قائلا: لقد استفاقت أمي، وهي تشرب الشاي، عد إلى الداخل الآن، وهي تنادي عليك فلا تخيِّب ظنها. قاد مناف حارثًا إلى غرفة العائلة مربتا على ظهره، ألقى حارث نظرة على والدتها، كانت شاحبة وعاجزة وهي مستندة على وسائد على الأرض، وكان حارث يعلم أنه إذا تحدى والده، فقد يقتل والدته أيضا بيديه، وفي كلا الحالين سيكون مسؤولا عن معاناتها، ولذا قال حارث بهدوء: اللهم اغفر لي، أبي أنت تفوز، سوف أنسى نسرين.

بعد عدة سنوات وعند مناقشة الحدث كان إخوة السوداني يتذكرون تلك اللحظة التي مات فيها شيء ما حيوي في داخل حارث.

الفصل الثاني

فرصة للحرية

كانـت الأخبار تنتشر مثل المرح في حفـل زفاف، وقوتها تزداد كما لـو أنها تنتشر عبر القمامة المتناثـرة التي تمتلئ بها مدينة صدام، فقد تم هجر كل الثكنات العسـكرية وكل مكتـب للشرطة السرية والحزب الحاكم لصدام. لقد هرب الجلادون، والديكتاتور مختبئ، والدبابات الأمريكية تسير في الشوارع.

لم يسـتطع مناف شقيق حارث الأصغر، البالغ من العمر الآن ١٨ عاما احتواء فرحته وهو يسـير في وسـط بغداد مع المئات من جيرانه وأصدقائـه مـن مدينـة صـدام في ضوء شـمس نيسـان الدافئة، وهم ينضمُّون للحشود التي تهتف من أجل الحرية والديمقراطية، فقد تم إسـقاط تمثال الديكتاتور الضخم الذي يرفع فيه يده اليمنى مثل لعنة طولها عشرون قدما في ساحة الفردوس.

قبل أسبوعين، وبينما كان الجيش الأمريكي يمطر بغداد بالقنابل، والجنـود الأمريكان يتقدمون مـن جنوب العراق الـذي يهيمن عليه الشـيعة باتجاه العاصمة، كانت عائلة السـوداني وجميع سـكان مدينة صدام البالغ عددهم مليوني نسـمة يتحصنـون في منازلهم، فقد كانوا متحفظين بشـأن الغـزو، ولا أحد يريد أن ينخدع كـما حصل في عام ١٩٩١ عندما طلب الرئيس جورج بوش الأب من الشعب العراقي أن ينتفـض ضـد الديكتاتـور، وقـد فعلـوا ذلـك، لكـن تخلى عنهم الأمريكان وتم ذبح الآلاف منهم من قبل قوات النظام الأمنية، تلك الخيانـة ما زالـت غصة في أذهانهم عـام ٢٠٠٣، وقلة مـن العراقيين كانوا سـاذجين بما فيه الكفاية ليأملوا أن بوش الشاب سيغير حياتهم

نحو الأفضل، لكن في ذلك الصباح الصافي المشمس حيث تزقزق العصافير على أشجار النخيل، كان مناف يرتع في مياه عميقة من التفاؤل، يبدو بعد كل شيء أن المستحيل قد تحقق بالفعل.

في وقت باكر من ذلك اليوم، كان مناف قد عبر جسر القناة الذي يفصل مدينة صدام عن بغداد، وشاهد الدبابات الأمريكية تقوم بدوريات على الطريق السريع شرق وغرب المدينة، لم يكن الأمر مجرد تمثال سقط، بل إن النظام كله قد ولّى.

في وقت الغداء كان مناف قد سحب حارثًا وانضما معا إلى طوفان الرجال من الصغار والكبار الذين تجمعوا في الشوارع، لم يكن هناك قائد للحشد، لكن الجميع كانوا يشعرون بنفس المغناطيسية التي تجذبهم، فقد سار رجال مدينة صدام في شارع الثورة وعبروا الجسر الممتد على القناة، ثم تدفقوا نحو وسط المدينة قلب عاصمتهم القديمة.

على طول الطريق، كان أصحاب المتاجر الذين دأبوا يعاملون رجالا مثل مناف بجفاء، يقدمون الحلوى وهم يمرون بهم، والنساء كن يلوِّحن لهم من الطوابق العليا للمباني السكنية وهن يزغردن احتفالا، الآلاف من الناس من جميع أنحاء المدينة كانوا يتحركون ويمتزجون في الشوارع في مجموعات مبتهجة منتشين من غبطة الحرية، وكان هناك رجل مسن يرتدي الزي القبلي لشيخ سني يقبل منافًا على خديه كما لو أنه ابنه.

منذ صغره، كان مناف يكتم حلما سريًا بشأن ما يريد أن يفعله

في حياتـه، لكـن طـوال هذه المـدة تعلـم أن الناس في مثـل وضعه لا يستطيعون تحقيق أحلامهم، فهم لا يستطيعون اختراق أحياء الطبقة العليـا في بغـداد من أحيائهم الفقيرة للسـير في وسـط المدينة كما فعل اليوم، مرتديا قميصه الأسود المفضل لديه بياقته المنقوشة، لكنه اليوم شـعر كأن الطبقة العاملة الشـيعية مثله يمتلكون المدينة ولا يسـتطيع أحد إيقافهم.

إن الوقوف مع الحشود في ساحة الفردوس والشعور بمد التاريخ يتحطـم عليـه، جعـل منافًا يظن أنه قـد يكون قـادرا أن يعيش الحياة التي حلم بها بعد كل شيء، بدلا من الحياة التي يمليها عليه والده أو النظام الذي أطيح به.

ففـي وقـت لاحق وحينـما كان يتناول الشـاي مع أخيـه حارث، حيـث المدينة ما زالـت تحتفل، أخبر أخاه برغبتـه المكبوتة، وأنه يريد المسـاعدة في تحقيق العدالة في العراق وخدمة الناس الذين سـحقتهم وحشية صدام، وأنه يريد أن يكون شرطيًّا.

في ظـل حكم صـدام الذي اسـتمر لخمسـة وعشرين عامـا، كان العراقيون يشـيرون إلى بلادهم باسـم جمهورية الخوف بسـبب شبكة الأجهـزة البوليسـية التـي كان هدفهـا الوحيد حماية النظـام بدلا من الدفاع عن المواطنين ضد انتهاكاته، وقد تم اسـتبعاد جميع الشيعة من معظم الوظائف في قوات الأمن تقريبا، لأن النظام السني كان يعتقد أنهـم يشـكلون تهديـدا للأمـن القومي، ولم يحلـم أبدا أحـد في عائلة السـوداني أو دوائرهـم الاجتماعيـة أن يصبـح ضابطا، فقـد تم تجنيد

بعض الأعمام والأخوال للقتال على الخطوط الأمامية خلال الحرب العراقية - الإيرانية، لكنهم كانوا مجرد جنود مشاة وطعمة للمدافع وليسوا قادة.

حتى في يوم مليء بالأمل كان حلم مناف خياليًّا، فلا أحد في الأسرة المتنامية يمكن أن يخصص قليلا من الاهتمام أو الجهد لرغبات الابن الثالث، فطوال حياته كان مناف مجرد فكرة ثانوية شاحبة في تركيز والدهم في أنه يستطيع جلب الفخر والازدهار لعائلة السوداني، ولإثبات ذلك كان يكفي النظر فقط على الصور المعلقة على حيطان غرفتهم ذات اللون البيجي، حيث تتجمع العائلة فيها كل يوم لتناول وجبات الطعام.

الصورة الكبرى كانت لأبي حارث وزوجته وهما يرتديان ملابس غربية أنيقة، وكان لأم حارث ابتسامة دافئة، فقد كانت بشرتها من الخوخ والقشطة تتألق، وصدرها المنتفخ كالنشأ وهي تحمل طفلا صغيرا ذا شعر فاتح مجعد وعيون بنية عريضة لحارث الصغير وهو يحدق قليلا فيما وراء المصور، كما لو أنه يتطلع إلى المستقبل.

بجانب تلك الصورة كانت صورة أخرى بإطار ذهبي متقن لأبي حارث وهو يحمل ابنه الأكبر المتجهم كطفل رضيع، فيما تظهر الصورة الثالثة أم حارث وهي ترتدي حجاب نمر مرقط مربوطًا بشكل فضفاض على شعرها البني الداكن وهي تحمل حارثًا بيد وطفلًا صغيرًا آخر هو ابنها الثاني مثنى الذي تضعه في حجرها، كما أن من بين الذكريات العائلية الأخرى التي تم تخليدها على الجدار

صـورة والـدة أم حارث وعمتهـا والتـي التقطت قبـل وفاتهما بفترة قصـيرة، وكانـت المرأتـان اللتان تحمـلان تعابير قديمة تجلسـان على أريكة صلبة ذات ظهر خشـبي، وجسـداهما مغطى بغطاء (شـادور) شديد السواد ترديه النساء الشيعيات المتدينات.

لقـد تغيبت عـن الحائط أي علامـة لمناف أو الأبنـاء الذين ولدوا بعـده، وفي بعض الليالي بينما كان أفراد عائلة السـوداني يأكلون تحت أنظـار الصـور، كان منـاف يتمنى لو أنه اسـتطاع فقـط أن يدخل إلى تلـك الأريكة الصلبة في منزل جدته عندمـا كان المصور يهم بالتقاط صورتـه، فقـد كان يكـره أن يتم تجاهلـه، لكنه تعلم ببطء اسـتغلال المزايـا التي قدمهـا له اختفاؤه، فبينما كان أبو حـارث يأمر ابنه الأكبر بالعمـل معـه كل يوم في متجـره، كان لمناف حريـة التمتع بلعب كرة القدم بعد المدرسـة، وكان بإمكانه تخطي الأعمال الروتينية والحصول على درجات متوسـطة عارفا أنه إذا علم أبو حارث، فسـيكون تأنيبه خفيفا وخيبة أمله عابرة.

لمـاذا إذن عليـه أن يتفـوق؟ ولمـاذا عليـه أن يجتهد؟ فهـو لم يتربَّ على أسـاس الجدارة. لقد كان التسلسـل الهرمي للعائلة نظاما طبيعيًا يعـززه كل تفاعـل تقريبـا، فبعـد ظهـر يـوم الجمعة كان أبـو حارث يسـتضيف إخوته لتناول طعام الغداء بعد صلاة الظهر الأسـبوعية، وكان الرجال يجلسون حول أرضية غرفة العائلة ذات البلاط باللون الكريمي يدخنون ويشربون الشاي، وكان الأطفال الصغار يدخلون ويخرجـون ويقدمون الفاكهة والمكسرات ويرفعون أكواب الشـاي،

ويتنصَّتون على المحادثات بشأن الشعر والرياضة، كما كان حارث موضوعا متكررا للنقاش أيضا وليس منافًا، حيث كان والدهم يتفاخر للأقارب المجتمعين كيف سيكون حارث أول من سيحصل في عائلتهم على شهادة جامعية ووظيفة مرموقة ويجلب الفخر للسودانيين.

لم يحسد مناف حارثًا قط على الاهتمام الذي منحه له والداهما، ففي الواقع كان مناف وإخوته يشفقون على أخيهم الأكبر، فبمجرد طرد حارث من الجامعة، رأى مناف كم كان الإذلال مؤلما لشقيقه. لم تكن هناك الكثير من المهن في مدينة صدام ليختار بينها، فقد تكون وظائف الخدمة المدنية الأدنى مثل التدريس أو التمريض ممكنة، لكن كان من المفترض أن يتدرب معظم الشباب ببساطة مع آبائهم أو أعمامهم، وفي عائلة السوداني أدرك أشقاء حارث العشرة أن من المتوقع أن يقوم حارث بشيء محترم مثل أن يصبح مهندسا، وأن ينضم الابن الثاني إلى والدهم في أعمال تصميم الجرافيك الخاص به، لكن حينما يصل الأمر إلى مناف فلا توجد خطة له على الإطلاق.

حتى عندما كان صبيًّا أدرك ابن السوداني الصغير القوانين البدائية للمجتمع العراقي في أن القوي يأكل الضعيف، ولا يجب أن يعتمد أي عراقي مثله على الشرطة تحت أي ظرف من الظروف، لأنهم سرعان ما يغتصبونك، أو يغتصبون والدتك ويتركون أسرتك كلها للموت بدلا من مساعدة أي شخص، خصوصا الشيعة الفقراء مثله.

• لقد نشأ الأولاد في مدينة صدام وهم يعانون من مجموعة متنوعة من أعمال العنف غير المنتظمة كعقاب تم فرضه على أنه تأديب في المنزل أو عنف أكثر سمية من أبناء العائلات القوية الذين يسيؤون معاملة بقية الحي مع الإفلات من العقاب. إن من حسنات أن تكون جزءًا من عائلة كبيرة أن هناك قوة في الأعداد، حيث يمكن استدعاء الإخوة للدفاع عن بعضهم البعض ضد الشقاوات والمبتزين، لكن حتى في هذا الأمر، لا يمكن استخدام تكتيك القوة في الأعداد إلا في ظروف محددة.

حينما كان مناف في الصف الأول المتوسط، كان هناك صبي في حيهم يصغره بعام واحد، صبي وحيد عائلته يدعى سالمًا، سالم كان فريسة سهلة لحسين ابن (مخبر الحي)(*) وعصابته من الشقاوات، المخبر هو الرجل الذي يكتب التقارير للمخابرات، أو الشرطة السرية لنظام صدام، ولا أحد يستطيع أن يشكو أو يرد عليهم، لأن القيام بذلك يثير شبح السجن أو ما هو أسوأ بالنظر إلى الصلات التي تربط والد حسين، لذلك كان حكمهم الرهيب يسود الشارع، لدرجة أن الأطفال كانوا يدعونهم شيوخ الشارع.

(*) (مخبر الحي) ربما لم تفهم المؤلفة أنه لا توجد تسمية بهذا الاسم في زمن نظام صدام، فلا يوجد ما يسمى بمخبر الحي، بل كان هناك وكلاء أمن أو أعضاء في حزب البعث تجندهم دوائر الأمن والأجهزة القمعية للنظام في المناطق لكتابة تقارير عن أي شيء يشتبه بأنه مريب أو غير طبيعي، وقد ذهب الآلاف من الأبرياء ضحايا نتيجة تقارير تافهة أو كيدية في بعض الأحيان من قبل أولئك الحاقدين وربما كان المقصود من مخبر الحي هو وكيل الأمن للتوضيح. المترجم

في كل صباح تقريبا كان الشقاوات يدورون في الشوارع بين بيوتهم ومدرستهم ويستريحون بانتظار سالم، وخلال الدقائق العشر التي يستغرقها الطريق للوصول إلى المدرسة تظهر العصابة تدرجا دقيقا من معايير ذلك الرعب، فقد كانوا يحيطون بالصبي ويسقطونه ويبدؤون بركله، لكن تلك العملية لأي عابر سبيل تبدو له وكأنهم جميعا أصدقاء مقربون. لم يكن لدى سالم مهرب من هذا العذاب اليومي، وعندما كان يصل إلى المدرسة كان المدير يعاقب الصبي على مظهره الأشعث، فيما كان سالم يتحمل جلده بصمت أيضا، فهو يعلم أن انتقام الشقاوات سيكون أكبر لو أنه أخبر المدير بما حدث له.

في بعض الأيام كان سالم يتظاهر بالمرض ليبقى في المدرسة ساعة إضافية لتجنب أولئك المتنمرين في طريقه إلى المنزل، وفي أحوال أخرى حاول أن يتجاوزهم، لكن في اليوم التالي تبدأ مطاردتهم له مرة أخرى.

كان مناف يشعر بالغثيان حينما كان يرى أولئك الشقاوات في أثناء قيامهم بالتعدي، وهو يعلم أن مواجهة أولئك الشيوخ عمل طائش، فقد كان الجميع يعلمون أن والد حسين مسؤول على الأرجح عن اختفاء الأسرة التي أصبح منزلها مسكونا، ولم يشأ مناف أن يحدث مثل هذا الأمر لعائلته، لذا كان يفعل ما كان يأمره به والده وإخوته دائما من عمل وهو أن يطأطئ رأسه ويبقى بعيدا عن المشاكل، ولذا كان مناف يقول لنفسه إن ذلك الترهيب كان جيدا لسالم، فمثل كل الأولاد في مدينة صدام، كان هو أيضا بحاجة إلى تعلم الشجاعة

للتعامل مع وحشية الحياة.

في حي به القليل من أجهزة التلفاز أو غيرها من وسائل اللهو، كان الأولاد يلعبون في الشارع حتى وقت العشاء، أما في فصل الربيع تصبح الساعات المتأخرة بعد الظهر وبعد المدرسة مقدسة لصبيان الحي مثل صيام رمضان، حيث كان ذلك هو الوقت الذي يتجمعون به في قطعة الأرض الفارغة الوحيدة على مسافة قريبة، وهي قطعة الأرض الرملية المرصوصة عبر الشارع بالقرب من منزل عم مناف ولعب كرة القدم. وبينما كان الأولاد يغيرون ملابسهم المدرسية، كانوا يجندون أشقاءهم الأصغر سنا الذين يلعبون في مكان قريب لالتقاط الحجارة الصغيرة المغروسة في الأرض، وقد كانت تلك مهمة شاقة دون أي مكافأة؛ لأن قطعة الأرض كانت مخصصة للأولاد الأكبر سناً فقط.

في عصر أحد الأيام، وحينما بلغ مناف الثانية عشرة من عمره، كان شيوخ الشارع يتطاولون على سالم ويجبرونه على الركوع على الأرض بملابسه المدرسية النظيفة والتقاط الأحجار بفمه، وفي كل مرة يسقط واحدة من فمه كان حسين يصفعه خلف أذنه وهو ينبح على سالم قائلا: التقط الأحجار اللعينة أيها الكلب، ليس لديك حياة إلا أن أقول أنا ذلك، وليس لديك أمنيات إلا ما أريد.

كان مناف يقف بعيدا في زاوية الساحة، لكن حتى من هناك كان يستطيع رؤية الدم يسيل من أذن سالم ويجري على ياقة قميصه، كانت عيناه مغلقتين ووجهه مبللًا بالدموع، سار مناف متظاهرا أنه لم ير

شيئا مطأطئًا رأسه وعيناه للأسفل كما أخبره والده دائما.

فجأة، انطلق صفير حاد على جانب الطريق، وظهر رجل من العدم مثل بطل خارق في الأفلام الأمريكية بزي أزرق غامق قائلا: ما الذي تفعله بحق السماء يا بن العاهرة! كانت يدا الرجل بحجم كتل الطابوق ورقبته عريضة كجذع شجرة التفاح، وكان يرتدي ملابس ضابط شرطة لم يره مناف في منطقتهم من قبل.

كان شيوخ الشارع ينظرون إلى الأعلى وهم مذهولون عندما رفع ضابط الشرطة حسينًا من ظهر قميصه، وشاربه ذو الشعر الخشن يرتجف من الغضب قائلا: عار عليك! كيف تجرؤ على مهاجمة هذا الطفل؟ ثم قام بصفع الصبي المتنمر بضربة طرحته أرضا، حينها سقط حسين بشدة على مؤخرته، فغدا وجهه أبيض من الخوف ثم احمر كالطماطم، بعد ذلك سأله ضابط الشرطة بفظاظة: من هو والدك؟ دعنا نذهب ونخبره بما كنت تقوم بفعله، وجر الضابط الصبي المتنمر في الشارع إلى مركز الشرطة، فيما أصيب بقية عصابة الصبيان بالدوار من المشهد الذي رأوه للتو.

تذكر مناف أن قلبه كان ينبض بالحماس، فقد كان ذلك أعظم مشهد بطولي رآه في صغره، فمن كان يصدق أن الشرطي الذي طالما كان موضوعا للخوف والسخرية، هو الوعاء الذي كشف الله له من خلاله شيئا مدهشا؟ فقد ظهر هذا الغريب وساعد القانون الذي لا يقبل التغيير في مدينة صدام.

لم يكن مناف يستطيع أن يصف ما كان يشعر به بكلمات، فقد

كانـت العواطف تتدفق من جسـده الصغير واختفـى صداعه، قائلا لنفسـه: هذا هو شـكل العدالة. لم يكن يعرف اسم الرجل الذي أعاد ترتيـب عالمـه، لكنه عرف أنه يريـد أن يكون مثله، ومنـذ ذلك اليوم عرف أنه يريد أن يكون شرطيًا.

لعدة سنوات لم يكن لدى مناف وقت أبدا لكي يشرح لوالده تلك المشـاعر، فلم تكن لديه اللغة التي يصف بها تلك الأفكار ولا موهبة الشـعر مثل حـارث، فقد كان آخر شيء يمكـن أن يفهمه أبو حارث هو رغبة ابنه بازعاج النظام الاجتماعي.

إن أولئـك الذين ولدوا في دولة بوليسـية لم يزودوا بدليل لتجاوز الغموض لدى السـلطة، حيث المسافة بين النكتة والسجن يمكن أن تختلف وفقا لمزاج المخبر، وبالنسبة لأبي حارث فإن التهديد بالاعتقال يرفرف باسـتمرار مثل سرب من الدبابير، لذا كانت طريقته الوحيدة لتحصـين عائلتـه ضد هـذا الخطر هـي قولبتهم ونفسـه في نماذج من الخنوع وتميمته الطاعة.

لقد سـار الأب في الحياة وعيناه للأسـفل ورأسـه محنيٌّ، مختارا أي طريـق يجنبه المشـاكل، ومنـح أطفاله أسـماء مفضلة لـدى العائلات السنية، وهي علامة ماكرة للتذلل لتلك السلطات التي تطارد أولاده طـوال حياتهـم، لكنها بالنسـبة لعائلات تعيش في مدينـة صدام كان أبو حـارث يفسر خياراته عـلى أنها توقير لرجال حكـماء من التاريخ الإسـلامي، كانت السياسـة شـيئا يجب تجنبه، خصوصا أن الحكومة قد أصدرت جنسيات تكشـف أنه يمثل تهديدا مزدوجا للنظام نظرا

لعنوانه الدائم وطائفته الدينية.

لهذا السبب كان أبو حارث يتجنب معاقل الذكور في العالم العربي وهي المقاهي. إن جغرافيا مدينة صدام لم تمنح سكانها سوى القليل من الأماكن العامة للاختلاط بحرية، لذلك كانت المقاهي واحدة من تلك الأماكن القليلة التي يجتمع فيها الرجال بعد العمل، أو يقضون يومهم إذا كانوا عاطلين، ونظرا لمدى صعوبة الحياة ليس عليك أن تكون سياسيًا لتغضب من قسوة نظام صدام في مثل هذا الجو الاجتماعي، فما زال للحيطان آذان، كما هو الحال في أي بلد ذي نظام شمولي، ذلك أن مجرد الاستماع لمثل هذا الغضب يمكن أن يترك المرء عرضة للخطر، وإذا بقيت صامتا فستكون عرضة لتقارير وكلاء أمن النظام، أما إذا عبرت عن دعمك للحكومة فقد تواجه انتقاما من الجماعة المعارضة.

عندما فقد أبو حارث عمله في الطباعة، بدأ بكتابة أعمدة كصحفي مستقل في صحف موالية للحكومة وينشر قصائده باسم مستعار، وكما هو الحال في ذلك الوقت، كان اللحم ضيفا نادرا على منزل السوداني، وإذا تمت إضافة اسمه إلى تقرير أحد المخبرين حول محادثة مقهى ولو عن طريق الخطأ فسيفقد ذلك الصك من المال الضئيل، ومع ذلك عاشت عائلة السوداني حياة مريحة نسبيًا، على الأقل بمعايير الفقراء، وكان مناف وإخوته يرون تلك الزاوية من مدينة صدام كأنها قطعة من الجنة، فقد بنى أبو حارث وأبناء عمومته منزل العائلة غير المصبوغ والمكون من ثلاث غرف من الطابوق على

قطعة أرض ركن وسط مجموعة من الطرق الترابية المزدحمة، حيث يعيش جميع أفراد الأسرة المتوسعة، وحيث يمكن للأطفال اللعب دون إشراف في جميع الأوقات.

لم يغامر عمال الصرف الصحي أبدا بالدخول إلى المنطقة، لكن بدلا من توجيه الشتائم إلى إهمال الحكومة اعتبر أبو حارث أن الوضع نعمة، فعنزات العائلة كانت تتغذى على أكوام القمامة بدلا من العلف الذي لم يكن يملك المال لشرائه، وكانت الأمهات يقمن بإعادة تدوير الجرار والزجاجات بدافع الضرورة البسيطة، وكان الأشقاء يرتدون ملابس بعضهم البعض، والجيران كانوا يعرفون أسماء بعضهم البعض وأعمالهم.

في عام ١٩٩٩ كانت البلاد كلها تعاني، ولم يجلب صراع صدام السياسي مع الأمريكان سوى الألم للعراقيين. كان العراق يختنق في ظل العقوبات الاقتصادية، والأطفال يموتون من أمراض لا يمكن الوقاية منها بسبب نقص الأدوية، وكانت صناعة النفط تتداعى لعدم وجود قطع غيار للآلات والبنية التحية، والأمة التي كانت تفتخر يوما بأنها مهد الحضارة الإنسانية جاثية على ركبتيها.

في غياب أي نقاش سياسي اتجه العراقيون نحو الدين، وأصبح المرجع الشيعي الموقر آية الله العظمى محمد محمد صادق الصدر منارا للمعارضة، مستخدما خطبه لمنح صوت لعقيدة العراقيين من جميع الأديان في أن صدامًا كان سبب معاناتهم وأن على صدام أن يرحل.

لقد منع آية الله من الظهور في التلفاز، لذلك كان ممثلوه يسافرون

في أنحاء العراق ليعظوا المصلين مباشرة في المساجد وينشروا رسالته شفهيًا. حتى العراقيون مثل عائلة السوداني الذين ابتعدوا عن السياسة، فهموا الشجاعة التي يتطلبها التحدث عن مثل هذه الأشياء بصوت عال.

لقد انفجر غضب الأمة العاجزة في أواخر شباط من ذلك العام عندما أعلنت وكالات الأنباء الرسمية عن مقتل آية الله الصدر واثنين من أبنائه، ولم يذكر البيان الرسمي المقتضب أية تفاصيل، واكتفى بالقول إن الرجال الثلاثة دفنوا بالفعل قبل غروب الشمس وفقا للشعائر الإسلامية. لقد هرع الشيعة الحائرون من مدينة البصرة الساحلية الجنوبية وحتى مدينة صدام إلى مساجدهم للصلاة من أجل زعيمهم الروحي، وانتشرت الشائعات بين الحشود كالعدوى، فقبل عدة أشهر اغتيل اثنان من أقرب مساعدي آية الله الصدر، وقبل ثلاثة أسابيع من وفاته كان مسؤول حكومي قد طلب من آية الله التخفيف من حدة انتقاداته، وعلى الرغم من أن الحشود المتلاطمة لم ترَ جثته أو تعرف أية تفاصيل، لكنهم كانوا مقتنعين بأن زعيمهم قتل على يد النظام.

كانت المشاعر في مدينة صدام موجعة، ومئات الرجال الذين تجمعوا لعدة أيام في مسجد الإمام الحسين(*) للصلاة من أجل آية الله الصدر كانوا يلطمون أنفسهم بجنون، ثم انطلقت صرخة المعركة

(*) ربما المقصود هنا هو جامع المحسن حيث وقعت فيه هذه الأحداث عقب اغتيال السيد الصدر

في أنحاء المسجد وفي الشوارع وهم يهتفون: الموت لصدام، الموت لصدام، وقد جلب النداء مئات الرجال الآخرين إلى الأرصفة المتداعية والشوارع المليئة بالحفر، مما أدى إلى ظهور حشد أصبح أكبر مظاهرة شعبية منذ عام ١٩٩١ عندما شن الأمريكان حرب الخليج ودعوا العراقيين للإطاحة بالديكتاتور بأنفسهم.

لم يكن أولاد السوداني يفهمون أن المشاكل كانت تختمر، وكانت مسألة حظ أن جميع الأولاد عادوا إلى المنزل قبل أن يندلع أزيز الرصاص. كان حارث وصديقه علي قد استقلا الحافلة ذلك الصباح نحو بغداد، وكان علي على وشك أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره، ومثل جميع العراقيين كان عليهما السوق لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية في ذلك السن، بيد أنهما كانا قد أنهيا امتحانات الدراسة الثانوية، على أمل أن يتم تأجيلهما عن الواجب من خلال الحصول على فسحة للدراسة في الجامعة.

كان علي يريد رفقة وهو يتنقل في بيروقراطية دائرة التجنيد، وكان حارث باستخدامه الماهر للكلمات وأسلوبه مع الكبار هو من يسأل، وعند الظهيرة تقريبا كان الصديقان يتجهان بالعودة إلى مدينة صدام بالحافلة حينما لاحظا عبر النافذة شاحنات محملة بالجنود يرتدون الخوذ ويحملون معدات مكافحة الشغب مصطفين على جانبي الشارع المؤدي إلى منطقتهم، وخلفهم على الطريق الرباعي شاحنات كبيرة تحمل دبابات وعربات مصفحة تغلق الشريان الرئيس للمواصلات.

كان مناف في المدرسة عندما أعلن المدير في وقت الغداء تقريبا

عن إلغاء الدروس، وأمر الأولاد بالسير مباشرة إلى المنزل دون توقف، لا كرة قدم ولا وجبات خفيفة في سوق الزاوية، فما لم يكن يعرفونه هو هذا: على بعد أقل من ثلاثة أميال، كانت هناك كتيبتان من الحرس الجمهوري العراقي ووحدة مشاة آلية قد زحفت إلى المنطقة، ممزقة الشارع الرئيس للمدينة ومحتلة الجسر المركزي الذي يفصل مدينة صدام عن وسط بغداد، وقد صدرت الأوامر للقادة بإعادة الهدوء والغالبية العظمى منهم ومن رجالهم كانوا من السنة من مختلف أنحاء البلاد ويعرفون أن الفشل ليس خيارا.

تردد صدى دوي المدفعية الثقيلة في الشوارع الضيقة تبعه دوي خفيف من بنادق أوتوماتيكية عالية القوة تضرب أهدافها وهم الناس الذين كانوا يؤدون الصلاة في مسجد الإمام الحسين. (جامع المحسن)(*)

لقد حاول الرجال والنساء الذين كانوا داخل المسجد الفرار، لكن عندما وصلوا إلى الشوارع مزقتهم عاصفة من الرصاص، فقد كان الجنود قد أقاموا منطقة قتل بعرض ١٢ مبنى، ولا يوجد مكان للاختباء، لم يجرؤ الناس الذين كانوا محظوظين بما يكفي للهرب

(*) أحداث جامع المحسن أو انتفاضة جامع المحسن هي مواجهات ضمن انتفاضة عام ١٩٩٩ في العراق والتي أعقبت اغتيال المرجع الديني آية الله السيد محمد الصدر من قبل سلطات حزب البعث برئاسة صدام حسين دارت بين أتباع الصدر ومقلديه وقوات الأمن التابعة للنظام التي هاجمت المصلين الصدريين الذين تجمعوا في جامع المحسن في مدينة الصدر (مدينة صدام آنذاك) شرق العاصمة العراقية بغداد، وقامت بفتح النار عليهم مما أدى إلى مقتل العشرات منهم.

بجروح أن يذهبوا إلى المستشفى، فقد كانت المخابرات تجوب جميع المرافق الطبية في مدينة صدام بحثا عن المصابين بطلقات نارية أو شظايا، وقد أخبروا الممرضات أنهن إما أن يخبرن أن المريض كان إرهابيًّا أو سيتم اعتقالهن واقتيادهن بعيدا».

لقد منع أبو حارث أبناءه من مغادرة المنزل لمدة ثلاثة أيام، وتراجعت الدبابات عن الجسر، لكن رسالة النظام بقيت مثل رائحة الجثث النتنة التي تركتها في الشوارع لعائلات كانت خائفة جدا من استردادها، فهم قد يأتون في أي وقت، لم يترك أبو حارث فرصة أن يقع أحد أبنائه فريسة عالقة في شباك النظام، ولم يتم القبض على أي فرد من عائلة السوداني، حتى في ثمانينيات القرن الماضي وقد أراد أن يبقي الأمر على هذا النحو.

بدأت مسيرة ما بعد الظهيرة في نيسان من عام ٢٠٠٣، بالنسبة لمناف، في تذويب مشاعر الخوف التي تجمدت في قبضة والده، ومع رحيل الديكتاتور أعاد السكان في شرق بغداد تسمية مدينتهم باسم مدينة الصدر تكريما لآية الله الشهيد. إن تصاعد الأمل قد رفع المحرمات الراسخة لدى جيل كامل، فيما انكمش بعض العراقيين في حقبة من عدم اليقين، وقفز آخرون لاستغلال الفرص التي نشأت نتيجة الاضطرابات، فقد كانت الحدود مفتوحة على مصراعيها للتجارة لأول مرة منذ عقد من الزمان، وافتتحت العديد من العائلات في مدينة الصدر أعمالا تجارية صغيرة لبيع المواد الإنشائية والسيارات المستعملة والأجهزة والسلع التي لم تكن متوفرة لسنوات

إلا في السوق السوداء، مع أن كل عراقي كان يريدها وبحاجة إليها الآن.

لقد قلب تحول البلاد ديناميكيات عائلة السودانيين، فبعد أن أعلن حارث إخفاقه في الجامعة، لم يعد مناف فكرة ثانوية بالنسبة لوالده، ففي الواقع، ولأول مرة في حياته وجد الابن الثالث نفسه موضعا لاهتمام والده، فقد أراد أبو حارث وبشدة أن يقوم أحد أبنائه بتطهير ما كان يعتبره وصمة عار في شرف العائلة، وكان مناف البالغ من العمر ١٩ عاما يتمتع بعلاقات قوية وواعدة، لكنه لم يكن مهتمًا بالعمل في مجال التجارة أو الدراسة الأكاديمية، ففي عام ٢٠٠٤ وبعد تخرجه بفترة قصيرة من الدراسة الثانوية، جلب مناف إلى المنزل نشرة وظائف إعلانية للعمل مع قوة الشرطة العراقية الجديدة.

كان الشعار في أعلى الورقة أنيقا ومحركا وهو يقول: دافع عن بلدك، دافع عن شعبك، وأدرك مناف أن المهمة كانت جديرة لإعطاء والده النغمة التي تسمح له بمتابعة حلمه، وبعد عام التحق بكلية الشرطة العراقية الجديدة، وكان في طريقه لأن يصبح واحدا من أوائل الطلاب للديمقراطية الفتية في البلاد.

الفصل الثالث

القطيعة مع الماضي



كانت أبرار الكبيسي تبلغ الخامسة عشرة من العمر حينما غزا الجيش الأمريكي العراق، مراهقة بذراعين نحيلتين وعينين داكنتين حزينتين ولديها سلوك عصبي المزاج. كانت عائلتها دائما ما تقول لها كم كانت جميلة وهشة مثل دمية من الخزف، لكنها لم تكن تعرف أبدا كيف تفسر مثل هذا الثناء.

كانت واحدة من ثلاث فتيات في أسرة ممتدة، وتعتبر أختها الكبرى تسنيم أجمل فتاة قابلتها على الإطلاق في حياتها، إلى جانب ذلك الرجل الذي غالبا ما يمتدحها وهو والدها الأعمى محمد، لكن عماتها المبصرات كن يقلن لها إن «من الأفضل أن تبدي مثل اليقطين بدلا من أن تكوني مثل ساق الفاصولياء».

لم يكن لدى أبرار شهية كبيرة للطعام، ولا حتى لـ «دولمة» والدتها الشهيرة، أكلة الخضراوات الشهيرة المحشوة بالأرز التي تصنعها ربات البيوت العراقيات في المناسبات الخاصة، ولا لحلويات «البقلاوة» التي كان يجلبها والدها إلى المنزل بعد العمل في جامعة بغداد، وببساطة لم يكن هناك ما يشير إلى أن جسدها سيطور الانثناءات التي كانت لدى عماتها، أو إنها ستتشبه إحدى الممثلات الشهوانيات في الأفلام المصرية التي يبثها التلفاز الحكومي العراقي، تلك الأفلام التي تتحدث عن العشاق سيِّئي الحظ أو الأبطال الأنيقين الذين ينتزعون امرأة جميلة بوركين عريضين وشعر بني طويل متموج من حياتها الشاقة.

مع ذلك، حتى لو لم تكن تبدو كنجمة سينما، فإن أبرار لديها موهبة

كانت تفخر بها العائلة، فقد كانت ذكية ومتأكدة من حصولها على مكان في أعرق جامعات البلاد، حيث كان والدها استاذا للدراسات الإسلامية واللغة العربية فيها.

لقد عاش الكبيسات حياة مريحة نسبيًّا، كونهم عائلة من الطبقة الوسطى في بغداد وكانوا جزءا من النخبة المتعلمة في المدينة، كما استفادوا من انتسابهم لشبكات القبائل السنية في الصحراء العراقية، وهي القاعدة السياسية التي كان صدام يتودد إليها ويدللها ويتآمر معها للبقاء في السلطة.

كانت الفقاعة التي نشأت فيها أبرار حصرية جدا، ذلك أنها نادرا ما التقت بعراقيين لم يكونوا جزءا من عائلتها الممتدة والتي تتكون من أعمام كانوا أطباء أو موظفين حكوميين رفيعي المستوى أو أساتذة جامعات مثل والدها. لقد نشأت هي وأخواتها الأربع وهن يلعبن في حديقة منزلهم المكون من طابقين في حي العامرية المحاط بالأشجار غرب بغداد، حيث كانت شجرة نخيل شاهقة محنية على سطح منزلهم وشجرة الليمون تزهر في الربيع، لم تكن آمالها تختلف عن الكثير من العراقيين

المولودين ضمن الطبقة الحاكمة والذين يعتقدون أن نجاحهم وثروتهم هما النظام الطبيعي للأشياء.

كانت عائلة الكبيسي من أفراد النخبة الحضرية في بغداد وورثة للتقاليد القديمة للمدينة عبر العالم الإسلامي كعاصمة للكتب والتعليم، فقد رفض محمد الكبيسي والد أبرار أن يسمح لإعاقته أن

تكسر غصن شجرة عائلته التي تفاخرت بأسلافها من العلماء الذين يمتدون إلى نهاية الإمبراطورية العثمانية، وكان من دواعي فخره أن يكون الأستاذ الوحيد الأعمى في جامعة بغداد، ومارس أحد أخوته مهنة الطب، والآخر كان موظفا رفيعا في وزارة التعليم العالي، وولده الأكبر يحمل شهادة الدكتوراه في هندسة الحاسوب، فيما كانت والدة أبرار تقوم بالتدريس في المدرسة الثانوية للبنات بالقرب من منزلهم.

وبقدر ما تعلم أبرار فإن كل الأطفال البغداديين قد نشؤوا كما كانت بشعور قوي بالتراث والاحترام، كما أن والداها لم يناقشا قضايا السياسة في المنزل أبدا، ولماذا يفعلون ذلك؟ فمع وجود صدام في السلطة فإن عوائلَ مثل عائلتها كانوا يعيشون بأمن وأمان.

في شارعها بالعامرية، كان الآباء يرتدون البدلات وربطات العنق ويعملون في مكاتب جيدة التجهيز، وتلك علامة على حسن السلوك والرقي، حيث لم يناقش أحد حقيقة أنه بينما كان والدها سنيًّا مثل صدام، كانت والدتها زينب شيعيَّة، فلم يكن الإسلام بالنسبة لعائلة الكبيسي يتعلق بكيفية وضع شخص ما يديه في أثناء الصلاة، أو الترتيب الذي يقومون به لزيارة بعض الأماكن المقدسة، بل دستور الكتاب الذي يحدد الأعراف الثقافية لحياتهم مثل: ما هو السلوك المناسب للفتيات الصغيرات في الأماكن العامة، أو الالتزامات الاجتماعية تجاه العائلة والجيران خلال موسم الأعياد، ومعايير النظافة التي تتمتع بها المرأة في المنزل.

لم تكن زوجات الحي، حينما يلتقين في السوق ويثرثرن، يستشهدن

بآيات قرآنية أو يقارن بين الخطب المقدسة، بل كن يعلّقن على الروابط القبلية التي لدى الأسرة، أو من حصل على أكبر عدد من الشهادات الجامعية أو ما إذا كان الشخص يتمتع بعلاقات جيدة بما يكفي للحصول على ترقية، وكن يحكمن على بعضهن البعض بهذه الطريقة.

كانت تلك هي القواعد العسيرة لشبكتهم الاجتماعية والخيط الذي يربطهم في الاتفاق المعقد بين الحاكم ورعاياه، وفي تجربة الكبيسيين، طالما عاش المرء داخل هذه الممرات المحددة جيدا، يمكن لعائلات مثلهم أن تزدهر حتى خلال مصاعب فترة التسعينيات من القرن الماضي عندما كان العراق خاضعا لعقوبات اقتصادية شديدة بسبب خطايا ديكتاتوره في أعقاب حرب الخليج، بينما كان الكثير من العراقيين معوزين بسبب نقص السلع الأساسية مثل الدواء والطعام.

لقد أقام أعضاء رفيعو المستوى في حزب صدام الحاكم شبكات تهريب واسعة استهزاءً بالعقوبات المفروضة على النظام، حيث يمكن الحصول على جميع البضائع إذا كان لدى المرء الصلات الصحيحة أو المال الكافي، وعادة ما كان منزل الكبيسي مليئا بمثل هذه الهدايا، والكتب المنشورة في الغرب والجينز الأزرق، حتى أن إخوة محمد كانوا يكسبون المال في تلك الأوقات الصعبة بفضل وظائفهم في الطب وصلاتهم القبلية مع الأردن المجاور، حيث تمكنوا من بيع المستلزمات الطبية والأدوية التي يصعب الحصول عليها في بغداد

لمرضاهم، فبعد كل شيء، كما أخبروا محمدًا ذات ليلة أن «لديهم أسرًا يريدون إطعامها أيضا».

إن من أكثر الأشياء التي كان يتباهى بها الاستاذ محمد فخرا أنه في عام ٢٠٠٢، كانت عائلته هي الأولى في العامرية إن لم تكن في غرب بغداد، حصلت على جهاز حاسوب شخصي، فقد كانت بغداد وعلى الرغم من إرثها الفخور متأخرة بشكل ميؤوس منه وراء الكثير من دول العالم عندما يتعلق الأمر بالتكنولوجيا، فقد منعت عقود من عقوبات الولايات المتحدة والأمم المتحدة استيراد معظم الأجهزة الإلكترونية، وهو أمر يكرهه المستهلكون، لكنه كان أمرا مفيدا من وجهة نظر النظام.

في ظل دولة صدام البوليسية، كان أي شيء إلكتروني، وخاصة الهواتف وأجهزة الحاسوب، تعدُّ أمرا حساسا بسبب احتمال قدرته على تخريب أجهزة المراقبة التي نصبتها قوات الأمن بعناية، لكن الأستاذ الكبيسي كان يعلم مدى أهمية عصر الكومبيوتر القادم لأولاده، فذات صباح قبل الغداء بقليل، توقفت سيارة (سوبربان جي أم سي) سوداء أمام منزلهم، كانت قادمة من العاصمة الأردنية عمان منذ الصباح الباكر، وقد أفرغ السائق نصف دزينة من الصناديق الكارتونية الضخمة التي بالكاد تدخل من الباب الأمامي لعائلة الكبيسي، وكان داخل الأغلفة الواقية للكارتونات كل المكونات اللازمة لجهاز حاسوب سطح المكتب.

لم يكن الأستاذ الكبيسي يخشى أية تداعيات سياسية بعد شرائه،

فلم تكن هناك حاجة لذلك لعائلة بمكانته، كان ابنه مصطفى يدرس علوم الحاسوب، وكان تجميع الحاسوب مهارة من المؤكد أنها ستضعه في قمة صفه الدراسي، وفي الوقت الذي كانت فيه أبرار تراقب أخاها الأكبر ينصب اللوحة الأم والقرص الصلب باستخدام مفك البراغي ومشابك الأسلاك، كان يخبرها مباشرة أن للتكنولوجيا أيضا جاذبية بالنسبة لها. عندما انتهى وضعوا الحاسوب وشاشته على مكتب في وسط غرفة المعيشة في صدارة المكان في المنزل.

على الرغم من أنه تم جلب الكومبيوتر مع وضع مصطفى فقط في الاعتبار، لكن أبرارَ أقنعت والدها باستخدامه أيضا، وأمضت ساعات في استكشاف هذه الآلة المذهلة، وتوسلت بمصطفى أن يعلمها كيف تكتب، كما كسبت المزيد من الوقت على آلة الحاسوب من خلال تبرعها بكتابة مواد محاضرات مصطفى لدروسه في الجامعة، ولحسن الحظ، شجع البغداديون من جيل والدها أن تكون بناتهم متعلمات مثل أولادهم. لم تكن شقيقتها الكبرى تسنيم تهتم كثيرا بالدراسة، فهي لم تكن تريد أكثر من أن تتزوج، لكن الجميع أدرك أن أبرار قد ورثت موهبة العائلة في التعلم.

بمجرد أن بدأ الأمريكان قصف بغداد عام ٢٠٠٣، تحولت ثقة الكبيسيين إلى خوف، فلم ينضم أحد من العائلة مباشرة إلى مسيرات الشوارع التي اندلعت في المدينة، ولأول مرة في حياته منع محمد أولاده من مغادرة المنزل. كانوا يختبئون في الداخل مساء بعد مساء خلال ربيع عام ٢٠٠٣، وكانت شاشات التلفاز في كل أنحاء العالم

العربي تبث صور الجماهير التي تحتفل بتحررها من صدام. وتتذكر أم مصطفى والدة أبرار تلك النظرة الحائرة والذهول في عيني الديكتاتور السابق عندما أسرته القوات الأمريكية، بينما محمد لم يكن يستطيع رؤية تلك الصور، لكنه كان مليئا بالهواجس بشأن تغيير الحقائق، وكان يقتبس مقولة معروفة بأن دماء العراقيين حارة.

كان الأستاذ الكبيسي على يقين من أن هذه الحمى العاطفية ستنحدر كإحدى عواصف بغداد الترابية السيئة، وهي تنشر سحبا رملية ضارة وتمحو معالم حياة أسرته، ولم يستغرق الأمر طويلا لإثبات صحة ذلك.

بحلول عام ٢٠٠٤ بدأ البؤس المكبوت وقمع الأغلبية الشيعية في العراق يغلي بغضب ضد الطائفة السنية الذين إما كانوا محرضين للنظام السابق أو مستفيدين منه بشكل سلبي، ولم تسلم أحياء بغداد الحضرية والعالمية، حيث الشوارع والشعراء والممثلون المشهورون يحاكمون فيها، فقد انتشرت عدوى الطائفية بسرعة، لدرجة وجدت العائلات نفسها على جانب محدد من خطوط المعركة التي تم رسمها بحكم الواقع الديموغرافي، حيث كانت المليشيات الشيعية تسعى بشكل متهور للانتقام من خطايا الماضي، والمليشيات السنية تحاول التمسك ببعض مظاهر الحياة التي خبروها لفترة طويلة، وقد أصبحت العامرية وحي الكبيسات نقطة اشتعال تلك الحرب.

كانت أبرار تشاهد معارك الشوارع بين المليشيات وهي تبث عبر الأخبار المسائية، لكنها في وقت مبكر من صباح أحد الأيام سمعت

ضجة غير عادية قادمة من المنزل المجاور لهم، فقد كان جيرانها يفرغون شاحنة صغيرة من المواد مثل الفرش والثلاجة وأكياس من القنب منتفخة ومربوطة بالحبال كل اثنين معا، وكان هناك زوجان لم ترهما من قبل يحاولان إسكات طفل يبكي بينما الأم كانت تبكي أيضا.

في وقت لاحق من ذلك اليوم طرقت أبرار الباب على جيرانها وهي تحمل كعكعة كعذر للزيارة ومعرفة ما كان يجري، وقد أخبرت الزوجة الشابة نور أبرار القصة، فقد كانت تعيش بسعادة مع زوجها علاء في المنطقة الجنوبية الشرقية من بغداد، والتي تدعى بغداد الجديدة، وهو مكان ممتلئ بالشقق المبنية حديثا للعائلات الشابة والمنتقلة مثل أسرتها، لكن في أحد الأيام اقتحمت إحدى فرق الموت الشيعية وهم يرتدون قمصانا وسراويل سوداء، فاجتاحت الحي واتخذوا مواقع حراسة على التقاطعات المزدحمة ونقاط التفتيش المؤدية إلى داخل المنطقة وخارجها.

وأضافت «لقد كانوا يتحدثون بلهجة معقل الشيعة في جنوب العراق، وهي نفس لهجة مدينة الصدر المجاورة، وطالب المسلحون بأموال حماية من أصحاب المتاجر الشيعية، فيما حذروا السنة بضرورة المغادرة، كما كانت هناك مجموعة من الرجال بالزي غير الرسمي للمليشيات يقفون في محطات الحافلات في المساء بانتظار عودة الرجال إلى منازلهم من العمل، ويسحبون الناس جانبا مثل رجال العصابات ويطالبون برؤية هوياتهم الشخصية الحكومية، وكانوا

يقولون للرجال الذين يحملون أسماء سنية «لا نريد جرذانًا مثلكم في حينا».

كانت الرسالة واضحة، لكن علاء لم يكن يريد الهرب من منزله، فقبل أقل منْ عام كانوا قد انتهوا من تأثيثه بمهر زفافهما، وكانت لديهم غرفة مشمسة لطفلهما، وربما كان يعتقد أن هذا الجنون سيمضي، لكن بعد ذلك دخل العنف في حياتهما بشكل مباشر، فقد استيقظ الزوجان على صوت رجال يركضون فوق سلم مبنى الشقة، وهم يصرخون بكل أنواع الألفاظ البذيئة، ثم سمعا صوت إطلاقات نارية، فقد قتل جارهم السني بالرصاص في باب منزله.

كان جسده يرقد على الأرض في بركة من الدم من حوله حتى الصباح، ولم يخاطر رجال الشرطة ولا المسعفون بالرد على المكالمة من المنطقة التي تحرسها المليشيا التي تسمى بجيش المهدي، فيما أمضى علاء ونور الليل في حزم أكبر قدر من أمتعتهما وتوجهوا إلى دار عمه جار أبرار بشكل مباشر.

مع مرور الأشهر أجبرت العائلات الشيعية في العامرية بدورها على الفرار من منازلها بعد تلقيها تهديدات بالقتل، وانتقل المزيد والمزيد من اللاجئين السنة من الأحياء الواقعة على الجانب الشرقي من النهر إلى العقارات المهجورة.

بدأ علاء الذي كان بحاجة للمال، يوصل أبرار ووالدها بسيارته إلى جامعة بغداد كل يوم، مستصحبهم عبر كتيبة من نقاط التفتيش

التي خنقت حركة المرور في المدينة، وحينما استقلوا جسر الجادرية عبر نهر دجلة الملون بالطين، كان يشير إلى الجثث التي تطفو على الماء، فقد حلت تلك الجثث الميتة محل البط الذي كان يسبح عادة في تلك المياه العميقة، لقد نبَّهت الحواجز الخرسانية التي بدأت بالنمو حول المنطقة الحكومية المعروفة باسم المنطقة الخضراء، والتصرف القاسي المستخدم من قبل الحرس في مجمع الجامعة بأن كل شيء كانت تعتبره لائقا وطبيعيًّا قد تغير.

عندما تقف وتفكر في الأمر، وهو أمر نادر الحدوث، فإن أبرار تعتقد أن اللحظة التي قررت فيها التحرك كانت حينما شاهدت عبر التلفاز، وهي تجلس على الأريكة في غرفة والديها امرأة شابة عراقية مثلها، تروي لملايين المشاهدين حادثة اغتصابها.

في ذلك المساء، أرادت أم مصطفى مشاهدة برنامج عن الطبخ، الأستاذ الكبيسي كان يريد الاستماع إلى برنامج الاتصال الهاتفي لشيخه المفضل والذي كان يركز فيه على ضياع الأخلاق في العالم العربي، لكن أبرار التي أنهت واجباتها الدراسية في جامعة بغداد، سيطرت بمنازعتها على جهاز التحكم، وحولت إلى قناة الجزيرة التي أصبحت مع بداية الحرب على العراق القناة التي يتابعها الملايين من السنة العرب كل يوم لسماع آخر التطورات بشأن مواضيع كانوا يعرفون عنها الكثير بالفعل، مثل غدر الاحتلال الأمريكي للعراق، والنية المهلكة للمليشيات الشيعية، والأسباب الجوهرية للمقاومة ضد القوات الأمريكية، والحكومة التي يهيمن

عليها الشيعة والتي وافقت على الوجود العسكري الأجنبي في بلدهم العريق.

لقد كانوا يتجمعون في منزلهم كل مساء، كل أسرة عراقية يائسة إما للترفيه والهرب من الفوضى المتصاعدة في الخارج، أو للحصول على أخبار قد توفر معلومات كافية لفهمها، وكان التلفاز هو الحل لكلا الدافعين.

في تلك الليلة الشتوية، بثّت قناة الجزيرة لقاءً مع شابة متزوجة حديثا من حي في بغداد ليس بالبعيد عن الحي الذي تسكن فيه أبرار. كانت صابرين الجنابي(*) البالغة من العمر عشرين عاما ترتدي حجابا مزينا باللونين الوردي والأبيض، وكان جسدها مغطى بالكامل برداء أسود عديم الشكل، فيما كانت مستلقية على سرير ببطانية ملونة من المخمل ووجهها مغطى بالدموع والمسكرة وعيناها البنيتان الداكنتان تتحركان جيئة وذهابا كما لو كانت خائفة.

(*) المؤلفة هنا تتحدث عن قضية صابرين الجنابي التي بثتها قناة الجزيرة بتاريخ ١٩ شباط عام ٢٠٠٧ والتي تبين فيما بعد أنها قضية مفبركة من قبل الحزب الإسلامي الذي يقوده نائب رئيس الجمهورية الهارب طارق الهاشمي، فلم يكن صابرين اسمها الحقيقي ولا تنتمي لعشيرة الجنابات واسمها الحقيقي زينب عباس حسين بحسب بيان الحزب الإسلامي لاحقا، فيما أكدت التقارير الطبية العراقية والأمريكية بطلان ادعائها وعدم تعرضها للاغتصاب، مما يشير إلى دور الإعلام القذر في تأجيج العنف الطائفي للتأثير على الرأي العام، كما حدث في قضية الكويتية نيرة ابنة السفير الكويتي في الولايات المتحدة التي فبركت قضية قتل الأطفال الخدج في أثناء الاجتياح العراقي للكويت، كان من نتيجة قضية الجنابي قتل ١٤ من رجال الشرطة العراقية على يد العصابات الإرهابية بعد عدة أيام. المترجم

تحدثت صابرين بصوت خافت بلهجة عراقية مميزة، وقد توقفت وانكسرت بشكل متكرر وهي تروي لعشرات الملايين من المشاهدين كيف قام ثلاثة من رجال الشرطة الوطنية باعتقالها والاعتداء عليها واغتصابها. وبحسب رواية صابرين فإن محنتها بدأت قبل يومين، فقد كان زوجها خارجا وكانت وحدها في المنزل عندما اقتحمت وحدة من الشرطة العراقية منزلها معلنين أنهم في عملية لمكافحة الإرهاب، وقد أخبرتها الشرطة أنهم كانوا يفتشون الشارع بحثا عن متمردين وعن أسلحة ممنوعة، ثم قيدو يديها ودفعوها في سيارة مع عشرات المحتجزين الآخرين في منطقة حي العامل وهي منطقة مختلطة لكن يوجد فيها مناطق سنية مثل منطقة أبرار(*) كانت صابرين هي المرأة الوحيد في سيارة الشرطة ولم يتم إخبارها عن سبب أخذها، لكن عندما وصلت الشرطة إلى موقعهم وبدأت في معالجة المعتقلين اتهموا صابرين بتوفير الطعام للمقاتلين السنة الذين كانوا يحاربون قوات الشرطة الوطنية ذات الأغلبية الشيعية مثلهم.

في تلك اللحظة، كما تقول، دفعوا بها إلى ملحق صغير عبارة عن غرفة صغيرة تحتوي على سرير وبندقية كلاشينكوف معلقة على الحائط، حيث قالت إن الضابط الأول اغتصبها، بينما كان يغطي فمها لكتم صراخها، وادعت بالقول: «لقد قلت له أرجوك أقسم عليك بروح أبيك وأمك أن تدعني أذهب، فرد عليَّ بالقول بروح والدتي سأدعك تذهبين لكن بشرط أن تعطيني شيئا واحدا، فقلت

(*) المؤلفة تقول إن منطقة حي العامل سنية، لكن الحقيقة أن المنطقة مختلطة. المترجم

له ماذا؟ قال: أريد اغتصابك فقلت له، لا لا أستطيع»، مشيرة إلى أنه وبعد ذلك دخل ضابط آخر وطلب من الرجل الأول المغادرة، ثم قالت لمحاورها إنها حاولت الدفاع عن نفسها «أقسم بالقرآن والنبي محمد لست من ذلك النوع من النساء «ثم شرحت كيف تعرضت للضرب من قبل الشرطي الثاني بخرطوم ماء أسود، بعدها انهارت وقالت للمراسل إنها غير قادرة على إكمال حديثها».

ساد صمت وذهول لدى الأسرة من التقرير في منزل الكبيسي، ثم بدأت أبرار تبكي ولم تتوقف لمدة العشرين دقيقة المتبقية من برنامج الأخبار الذي استمر لساعة، ولم تكن هي الوحيدة في حزنها.

لقد أذهلت المقابلة الصادمة التي شاهدتها صابرين المجتمع السني وزادت من دقات طبول الغضب المرتفعة بالفعل، ففي الأيام التي سبقت المقابلة كانت قناة الجزيرة والعديد من المحطات العربية التي تقدم خدماتها للجمهور السني قد أثارت الحكم الصادر ضد أحد جنود مشاة البحرية الأمريكية الذي اغتصب فتاة تبلغ من العمر ١٤ عاما جنوب بغداد وأقدم هو وفصيله على قتل والديها ثم أحرقوا جثث الجميع على أمل عدم القبض عليهم.

في ذلك المساء غذت قناة الجزيرة هذا الغضب من خلال عرضها لتيار مستمر من السياسيين من الطوائف السنية، طالبوا واحدا بعد آخر بالعدالة، واصفين الادعاء بأنه تلويث لشرف مجتمعهم، فبالنسبة لأمة مشلولة بعدد لا يتوقف من جرائم القتل المروعة، فإن مزاعم الاغتصاب قد كشفت ربما عن المحرم الوحيد المتبقي لدى

المجتمع، ذلك أن الجريمة مروعة لدرجة أن الحديث عنها علنا قد تسبب بشلل الاوضاع السياسية في الأيام التي تلت ذلك.

لقد اصطف السياسيون الشيعة لإدانة المرأة ودعوها بالكاذبة والمحرضة، وزعموا أن صابرين لفقت القصة لتقويض حكومة رئيس الوزراء الجديد نوري المالكي، لعدم تحقيق نتائج في كبح تصعيد الهجمات الإرهابية، ورد السياسيون السنة بوجود العديد من مزاعم الاغتصاب بين ناخبيهم.

لقد تحول الغضب إلى نوبة جنون أكبر عندما أصدر رئيس الوزراء المالكي بيانا تعهد فيه بالتحقيق مع وحدة الشرطة التي اتهمتها صابرين بارتكاب الاعتداء، لكن مكتبه أصدر بيانا متناقضا بعد ذلك بساعات دعا فيه رجال الشرطة أولئك بالأبطال واتهامات صابرين باطلة، وبعد أيام قليلة أعلنت وزارة الداخلية أنها أصدرت مذكرة توقيف بحق الفتاة واتهمتها بتعدد الأزواج ودعم الإرهاب.

في أجواء العراق السريعة الاشتعال حيث تتنافس الطائفية والعرقية، كانت المليشيات تطهر بعضها بعضا من أحياء بأكملها، وقد أطلقت هذه التطورات عاصفة نارية جديدة، فقد دعت ست مجاميع بينها القاعدة إلى القيام بهجمات انتقامية باسم استعادة شرف صابرين، لقد جعل السياسيون السنة العراقيون من صرخة المرأة الشابة تحشيدا من أجل العدالة، داعين إياها باسم «أخت الشعب» الشابة لم تظهر مرة أخرى عبر شاشة التلفاز ولا قدمت مقابلة أخرى، لكن الشابات اللواتي كن يدرسن الكيمياء مع أبرار في الجامعة لم

يتوقفن عن الحديث عن القضية.

لقد كن يعرفن، حتى لو لم يعرف ذلك قادة الدولة، أنه لا توجد امرأة عراقية تحت أي ظرف من الظروف ستعترف علنا بأنها تعرضت للاغتصاب أو تدعي تلك الجريمة زورا، فالمخاطر ببساطة كانت كبيرة للغاية منها: أولا إنها سوف تتعرض للنبذ اجتماعيًا بسبب العار الذي تجلبه مثل هذه الجريمة، وثانيا لن يوافق أحد على الزواج منها، كما يمكن أن تتعرض لفقدان حياتها، وثالثا هناك خطر إثارة سلسلة من ثأرات القتل بين العشائر، ففي حالة العراق المتدهورة كانت المحاكم العشائرية وليست المحاكم القانونية هي المكان الذي لجأت إليه العائلات الكبيرة للترضية والعدالة، وكانت جريمة الاغتصاب تحمل جزية باهظة الشدة، قد يدفع ثمنها الجاني دما.

لم تستطع أبرار النوم، وظلت عالقة في رعب حياة صابرين، لذلك وبينما كانت عائلتها تغط بالنوم قامت بتشغيل جهاز الحاسوب، وهناك في الضوء الأزرق الذي تعكسه الشاشة جلست وبثت مشاعرها لمجموعة كانت تشاركها غضبها.

لقد أصابت أنباء تدنيس صابرين الأستاذ الكبيسي بعمق أيضا، فقد شعر أنه لم يعد بإمكانه الوثوق بأساس الإنسانية لدى أشباهه من العراقيين، ففي اليوم التالي جلس هو وزوجته وأبرار على طاولة غرفة الطعام عاقدين العزم على إخبارها بعض الأخبار السيئة، نعم، لقد أخبروها بالقول: لقد قمنا بتربيتك لتحصلين على شهادة الدكتوراه كأبيك، وبالطبع كنا نتوقع منك دائما أن تستخدمي

تعليمك للحصول على وظيفة جيدة لكن، وليساعدنا الله كيف يمكننا أن نعيش مع أنفسنا إذا حدث لك شيء في الحرم الجامعي أو عند نقاط التفتيش؟.

انفجر محمد بالبكاء مأخوذا بقوة عواطفه، فهو لم يستطع فهم ما سيصبح عليه العالم، وبدأت أبرار بالبكاء متوسلة لوالديها بالسماح لها بالبقاء في الجامعة، لقد كانت دراستها مصدر الاستقرار الوحيد المتبقي لها، وكانت مصممة على متابعتها بكل قوة.

لقد شرحت لهما أبرار أنها حينما تكون في مختبرات الجامعة فإن بإمكانها إبعاد فوضى العالم في النهاية، رضخ والداها أخيرا وسمحا لها بالبقاء في فصولها الدراسية. لقد قضت أبرار أكبر وقت ممكن في المختبرات، كما أخبرت والديها، وكانت تشعر بالراحة في البرودة المعقمة في مساحة العمل، وبدلا من الفوضى والانفلات الأمني في شوارع بغداد، وجدت في مختبر الأبحاث الدقة والنظام، لكن ما لم تذكره أبرار لوالديها هو أنها كانت تبحث ببطء عن قناة لمشاعرها السياسية الناشئة.

لقد علَّمها عملها بعد ساعات وسط صفوف من الدوارق الزجاجية الضيقة العنق ومصابيح بنزن(*) كيف من السهل خلق

(*) مصباح بنزن: نسبة إلى مخترعه روبرت بنزن عام ١٨٥٠ من المعدات المختبرية الضروري وجودها في أي مختبر كيميائي، وهو موقد يعمل على الغاز (غالباً البوتان) ويصدر لهبًا ناريًا منفردًا يتكون من قاعدة معدنية مدورة مثبتة بها أسطوانة معدنية طويلة بشكل عمودي، ويستخدم للتسخين أو للتعقيم. المترجم

انفجار، إن مزج التركيبة الصحيحة من المواد الكيميائية قد يؤدي إلى دواء ينقـذ الحياة، لكن مجرد وجـود مِلّيلِتر واحد زيادة أو نقصان من سائل ما يمكن أن يؤدي إلى اشتعال عنيف.



الفصل الرابع

عـودة الـمنفـيّـيـن

في ربيع عام ٢٠٠٣ وبينما كان الأخوان السوداني يحتفلان بوصول الأمريكان إلى ساحة الفردوس وأبرار تتابع بشكل عصبي الأخبار على شاشة التلفاز، كان أبو علي البصري يقود سيارته إلى بغداد بعد قرابة عقدين في المنفى، فقد كان يطير فرحا بتحرر وطنه من ديكتاتوره.

قبل أسبوعين فقط من دخول الدبابات الأمريكية إلى العاصمة العراقية، كان أبو علي في مستشفى سويدي يساند زوجته في ولادة طفلهما الرابع، فبعد سنوات عديدة من جعل عمله في معارضة صدام له الأولوية على عائلته، تلك الحياة التي كانت مليئة بجوازات السفر المزورة، وأسابيع طويلة في جبال شمال العراق التي يسيطر عليها الأكراد، وفي منازل آمنة مختبئة في المناطق المكتظة من مدينة دمشق القديمة أو طهران، استسلم لمناشدات زوجته لصنع حياة مستقرة لها ولعائلتهما في السويد.

لقد ألغى العمل الميداني الذي يقتضيه حزبه المعارض (الدعوة)، وأدار برنامجا اجتماعيًا لمساعدة شريحة كبيرة من المهاجرين العراقيين الذين رحبت بهم السويد في التسعينيات من القرن الماضي، لكن ذلك لا يعني أنه قد تقاعد من عالم السياسة العراقية العنيف، فقد كان أبو علي يعلم، كما يعلم قادة أحزاب المعارضة العراقية الكبرى، أنه وبعد وقت قصير من أحداث الحادي عشر من أيلول بدأت إدارة بوش بالتخطيط لغزو العراق.

لم يتعلم أبو علي، في الفترة الطويلة التي قضاها في المنفى، اللغة

الإنكليزيـة، ولم يكن جزءا من مجاميع المنفى التي اختارها الأمريكان في اجتماعاتهم الأولى التي عقدت في لندن وعمان وواشنطن للحصول على المشورة في كيفية تمهيد الأرض للقوات الأمريكية وإعادة كتابة الدستور العراقي وقيادة الحكومة الانتقالية، فعلى عكس أولئك المنفيين لم يكن أبو علي قد أقام اتصالات وثيقة مع وكالة الاستخبارات المركزية أو وزارة الخارجية الأمريكية، ولم يكن مهتمًا بالتنافس معهم في إلعاب سياسية عالية الخطورة بشأن من سيتولى السيطرة على موارد الدولة أو العملية السياسية، فاما اراده اكثر من اي شيء آخر هو العودة الى وطنه، والاتصال بعائلته التي لم يرها منذ ثلاثين عاما وشم رائحة أزهار البرتقال المتفتحة في ذلك الربيع، وتقديم المساعدة في تصحيح الظلم الذي عاناه هو وملايين العراقيين الآخرين على يد مخابرات صدام.

في إحدى الليالي من عام ١٩٧٩ وحينما كان في سن المراهقة يعيش مع عائلته في منطقة السنية في البصرة، كان والد أبي علي رجلًا عذبَ الكلام، خفيف اللحية، نحيلًا مستلقيًا في المجلس، الغرفة التي تستخدم لتجمع العائلة والضيوف، وكان ظهره يستند على وسائد من الصوف الأحمر والأصفر التي تصطف على جوانب ثلاثة حيطان من الغرفة بعد العشاء. كان والده يتحدث مع صهرين له، بينما كانت والدته في الصالة داخل المطبخ تقوم بغسل الأطباق، وقد أبقت حيطان المنزل السميكة المبنية من الطين،التي بناها جد أبي علي، الغرفة دافئة بشكل لطيف بعد غروب الشمس.

كان أبو علي الشاب جالسا مع الرجال وهو يرتشف الشاي من الأقداح الزجاجية الصغيرة ضيقة العنق، التي تلقتها والدته كهدية زفاف، ولم يسمح للأطفال بلمسها قط، مع اقتراب سوق أبي علي لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، بدأت والدته بتقديم الشاي له أيضا بواحد من قطع الكنز الرقيق الذي تحتفظ به.

كان أريج أزهار البرتقال العذب ينبعث من النافذة المفتوحة في الطرف الآخر من الغرفة، بينما كان أشقاء علي وشقيقاته الأصغر يلاطفون طائر العائلة المغرد من أجل أن يغرد، ولا بدَّ أن أصوات ضحكاتهم قد غطت على حفيف الأصوات في الخارج، لأن أول علامة على أنه كان هناك خطأ ما هو صوت طرق القبضات على الباب الأمامي، فقد صاح صوت أجش من الفناء الخارجي: اخرج، اخرج أيها النغل!.

تجمد الأطفال وقد دهشوا من العنف المفاجئ، واستدار جميع من في الغرفة نحو والد أبي علي، كانت عيناه متألقتين ولكنهما كالزجاج، تذكَّر أبا علي بأرنب اصطاده عندما كان يزور مزرعة لأحد الأقارب، لكن كان هناك المزيد من دق القبضات على الباب والصوت يصيح مرة ثانية: أنت يا بن العاهرة، لقد قلت افتح الباب، وقبل أن يتمكن أي شخص من التحرك، دوى صوت طلق ناري مثل قصف الرعد، ودخل رجال يرتدون الزي العسكري للمخابرات عبر الباب المكسور إلى المدخل. لم يكونوا مضطرين للتعريف بأنفسهم، فقد فهم الجميع من هم، لكن ما ملأ الأسرة رعبًا أنهم لم يعرفوا السبب،

ولماذا هم موجودون هنا.

كان والد أبي علي عامل بناء يقضي كل ليلة مع عائلته ويحضر الصلوات اليومية في المسجد، ففي بداية الحرب الدامية بين العراق وإيران، كان الالتزام الديني بين الأغلبية الشيعية في العراق معادلا للخيانة، ففي نظر مخابرات صدام، فإن العراقيين من السنة فقط مثل زعيمهم وأعضاء حزب البعث الحاكم هم المواطنون الجديرون بالثقة، فيما كان أي شخص آخر من الذين يحتمل أن يكونوا أنصارا للحزب الشيوعي أو الشيعة هم أعداء للدولة.

شق رجل طويل يرتدي (البيرية) ونجمة على كتفه طريقه إلى مجلس العائلة، وقد أشار الضابط إلى والد أبي علي، وبدون أن ينبسوا ببنت شفة أمسك به ثلاثة رجال، وقام أحدهم بركل والد أبي علي في كليتيه وهو يلوي ذراعيه خلف ظهره، فيما قام الاثنان بجره نحو الشارع، أمسك والد أبي علي بدعامة الباب في محاولة يائسة لدرء ما هو حتمي صائحا لماذا تأخذوني؟ ما الذي فعلته؟ لماذا تعاملوني كالحيوان؟.

قام أحد رجال الأمن بضرب والد أبي علي على يديه بعقب بندقيته، فاختنق والد أبي علي بعبرته قائلا: أتوسل إليكم اتركوني، قسما بأولادي لم أرتكب أي خطأ، سمع أبو علي عويل والدته بصوت عال من المطبخ، وشعر بالدماء تتدفق إلى رأسه، وبدون أي تفكير قفز على الضابط الذي كان يسحق عظام والده صائحا: اتركنا! ابتعد عن والدي! فضحك الضابط على الصبي الصغير الذي كانت

ذراعـاه مثل الأغصان والذي لا يـزن إلا أكثر بقليل من كلب مبلَّل، فاستدار بوزنه وأرجح مؤخرة البندقية موجها إياها إلى رأس أبي علي وزأر: ابتعد عني يا بن العاهرة! ألقت الدفعة أبا علي على الجدار، فيما سحب الرجلان والد أبي علي عبر الزقاق ودفعوه في صندوق إحدى السيارات، فيما شغل السائقون محركات بقية السيارات وانطلقوا.

بحلول صبـاح اليوم التالي، كان الدليل المادي الوحيد على وجود والد أبي علي هو نصف كأس الشـاي الذي كان يشرب منه وصورته المعلقـة في الممـر الأمامي. لقد قـام أبو علي ووالدته بزيـارة كل مركز شرطة في البصرة يوميًّا ولمدة أسبوع، لكن لم يكن لدى أيٍّ منها سجل لاعتقالـه، لم يسـتطع أحد إخبـار والدة أبي علي من الـذي أصدر أمر اعتقاله، ولم يعترف أي أحد باحتجازه.

بعـد اختفاء والـد أبي عـلي كان هناك رجـال يراقبون شـارعهم، والأطفال في المدرسـة توقفوا عـن التحدث مع أبي علي وإخوته، وفي إحـدى الليـالي قام عدد مـن بلطجية الشـوارع (الشـقاوات) بإلقاء زجاجة حارقة عبر نافذة مطبخهم وأشعلوا قنينة غاز الطهي، وبالكاد اسـتطاعت العائلة الهرب مـن الحريق، وكان ذلك هـو الوقت الذي أخـبرت فيه والدة أبي علي ابنها أن الوقـت قد حان للهرب، فلم يعد له مستقبل في البصرة باعتباره الابن الأكبر للعدو المفترض للدولة.

لقـد كانت البلاد في حالة حرب مع إيران، وكانت تخشـى أن يتم اعتقاله عندما يتم إخباره بالحضور إلى التجنيد، أرادت الأم من ابنها الأكـبر أن يحاول إيجـاد حياة جديدة لنفسـه، لكن الطريقـة الوحيدة

للقيام بذلك هي التخلي عن اسم والده، فقد قالت له: إنهم يعرفون من أنت، وهذا يعني أنه لم يعد بإمكانك أن تكون ما كنت عليه. بعد عدة أيام أخذ أبو علي صرة طعام في حقيبة ظهر من قماش الكتان، واختبأ في القطار البطيء الحركة شمالا باتجاه بغداد في أول رحلة له في حياته إلى العاصمة العراقية.

حينما كان أبو علي طفلا كان يلعب مع أشقائه الصغار لعبة التخمين التي يطلقون عليها تسمية (من أنا)، لم يكن لديهم ساحة يلعبون فيها، ولم تكن لديهم قدرة على شراء كرة قدم، وهي اللعبة الأكثر شيوعا لقضاء وقت الفراغ بالنسبة للأولاد في سنهم، وعوضا عن ذلك كان هو وإخوته يتسكعون حول متجر ركن الحي حيث تشتري ربات البيوت البيض وزيت الزيتون وغاز الطهي، وحينما كان يمر غريب، يتناوب الإخوان في التخمين من أين جاء وما هي المهنة التي يمتهنها، فعلى سبيل المثال الرجل الذي يرتدي بدلة وربطة عنق وأصابعه ملطخة بالحبر من المحتمل أن يكون محاميا، والمرأة التي ترتدي العباءة الطويلة (الشادور) وتتحدث العربية بلكنة إيقاعية يمكن أن والدة جارتهم الأرملة الزائرة من لبنان، وربما كان الرجل الذي يرتدي بنطالا ملطخا والأوساخ التي تحت أظافره من البناء مثل والدهم، أما الرجل السمين ذو الساعة الذهبية فهو سمسار العقارات البخيل في المنطقة والذي يعمل أيضا مخبرا لدى النظام.

في بغداد، وحينما كان خائفا ووحيدا، استخدم أبو علي بشكل كامل مهاراته البوليسية التي صقلها حينما كان طفلا، ففي بلد مليء

بالمخبرين، لم يكن يريد لأحد أن يتذكره، لذلك ارتدى من أجل التخفي، بدلة ضيقة، وكان أسهل مكان للقيام بذلك في منطقة الكرخ؛ المنطقة التي تقع بالقرب من محطة بغداد الكبرى للسكك الحديدية، المحطة السابقة لقطار الشرق السريع، حيث كانت الشوارع المحيطة بها تعج بالشرطة، ولكن أيضا بالغرباء. كان مئات العراقيين ينزلون من القطارات في كل أسبوع بحثا عن عمل، هاربين من التجنيد ومذكرات الاعتقال مثل أبي علي، أو لتغذية الأوهام السياسية بإسقاط النظام.

كان أبو علي يقوم بتخزين الرفوف في المستودعات وتنظيف السخام من محركات القطارات ويبيع الصحف، وفي الليل كان يعتمد على لطف الغرباء، الرجال الذين يتشاركون أطباق الفاصوليا البيضاء والخبز والخيار، وركنًا نظيفًا للنوم فيه، وسرعان ما اكتشف أن هذه الشبكة من الرجال الذين فتحوا مستودعاتهم وكراجاتهم في الليل كانوا جزءا من السياسيين المختبئين، وهم من الشيعة العراقيين الذين قرروا فعل أي شيء لوقف الديكتاتور السني، أو من الشيوعيين الذين وعدوا بمنح العمال حقوقهم بعد سقوط صدام.

هكذا سمع ذلك الشاب من البصرة لأول مرة عن حزب الدعوة الإسلامية، لقد كان حزب الدعوة يتبع تعاليم رجال الدين الشيعة من النجف، مدينة الضريح العراقية وسعى للإطاحة بصدام، لقد اهتموا بتحقيق العدالة لفقراء الناس في العراق، عائلات مثل عائلة أبي علي، سرعان ما حصل على هذا اللقب من أولئك الرجال الذين

كانوا مثلـه، وكانوا يحاولون البقاء خارج شبكة مراقبة المخابرات، لقد أطلقوا عليه تسمية «اسم» هو أبو الأسماء.

لقد تحولت الحياة مرة أخرى عام ١٩٨٠، فقد تم إعدام زعيم حزب الدعوة محمد باقر الصدر من قبل النظام، وفي تلك الليلة، قام أبو علي وناشطون آخرون بملء العاصمة بمنشورات لتخليد ذكرى زعيمهم، وبعد عام واحد وبمساعدة الحكومة الإيرانية، شن حزب الدعوة هجوما انتحاريًا على السفارة العراقية في بيروت، مما أسفر عن مقتل السفير وستين عراقيًا آخرين، وفي عام ١٩٨٢ حاول طلاب كلية الطب في أرقى جامعة عراقية وفشلوا في اغتيال صدام حسين في بغداد، لقد بقيت تفاصيل الخطة سرية، لكن المخابرات اتهمت الدعوة، مما حول التنظيم إلى العدو العام الأول لدى صدام. لقد علم أبو علي وأعضاء آخرون في الخلية في العاصمة أن هناك حملة قمع قادمة، وقد تمكن أولئك من البدء في التخطيط للخروج من البلاد. وذات ليلة داهمت، وبعد منتصف الليل، المخابرات المنزل الآمن الذي كان ينام فيه أبو علي، وكان الرجال المسلحون يصيحون باسمه الذي ولد فيه عبد الكريم (*)، وليس الاسم المستعار الذي كان يستخدمه، وقد تمكن من الانسلال إلى حفرة ضحلة محفورة في أرضية المطبخ الترابية وتغطية نفسه ببساط منسوج قبل دخول

(*) لقد كتبت المؤلفة اسم ابو علي الحقيقي في ص ٥٥ هكذا: Abdel Khalid عبد الخالد بينما المعروف ان اسمه الحقيقي عبد الكريم ولاندري حقيقة هل هو خطأ من المؤلفة ام ان لابي علي اسما آخر لانعرفه فهناك الكثير من الغموض يحيط بشخصية الرجل. المترجم.

الضباط إلى الغرفة، ولحسن الحظ لم يخطر ببالهم أن ينظروا تحت السجادة.

لقد روعته الصيحة القريبة أكثر من اهتمامه بالاعتراف، ولذا قرر أبو علي أن الوقت قد حان للفرار مرة أخرى، لكنها هذه المرة خارج البلاد، وبصفته رجلا في سن التجنيد، لم يكن بإمكان أبي علي التقدم بشكل قانوني للحصول على جواز سفر دون التعرض لخطر الاعتقال، وبدون جواز السفر لم تكن لديه فرصة لعبور الحدود، لكن تم إخباره من معارفه في حزب الدعوة عن مزور يعيش على بعد شارعين، شخص يمكنه أن يمنحه وثائق السفر، لكن تلك الأخبار أقلقت أبا علي، فمن الممكن لرجل كهذا أن يبيعه أوراقا مزورة وفي اليوم التالي يبيع تلك المعلومات للمخابرات العراقية، وكان يخشى أنه يسير إلى فخ، لكن ما هو الخيار الذي كان لديه؟ فقد كانت المخابرات تطارده وقبضتهم كانت تطبق بسرعة بحسب اعتقاده.

لقد أقام أبو علي استطلاعا للمراقبة وترصد محل المزور لمدة يومين، لمعرفة الإيقاع الطبيعي لعمل الرجل، وقد أراد استخدام هذه المعرفة لكي يكوِّن خطته في أسلوب العمل حتى يستطيع الشعور فيما إذا كان هناك خطأ ما. بدا الشارع شبيها بشارعه في البصرة، حيث تقبع صفوف من المنازل الخشبية المتعفنة ذات الطابقين ممزوجة بالمباني الكونكريتية التي تعرضت للعوامل الجوية والمنثورة بالعواصف الترابية، بينما الخضراوات المتدهورة الذابلة تتعفن في زوايا الشارع، فيما كانت خطوط الهاتف والكهرباء متشابكة بشكل

معقد عبر واجهات المحلات، وكانت نساء الحي يترددن على المحل الركن لشراء الخبز والبيض والشاي، بينما الأطفال كانوا يتوجهون إلى المدرسة.

في عصر اليوم التالي قرر أبو علي أن الوقت قد حان للقيام بخطوته، فطرق الباب الحديدي للمنزل في منتصف الشارع، وفتح الباب صبي مراهق قاده إلى ورشة والده قائلا: إن والده سيعود إلى المنزل قريبا. حدق أبو علي في منضدة العمل الخشبية وصفوف الأدوات المعدنية المعلقة على المشجب، فهو لم ينم منذ ليلتين وكانت أعصابه مفعمة بالقلق، وفكر في نفسه لقد كان هذا الإعداد مثاليًّا، فكل ما يعرفه أن أولئك الناس ربما اتصلوا بالفعل بالشرطة، لكن أبا علي لم يهرب، فقد نجح في الإفلات من الاعتقال طوال ثلاث سنوات، ومهما سيحدث بعدها، قائلا لنفسه، فهو قدره وهو شيء لا يستطيع تغييره أو تجنُّبه.

بعد عدة دقائق من الانتظار، فتح الباب مرة أخرى، ولدهشة أبي علي دخلت شابة إلى الغرفة، وكانت ابنة أحد كبار أعضاء حزب الدعوة في المنطقة، واسمها سارة وقد ضحكت حينما رأت دهشته قائلة: لا تقلق، أنا لست هنا لاعتقالك، أنا هنا من أجل جواز السفر أيضا.

وقالت إن المخابرات اعتقلت والدها قبل ليلتين، وبصفتها شابة غير متزوجة بدون ولي في المنزل لم تستطع العيش بمفردها في المنزل مع الأنشطة السياسية التي شاركت فيها العائلة، فهي لم تستطع البقاء

بأمان في بغداد أيضا.

هناك في ضوء غرفة العمل الخافتة، صاغ أبو علي وسارة خطة، فكلاهما بحاجة إلى مغادرة بغداد وسيكون السفر معا أكثر أمانا، فكلاهما كان يعرف ما يستلزمه الذهاب إلى السجن من تعذيب جسدي، بالإضافة إلى وحشية الاغتصاب إذا كان السجين امرأة، كانت سارة مصممة على الهرب من هذا المصير الرهيب، ورأت في أبي علي جوابا بعيد الاحتمال لدعواتها، بينما كان أبو علي قد رأى في ذلك ضربا من العناية الإلهية.

يتزوج معظم العراقيين عند بلوغهم سن الحادية والعشرين من العمر، حيث يتم إقرانهم بزوجة من خلال مهارات الوساطة لأمهاتهم وخالاتهم وعماتهم، لكن أبا علي لم ير والدته لمدة ثلاث سنوات تقريبا، ولم يكن يعرف ما إذا كان سيراها مرة أخرى، ولم يفكر أبدا في أن مرشحة مناسبة له سوف تسير في نفس المسار الذي شاكسته به الحياة، لذلك بعد أن تحدث الاثنان للحظات فقط اتخذا قرارهما وهو أنه حينما يعود المزور إلى الورشة فإن أبا علي سيطلب منه عمل جواز سفر مزور لهما وكأنهما زوج وزوجة، وبينما كان المزور يعمل على الوثائق تسلل أبو علي خارجا إلى بيت عم سارة، حيث تقيم منذ اعتقال والدها، وبموافقته سيتزوج الاثنان رسميًا طبقا للتقاليد الإسلامية لمحو أي وصمة أو عار من سفرهما معا.

تمكن أبو علي من تأمين تذاكر القطار إلى الموصل وغادر الزوجان بغداد في اليوم التالي، كانت سارة ترتدي العباءة السوداء (الشادور)

الذي يفضله الشيعة المحافظون، وفي بداية رحلتهما كانت بحاجة إلى أن تتوارى، وكان ذلك اللباس هو التنكر المثالي لها، لكنها أغفلت خوفا من ملاحظة الحجاب التحديق في المشهد خلال رحلتها الأولى خارج بغداد بينما كان القطار يصفر شمالا مرورا بحقول القمح في محافظة ديالى والجبال المؤدية إلى إيران، وعندما وصل الزوجان إلى مدينة الموصل الشهيرة باسم منارتها المعروفة بالحدباء منذ قرون، لم يجرؤا على أخذ قسط من الراحة، حيث أن وجهتهما باتجاه الحدود التركية تتطلب رحلة ليوم آخر بالحافلة، عبر التلال الخضراء المليئة بالأزهار البرية الربيعية وسنابل محاصيل القمح التي تقف شامخة في الحقول.

واجهت الحافلة صعوبة في صعود سلسلة الجبال التي تميز الحدود العراقية، وكانت الظلال تطول، وصلى أبو علي أن لا تتعطل الحافلة، لم يكن متأكدا من أن وثائقه هو وسارة ستصمد أمام تدقيق عملاء المخابرات الذين تم إرسالهم لتفقد أي شيء غير عادي مثل حافلة مكتظة على جانب الطريق السريع. لقد غدا حظهما أسوأ، فقبل بضعة أميال من الحدود، انفتحت السماء بأمطار غزيرة وباردة، حيث توقفت الحافلة على بعد بضع مئات من الأمتار من المعبر الحدودي وسط عاصفة شديدة المطر.

قاد أبو علي سارة إلى الأمام عبر المطر حاملا حقائبهما في يد وفي اليد الأخرى يمسك ذراعها، وأضاءت أضواء مصباح (كليغل) الساطعة مناطق واسعة من المعبر الحدودي، حيث كانت السيارات

والشاحنات تنتظر المرور، أما طابور المشاة إلى حيث كانا متجهين يغوص عميقا في الظلام المؤدي إلى منزل الحرس على بعد نحو مائة وخمس وستين ياردة وهما يتقدمان ببطء عبر الطابور.

رأى أبو علي في الداخل ثلاثة رجال مسلحين مثل معظم الضباط العراقيين الذين يحملون مسدسات على أوراكهم، وقد استغرق الرجال دقائقَ بدت طويلة في تفحص كل شخص في أثناء تقديمهم لأوراقهم الثبوتية بصمت، وكانت السجائر تتدلى من أصابعهم وهم يتفحصون صفحات جوازات السفر، بينما كان الضابط المسؤول دبًّا على شكل رجل تشد بطنه الأزرار على زيه الرسمي وله شارب كثيف أسود مثل صدام.

كان أبو علي وسارة يرتجفان وقد تبلل جلداهما، وقد حاولا أن لا يفكرا بأفراد العائلة الذين تركوهما وراءهما، قائلين في سرهما إن الحياة قد تعود لطبيعتها إذا تمكنا من الخروج أحياء من العراق، لكن عليهما أن يعبرا الحدود أوَّلا.

حينما وصلا أخيرا إلى حجيرة الحراسة، ذكَّر أبو علي نفسه أن يبقى ثابتا وهادئا، وسلم جواز سفره إلى الضابط بينما كانت سارة تقف خلفه على بعد خطوتين وهي تتخبط في الماء حول قدميها، كانت جدران الكوخ مغطاة بورق فينيل بني اللون بنمط من ألياف الخشب، وهناك ثلاثة رجال يقرفصون في الزاوية وهم مقيدو الأيدي ومعصوبو العيون بغابة من آثار الكدمات على وجوههم، وكان الصمت قمعيا، بينما كانت تسقط قطرات المطر الجليدية من الأفاريز

على ظهورهم، لكن أبا علي كان مصمما على عدم إظهار الخوف.

كان جوازا سفر سارة وأبي علي باسم متزوجين حقيقيين من منطقة الكرخ حيث يعيش المزور، لم يسبق له أن التقى بهما ولم يعرفهما، لكن المهم أن الرجل وزوجته لم يتقدما أبدا بطلب جواز السفر، كما يجب أن تكون هوية الأحوال المدنية التي يحملانها نظيفة بقدر ما يتعلق الأمر بحرس الحدود، لكن الشخص الوحيد الذي كان يخشاه أبا علي هو ضابط المخابرات الذي يجلس خلف المكتب، وقد كشفت النجوم الثلاثة(*) على كتفه رتبته كنقيب.

كانت لديه السلطة لاعتقال أي شخص لمجرد أن مظهره أو لون شعره لا يعجبه. «السلام عليكم» قال أبو علي للنقيب الذي تجاهل التحية، ثم ألقى نظرة خاطفة على الجواز، ثم ركز بنظرة باردة على سارة، صائحا عليها: الجواز، أين أوراقك؟. ارتجف جسد سارة من الخوف، وقاومت غريزة الحمى بالاستدارة والعودة إلى الظلام نحو ما يشبه الأمان.

كانت يداها مختبئتين في طيَّات العباءة الضخمة، ورأى أبو علي أن يلعب دور الزوج العراقي المسيطر، فمد يده وجذب ذراعيها لتحريرهما من القماش حتى تتمكن من إيجاد جواز سفرها وتسليمه، لكن سارة بقيت جامدة وصامتة وعيناها على الأرض. فصاح

(*) المؤلفة أعطت رتبة الضابط (major) وتعني «رائد»، لكن الحقيقة أن النجوم الثلاثة على الكتف لدى الجيش العراقي السابق هي رتبة نقيب ((Captain)) وقد قمت بتصحيح ذلك / المترجم.

الضابط مرة ثانية: أين أوراقك بحق الجحيم؟ ثم بدأت نبرته المعادية تصبح أكثر عدوانية. فقد شم رائحة ضعفهم كالذئب، ثم وقف النقيب فجأة من خلف المكتب حتى اصطدم رأسه الأصلع بالمصباح المعلق في السقف، ثم نبح في وجه أبي علي لماذا ترفض هذه العاهرة أمري؟ ألا يمكنك السيطرة عليها؟ أي نوع من الرجال أنت؟ ثم قام بالنظر مرة أخرى إلى جواز سفر أبي علي ودرس المعلومات باهتمام أكبر هذه المرة، قائلا وهو يدمدم، سلمي جواز سفرك أيتها العاهرة وإلا سأجعل رجالي يأخذونك إلى الخارج ويأخذون منك ما هو أكبر.

بدأت سارة بالبكاء،،لكن أبا علي تمكن أخيرا من العثور على يديها عبر العباءة، فقام بفك أصابعها عن بعضها وسلم جواز السفر إلى النقيب بينما أمسك بهما الحارسان الآخران.

الآن بدأ هيجان الضابط، فقد بدأ بإطلاق الأسئلة بسرعة مثل بندقية كلاشنكوف، أين عاشا؟ ما هو اسم عمهم؟ كيف تحملوا تكاليف رحلتهم إلى تركيا؟ كم من الوقت سيسافرون؟ ولم يكن أبو علي يعرف ماذا يقطر منه هل هي قطرات الرعب أم قطرات المطر، فقد كان يعلم أن حياتهما ستنتهي إذا جرهما الحراس بعيدا، لذا حاول أن يظل هادئا وأبقى عينيه مركزة على نسيج القماش فوق الركبة اليمنى للنقيب مباشرة، وذكر نفسه أن الله كريم وسيساعده على البقاء.

فقط في تلك اللحظة، اندلعت جلبة خارج منزل الحرس وسط

حشد من الأشخاص الذين دخلوا العراق من الجانب التركي من الحدود، فقد كانت هناك نساء تصرخ وتنتحب والحراس العراقيون يهددون بفتح النار، مما دفع النقيب إلى أن يأمر رجاله بالتحقيق في المشاجرة، فترك الحرس أبا علي وسارة واندفعوا خارجا نحو المطر، أشعل النقيب سيجارة جديدة، وعندما رمى الولاعة على مكتبه، التقط جوازي السفر ورمى بهما باتجاه أبي علي.

جاءت الحركة على شكل مفاجأة، حيث لم يكن أبو علي سريعا بما يكفي لالتقاطهما، وسقطت الأوراق في بركة ماء تكونت حول عباءة سارة، ثم صرخ النقيب على الزوجين، اغربا عن وجهي من هنا، وهو يلوح بسيجارته لهما كما لو أنه يضرب ذبابة.

أمسك أبو علي بيد سارة وتوجها بأسرع ما يمكن إلى الحافلة في انتظار اصطحاب المسافرين عبر المنطقة المحايدة إلى تركيا قائلا لزوجته بينما الحافلة تبتعد لا تنظري إلى الوراء، فلن يستطيعوا أن يؤذونا الآن.

بعد أربعة أيام وصل أبو علي وسارة إلى دمشق، وتوجها من محطة الحافلات المركزية إلى المنطقة القريبة مما كان يعرف سابقا باسم الحي اليهودي في المدينة القديمة، لقد كانا بحاجة ماسة للطعام ومكان للنوم، لذا توجها إلى المكان الوحيد الذي يعرفانه وهو مكتب حزب الدعوة، ومرة أخرى بدأ القدر كما لو أنه يبتسم للزوجين، فبينما كانا ينتظران في المكتب، وصل زعيم جماعة المعارضة في سوريا، وهو موظف حكومي عراقي سابق، ضامر ونحيف تحول إلى جذوة دينية

اسمها (جواد) نوري المالكي.

بعد بضعة أقداح من الشاي أبدى المالكي إعجابه بهذا الرجل العذب الكلام والذي كان يمتلك معرفة موسوعية بالحركة السرية في بغداد، وقبل انتهاء فترة الظهيرة، عين المالكي أبا علي للعمل معه، ولم يمض وقت طويل حتى تحول أبو علي من مسؤولية المهام البيروقراطية مثل ملء الأوراق لتمديد تصاريح إقامة أعضاء حزب الدعوة في سوريا إلى المساعدة في المهمات الأكثر حساسية.

كانت واحدة من تلك المهمات تحقيق خطة المالكي لتدريب عناصر حزب الدعوة في معسكر داخل إيران، في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الشيعية هناك في حالة حرب مع صدام، وكان حريصا على مساعدة الإخوان العراقيين في الدين ضد الديكتاتور.

لقد دعمت اللوجستيات والأموال الإيرانية جميع أحزاب المعارضة العراقية، في وقت كان فيه الأمريكان يدعمون الديكتاتور العراقي. إن موقع العراق كثالث أكبر منتج للنفط في العالم قد اعطت صدامًا خزانة حرب وفيرة المال للدفع مقابل الولاء، وقد مات الكثير من المنشقين على النظام في ظروف مريبة سواء في الداخل أو في أوروبا، حيث حفظت المعارضة العراقية قائمة من الدول غير الآمنة بالنسبة لهم.

لقد كانت اليونان دولة خطرة بالنظر إلى حجم الفساد في قوات الشرطة هناك، وكانت الأردن أكثر خطورة، لأن كل عربي يعرف أن الملك حافظ على عرشه بسبب الاعانات الاقتصادية الكبيرة

التي دفعها العراق له. كانت طريقة العرب لبناء العلاقات بسيطة وتصالحية فإذا طلب صدام من الأردنيين عدم السماح لمعارض سياسي بدخول البلاد، كانوا يمتثلون لهذا الأمر، وإذا أراد صدام اغتيال شخص ما في الأردن كانوا يغضون النظر عن ذلك.

لقد أمضى أبو علي عشر سنوات متنقلا بين سوريا وإيران، بكل جد، لبناء قسم مكافحة التجسس التابع لحزب الدعوة، والذي أثمر عن عملاء ومصادر داخل النظام لجمع المعلومات عن عدوهم وتتبع تحركات عملاء صدام الذين كانوا يحاولون التسلل إلى الحزب، وقد عززت شبكة الاستخبارات من سمعة أبي علي لأنه كان يساعد في الحفاظ على قادة المعارضة بأمان.

لقد كانت حياة جديدة وغريبة وغير متوقعة بالنسبة لأبي علي، أنجبت سارة طفلهما الأول، ثم طفلين آخرين في المنفى بين دمشق وطهران، فيما عملت على تشكيل حياة العراقيين الآخرين في المنفى بين دمشق وطهران، كانت الأخبار القادمة من داخل العراق قاتمة، فبعد هربهما، تم القبض على اثنتين من شقيقات سارة، وقد علما فيما بعد أنهما تعرضتا للاغتصاب والقتل في السجن، فيما توفي عمها الذي وافق على زواجها في سجن عراقي.

في عام ١٩٩١ وعندما بدأت حرب الخليج، كان أبو علي وبقية العراقيين المعارضين مبتهجين، فالقوات الأمريكية قد سحقت قوات صدام، وكان النظام في حالة من الفوضى، فيما طلب الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب من العراقيين أن ينتفضوا ضد

الديكتاتـور قائلا إنـه «يجب أن يأخذوا زمام الأمـور بأيديهم لإجبار الديكتاتـور صـدام حسـين عـلى التنحـي»، وهـذا بالضبط مـا فعله أنصـار الدعـوة والآلاف مـن الشـيعة الآخريـن، فقد اسـتولوا على مبـاني البلديات والثكنات التي تخلت عنها قوات صدام ومسـؤولوه في انسـحابهم الفوضـوي أمام القـوات الأمريكية، وقامـوا بمطاردة الرجـال الذيـن اضطهدوهم لفـترة طويلة، لكن الأمور سـاءت بعد ذلك بشـكل مرعـب، فقد انسـحبت القـوات الأمريكية مـن البلاد تاركـة صـدام قويًّا بما يكفي للانتقام، وبدلا مـن أن تتاح لهم الفرصة لبناء بلد جديد تم ذبح المعارضة الشيعية.

لم يكن أبو علي يسـتطيع سـوى أن يهتز حزنا، هل ضيع حياته على حلم ساذج بالحرية؟ لقد بدا له أن دفع ثمن قضاء سنوات في مساعدة المعارضـة ضد صدام كان بلا قيمة، خصوصـا عندما وصل إليه بعد فترة وجيزة من الانتفاضة الكارثية خبر وفاة والدته.

لقـد كان أبـو عـلي كئيبـا ومرهقـا، فلأول مـرة منـذ أن هرب هو وسـارة من العـراق، كان يفكر في القيام بشيء مختلـف في حياته، لقد توسـلت به سـارة أن ينقل أسرته إلى مكان أكثـر أمنا وأن يترك عمله وراءه ويحـاول أن يعيش حياة هادئـة، وقد امتثل لذلك، ومثل آلاف العائـلات الأخرى للمعارضة قدما طلبا للحصول على اللجوء، وفي غضون عام استقرَّا في السويد، منضمَّين إلى الهجرة الجماعية للمثقفين ورجـال الأعمال ورجال أكثر بسـاطة مثله لم يكن لديهم مسـتقبل في وطنهم.

لقد كافحت سارة مع طقس الشتاء وأشهر من الظلام والبرد القارس، لكنها استمتعت بالنظام والروتين السويدي، فلأول مرة منذ عقد من الزمان كان لديهما ما يشبه الحياة الطبيعية. لقد أدرك أبو علي أن هذه الخطوة كانت عملية وضرورية، مثل معطف الشتاء المستعمل الذي حصل عليه في مركز الرعاية حينما وصلا إلى تلك البلاد المتجمدة، لكنه لم يكن مرتاحا تماما، فقد تعلم اللغة السويدية مثل أطفاله، وبدأ برنامج ما بعد المدرسة للمراهقين المهاجرين، لكنه ظل مهووسا بالسياسة العراقية.

في كل ليلة عند العشاء كان أبو علي يرى السعادة على وجه سارة عندما يجلسون جميعا على المائدة، لكنه كان صريحا، فلم يشعر بأنه في وطنه، صحيح أنه في السويد لم يكن هناك ما يدعو إلى التنبه إلى ما وراء ظهرك، ولا سبب للعيش باسم مستعار، فقد كان الناس يثقون في حكومتهم، لكنه حينما يتذكر العراق فإن بلاده لا تزال تعاني.

لقد قال صدام ذات مرة مازحا بأنه يعرف الخونة قبل أن يتأكدوا حتى في أنفسهم أنهم سيخونونه، وكان العراقيون يعرفون أن الديكتاتور لم يكن يبالغ، وبحلول الوقت الذي تم فيه الإطاحة بصدام عام ٢٠٠٣، لم يتمكن العراقيون من تسمية مختلف الوكالات والإدارات وقوات الأمن التي تعمل بأي وسيلة ضرورية للمساعدة في استئصال أعدائه من السكان، فقد امتد تقرير وكالة الاستخبارات المركزية لعام ١٩٧٩ لأكثر من أربعين صفحة في وصفه لأسماء وواجبات هذه الوكالات المختلفة، حيث تشبه متاهة الأجهزة

الأمنيـة تلك المعادل البيروقراطي للوحة الرسـام الهولندي موريتس كورنيليـس إيشر(*) (سـلالم الفنـان) الموجودة بدون أسـس منطقية، فهـي تتصاعد من خبايا الظل نحو شـبكة معقدة من المسـارات التي تنحني إلى الخلف في حلقة لا نهائية من الرعب.

عـلى الورق بدت تلك الصروح صلبة وعملية، لكن عندما أطاح الأمريكان بصدام فإن تلك الهياكل كانت جاهزة للسقوط تحت وطأة تاريخها الفاسد، وقد قرر المسؤولون الأمريكان الذين خططوا للغزو مسـبقا إنـه بمجرد قيام جيشـهم بالإطاحـة بصدام، سـيتعين عليهم استبدال القيادة الكاملة للقوات المسلحة والأجهزة الأمنية.

في عام ٢٠٠٤ اتخذ الرجل الذي شغل منصب السلطة الأمريكية الحاكمـة في العراق بول بريمر هذا القرار رسـميًّا مـن خلال التوقيع عـلى المرسـومين رقـم ٢ ورقـم ٣ لسـلطة الائتـلاف المؤقتـة وفصل الآلاف من رجال الجيش العراقي السـابق وعملاء المخابرات بسبب علاقاتهم مع النظام السابق.

بـدلا من ذلـك، كان لـدى الأمريـكان خطط لبنـاء جيش جديد وجهـاز مخابـرات وقوات شرطة، وكان لديهم العديد من المرشـحين

(*) (Maurits Cornelis Escher) مورتيـس كورنليس إيشر ١٨٩٨ - ١٩٧٢ رسام هولندي يعرف بلوحاته المستوحاة من الرياضيات مما جعله رائداً في مجال محاولة تمثيـل المفارقـات الرياضية عن طريـق الفن، وتظهـر في لوحاته العديد مـن التراكيب المستحيلة ومحـاولات استكشـاف اللانهايـة والعـمارة، وتعتـبر لوحتـه سـلالم الفنان (the artist’s staircases) من اللوحات التي تصور سـلالم غير منطقية بأسلوب السريالية. المترجم

لتولي القيادة، ولم يكن اسم أبي علي على تلك القوائم، وفي الحقيقة لم تكن لدى الأمريكان أية فكرة من هو أبو علي هذا.

من وجهة نظر وكالة الاستخبارات المركزية، كان الرجل الوحيد المرشح لهذا المنصب على رأس جهاز المخابرات الوطني الذي كلف مليار دولار، هو جنرال عراقي متقاعد كان مدرجا على كشوف رواتب الوكالة لمدة عشرين عاما وأصبح رفيق الشرب لجيل من كبار المسؤولين وهو الجنرال محمد الشهواني، قائد القوات الخاصة العراقية المتقاعد والمصارع الأولمبي السابق، فقد كانت لديه مشية رجل عدواني اعتاد أن يشق طريقه، وقد نجح ذات مرة في أن يكون عضوًا في الدائرة المقربة من صدام، ومثل الرجل الذي أصبح ديكتاتورا تم تدريبه كضابط.

مع وصول صدام إلى السلطة السياسية، ارتقى الشهواني في صفوف القوات المسلحة المحترفة، وأصبح قائدا محترما وشجاعا، من نوع الأشخاص الذين يقودون رجالهم إلى الخطر بدلا من الجلوس في راحة بعيدا عن القتال.

مع ذلك، فإن مآثر الشهواني خلال الحرب الإيرانية العراقية الكارثية، وضعته في مرمى نيران الديكتاتور المصاب بجنون العظمة بشكل متزايد، كما أخبر أصدقاءه الأمريكان في وقت لاحق، لذا قرر مغادرة البلاد في التسعينيات إلى الأردن المجاورة ومن ثم إلى ولاية فرجينيا.

في أمريكا اشترى الشهواني منزلا في ضاحية تقع بالقرب من مقر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ثم ساعد في تقديم المشورة

للأمريكان في حرب الخليج عام ١٩٩١، وظل على جدول الرواتب الأمريكية ليقود بعد ذلك محاولة انقلاب فاشلة ضد صدام عام ١٩٩٦، فقد كشفت مخابرات النظام المؤامرة، عندما ألقت القبض على شيخ عشيرة سني كان يحمل معدات اتصالات متطورة إلى العراق، وأعدمت المخابرات الشبكة بأكملها بما فيهم أبناء الشهواني، ولإلغاء أي شك في أن الشبكة قد تم الكشف عنها أرسل العراقيون رسالة إلى الأمريكان باستخدام المعدات التي استولت عليها المخابرات كتبوا فيها «اللعبة انتهت».

مع ذلك، فإن انهيار تلك المؤامرة لم يفعل الكثير لتبديد سمعة الشهواني بين داعميه من الأمريكان، فقد أصبح لديهم الآن سبب للإعجاب بشجاعة شخصية هذا العراقي وثباته في أعقاب وفاة أبنائه، إلى جانب ذلك كانوا يأتون في فترات ما بعد الظهر الطويلة لأجل حفلات الشواء وشرب الويسكي معا، وقد توصلوا بالفعل إلى أن الشهواني كان يشاركهم نفس النظرة العالمية بأن العدو الرئيس لأمريكا في الشرق الأوسط هو إيران، وأنه يجب محاربة قادتها الشيعة المتشددين بأي وسيلة ضرورية.

بحلول نهاية العام الأول من الاحتلال الأمريكي للعراق، فإن هذه النظرة هي من ساهمت في ترسيخ قرار وكالة الاستخبارات الأمريكية بتعيين الشهواني رئيسا جديدا للمخابرات في بلاده، فقد كانت الأيديولوجية المهيمنة في واشنطن في ذلك الوقت أن الولايات المتحدة تواجه تهديدا ثلاثيًا من محور الشر بضمنه إيران وسوريا

وكوريا الشمالية.

منذ لحظة إعلان تعيينه في نيسان من عام ٢٠٠٤ ترسخ الشهواني في بهارج السلطة وأصبح حراسه الشخصيون ذوو العيون القاسية مشهورين بسمعتهم السيئة في منطقة بغداد الحكومية، المنطقة الخضراء، بغطرستهم وعدوانيتهم، وكان رتله المكون من سيارات جي أم سي سوبر بان المدرعة يوصله يوميًّا إلى العمل في مقر المخابرات القديمة في عهد صدام، وهو هيكل خرساني أصفر مكون من اثني عشر طابقا تم بناؤه بنفس التصميم السوفييتي الموجود في الدول العميلة لموسكو حول العالم.

كانت الوكالة هي الأقوى والأكثر تمويلا من بين الإدارات الحكومية، ولمدة ثلاث سنوات دفع دافعو الضرائب الأمريكان مليار دولار سنويا لتجهيزها بدءًا من السجاد الصناعي، إلى المكاتب ذات الإطارات المعدنية، إلى أقلام الحبر إلى إضاءة الممرات في السقوف.

لم يمض وقت طويل حتى بدأ رجال الشهواني يشيرون إلى وكالتهم باسم «الشركات» أو الشركة مقلدين الاسم المستعار الذي كان لدى نظرائهم في مجمع لانغلي المرادف لوكالة الاستخبارات المركزية، لكن كانت هناك مشكلة فاضحة في ذلك النظام، فقد كان الشهواني يمتلك تفويضا مطلقا لتوظيف من يراه ضروريًّا وموثوقا به للحفاظ على أمن الوطن، وفي عصر يتسم بسرعة زعزعة الاستقرار الامني، فإن ذلك يعني عمليًّا أنه أعاد توظيف العديد من ضباط المخابرات في عهد صدام، أي أعاد نفس الكادر من الرجال الذين أمضوا عقودا

طويلة في مطاردة وتعذيب واعتقال الأشخاص الذين يديرون البلاد اليوم، والذين كانوا مثل الشهواني من السنة أيضا.

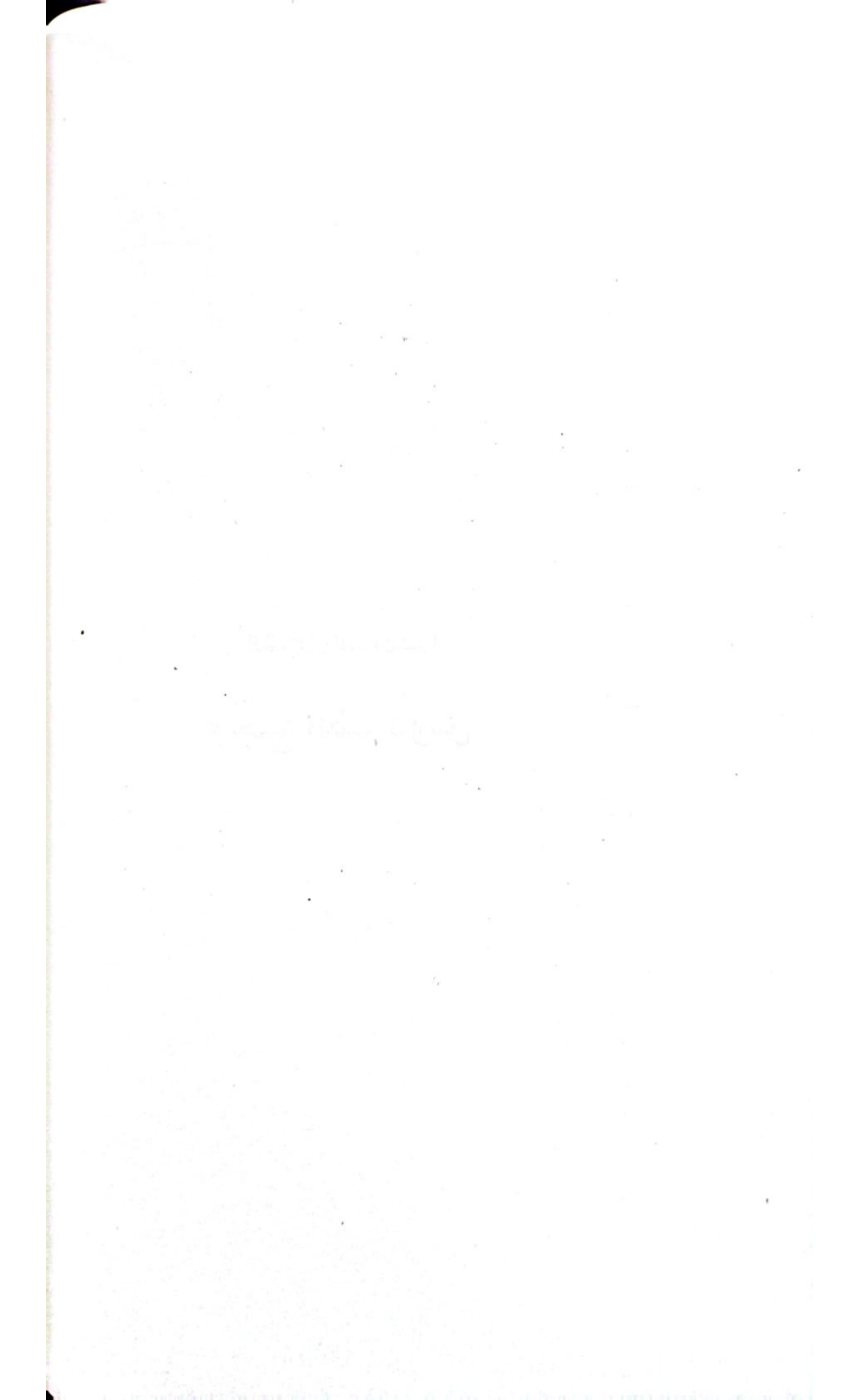
لقد تركز جهد المخابرات الجديدة على التجسس ضد التهديدات الإيرانية المزعومة على عكس الإرهابيين من الجهاديين السنة الذين يقتلون الشيعة الأبرياء، مما سمم علاقات الشهواني مع السلطة الحاكمة العراقية الجديدة التي يهيمن عليها الشيعة.

لقد بدا الأمريكيون غير مدركين أو غير مهتمين بنتائج هذا الوضع، ولم يدرك الأمريكان أن لديهم الرجل الخطأ في الوظيفة إلا بعد فوضى التمرد التي اجتاحت البلاد.



الفصل الخامس

وجـع الفـردوس



لأكثر من ألف عام ظلت القبة الذهبية لضريح العسكريين في سامراء تتألق بالنور المقدس على السهول الخصبة في وسط العراق، فقد كانت تلك الأعجوبة المعمارية ذروة الإبداع الإنساني، فهي أكبر قبة أقيمت في تأريخ البشرية لتشريف أكبر مدينة في العالم الإسلامي.

لقد دفن تحت المبنى المكسو بالبلاط المتشابك والذي يبلغ ارتفاعه ١٥٠ قدما اثنان من ذرية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، من الأئمة الاثني عشر المحوريين في العقيدة الشيعية بعد أن توفوا على يد الخليفة العباسي السني خلال حروب الخلافة المتتالية بين السنة والشيعة في القرن التاسع الميلادي.

«وبحسب العقيدة الشيعية، فإن الإمام الثاني عشر سيجلب الخلاص للعالم عندما يخرج من سرداب تحت الضريح(*) ويقود الأتقياء إلى الجنة. بالنسبة للشيعة المخلصين سواء كانوا فلاحين أو شعراء أو أطباء أو ربات بيوت من الذين دمرت حياتهم بسبب الحرب أو سحقها الديكتاتوريون الظالمون، فإن الضريح كان يشع بالعزاء كتذكير بأن ألمهم في سبيل الجنة سوف يتحقق».

(*) لقد أخطأت المؤلفة هنا وهي من غير المسلمين بالتعرض لقضية حساسة تتعلق بالعقائد ونقلت كلاما ليس من العقيدة الشيعية في شيء، بل ربما يكون افتراءً عليهم من غيرهم، وكان من الأفضل لها وهي في العراق أن تسأل المتخصصين ورجال الدين قبل طرح مثل هذه الفكرة الساذجة، فالإمام الثاني عشر لدى الشيعة أو المهدي فكرة موجودة في كل عقائد المسلمين، وفكرة المسيح المخلص وشخصية المخلص موجودة في كل الأديان وهو لا يختبئ لدى الشيعة في سرداب، وليس للأمر علاقة بظهوره لكنني أوردت كلام المؤلفة من باب أمانة الترجمة وهي وحدها تتحمل مسؤوليته. المترجم

حينما غزا الأمريكان العراق تم تقليل أهمية الأماكن المقدسة فيه بالكامل، لكن بحلول عام ٢٠٠٦ وبينما كان السياسيون العراقيون يتنازعون على السلطة في بغداد والمسؤولون الأمريكان يكافحون من أجل إحلال النظام في بلد تمزقه أعمال العنف الطائفي، كانت القاعدة تستعد للقيام بهجمات إرهابية وكان زعيمها هو (أبا مصعب الزرقاوي)(*) والتي كان يأمل من خلالها إشعال المعارك اللاهوتية الملطخة بالدماء التي اندلعت في العراق قبل ألف ومائتي عام.

في اجتماع سري عقد في كانون الثاني من عام ٢٠٠٦ على بعد أميال قليلة خارج سامراء وعلى بعد عشرات الأميال من أكبر قاعدة عسكرية أمريكية، اختار كبار قادة القاعدة المدينة المقدسة كموقع للهجوم من أجل إشعال هذه الحرب الأهلية الجديدة.

في الجو البارد قبل فجر يوم ٢٢ شباط، تسلل ثمانية مسلحين عبر الممرات الضيقة لمدينة سامراء القديمة، متعرجين عبر الأزقة الخالية ومتسربين وهم يتجاوزون المتاجر المملوكة للأسر، والتي كانت مغلقة طوال الليل، وكان الرجال اثنين من العراقيين واربعة يحملون الجنسية السعودية واثنين من تونس وهم يرتدون زيا مسروقا من

(*) أخطأت المؤلفة هنا مرة ثانية خطأً فادحًا بالاسم فقد كتبت (Ayman al-Zarqawi) وتعني أيمن الزرقاوي، ولا وجود لمثل هذا الشخص في العراق، والصحيح هو أبو مصعب الزرقاوي الاسم الحركي للإرهابي الأردني الجنسية أحمد فضيل نزال الخلايلة قيادي في القاعدة أعلنت لاحقاً الحكومة الأردنية سحب الجنسية منه، وقتل في غارة جوية أمريكية في صباح ٧ حزيران عام ٢٠٠٦ وقد قمت بتصحيح الاسم هنا لفداحة الخطأ. المترجم.

الجيش العراقي مما يسمح لهم بالتحرك دون اعتراض.

كانت المدينة تخضع لحظر تجوال منذ عدة أشهر، ولم يكن أحد يتجول في الشوارع الضيقة الساكنة دون إذن، لكنهم وصلوا إلى هدفهم كما هو مخطط لهم وهزموا الحراس النائمين بسرعة، لكنهم أبقوا عليهم أحياء مقيدين ومحبوسين في غرفة المخزن، ثم قام الإرهابيون بربط قلادة من المتفجرات المتطورة حول الحرم في عرض للخبرة أثار وقعا مخيفا لدى فرق الذخائر التابعة للتحالف الأمريكي.

في الساعة السادسة واثنتين وعشرين دقيقة صباحا انفجرت القبة كنجم ساقط من السماء وتطاير اثنان وسبعون ألف قطعة من البلاط الذهبي إلى أشلاء، تاركا فجوة كبيرة من الحطام واليأس، ترددت أصداء قوة الانفجار عبر السهول المكسوة بالصقيع، واستيقظ سكان سامراء معتقدين بحدوث زلزال في المنطقة، وبمعنى ما فقد كانوا على حق، فكما تحطمت قبة سامراء الذهبية إلى ملايين القطع الممزقة، كذلك أصبح المجتمع العراقي.

لقد اهتاجت جماهير الشيعة من شوارع بغداد إلى أقصى الجنوب في مدينة البصرة الساحلية غضبا من تدمير مزارهم، وبحلول نهاية ذلك اليوم أعلنت وزارة الداخلية أنه تم مهاجمة ٢٧ مسجدا في بغداد وحدها وقتل البعض من رجال الدين السنة، وفي إحدى الحالات ورد أن مسلحين شيعة زعموا أنهم من رجال الشرطة قاموا بإخراج أربعة وعشرين سجينا سنيًّا من السجن وقتلوهم، وبمرور الأيام أفادت الدوريات العسكرية الأمريكية بالعثور على عشرات الجثث

من السنة وركبهم مثقوبة.

بحلـول نهاية الأسـبوع ووفقـا لتقديرات الجيـش الأمريكي فقد قتـل ألف عراقي، لقد بـدأت الحرب الأهلية، وجـاء معها إدراك أن محـاولات أمريكا في الأشـهر الأربعة والعشرين الماضيـة لإعادة بناء بنية تحتية استخباراتية قد باءت بالفشل.

كان أبـو علي البصري في مسـقط رأسـه في جنوب العـراق عندما سـمع نبأ الهجوم على الضريح، فقد كان لعدة أشـهر غارقا في عملية إعـادة التواصـل مع العائلة واسـتيعاب المعاناة التـي تحمَّلوها خلال سنوات نفيه، وفي جنازات أقارب اعتقلهم النظام واختفوا، وفي الفقر بسبب بطالة الرجال في الأسرة بسبب انتمائهم إليه كعدو لصدام، وفي الأرامل اللواتي مرضن ومتن وحيدات دون أن يحصلن على إجابات على أسئلتهن المعلقة بشأن ما حدث لأحبائهن.

لقد كان أبو علي في البصرة على بعد مئات الأميال من الاضطرابات التي حدثت في العاصمة، لكنه كان يعتقد أن لديه أذنًا صاغية بشكل جيـد للواقع الاجتماعي في العراق. بالنسـبة للكثـير من الناس الذين فقـدوا الكثير خلال سـنوات حكم صدام، أصبحـت المواقع الدينية في البـلاد بلسـما لجراحهم، وبحلول عـام ٢٠٠٦ حينـما كان العراق يتأرجـح على حافة الفوضى، فإن حالة اليأس والقنوط جعلت الهوية الدينيـة أكثـر حيويـة، وفي الواقع فإن تـرك كلٍّ من القـادة العراقيين الجدد وسـلطة التحالف الأمريكي الأماكن المقدسـة عرضةً لهجمات القاعدة كان فشلا استخباريًّا ملحميًّا.

لقد كانت استراتيجية القاعدة ناجحة بشكل ساحق بالنسبة للمدنيين الذين يحاولون مواجهة الخوف المستمر من الهجوم الإرهابي التالي، وفي الواقع بينما كانت الطبقات السياسية الجديدة في بغداد تتنافس على السلطة في عراق ما بعد صدام، كان زعيم القاعدة أسامة بن لادن وزعيم فرع التنظيم الإرهابي في العراق أبو مصعب الزرقاوي ينفذان حملة فعالة لتدمير البلاد بهجمات مخطط لها بشكل معقد.

لقد كان مسعى زعيم التنظيم الأردني الجنسية والمحارب القديم في القاعدة أبي مصعب الزرقاوي في عام ٢٠٠٣ في العراق، هو أنه قد قرر أن مصيره يكمن في تحقيق هدف الجماعة الديني لبناء إمبراطورية إسلامية سنية جديدة، هي نسخة طبق الأصل من السلطة الحاكمة في العصور الوسطى والتي تسمى بالخلافة، فقد كانت رغبة القاعدة تصفية المجتمع لإعادة خلق ما يعدونه المثالية الدينية للقرن الثامن الميلادي، وهو الوقت الذي عاش فيه النبي محمد وأزدهر الإسلام.

كان المكان الذي قرر فيه الزرقاوي تفعيل حلمه الثوري هو العراق، ولجعل الخطة تعمل، كما كان يعتقد، فإن على أتباعه أن يقتلوا الأغلبية غير السنية في البلاد من الشيعة والمسيحيين والأقليات الأخرى كذلك، والمنطق في ذلك بسيط ووحشي، فكلما قتلت القاعدة المزيد من الشيعة والغربيين، تحقق حلم الزرقاوي بشكل أسرع.

لقد اجتذب الإرهابي الأردني الجنسية الآلاف من المقاتلين الإسلاميين السنة الأجانب المتعصبين، وفي الوقت نفسه اكتسبت

حملته زخما من التعاون مع المتمردين السنة في العراق الذين لم تكن لديهم دوافع دينية، لكنهم كانوا يشعرون بالغضب من فقدان السلطة والمكانة التي كانوا يتمتعون بها تحت حكم صدام حسين.

كان مجلس الأمن الوطني العراقي يسجل بدقة العدد الفاحش من القتلى أسبوعًا بعد أسبوع، ففي ١٩ كانون الأول من عام ٢٠٠٤ أسفر تفجيران مزدوجان عن مقتل ٧٠ شخصا في النجف وكربلاء وهما مدينتان تضمان اثنين من أكثر المزارات الشيعية احتراما في العالم، كما انفجرت سيارة ملغومة في بغداد خارج مقر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وأسفر عن مقتل ١٣ شخصا، وكاد يفقد فيها الزعيم السياسي الشيعي العراقي البارز عبد العزيز الحكيم حياته، وفي ٢٢ شباط من عام ٢٠٠٥ في أثناء مراسم عاشوراء نفذ عملاء الزرقاوي خمس هجمات انتحارية منسقة في أنحاء بغداد أسفرت عن مقتل ٣٩ شخصا وجرح ١٥٠ آخرين، وبعد أقل من أسبوع قتل انتحاري بسيارة مفخخة أرسله ابن عم الزرقاوي من الأنبار ١٢٢ مجندا في الجيش والشرطة العراقية في مدينة الحلة ذات الأغلبية الشيعية، وهي البلدة التي تم فيها اكتشاف أكبر مقبرة جماعية بحجم ملعب لكرة القدم، حيث احتوت على جثث أولئك الذي حاولوا الإطاحة بصدام بطلب من الأمريكان عام ١٩٩١، وفي ذلك الوقت عام ٢٠٠٥ اعتبر تفجير الحلة أسوأ تفجير إرهابي منفرد من زمن الحرب.

في الاجتماعات الأسبوعية المصممة لتنسيق الخط الاستخبارية والأمنية للبلاد، لم يكن الأمريكان ولا العراقيون قادرين على

رسم خرائط لشبكات الأعداء التي تدمر نسيج المجتمع، ولم يكن لدى القوات الأمريكية في العراق، في تلك الأثناء، الموارد البشرية والاتصالات لإنشاء فريق من المخبرين لمتابعة من كان يقوم ببناء وإرسال التفجيرات الانتحارية إلى العاصمة، ولا توجد وكالة مخابرات عراقية تعرف كيف تكتشف وتتعقب خلية إرهابية، ولا حتى الشهواني بعد عقدين من تدريبه الأمريكي وميزانية سنوية تبلغ مليار دولار.

خلال تلك الاجتماعات كان يجلس العراقيون ونظراؤهم من الأمريكان حول طاولة مؤتمرات بيضاويّة الشكل من خشب الجوز في مكتب رئيس الوزراء والعديد منهم كانوا يتحولون إلى روح الدعابة السوداء، فقد يمزح البعض منهم قائلا إن «على العراقيين أن يتشاوروا مع قارئ البخت بدلا عن الاعتماد على تقارير المخابرات الأسبوعية لوصف العنف الذي يجتاح البلاد».

كان هناك القليل من المجتمعات التي خبرت الفوضى التي أعقبت الغزو الأمريكي للعراق، وعندما اختفت الشرطة لم يكن لدى البيروقراطيين الذين يشرفون على المهمات الحكومية الضمنية، مكاتب أو مديرون يقدمون التقارير إليهم، كما أن الأمريكان الذين ترعرعوا في بلدات صغيرة في أوهايو أو كاليفورنيا حاولوا إنشاء ميزانيات محلية للمحافظات في بلاد لم يسبق لهم زيارتها من قبل ولا يتحدثون لغتها.

لقد كان في مخيلتنا أن الحرب تدور حول خطط المعركة والقتال

الميداني، وليست الإدارة الشاقة اللازمة لبناء المؤسسات أو التخطيط لمشاريع إعادة الإعمار في العراق، وسرعان ما أصبحت الهجمات الإرهابية وغياب القانون الإيقاع الناشز للحياة، مما سلب الأمريكان والمسؤولين الدوليين الذين كانوا مستهدفين أيضا في البلاد بأعمال العنف، المساحة اللازمة للتخطيط لإعادة تطوير العراق.

في تلك الأثناء كانت زوجات وأمهات المليون عراقي الذين اختفوا في عهد صدام يحاولن معرفة ما حدث لأقاربهن. لقد بدأ عملاء الحكومة السابقة، والذين كانوا خائفين جدا من إخبار أي شخص عن المكان الذي كانت فيه المخابرات تتخلص فيه من بقايا السجناء المعذبين، بالتحدث أخيرا والكشف عن تلك الأسرار، ومع الإطاحة بصدام كانت البرامج الإذاعية الصباحية والأخبار المسائية التلفازية قد أصبح لها قصص صحفية منتظمة عن المقابر الجماعية التي يتم اكتشافها أسبوعيًا في المزارع والبنايات المهجورة أو قيعان البحيرات الجافة.

كان المسافرون الذين يقودون سياراتهم جنوبا على الطريق السريع من بغداد يستطيعون رؤية الناس وهم يحفرون في الحقول البور، ليس بحثا عن الخضار، بل عن الجثث، فقد تم القبض على الكثير من الناس واختفوا في عهد الديكتاتور بشكل مروع مثل أي قضية أخرى سبت البلاد، وأظهرت المساجد الشيعية عبر البلاد قوائم مطولة مكتوبة بخط اليد بأسماء الأشخاص الذين اختطفتهم شرطة صدام السرية في حال عثر حفَّارو القبور على جثثهم، وكانت

الأرامل يجمعن من أموالهن لاستئجار حافلات صغيرة بناءً على شائعات عن العثور على مقابر جماعية جديدة، فلم يكن أحد يعلم بالضبط أين قتل أقاربهم، وعلى الرغم من أن سجلات المخابرات كانت موجودة، لكن لم يتم نشرها بشكل علني.

كان واضحا لجميع الواقفين على نقاط التفتيش المتعددة انتظارا لدخول المنطقة الخضراء، أن الغالبية العظمى من موظفي الشهواني في المخابرات والذين يمرون بسرعة بهوياتهم الصادرة من الحكومة وبتصاريحهم الشخصية المهمة، هم نفس الرجال من السنة الذين اعتبرهم العديد من السياسيين الشيعة مهندسي فرق التعذيب في عهد صدام، وفي الوقت الذي كان فيه الحرس القديم لصدام يعترفون بشن الهجمات بالقنابل في بغداد، ويحرر شيوخ السنة الصكوك لتمويل خلايا القاعدة الإرهابية، فلا عجب أن يخشى الكثير من العراقيين من أن أتباع صدام كانوا يحاولون العودة إلى الحكم في العراق.

حتى قبل الهجوم على الضريحين في سامراء واندلاع الحرب الأهلية، أرسل كبار المسؤولين الأمريكان في بغداد بما فيهم بول بريمر رئيس سلطة التحالف الدولي، مذكرات لا حصر لها إلى وكالة الاستخبارات المركزية يطلبون فيها تزويدهم بمعلومات أساسية بشأن هوية ودوافع الرجال الذين يقتلون الجنود الأمريكان، ومع ذلك فإن محطة وكالة الاستخبارات المركزية في بغداد، وهي أكبر موقع متقدم للوكالة منذ حرب فيتنام، لم ترسل سوى معلومات قليلة أو لم ترسل أية معلومات فيها وصف أحد السفراء ذلك الأمر

بالصراخ في بئر مظلمة.

وبدلًا من بذل جهد موحد لتحديد شبكات الإرهابيين الجهاديين السنة الذين يهاجمون الجنود الأمريكان، وعمال الإغاثة الدوليين ورجال الأعمال والعراقيين العاديين، فإن السلطات الأمريكية التي تدير العراق كانت تتعثر من تعقيد المهمة.

كان المحققون العسكريون الأمريكان الذين ألقوا القبض على الجهاديين السنة يدونون أسماءهم ومعلوماتهم الأساسية، لكن لم تكن لديهم قاعدة بيانات مركزية لمشاركة نتائجهم، وهذا يعني أن بعض الأهداف عالية القيمة، أو حتى رجالًا مثل أبي بكر البغدادي، رجل الدين الصغير عند القبض عليه والذي سيصبح فيما بعد زعيم تنظيم داعش، يمكن القبض عليه وإطلاق سراحه دون أن يفهم أحد مغزى ذلك.

في غضون ذلك، وفي داخل وكالة الاستخبارات المركزية، لم يكن معظم موظفي الوكالة في البلاد موجودين للتعامل مع الشبكة الإرهابية، التي سرعان ما أصبحت الفرع الأكثر فتكا للقاعدة، وبدلا من ذلك كانوا يطاردون المخزونات غير الموجودة لأسلحة الدمار الشامل لتبرير الأساس المنطقي الذي أرسل أمريكا إلى الحرب في المقام الأول.

اختار العراقيون حكومتهم الأولى في كانون الأول من عام ٢٠٠٥، لكن بعد ستة أشهر في آيار من عام ٢٠٠٦ هدد العنف الذي أعقب الهجوم على سامراء نسيج البلاد، وأطاح التحالف الحاكم

بـأول رئيس وزراء بعد صدام، وهو إبراهيـم الجعفري والتف حول زعيم جديد هو نوري المالكي، نفس الرجل الذي كان يعمل معه أبو علي البصري في مكاتب حزب الدعوة في سوريا قبل عشرين عاما.

لقد كان المالكي سياسـيًّا طموحـا بكل وضوح، ويعلم أنه لم يكن لديه سـوى وقت قصير لترسـيخ نفسه كقائد فعال، لذا وفي الأسبوع الأول لـه في منصبـه، أمر بعقد اجتماع طـارئ لموظفي الأمن الوطني والقادة العسـكريين الأمريكان في سـامراء، وطالب بتقرير عن سـير العمل في سامراء. كان من الواضح للأمريكان ولغالبية العراقيين أن الهجوم على ضريح العسـكريين في سـامراء يحمل كل السمات المميزة لعمليـات القاعدة، نظرا للخـبرة اللازمة لتجميع ووضع المتفجرات المسـتخدمة في العمليـة، حيـث اكتسـبت المنظمـة الإرهابيـة العالمية سمعة ليس فقط بأعمالها الجريئة مثل أحداث الحادي عشر من أيلول فحسـب، بـل أيضا بمعرفتهـا التقنية المتطـورة، لكن مـا كان مفقودا عندمـا تولى المالكـي مقاليد الحكومة في آيار هو وجود دليل قوي عن المفجرين أنفسهم والعقل المدبر للهجوم.

اجتمـع الجميع على طاولة رئيس الوزراء البيضاويَّة، بغض النظر عـن الانتماء الحـزبي أو الطائفي، واتفقـوا على هذا التقييم، باسـتثناء ملحوظ واحد هو محمد الشهواني، وساد الصمت في الغرفة، بينما مرر مسـاعد الشهواني تقريرا من ٢٥ صفحة، كان فيه استنتاج المخابرات أن الهجـوم في سـامراء لم يكن من عمل الإرهابيين السـنة، بل عملية تمويهيـة نفذها عملاء إيرانيون بهدف صريح يتمثل في تشـويه سـمعة

المجتمع السني في العراق.

لقد اختفت أي ذرة من المصداقية لا تزال موجودة لدى الشهواني بين أعضاء الحكومة العراقية حينما قرؤوا ذلك التقرير، وبالنسبة لقادة الشيعة كانت تلك الوثيقة هي الدليل النهائي الذي يحتاجون إليه لإثبات أن الشهواني كان غير كفء في أحسن الأحوال، أو في أسوأ الأحوال كان يساعد ويحرض على قتل الشيعة من خلال عدم الإدراك الواضح والقائم للإرهاب الذي يشكله الإرهابيون السنة.

غادر المالكي الاجتماع محبطا وغاضبا، فلم يكن لدى أي شخص إجابات، لكن الأمر الأكثر إحباطا هو شعوره بالحاجة إلى وقف إراقة الدماء، ولم يكن لديه أي شخص يمكن الوثوق به ليحصل على المعلومات الاستخبارية اللازمة للقيام بذلك.

بعد شهر من ذلك نجحت القوات الأمريكية في العثور على زعيم القاعدة في العراق أبي مصعب الزرقاوي وقتله، لكن ذلك لم ينهِ العنف، وإنما ازدادت إراقة الدماء سوءًا خلال الصيف، ففي الأسبوع الأول من تموز انفجرت سيارة مفخخة بالقرب من مسجد الزهراء غربيَّ بغداد، مما أسفر عن مقتل المصلين الشيعة هناك، وفي اليوم التالي رد مسلحون شيعة بقتل جماعي لخمسين من الرجال والنساء والأطفال من السنة، قاموا بإنزالهم من السيارات في الشارع التجاري من حي الرشيد على طول الطريق المؤدي إلى مطار بغداد الدولي، حيث أفاد سكان الحي أنهم رأوا جثث الضحايا في الشوارع وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم، بعضهم مصاب بطلقات نارية في

الرأس، وآخرون مثقوبة جثثهم بالمسامير والبراغي.

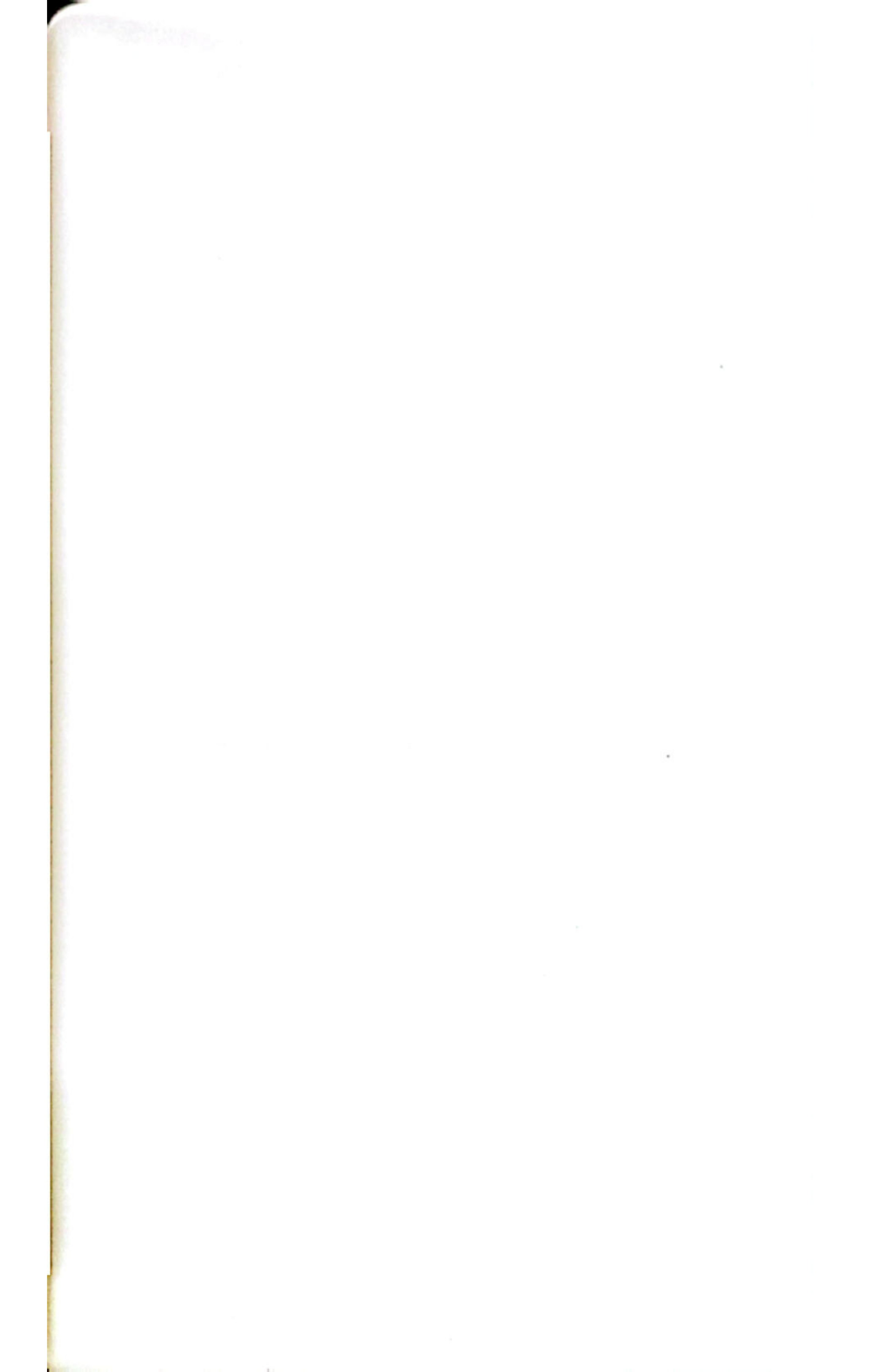
لقد وصلت مشارح المدينة إلى طاقتها القصوى بعد مقتل مائة وخمسين آخرين في أنحاء بغداد في عمليات قتل انتقامية خلال أسبوع، وتوقفت المشارح عن استلام المزيد من الجثث.

لقد جعلت الفوضى المتزايدة المالكي يائسا بما يكفي لإعادة تقييم فريقه الأمني، وكان يعتقد أن الشهواني رجل غير لائق، لذا بدأ رئيس الوزراء في تشكيل فريق يمكنه الاعتماد عليه والمكون من رجال مثل أبي علي البصري.



الفصل السادس

عاصمة القتل في العالم



كانـت العاصمة العراقية عند تأسيسـها مركز العالم المتحضر مثلما هـو الحال في لنـدن أو نيويورك في وقتنـا الحاضر، فابتـداءً من القرن الثامن الميلادي كان السير على طول قمم ومنحنيات نهر دجلة يؤدي إلى تسـاؤلات عـن معنى الحياة، فقـد تم فيها اكتشـاف العدد صفر، وإنشاء أول مرصد فلكي، والطموح إلى بناء أكبر مكتبة شهدها العالم على الإطلاق.

كان هـذا هو العـراق الذي وصفه أبو علي لأطفالـه الصغار وهو يضعهـم في الفـراش، وكان هـذا هو المثـال الذي يطمح إليـه عندما تركهـم وسـارة في السـويد عائـدا إلى الوطـن في عـام ٢٠٠٣، لكنـه وبحلـول أواخـر عـام ٢٠٠٦ وخـلال محادثاته المسائية مـع عائلته عبر برنامج (سـكايب) كان يواجه صعوبـة بالتوفيق بين حلم بغداد وواقعها.

لقـد أصبحـت المدينة وقد حولتها المليشـيات الطائفيـة والقاعدة إلى عاصمة القتل في العالم، واسـتهلكتها دوافع العنصرية في الغضب والانتقام وشـهوة السـلطة، تلك كانت الصورة التي شـاهدتها سارة والأطفال على شاشـة التلفاز في كل ليلة. لقد كانت لدى سارة قائمة طويلـة من الأسـباب بعـدم عودتها والأطفـال إلى العـراق، فخلال عام ونصف العام بعد تفجير مرقد العسـكريين في سـامراء، ارتفعت التفجـيرات الانتحاريـة بنسـبة ٧٤ بالمائة، فيما كانـت هناك ١٦ ألف جثـة مجهولة الهوية مكدسـة في مشرحة المدينة، وهي مشـوهة للغاية، بحيث لا يمكن التعرف عليها، وأدى حظر التجوال إلى إبقاء سكان

بغداد البالغ عددهم أربعة ملايين نسمة منكمشين في منازلهم من غروب الشمس إلى شروقها، والاقتتال الطائفي قد أصاب بالشلل أول حكومة عراقية منتخبة ديمقراطيًّا، وكانت كتائب من الجنود الأمريكان تقوم بدوريات في شوارع المدينة مما حولهم والعراقيين إلى أهداف للقاعدة.

وسط هذا المشهد الجهنمي، أجرى أبو علي واحدة من أصعب المحادثات مع زوجته طوال فترة زواجهما الذي دام ٢٧ عاما، فقد طلب منه رئيسه القديم ورئيس الوزراء الحالي نوري المالكي المساعدة في إعادة النظام للفوضى العراقية. كانت سارة تركز على صور إراقة الدماء والجثث المنتفخة المتشابكة بالقصب في نهر دجلة، لكن أبا علي كان يرى يد العناية الإلهية، لأن الوظيفة التي عرضت عليه تمثل فرصة بالنسبة له لإحداث الفرق، فيما ظل يخبر عائلته من تلك المكالمة الهاتفية البعيدة أن وظيفته الجديدة كمدير للأمن في مكتب رئيس الوزراء تزوده بأغلى بضاعة في العراق في ذلك الوقت وهي الأمان، فلأول مرة في حياته شغل أبو علي منصبًا في السلطة، بعيداً كل البعد عن الرجل الذي اختبأ في ساحات السكك الحديدية وعاش على الكفاف.

في وظيفته الجديدة تجول أبو علي في شوارع بغداد المسدودة بسيارة لاندكروز حكومية بيضاء مدرعة بصحبة كتيبة من الحراس الشخصيين الذين كان يمرون به بسرعة عبر الحواجز الخرسانية

الضخمـة والتي نمت في كل أنحـاء المدينة مثل نباتات (الكودزو)(*) المتسلقة بشكل همجي وبلا رادع.

كان سائقه يلوح بتصريح مروره الأزرق الثمين عند نقاط التفتيش، مما يسمح لهم بالمرور الفوري، بدلا من الانتظار مع طوابير المدرسين وموظفـي الخدمة المدنيـة والممرضـات اللواتي يحاولـن الوصول إلى عملهـن أو شراء البقالـة والدعاء بتجاوز عمليـات التفتيش المتطفلة والمذلـة قبـل أن يتمكن انتحاري مـن القيام بهجوم يـودي بحياتهم. وبينما كانت قافلته الأنيقة والمتغطرسـة تعبر تلك الطوابير من الناس العاديين، لم يعد أبو علي يشـعر بالفخر الذي شعر به عندما وافق على عـرض المالكـي للعمل معه لأول مـرة، فقد كان يتخيـل في كثير من الأحيان أن البغداديين الأقل حظًّا الذين يمر بهم وهو يقود في طريقه باتجاه عمله، يلعنونه همسـا، كما كانت عائلتـه تفعل مع رجال صدام في وقت من الأوقات، وفي الحقيقة يعتقد أبو علي أن الناس كانوا على حق، فقد فشلت الحكومة تماما في المهمة الأساسية المتمثلة في الحفاظ على سلامتهم.

لقد كانت خلايـا القاعدة الإرهابية تنفذ تفجيرات انتحارية دون عقـاب، فيـما كانت فرق الموت الشـيعية من المليشـيات المدعومة من مقتدى الصدر نجل آية الله الشـهيد تجوب العاصمة في وضح النهار لتقتل السنة وتطهر أحياءً بكاملها من أعدائهم الطائفيين، ومليشيات

(*) الكودزو يأتي من الجذور العميقة للشـجيرات البرية التي تنمو في جنوب اليابان، وهـو نبـات أخضر سريـع النمـو خاصة في الطقس الدافـئ الرطب، وقد غـزا نبات الكودزو الجزء الجنوبي الشرقي من الولايات المتحدة. المترجم

شيعية أخرى تمتلك قوائم استهداف لشخصيات بارزة من السنة، بزعم أنهم يعملون لصالح النظام السابق، بينما كان السنة بتمويل من القبائل في غرب العراق وشيوخ من السعودية ودول الخليج يقاومون ذلك.

في غضون ذلك عادت المخابرات البغيضة إلى العمل، وكان أسوأ ما يخشاه أبو علي هو أن تربط عائلته والناس في الشارع وظيفته بالوكالة التي مجرد اسمها في اللغة العربية يستحضر صوت هراوة تكسر ضلوع إنسان ورائحة زنزانة يتعفن فيها البشر متألمين، لكن ما لم تعرفه سارة، وما لم يعرف سوى القليل في الشوارع المكرسة للمنطقة الحكومية الجديدة في بغداد، هو أن رئيس الوزراء المالكي كلف أبا علي بمسؤولية خاصة، فقد أراد من رفيقه القديم بناء وحدة استخبارات مستقلة لمواجهة ما اعتبره والمجتمع الدولي التهديد الأكبر المتمثل بالقاعدة.

لقد كان تنسيقا غير معتاد للغاية، مدفوعا بأوقات غير عادية للغاية، فقد كانت البلاد تتقد بالعنف، ورئيس الوزراء لم يكن يثق بمدير مخابراته محمد الشهواني في تحليل المخاطر أو تقديم الحلول، كما لم يكن المالكي قادرا على طرد مدير المخابرات دون أن يتسبب ذلك بتمزق خطير في العلاقات الأمريكية العراقية، فقد كانت واشنطن تدفع عشرات المليارات من الدولارات في كل عام لإعادة بناء البلاد وقوات الأمن، وكان ثمن تلك المساعدة بقاء رجالهم المفضلين في مناصب السلطة، لذلك سعى المالكي لإيجاد طريقة في تجاه آخر.

كان أبو علي يبني فريقا منفصلا عن جميع المؤسسات الأخرى التي كانت مسؤولة مباشرة أمام المالكي، وخلال مكالماتها الهاتفية كان أبوعلي يشرح لسارة أن لديه فرصة لتصحيح أخطاء عهد صدام وإثبات أن المخابرات العراقية يمكن أن تحافظ على مواطنيها بأمان بدلا من إثارة الخوف لديهم، لكن ما لم يكشفه لها هو الخيانة التي يواجهها كل يوم تقريبا داخل جهاز الأمن الوطني، وحملة التقويض من قبل قادة الأمن المنافسين الذين كانوا يخبرون الأمريكان والمجتمع الدولي بأنه يعمل لصالح الإيرانيين.

لقد أطلق الفراغ الأمني العنان لطاقة مدمرة في أنحاء بغداد، تشبه إلى حد كبير إحدى العواصف الترابية السيئة السمعة التي تجتاح الصحراء عبر ضفاف دجلة وتنزل مثل الطاعون التوراتي، وكان العراقيون يعرفون أنه عندما تتحول السماء إلى اللون الأصفر، فهذا تحذير من خطر وشيك، وعليهم أن يهرعوا إلى داخل منازلهم للهرب من سيل الرمال المتلاطمة والأوحال القوية ما يكفي لتجريد السيارات من الطلاء، لكن وعلى عكس العواصف، فقد بدا العنف الطائفي في نهاية عام ٢٠٠٦ كأنه لا ينتهي.

لقد قرر الجيش الأمريكي اتخاذ مسار دفاعي للحركة، وحول بغداد إلى حامية عسكرية مطوقة، ونصب أميالا من الحواجز الخرسانية بارتفاع اثنتي عشرة قدما وفصلوا أحياءً بكاملها عن بعضها البعض، ونتيجة لذلك وجدت أبرار والكبيسيون أنفسهم مثل كل سكان غرب بغداد معزولين عن معظم أجزاء العاصمة،

حيث أنشأ نهر دجلة على مدى قرون مجتمعات منفصلة ولكن متنوعة على الجانبين الشرقي والغربي للمدينة، فيما عززت الحواجز الخرسانية الانقسامات العرقية والطائفية.

عندما كانت أبرار تحضر دروسها في جامعة بغداد، وهي رحلة لا تستغرق سوى خمس عشرة دقيقة، أصبحت الآن تضطر لتحمل كابوس مدته تسعون دقيقة، جبال من الخرسانات المسلحة كانت تحيط بالوزارات الحكومية مثل جدران قلاع من القرون الوسطى، والطرق المفتوحة للسير في أحد الأيام يتم إغلاقها في اليوم التالي بناءً على أوامر من كبار الشخصيات الحكومية الذين كانوا يخشون من الاختطاف أو التعرض للاستهداف بسيارة ملغومة من قبل الإرهابيين.

كان علاء جار بيت الكبيسي ما يزال يقل أبرار ووالدها الذي كان يواصل إلقاء محاضراته في جامعة بغداد، وكانت أبرار تحدق من نافذة المقعد الخلفي للسيارة محاولة أن تصف لوالدها الكفيف كيف تغيرت جغرافيا مسقط رأسه بالكامل. لقد حاول الأستاذ الكبيسي إبقاء قلقه في نفسه، لكنه لم يكن يعلم كيف يمكن أن يتوافق معه بعد الآن، كانت عائلته ذكية للغاية وناجحة، وقد عكست ذات يوم أفضل وألمع من في العاصمة في ذروة النجاح العربي، لكن الكبيسيين أصبحوا يخشون الآن أن تطأ أقدامهم محل الخاصكي للحلويات، حيث كانوا دائما يشترون حلوى النوغا الشهيرة في المدينة، أو لا سمح الله، يخشون الدخول إلى وزارة الداخلية للحصول على وثائق

جديدة، بسبب العداء المكشوف غالبا والعدوانية التي سيواجهونها كسنة، وحتى في الحرم الجامعي كانت أبرار تلاحظ مدى خطورة انتشار الطائفية، فقد كان الطلاب المرتبطون بالسياسيين الشيعة، والأعضاء الرفيعو المستوى في أحزابهم يدفعون مالا للمسؤولين لرفع درجاتهم، وهي ظاهرة لاحظتها عند ظهور نتائج الامتحانات في نهاية الفصل الدراسي.

كانت أبرار على علم أنها يجب أن تحتل المرتبة الأولى، فقد قضت وقتا أكثر من أي شخص آخر في مختبرات الكيمياء، وأكملت واجباتها في وقت قياسي، وتعلم أيضا أنها تفوقت في الامتحانات ذاتها، ولم يكن هناك سؤال واحد لم تستطع الإجابة عنه، لكنها حينما وقفت أمام لوحة الإعلانات وقرأت نتائج الامتحان لم يكن اسمها في المقدمة، فقد كان هناك طلاب تعرف أنهم لم يفهموا حتى أساسيات خطة الدرس تم وضعهم في أعلى قائمة العشرِ بالمائة من المتفوقين في الفصل بنفس الدرجات التي حصلت عليها، وكان الطالب الأول شيعيًا ابن عضو ذي نفوذ في البرلمان.

لقد كان العديد من طلاب والدها من عائلات سنية، خاصة أولئك الذين ينتمون لأحياء الطبقة العليا في غرب بغداد مثل المنصور واليرموك يغادرون البلاد متوجهين إلى الأردن المجاور أو حتى دبي، حيث يمكن للسنة أن يرفعوا رؤوسهم عاليا وأن يديروا أعمالهم ويعيشوا بلا خوف، لكن ذلك لم يكن خيارا للأستاذ الكبيسي، فقد كانت إعاقته تعني أنه لن يجد بسهولة عملا في بلد آخر، كما أن الإرث

الشيعي لزوجته قد يجعلهما غير مرحب بهما في تلك البلدان، لذا فإن عملية البدء من جديد بدون صلات أو أقارب في مدينة مختلفة كان جبلا شديد الانحدار ولا يمكن التفكير به.

في مدينة الصدر، لم يكن على السودانيين الخوف من الفتنة الطائفية التي تستهلك بقية مناطق بغداد، فطالما كان حيهم الفقير المترامي الأطراف حيًّا شيعيًّا، وفي الواقع اعتبر جيش المهدي الصدري أحد أكثر المليشيات الشيعية عنفا، مدينةَ الصدر مقرًّا لهم، وأقاموا حلقة دفاعية حول المنطقة، ومع ذلك، ولأن السودانيين لم يكونوا من أتباع الزعيم الروحي للمليشيا مقتدى الصدر مثل الكثير من جيرانهم، فقد كانوا عرضة لنزوات البلطجية المسلحين للحركة.

بحلول عام ٢٠٠٦ انتهت معركة الإرادات بين أبي حارث وابنه الأكبر، فقد استسلم حارث ورسمت خطوط الهدنة، لكن حارثًا عقب الهزيمة أصبح كئيبا، وكجزء من إقامته مع والده لتخليه عن نسرين، رضخ حارث للزواج المرتب الذي كان يرغب فيه والداه، فقد تزوج من رغد، وهي شابة ذات بشرة شاحبة ومضيئة وعينين بنيتين مستديرتين من قبيلة شيعية مرموقة، وصار في عام ٢٠٠٦ أبًا بالفعل لطفلين، وبسبب من أدائه السيِّئ في الجامعة لم يكن أمام حارث سوى فرص قليلة في العمل ولذا كان بحاجة إلى إيجاد طريقة لإطعام أسرته الفتية.

لقد تدخل أبو حارث في الموضوع لحل هذه المشكلة، مناشدا بحق كل الأفضال المستحقة له على الناس طوال عقود ومنفقا هذه العملة

الاجتماعية الثمينة لأجل الحصول على وظيفة ثابتة لحارث كحارس شخصي لأحد الوزراء الجدد في الحكومة. لم يكن هذا نوع العمل الذي تخيَّله حارث على الإطلاق، لقد أحب حارث زملاءه، لكنه وجد أن عنوان وظيفته يكذب الواقع الدنيوي لمهماته اليومية، ففي الغالب كان يجلس في مدخل مكتب الوزير يشرب الشاي ويلوح لمقدمي المعاملات، وفي المساء يقضي ساعات مع أعضاء فريقه في صالة ألعاب رياضية خاصة بالحكومة، وكان أفضل ما في الوظيفة هو أن الوزير يعمل حتى وقت متأخر ويسافر بشكل متكرر، لذا كان لدى حارث عذر لقضاء ساعات طويلة خارج المنزل حيث لا يستطيع والده أن يتوعده، ولا يريد لزوجته أن تنتظر مشاكل لا يستطيع حلها.

لم تكن رغد تعرف ما كان عليه حارث قبل أن تلتقي به، كانت المرة الأولى التي التقى فيها الاثنان هي حفل خطوبتهما عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، فقد نشأت في بلدة صغيرة في جنوب العراق بالقرب من القرية التي ولد فيها أبو حارث، وكانت العلاقة بين العائلتين بعيدة، وعلى الرغم من أن عائلتها لها علاقات عشائرية ومكانة أكثر شهرة في منطقتهم الأصلية، إلا أن والدها كان حريصا على توسيع شبكة علاقاته الاجتماعية في العاصمة.

كانت لأبي حارث سمعة جيدة ومعروفة برجل يمتلك السلطة والاستقامة الأخلاقية، ولسنوات عديدة كان جميع الزائرين لمنزله يسمعون تفاخره بولده الأكبر وعن ذكائه والذي يتهيأ للشهادة

الجامعيــة والحياة الناجحة، ولذا لم تكـن رغد تعلم أن تلك الخطة قد ساءت، وعندما وصلت إلى بغداد لبدء حياتها الجديدة في المبنى المكون من غرفتين والذي بناه أبو حارث لهما في الطابق الثالث من بيت عائلة السـوداني، اكتشـفت أنها كانت مجـرد جائزة ترضيـة لرجل تحطمت أحلامه الرومانسية، ولذا كانت حياتها في مدينة الصدر بمثابة عذاب لا لـون لـه ولا طعم، فنادرا ما كانت رغد تـرى حارثا، وفي الفترات الوجيـزة التي يبقـى فيها في المنـزل، كانت الطابق الذي يعيشـان فيه يضـج بالتوتر كما لو كانت تسـير على سـلك كهربائي، فكانت تمضي الساعات بطهي وجباته المفضلة وكيِّ ملابسه العسكرية على معاييره الصارمـة وتلميـع حذائـه، لكن لم يكن هنـاك شيء يمكـن أن تفعله لجعله مستريحا.

كان يقضي الليل على مرتبة إسـفنجية ولم يلمسها إلا عندما أصبح تذمـر والديـه من عـدم إنجاب الأحفـاد لا يطاق، كانـت رغد تقوم بواجباتهـا الزوجيـة، حيـث أنجبت أولا فتـاة كانت تشـبه جانبا من أسرتهـا، وبعـد ذلك بفترة وجيـزة أنجبت صبيًّا يشـبه إخوة حارث، لكـن ذلك كله لم يكن كافيا لإبقاء حـارث في البيت، وبدون وجوده في المنزل كانت حياة رغد منكمشة بشكل أكبر.

عندمـا نشـأت رغـد في ريف العـراق لم تكـن تعدُّ الحريـات التي كانت تمتلكها أمرا مفروغا منه، فالجميع في القرية يعرفونها ويعرفون عائلتهـا، ولم يشـكك أحـد في دوافعهـا في تمطية سـاقيها بالسـير عبر الحقـول، لكن في مدينة الصـدر كان الجيران يراقبون كل حركة لها في

المناسبات النادرة التي تغادر فيها المنزل.

أي امرأة يمكن أن توافق على الزواج من رجل فاشل دقت عاهرته الكردية إسفينا في مثل هذه العائلة المحترمة؟ كانت هذه الهمسات تلاحق رغد في كل مرة تغادر فيها منزل السوداني، وفي كل مرة تنزلق فيها خصلة من حجابها أو تتحسس بأصابعها قطعة من الفاكهة كان الجيران، الذين لا تشبع شهيتهم للفضيحة، يتفحصونها من رأسها إلى قدميها، وحينما لا يعود حارث إلى المنزل لأيام أو أسابيع في كل مرة كانت الهمهمة تعلو، ما الذي فعلته تلك المرأة لإبعاده عن المنزل؟.

بمرور الوقت ومع زواج إخوة حارث وإنجابهم الأطفال، شعرت رغد بالوحدة أكثر من أي وقت مضى، فقد كان إخوة زوجها يمضون الساعات يلاعبون أطفالهم ويمازحون زوجاتهم، وقد لاحظ أطفالها هذا الفراغ في حياتهم، وكانوا في الليل يصيحون بلهفة، لماذا لا يأتي والدنا إلى البيت؟ ولماذا لا يجلب لنا والدنا الهدايا؟ ولماذا لا يلعب معنا كما يفعل أجدادنا وأعمامنا؟ وكانت رغد لا تعرف ماذا تقول لهم.

في الوقت الذي كانت فيه حظوظ حارث قد هبطت، ارتفعت حظوظ أخيه الأصغر مناف السوداني، عدَّ السوداني الأصغر عام ٢٠٠٦ عاما لافتا، فقد تلقى خطاب قبوله في كلية الشرطة التي أعيد افتتاحها حديثا في العراق، وهي حرم جامعي مترامي الأطراف كان الآلاف من العراقيين يتدربون فيه من أجل مناصب في قوات الأمن.

لقد تعلم هناك الرمي في ميدان الرماية وتقنيات الكشف الجنائي

من ضباط الشرطة الأمريكية والأردنية، وقضى أمسيات طويلة في صالة الألعاب الرياضية، وبنى صداقات بالإضافة إلى بناء لياقته البدنية، فقد كان ينقل الحماسة إلى أقرانه، كان هو ورفيقه على قمة فصلهم التدريبي لعامين متتالين، وكانا جزءا من قلة مختارة في الكلية الذين حلموا، منذ صغرهم، أن يصبحوا ضباط شرطة.

كان معظم زملائهما من الطلاب أقل رغبة في فرض القانون والنظام في العراق مقارنة بالحصول على وظيفة تعد براتب مستقر ومكانة اجتماعية أعلى، وعدَّ السياسيون الشيعة المنتخبون حديثا في البلاد قوات الشرطة الجديدة آلة مناصرة لناخبيهم، خصوصا أنصار رئيس الوزراء نوري المالكي ومقتدى الصدر الذي سيطرت مليشياته على مدينة الصدر.

وفي سعيها للسلطة، اعتبرت الفصائل داخل النخبة الشيعية الجديدة معركة السيطرة على الوزارات والأحياء والصناعة رياضة الدم. لقد تخلص العراقيون من البيروقراطيين الفاسدين في عهد صدام، لكن محصولا جديدا كان ينمو كالأعشاب الضارة في الحديقة المهملة، إن الدوافع المبتذلة لزملائه في كلية الشرطة لم تثبط رغبة مناف في مساعدة بلاده، فقد كانت البلاد في حالة حرب، والعاصمة تتعرض للترهيب من خلال التفجيرات الانتحارية وقذائف الهاون على الأحياء المدنية.

كانت قوة الشرطة العراقية الجديدة ضرورية لمجموعة متنوعة من المهمات غير النظامية، من مداهمات مكافحة الإرهاب إلى التخلص

من المتفجرات إلى العمل الاستخباري، وكان هذا بالنسبة لمناف نوعَ التحدي الذي يريده طوال حياته بالضبط.

لقد وقف الجنود الأمريكان في كل حي للحراسة، كجزء من قوة قوامها ١٦٥ ألفا في جميع أنحاء البلاد إلى جانب نحو ثلاثين ألف متعاقد أمني وخمسة آلاف جندي بريطاني، وقد أراد مناف أن يقف إلى جانبهم ويساعد في إعادة بناء وطنه.

بحلول نهاية عام ٢٠٠٦ كان سكان شرق وغرب بغداد، مثل السودانيين والكبيسيين، منفصلين عرقيًّا تماما، كما لو كانوا يعيشون في بلدان مختلفة، وليس خمسة أميال فقط على جانبي نهر دجلة، وبدا أن العنف كان هو الخيط الوحيد الذي يوحد عائلات وأحياء العاصمة.

في تشرين الثاني من ذلك العام، وفي منتصف يوم عمل، توقفت قافلة من الحافلات الصغيرة تضم مسلحين من جيش المهدي أمام وزارة التعليم العالي، حيث كان عم أبرار يعمل هناك، واقتحمت المليشيات المسلحة بالبنادق الآلية والقنابل اليدوية مبنى الوزارة مجبرة الموظفين على التجمع في الطوابق السفلية، فيما حبست النساء في المكاتب، وفصلوا بين الرجال إلى مجموعتين من السنة والشيعة، ثم اقتادوا أكثر من مائة سني إلى الخارج تحت تهديد السلاح ونحو السيارات التي كانت تنتظرهم. كانوا يلوحون بأسلحتهم ويجبرون حركة المرور على التوقف، ثم انطلقوا بسرعة بالسيارات نحو وسط الكرادة، وهو حي مزدهر من مراكز التسوق الصغيرة والمقاهي،

حيث يجتمع الممثلون والمثقفون لشرب الشاي، واستغرقت العملية بأكملها خمس عشرة دقيقة.

كان عم أبرار محظوظا في ذلك اليوم، فلم يكن في المجمع في ذلك الوقت، لكن عائلة الكبيسي بأكملها أمضت أياما في الرد على المكالمات الهاتفية من أفراد العائلات اليائسين للحصول على أخبار عن أقاربهم المختطفين، فلم تدلِ الحكومة بأي بيان، ولم يكن هناك من أحد يمكنهم الاتصال به، ولا أحد يمكن الوثوق به لإنقاذهم.

بعد عدة أيام على ذلك الحادث، نصب رجال ملثمون من مليشيا سنية كمينا عند وزارة الصحة وهي وزارة حكومية يسيطر عليها الطرف الموالي لمقتدى الصدر، ولمدة ساعتين كان القناصة من المباني المحيطة يطلقون النار على الوزارة، وأمطرت قذائف الهاون على المجمع المليء بالمدنيين الذين يبحثون عن المساعدة الطبية، وعلى الإداريين المشرفين على مستشفيات البلاد، مما دفع الحكومة لاستدعاء قوات النخبة العراقية تحت حماية طائرات الهليكوبتر العسكرية الأمريكية في استعراض للقوة دفع المسلحين إلى الفرار، ثم فرضت الحكومة حظر التجوال إلى أجل غير مسمى في العاصمة، ومنعت جميع المركبات والمشاة من الخروج إلى الشوارع، وأغلقت مطار بغداد الدولي ومطار البصرة وميناءها، ووضعت رئاسة أركان الجيش القوات في حالة التأهب القصوى وعززت نقاط التفتيش في جميع أجزاء المدينة، فيما تم فرض طوق أمني حول مدينة الصدر.

كانت أبرار تشكو لصديقاتها من صعوبة النوم، وعلى وشك

أن تغـادر الغرفـة عندما ظهر رئيـس الوزراء نـوري المالكي من على شاشة التلفاز، وظل يعد بإعادة الاستقرار إلى البلاد مرة أخرى، لكنه بالنسبة إلى أبرار، كان هو وائتلافه الشيعي مصدر المشكلة.



الفصل السابع

التعليم الراديكالي



تسنيم هي أقرب شخص لي العالم لأبرار، فقد قضت الأختان كل ليلة من حياتهما معا ويعرفان كل شيء عن بعضهما البعض. كانت أبرار تعرف صوت تنفس أختها الكبرى في منتصف الليل، وكم كانت تزدري شكل أنفها، فقد كانت الاختان تشعران به كما لو أن لديهما نفس الشعور، وكانتا تتشاركان الملابس وفرشاة الشعر والقرآن، وتتشاجران كالقطط.

كانت تسنيم هي الابنة التي تحب الخبز والتنظيف ولعبة التأنق، بينما كانت أبرار تقضي وقت ما بعد الظهيرة مستغرقة في قراءة الكتب محاولة اكتشاف ما الذي يجعل الأوراق خضراء وما الذي يجعل النهر يتدفق، وفي صيف عام ٢٠٠٧ فعلت أختها الكبرى ما عرفت أبرار أنها ستقوم بفعله دائما، فقد خطبت إلى موظف حكومي ينحدر من مسقط رأس والدها مدينة هيت في محافظة الأنبار غرب العراق، إذ كانت تسنيم في طريقها للزواج وإنجاب الأطفال وقضاء أيامها بالاهتمام بمطبخها وتزيين غرفة الضيوف، كان ذلك كل ما أرادته أبدا.

كان الجميع متفقين على أنها ملائمة جيدا، أما عائلة الشاب فكانت على صلة قرابة بالمحافظ وتنتسب إلى قبيلة قوية، وقد ظنت تسنيم أنه كان لطيفا، أبرار من جانبها كانت متشوقة لمعرفة أن الزوجين الجديدين سيبقيان في بغداد حتى لا تفقد أختها تماما، وإن شاء الله ستكون قادرة على زيارة تسنيم في عطلات نهاية الأسبوع، أو حينما يسمح زوجها بزيارة الضيوف.

عندما انتهت حفلة الخطوبة انقلب بيت الكبيسي رأسا على عقب، وكانت أبرار بالكاد تستطيع الدراسة ليلا بسبب الحركة والضوضاء، فقد أمضت أمها وأختها وعماتها ساعات في مناقشة ما تحتاجه العروس الجديدة بالضبط وفي كيفية إنفاق مهر تسنيم، جلست إحداهن إلى طاولة غرفة الطعام وبدأت بخياطة فستان تسنيم، وأخرى كانت تقوم بتطريز وسائد سرير زفافها وهي دائخة من الترقب، فقد أصبح حفل الزفاف موضوعا مفصلا، وهناك العشرات من الأقارب سيسافرون من هيت إلى العاصمة.

في معقل أراضي السنة العراقيين، عاش الناس بسهولة اكبر واكثر من أي وقت مضى منذ عام ٢٠٠٣، فقد أدت زيادة أعداد القوات الأمريكية واندفاعهم عبر محافظاتهم في وقت سابق من عام ٢٠٠٧ إلى كسر قبضة القاعدة في المناطق الريفية، وكان رجال القبائل يتقاضون رواتبَ من الأمريكان لحماية أنفسهم من سوط الإرهابيين، هذه الوظائف كانت تعني أن العائلات لديها أموال ترصدها لمستقبل أبنائها مثل دفع المهور والرسوم الدراسية.

كانت أبرار تعتقد أن أختها أجمل مخلوق في العالم، وفي يوم زفافها بدت تسنيم تشبه نجمات السينما، فقد كان خدَّاها يتوهجان حمرة، وقد لمت شعرها البني الغامق وراء رأسها على شكل الكعكة، أما يداها فقد تزينتا بتصاميم الحناء الغنية البنية اللون، فيما قامت نساء العائلة بتلوين صدرها ببريق فضي ليتناسب مع ظلال عينيها، وقد أخبرت تسنيم شقيقتها أنها أمضت الأسابيع الأولى من حياتها

الزوجية بسعادة تامة.

في ذلك العام حل أهم الأعياد الإسلامية وهو عيد الفطر في شهر تشرين الأول، بعد أسابيع قليلة من حفل الزفاف، وكانت النساء يستعدن مقدما في الخبز والتنظيف لثلاثة أيام من الزيارات العائلية والوجبات الغذائية.

في صباح اليوم الأول من عيد الفطر، اتصلت تسنيم بعائلتها لتهنئتهم بهذه المناسبة، وأخبرتهم أنها وزوجها سيزوران أهل زوجها في هيت، وقد بدت سعيدة بإمكانية الرحلة على الطريق البري، وفي صباح اليوم التالي، استيقظ الاثنان عند الفجر ورزما سيارتهما بالهدايا والملابس لقضاء ليلة كاملة هناك، وانطلقا غربا على الطريق السريع في رحلة لمسافة ١٢٠ ميلا، حيث كان من المتوقع أن يصلا قبل الغداء، لكنهما لم يصلا قط.

لقد استغرق الأمر ثلاثة أيام كاملة حتى يتمكن والد أبرار من تجميع ما حدث وهي أيام نادرا ما تستذكرها أبرار، فقد كان الألم والصدمة من نبأ اختفاء تنسيم أكثر من أن يتحمله أيٌّ منهما. كان الطريق مزدحمًا في صباح ذلك اليوم من تشرين الأول، حيث يسافر الآلاف إلى ديارهم لزيارة أقاربهم لقضاء عطلة العيد، ولأول مرة منذ سنوات كان الطريق الذي أطلق عليه الأمريكان تسمية (طريق الموت) السريع آمنا بما يكفي للتفكير في رحلة كهذه.

لقد أطلق الجيش الأمريكي التسمية السالفة على ذلك الطريق السريع لأن العديد من الجنود الأمريكان قتلوا فيه بالعبوات الناسفة

في أثنـاء نقل الإمدادات للقواعد الأماميـة، أو حينما يقومون بنصب نقـاط التفتيش التي أقيمـت للحفاظ على البلـدات العراقية آمنة من هجـمات القاعـدة، لكـن سرعان مـا أصبحـت نقـاط التفتيش تلك علـى الطريـق السريـع والمنتشرة في جميـع أنحـاء البـلاد، واحدة من أكثـر الأماكـن فتكا بالعراقيـين، فقد كانوا يعلمـون بحكم الخبرة أن الأمريكان الخائفين منهم والسعداء بإطلاق النار، سيقومون بإطلاق النار أوّلًا ويطرحون الأسئلة لاحقا، وبين أعوام ٢٠٠٤ إلى ٢٠١٠ سـجل الجيـش الأمريكي أكثر مـن ١٤ ألف حادث، قتـل فيه ٦٨٠ مدنيًـا عراقيًا بطريق الخطأ فيـما أصيب ٢٢١٨ آخرون بجروح نتيجة إطلاق النيران الأمريكية في نقاط التفتيش تلك.

لقد كان الاستاذ الكبيسي يعتقد أنه وبحلول عام ٢٠٠٧، أي بعد انقضـاء ثلاث سـنوات من الاحتـلال كان يجب عـلى الأمريكان أن يكونوا على معرفة بالعادات الاجتماعية والمناسبات الإسلامية، وكان يجب أن يعلموا أن الطرق ستكون مزدحمة بالعائلات، لكن لأسباب لم يكـن للكبيسـيين أبـدا أن يعلموا بهـا، أغلق الجيش الأمريكي، في ذلـك الصباح الباكر من العيد، الطريـق السريع المؤدي إلى الرمادي، أكـبر مدينـة عـلى الطريـق المـؤدي إلى هيـت. لقـد مرت السـاعات والسـيارات المليئة بالعائلات وبضمنها تسنيم وزوجها تسير بحركة مروريـة بطيئة لمسـافة ميلـين، فقد كان الشـارع مزدحما بالسـيارات، وكالعادة كان العراقيون يعتبرون خطوط السـير المقسـمة على أجزاء فرعيـة مجرد ازدحام مـروري، واندفع السـائقون الذين نفد صبرهم إلى كل شـق متـاح متلهفين للتقـدم ولو لقدم واحـدة في هذا التأخير

الـذي لا نهايـة له، ولم يقدم أي أحد تفسيـرا للإغلاق، وحين يتراكم الضغـط تحتاج الجزيئات للهرب، ففـي صباح ذلك اليوم من تشرين الأول انفجرت مشـاعر العراقيين الغاضبين والجائعين، وتحولت إلى صيحـات وفوضى، وفي مواجهة حشـد من الغوغـاء رفع الأمريكان نقـاط التفتيش أخيرا، مما دفع العراقيين المحبطـين إلى إطلاق العنان لمحركات سـياراتهم للاندفاع عـبر الطريق المزدحم، وكانت تسـنيم وزوجها من بينهم.

كانـت هناك مسـاحة صغـيرة فقـط للمنـاورة حول الشـاحنات والباصات الصغيرة والقديمـة، لكن زوجها كان مصمما على اجتيار أكبر مساحة ممكنة من الأرض، ولم يكن من الواضح ما الذي حدث بعـد ذلـك، فالبعض يقولـون إن الأمريـكان فتحوا النـار، والبعض الآخر قالوا إن السائق فقد السيطرة على سيارته، لكن النتيجة النهائية كانت مأسـاة، فقد انقلبت عدة سـيارات وسـحقت تسنيم وزوجها حتى الموت بتصادم كبير.

عندما انتشل عمال الطوارئ جثة تسنيم من تحت الأنقاض، قاموا بتسـليمها إلى عائلة زوجها، والذيـن عندما لم يصل الزوجان بحلول وقت الغداء، سافروا من هيت عبر الطريق السريع لمعرفة ما إذا كانوا قـد واجهـوا أي نوع من المشـاكل وعثروا عليهما، وتم دفنها حسـب التقليد السني قبل غروب الشمس في نفس الليلة، ولم تسنح الفرصة لأبـرار كي تودعها، لم تعرف أبرار بعدها كيف تمضي قدما في حياتها، فقد كانت تشـعر بألم كئيب يهاجمها في أوقات لا يمكن التنبُّؤ بها، فقد

قتلت شابة جميلة وبسيطة، ولم يكن هناك من يهتم لذلك.

لقد أمضى والدها عاما كاملا يكافح من أجل الحصول على نوع من العدالة لابنته الكبرى، وطلب من شقيقه أن يوصله بالسيارة إلى مدينة الرمادي، حيث ظل الرجلان ينتظران في طابور طويل من العراقيين، جميعهم من السنة الذين كانوا يطالبون بتعويضات من الأمريكان، وكل قصة كان يسمعها والد أبرار كانت أفجع من التي سبقتها، لقد فقد رجل أطفاله السبعة عندما ضربت قنبلة أمريكية منزلهم، لم يكونوا إرهابيين، فقد كانوا جميعا تحت سن خمسة عشر عاما، فيما ذبح شقيق رجل آخر في منتصف الليل لأن القاعدة اعتبرته خائنا لانضمامه إلى مليشيا عشائرية موالية للأمريكان.

عندما جاء دوره سار الأستاذ الكبيسي باتجاه الضباط الأمريكان، مثبتا توازنه بعصا في يده وشقيقه على الجانب الآخر، لقد تدرب على ما سيقوله لهم، موضحا أن ابنته كانت بريئة وجميلة، والظلم في كل ذلك، كان من المستحيل تقدير قيمة لحياة ابنته، لكنه طالب الأمريكان بمساعدة عائلته للتغلب على خسارته.

بدا أن ضباط الجيش الامريكي غير متأثرين بخطابه، وطلبوا منه كتابة شكواه ليس من أجل أن يرفع من سقف تطلعاته، فقد قالوا له إن الجيش الأمريكي ليس لديه سجل بالحادث ولذا فإنهم لن يتحملوا المسؤولية.

كانت الفوضى التي سادت الطريق السريع المزدحم في صباح ذلك اليوم من شهر تشرين الأول تعني عدم وجود طريقة لمعرفة

هوية السائقين الآخرين في وقت وفاة تسنيم، ونظرا لأن جميع من في سيارتهم قد توفُّوا، فلم يكن هناك شهود أيضا، ولذا حث أقارب الأستاذ الكبيسي في هيت على التخلي عن حملته، فقد قالوا له إنهم أيضا فقدوا ابنا، وكانت تلك هي المأساة الحقيقية، ففي طريقة تفكيرهم كان الورثة من الذكور أكثر قيمة من الإناث، فيما استمر البعض الآخر في القول إن الحادث هو أمر الله، وإن من واجبهم باعتبارهم مسلمين صالحين قبول الأمر الواقع والمضي قدما، لكن أبرار لم تقبل بذلك، فقد اعتادت للتو على غياب أختها من المنزل، وهي الآن مجبرة على العيش مع شبحها».

لقد أعاد أهل زوج تسنيم جهاز عرسها، فماذا سيفعلون بملابسها وأغطيتها؟ في النهاية كانت مجوهرات تسنيم موضوعة كما كانت دائما في الصندوق الخشبي الذي تركته فيه على الرف في غرفة نومهما المشتركة، وفستان زفافها محشورا في الجزء الخلفي من خزانة الملابس الصغيرة، فيما لفت الوسائد التي طرزتها العمات والخالات بأكياس من البلاستك وخزنت تحت سرير أبرار.

كانت العائلة على يقين من أن أبرار لن تتزوج أبدا، فقد كانت قد بلغت من العمر عشرين عاما، وقد اقتربت بالفعل من الحد الأقصى الذي يفكر العزاب فيه بالزواج منها، وكانت دائما تجهد نفسها في الدراسة، لكنها وبعد وفاة أختها أصبحت أكثر تركيزا من قبل على إكمال شهادتها، والدة أبرار لم تكن تريد لابنتها أن يستهلكها الحزن، لذلك قطعت بعد ظهر أحد الأيام قراءتها بعرض كانت تأمل أن

يسعد أبرار قائلة «إذا فكرت يوما بالزواج فإن كل نفائس تسنيم ستكون لك» لكن الفكرة أفزعت أبرار، ففي سريرها في الليل، شعرت بصمت الغرفة الفارغة وكأنه ثقل على صدرها، افتقدت أنفاس أختها الهادئة، حتى أنها افتقدت عادة تسنيم المزعجة في رمي حجابها رأسها على الأرض بدلا من طيِّه بعناية مثلما كانت تفعل أبرار.

لم تكن أبرار تستطيع النوم وظلت مستلقية في الظلام تفكر، كان من المفترض أن تعيش تسنيم حياة طويلة وسعيدة محاطة بالأشياء الجميلة التي تهتم بها كثيرا، لكن بدلا من ذلك، اختطفت حياتها ولم يهتم الأشخاص المسؤولون بالحفاظ على سلامتها ولذا كانت ليالي الأرق الطويلة لها أثرها على حالتها.

لقد أخبرت أبرار والديها قائلة: إن على أحد شقيقيها أن يأخذ غرفتها لأنها بحاجة إلى مساحة للدراسة «وستكون مرتاحة بما يكفي للنوم على أريكة غرفة المعيشة، فهي لم تكن في المنزل كثيرا على أية حال.

لم يكن إخوتها بحاجة للتشجيع، فقد استولى أخوها الأصغر أنيس على غرفتها في اليوم التالي، ولم تكن أبرار تتصور أنه يعرف أن وسائد زفاف تسنيم كانت تحت سريره، ولذا لم يكن يشكو من الأشباح قط، أو ربما لم يكن يهتم لذلك الأمر.

لم تكن ترتيبات نوم أبرار الجديدة تساعدها في التغلب على الأرق، لكنها كانت تستطيع على الأقل السير لبضع خطوات في غرفة المعيشة

من الأريكة إلى المكتب والجلوس إلى حاسوب العائلة، ولذا بمجرد أن قامت بتشغيل الحاسوب المكتبي القديم وسجلت الدخول إلى الإنترنت، كان العالم الحقيقي ينزلق بعيدا، فقد كانت تقضي ساعات مع أشخاص مثلها خارج الاتجاه العام، أشخاص يتأرجحون على حافة الهاوية وقلقين بشأن حالة العالم، كما كانت تبحث عن تقارير علمية بشأن علاجات السرطان.

لقد كانت تنقر على امتدادات لا تنتهي من مقاطع الفيديو التي تظهر قتلى عراقيين وضحايا العمليات العسكرية الأمريكية، وعائلات فلسطينية مذهولة دمرت منازلها بالقنابل الإسرائيلية، وعلى الانترنت قرأت أبرار نسخة باللغة العربية من كتاب كفاحي لهتلر، ثم بدأت بتجميع قوائم لأعظم العقول العلمية التي جاءت من العالم العربي، وفي أثناء دراستها لعملهم الرائد في مجالات تخصصاتهم اكتشفت شيئا مشتركا بينهم، فهم مثلها كانوا جميعهم من السنة.(*)

(*) لم توضح المؤلفة ما القصد من عبارة أعظم العقول العلمية التي جاءت من العالم العربي هل كانوا قديما أو حديثا، وبالطبع هناك مغالطة واضحة، فليس كل العقول العلمية العربية العظيمة من السنة، ربما تكون نسبة منهم أو بحكم كونهم من المسلمين تحت حكم الخلافة الأموية أو العباسية إن كانت تقصد التاريخ القديم، وقد تم نسبتهم للعلماء العرب المسلمين، ولكن المؤكد أنهم متنوعو المذاهب بل إن البعض منهم من غير المسلمين حتى، وربما أرادت المؤلفة بهذه العبارة أن تشير إلى التحول الحاصل في أفكار أبرار. المترجم



الفصل الثامن

بناء قصة التغطية



كان عبق عمود الدخان يلتف مثل نبتة متسلقة نحو الأعلى باتجاه البقع الملطخة بالعفن في سقف المقهى الواقع في وسط بغداد، على بعد عدة شوارع قليلة عن كلية الشرطة في البلاد.

كان الفصل ربيعا والأخوان مناف وحارث منحنيين على طاولة خشبية منخفضة وكلٌّ منهما يحتضن أنبوبًا زجاجًّا مائيًّا طويلَ العنق يدعى (النركيلة) ويسحبان بعمق دخان التبغ إلى رئتيهما من أجل التفكير والإلهام.

لقد بلغ مناف ٢٣ عاما من العمر ولم يتبقَّ له سوى عام آخر في الكلية، فقد استمتع بصرامة حياته الجديدة، والتي تتطلب منه إكمال ساعات طويلة من الدورات والتدريب الأساسي لمدة ستة أيام في الأسبوع في أثناء إقامته في ثكنات الشرطة، لكنه في وقت مبكر من ذلك الصباح تلقى مكالمة هاتفية عاجلة من والدته، فقد كانت أم حارث خائفة وبحاجة إلى عودة مناف إلى المنزل، لكن كانت هناك مشكلة، فقد كان مناف مجندا جديدا في وكالة الاستخبارات المحلية العراقية ولم يكن الوضع بالنسبة له آمنا في الذهاب إلى مدينة الصدر.

في أثناء دراسته ليصبح ضابط استخبارات، تعلم مناف الشاب كيفية محاربة الخلايا الإرهابية الجهادية السنية، لكن من وجهة نظره، فإن ما هو أكبر تهديد لبغداد وعائلته لم يكن تنظيم القاعدة، بل الرجال الذين نشأ معهم والذين ملؤوا صفوف جيش المهدي والتابعون لميليشيا الصدر، حيث تحول حيُّهم إلى منطقة قتال منذ الإطاحة بصدام، فقد سيطرت تلك الميليشيا على منطقته، وكان

هناك شبان مسلحون يجوبون الشوارع في الليل ويقتلون أي شخص يشكُّون فيه، كما أجبروا رجال الأعمال المحليين دفع أموال مقابل الحماية وإجبار السياسيين المحليين على الموافقة على العقود الحكومية الكبيرة مع أعضائهم.

لقد استمر جيش المهدي، في ذلك الوقت، بعدائه الشديد لقوات الأمن الفيدرالية والأشخاص الذين عملوا لصالح الأمريكان، والمواطنين العاديين في مدينة الصدر مثل السودانيين الذين لا ينتمون لحزبهم السياسي.

بحلول عام ٢٠٠٨ كانت مدينة الصدر التي يبلغ تعداد سكانها نحو مليوني نسمة، وفي منطقة يبلغ حجمها نصف حجم مدينة مانهاتن، قد تم عزلها تماما عن بقية مناطق بغداد، حيث كانت القوات الأمريكية في محيطها تحاول منع أعضاء المليشيا من تهريب الأسلحة إلى الداخل، وفي أثناء ذلك كان أعضاؤها يراقبون كل مركبة تدخل في ميدانهم لشكوكهم بالجواسيس الأمريكان.

كان تهديد الصدريين يستهلك المزيد والمزيد من وقت الحكومة، وكانت المليشيا تقوم بقتل الجنود الأمريكان منذ سنوات، لكن مؤخرا فقط قرر رئيس الوزراء المالكي محاصرة المجموعة في مدينة الصدر ومعقلها الرئيس في مدينة البصرة الساحلية والتي كانت تتدفق منها معظم صادرات النفط، مما جعلها تمثل تهديدا للأمن الوطني.

لم يكن حارث موجودا في المنزل كثيرا في العام الماضي، فقد أصبح رئيسه وزيرا للأمن الوطني في الدولة، وأحد الموالين الموثوق

بهم لدى رئيس الوزراء والمكلف بمعالجة تهديدات الصدريين في البصرة، ولذا كلما صادف أن يكون موجودا في بغداد كان يلتقي بمناف ليدردش ويدخن معه.

لقد كان حارث لا يرغب في العودة إلى منزله في مدينة الصدر لكونه قد تزوج بلا حب، بالإضافة إلى تذمر والده وعدم السلام بينهما، أما مناف فقد كان يشعر بشيء مختلف، فقد تزوج قبل بضعة أشهر، بعد أن رتبت له والدته قبل عام زواجه من بنت الجيران، التي كانت أمها واحدة من أفضل صديقاتها، ولم يكن مناف بحاجة إلى إقناع فقد كانت نسمة من جميلات الحي، وقد لعبا معا حينما كانا طفلين.

كان حفل زفافهما صغيرا بالمعايير العراقية، لكن ذلك لم يكن مهما بالنسبة له، فقد كان مناف مفتونا بزوجته الجديدة، وكان يحاول العودة إلى المنزل في كل أسبوع في يوم إجازته ليقضي معها أكبر وقت ممكن في الغرفة التي شيدها لهما والدهم في الطابق الثالث من منزل السوداني.

في ذلك الربيع غدت العودة إلى مدينة الصدر أصعب فأصعب، فحينما كان يتصل، في كل مساء، بالمنزل من الكلية التي لا تبعد سوى أربعة أميال من بيتهم كان يشعر كانه يتصل بدولة اخرى، فقد كان يسمع دوي المدفعية الثقيل في الوقت الذي كانت فيه نسمة تخبره عن آخر القصص المرعبة في الحي، فقد أعدم جيش المهدي لتوه أحد أصحاب المتاجر، كان قد صوت لحزب الدعوة الذي يتزعمه رئيس

الـوزراء المالكـي، وهـو واحد من بين مئـات المعارضين السياسـيين للصدريين الذين قتلوا في المدينة العام الماضي، كما سـقطت صواريخ على سوق جميلة وأحرقت المكان بالكامل وسوّي بالأرض مما تسبب في نقص الغذاء.

تصاعـدت التوتـرات بشـكل أكبر مما حـرض على مكالمـة هاتفية أخرى من أم حارث ونسـمة في ذلك الصباح، فقد نصبت المليشيات موقعا لقذائف الهاون في الشارع بالقرب من منزل عم مناف، مما أدى إلى انـدلاع معركـة ضارية مع الجنـود الأمريكان. أخبرته نسـمة عبر الهاتف قائلة: «لم نسـتطع النوم، لقد كنا نظن أننا جميعا سنموت، وقد دمـر منـزل عمك وتحطمـت كل نوافذه»، لقد حاولـت والدته أن لا تجهش بالبكاء عندما جاء دورها على الهاتف قائلة: «إنه لأمرٌ فظيعٌ يا ولدي، فظيع، من كان يظن أن ناسـنا سـيقتلون بعضهم البعض بهذه الطريقة؟».

لم تطلـب المرأتـان من منـاف أن يعـود إلى المنزل أبدا، فلـم تكونا بحاجـة للتصريح بما هو واضح، ففي أعماق شـبكة الممرات والأزقة الكثيفة في مدينة الصدر، كان والداه المسنّان وإخوته الصغار، ناهيك عـن زوجته وزوجـة أخيـه وأطفالهما يقبعـون وراء خطـوط العدو، ولـذا يجب أن يكون أحد الأبناء الأكبر سـنا هناك، كحامٍ في مواجهة المسلحين الخارجين على القانون.

بموجب المسـؤولية كان يجب أن يكون حارث هناك هو المسؤول عن سلامة العائلة، لكن منافًا ومن خلال حديثه معه في المقهى أدرك

أن ذلك لن يحدث وأنه سيتعين عليه التدخل بعملية اختراق، لكن السؤال يبقى، كيف يمكن لمناف أن يعود إلى منزله بأمان، متجاوزا نقاط التفتيش التي وضعها الصدريون دون أن يتم اعتقاله أو قتله باعتباره جاسوسًا محتملًا للحكومة؟.

«أنت بحاجة إلى تمويه» قال له حارث، مضيفا «لكن السؤال كيف يمكنك إخفاء هويتك؟». لم يكن هذا سؤالا يمكن الإجابة عليه بسهولة، فنظرة واحدة إلى مناف وسيتم التعرف عليه على أنه من الشرطة، فنجاحه الدراسي في الكلية قد وسَّع من خطواته، كما أن العمل الشاق في صالة الألعاب الرياضية قد منحه بنية بارزة، بالإضافة إلى قصة شعره وفكه المربع ونظّاراته الشمسية العاكسة قد أعطته تشابها مذهلا مع الممثل الأمريكي أريك استرادا الذي كان يلعب دور الشرطي في شاشة التلفاز.

لقد أدرك مناف أنه لم يكن يكفي بالنسبة له أن يرتدي ملابس مختلفة ويحاول الاندماج مع الحشود في نقاط التفتيش، لأنه إذا اشتبه أحد أفراد المليشيات في أنه كان مع قوات الأمن العراقية فسوف يطلقون النار عليه دون طرح أية أسئلة، ولذلك كان بحاجة إلى دعائم، شيء ما يمكن أن يستخدمه لإنشاء تغطية موثوقة لهويته، وعند ذلك خطرت لحارث فكرة فقال لمناف: قم بقيادة حافلتي الصغيرة، وتظاهر بأنك سائق حافلة ولن ينظر في وجهك أحد.

لقد كان راتب حارث الذي يعمل في وزارة الأمن التابعة للدولة وفيرا، وأكثر مما تحتاجه زوجته لأطفالها، وفي الواقع كان يساهم

بجزء من راتبه مع والديه للمساعدة في تغطية نفقات إخوته الصغار، وقد اتبع الدرس الذي كان قد تعلمه حينها كان مراهقا يعمل مع عمه في سوق جميلة، وهو قيمة الاستثمار.

كانت بغداد مدينة يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة، ولذا كانت متطلبات النقل في المدينة تفوق بكثير قدرات نظام الحافلات العامة، والآن مع المشهد المتغير لنقاط التفتيش والطرق المغلقة وحظر التجوال، كانت طرق الحافلات العادية تتقطع باستمرار، لذلك فإن أصحاب المشاريع مثل حارث قد تدخلوا بحل مربح، بإنشاء شبكة من الحافلات التي تتنقل بين وسط المدينة والأحياء السكنية الأكبر بخدمة يطلق عليها الركاب اسم سيارات (الكيا) على اسم السيارات الكورية الجنوبية الرخيصة.

كان حارث يؤجر سيارته لصديق العائلة الذي يقوم بنقل الركاب يوميًّا، فقال حارث لمناف وهو يسحب نفسا من أرگيلته إنه سيوقف عمله التجاري مؤقتا، حتى يتمكن مناف من العودة إلى المنزل وتفقد الأسرة في عطلات نهاية الأسبوع. وقال له خذ الحافلة، فقط حافظ عليها وحافظ على نفسك، لكن لم يطلب منه أن يفهِّم والده أن حارثًا هو من اكتشف هذه الخطة، وأنها كانت طريقة أخرى ليقوم بواجبه تجاه العائلة.

بعد ظهر اليوم التالي، أي يوم الخميس، استعد مناف للقاء صديق حارث الذي يقود حافلة الكيا ووقف أمام المرآة وألقى نظرة فاحصة على انعكاس صورته، كان فكه مغطى بلحية عمرها يوم واحد،

وقميصه طويل الأكمام رقيقا من سنوات من الغسل وملطخا ببقع من زيت المحرك، وأظافره موشومة بالتراب. لقد بدا الانعكاس الذي يحدق به وكأنه سائق كيا بغدادي أنموذجي، ولم يكن هناك شيء على الإطلاق مثل الشخص الذي كان يحاول مناف أن يكون عليه، قائلا لنفسه لو أن أساتذتي في مدرسة الاستخبارات يرونني الآن فقط!.

كان سائق الحافلة ينتظر بالفعل حينما وصل مناف إلى مقهى الأركيلة بالقرب من محطة الحافلات الرئيسة، جالبا معه مفاتيح الحافلة الصغيرة ومجموعة من ملابسه الخاصة، فقد كان الأخوان السوداني يعتقدان أن من الأبسط والأكثر فاعلية أن يرتدي مناف ما يرتديه السائق الحقيقي، وكما قال له المدربون في الكلية دائما فإن التفاصيل في قصة التغطية مهمة.

لقد قام السائق بتدخين الأركيلة مع مناف في أثناء شرح عمله وأخبر بالتقاطعات وحلقات المرور، حيث يلتقط الركاب الذين يتنقلون من وسط المدينة عائدين إلى مدينة الصدر، وكيف على مناف أن يتصرف عند نقاط التفتيش قائلا له: إن الأمريكان يطلقون النار باستمرار، وإذا لم تتبع أوامرهم بالضبط فقد يطلقون النار عليك أوّلا.

لقد كان المرور عبر نقاط التفتيش سهلا، كانت هويته تظهر أنه مقيمٌ دائمٌ في مدينة الصدر، ولأنه مواطن محلي فقد كان الأمريكان يسمحون له بالمرور، لكن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسوء هو

إذا قام أحد مقاتلي جيش المهدي بإمساكه وطلب معرفة المزيد من المعلومات عنه، ولكن منافًا كان يشعر بالثقة بأنه لن يكون هناك سبب لأي شخص أن يقوم بذلك، فقد بدا بالضبط ما يفترض أن يكون عليه، مجرد سائق كيا ولا شيء أكثر من ذلك.

صافح مناف صديق حارث مودعا وانطلق بالسيارة لإيجاد ركابه، وهو شيء يمكن إنجازه بسهولة إذا توقف عند وزارة المالية القريبة، ومع وجود عدد قليل من الناس في المقاعد الخلفية، فقد حان الوقت لاختبار تنكره وقيادة السيارة نحو المنزل.

لقد أمضى مناف الكثير من الوقت لتهيئة نفسه لأي طارئ محتمل، لكنه شعر بخيبة الأمل تقريبا من السهولة التي مر بها عبر أول نقطة تفتيش في مدينة الصدر. أوقف الجنود الأمريكان السيارة، وقام أحد الحراس بالتجول حولها بواسطة الكلب الذي يتشمم القنابل، وفحصها بحثا عن بقايا أية مواد متفجرة، ثم طلب الجندي منه أن يفتح صندوق السيارة الخلفي، حتى يتأكدوا من الحمولة التي يحملها معه، لكنهم بالكاد كانوا ينظرون إليه، وقد حصل الشيء نفسه عند نقطة تفتيش الصدريين، لقد كان حارث على حق، فلا أحد ينتبه كثيرا لسائق الحافلة الصغيرة.

قضى مناف ليلتين في المنزل مع عائلته، وكان وجوده مثل بلسم لتوترهم وقلقهم، ووعدهم بأنه سيعود إليهم مرة ثانية في عطلة نهاية الأسبوع القادم، ومع مرور الصيف، بدأ مناف يستمتع بعمليته السرية الشخصية، فقد كان يحب التمثيل، لكن الأهم من ذلك كله

خلال الرحلات ذهابا وإيابا بين حيه المحاصر ووسط المدينة، أنه كان يكتسب أيضا موهبة مفيدة وهي اكتساب وتحليل المعلومات الاستخبارية، فقد كان الجلوس في الطابور الطويل للسيارات بانتظار دخول مدينة الصدر في أمسيَّات الخميس، قد منحه مقعدًا في الصف الأمامي لبعض من أفضل المعلومات الاستخبارية التي من الممكن أن يأمل بالحصول عليها ضابط أمن في منطقة نزاع.

كان معظم ركابه من الموظفين المدنيين العائدين من وزاراتهم إلى منازلهم، وفي الغالب من نوع الرجال الذين يروجون المعاملات يوميًّا، أو في بعض الأحيان من النساء اللواتي درسن في واحدة من جامعات وسط المدينة، لكنهم في الوقت نفسه كانوا جيرانا لبعض من أكثر الرجال عنفا في البلاد، مما يجعلهم مطلعين على التحركات اليومية وعقلية العدو، ولذا كانت بعض المحادثات في المقاعد الخلفية لسيارة الكيا غالبا ما تحجم عن السياسة وتركز، بدلا عن ذلك، على المعلومات الضرورية للبقاء على قيد الحياة في نهاية ذلك الأسبوع، سواء كانت المعلومات تتعلق بتطهير بعض الشوارع من المسلحين، أو أين يمكن أن يخبِّئ جيش المهدي أسلحته، أو من الذين كانوا في حيهم يقومون بزرع العبوات الناسفة، وأيٌّ من القادة المحليين قد قتل.

لقد تعلم مناف من خلال الإصغاء إلى تلك الأحاديث كيفية التمييز بين مجرد الشائعات وبين المعلومات الاستخبارية الحقيقية، فنظرا للمخاطر الكبيرة التي واجهها مناف وركابه عند دخولهم

مدينة الصدر، فقد كان من الضروري معرفة الفرق.

بحلول الوقت الذي وصل فيه أخيرا إلى المنزل في أمسيَّات الخميس تلك، كان مناف يحصل على منجم ذهب من المعلومات، لكن لم يكن لديه أحد ليخبره بذلك، فكونه طالبا لم يكن لديه ضابط آمر، حتى أنه لم يكن لديه دور رسمي في قوات الأمن، لكن لم يستطع الجلوس ويترك معلوماته تذهب سدى، لذلك قام بفعل الشيء الوحيد الذي فكر فيه، فقد اتصل بحارث. لقد كان دائما يبدأ تلك المحادثات بنفس الطريقة، مقدما الاحترام الذي يقدمه الأخ الأصغر، ثم أخبر حارثًا أنه وصل إلى منزله بأمان، وتم ركن الحافلة الصغيرة بأمان وأن زوجته وأطفاله بخير، ثم تحول بعد ذلك إلى العمل وكرر ما سمعه من معلومات عن جيش المهدي، فقد كان يثق بأن حارثًا سيقوم بتمرير تلك المعلومات إلى قائده، فبعد كل شيء كان أخوه يشارك في العمليات ضد جيش المهدي في الجنوب، وربما يقوم شخص ما من فرق وزارته باستخدام المعلومات عن مدينة الصدر والتي يمكن أن تنقذ فيها حياة، وبعد الاتصال بحارث يعود مناف لممارسة روتين العائلة في عطلة نهاية الأسبوع.

في أيام الجمع، وبينما كانت والدته وزوجته الجديدة تقومان بطهي الغداء، كان والده يدعوه إلى الجلوس إلى جانبه، حيث كان يستقبل الأقارب الذين كانوا ضيوفا أساسيين في كل أسبوع، وبينما كان الرجال يأكلون، كان أعمامه وأخواله وإخوته الصغار يتناوبون على مناقشة العمل أو المشاكل مع جيرانهم، وأبو حارث الذي كان غالبا

مـا يقـدم المشـورة في مثل تلك الأمـور، كان كثيرا ما يلجـأ إلى مناف لطلب رأيه.

لقـد حـدث ذلك في لمـح البصر، فقـد تحول الابن غـير الملاحظ، بغيـاب حـارث، إلى نجـم في حيـاة الأسرة، فقـد أخـذ عـلى عاتقـه مسـؤولية ضمان سـلامتهم، وفي قبول هذا التحدي، وفي هذا كسـب احـترام والـده في المقابل، وعلى الرغم مـن أن أحدا لم يعلق على ذلك بشـكل صريـح، لكن التفاعـلات في عائلته أوضحـت أن مكانته قد تغـيرت، كان منـاف يجلس إلى السـفرة بجانب والـده في أثناء تناول الطعـام وهو المكان المخصص لأمثاله، أما شـقيقته الصغرى أو حتى زوجة حارث، فكانتا عند تقديم الشاي بعد العشاء يتأكدان من ملء قدح مناف أولا أو في ذات الوقت من ملء قدح أبي حارث.

عندما كان الأطفال يتشاجرون على القناة التي يرغبون مشاهدتها عـلى تلفاز العائلة الوحيـد، كانوا يحضرون جهـاز التحكم إلى مناف للتحكيـم بينهم، وحينـما كانت أم حارث بحاجـة إلى المزيد من المال لـشراء الطعـام، كانت تأتي إليـه. لقد ظلت صورة حـارث معروضة بشـكل بارز في غرفة المعيشـة، لكـن منافًا ولأول مرة في حياته شـعر وكأنه قد تمت رؤيته أخيرا.

بحلـول نهايـة الصيـف، كان روتين عطلـة نهاية الأسـبوع لمناف محلا لنقاش واسـع في الكلية، وفي المساء في صالة الألعاب الرياضية، وصفه العديد من زملائه الطلاب بأنه مجنون، لأنه يسافر ذهابا وإيابا إلى مدينـة الصـدر، ويسـألونه لماذا يقـوم بمثل هـذه المخاطرة في كل

أسبوع؟ هل تريد أن تموت قبل أن تحصل حتى على رتبة ملازم؟ لكن منافًا كان يجيب مازحا أن تلك الرحلات ستمنحه شهادة الدكتوراه في دهاء الشارع، وكلما فكر في الأمر، أدرك مدى حبه لعمله الميداني المرتجل، والإثارة التي يتطلبها هدوء الأعصاب وجمع المعلومات.

عندما بدأ الفصل الدراسي الجديد في الكلية، أخبر مناف مدرسيه أنه يريد الانضمام إلى القسم العراقي الذي يكافئ مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي، وهي وكالة استخبارات الداخلية التي تقدم تقاريرها إلى وزير الداخلية بدلا من المخابرات العراقية الممولة من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

في أحد الأيام من ذلك الخريف وبينما كان مناف يتنقل بين محاضراته في الأكاديمية، شاهد السماء تتحول إلى اللون الأصفر السقيم، فقد ضربت «رياح الهبوب»، وهي نوع من العواصف الرملية السيئة، بغداد بشراسة غير عادية، وقد شاهد مناف خارج ثكنته كيف كانت تتساقط أشجار النخيل الشاهقة على الأرض، بينما كانت كرات الطين والتراب تتساقط في الفناء. استمرت العاصفة ثلاثة أيام، وأغلق المطار، وبقي الجميع في منازلهم. حالما تمكن مناف من الخروج ذهب لتفقد حافلة حارث الصغيرة في مكان وقوفها بالقرب من الأكاديمية، كانت أضرار العاصفة هائلة، فقد اقتلعت سقوف الأكشاك في الشوارع، وأغلقت الأشجار الطرق، وسيارة حارث الكيا قد تحطمت تحت لوحة إعلانية معدنية من طابقين، ودمرت نوافذها، وسقفها مثنيٌّ مثل علبة السردين، ولذا قام مناف

بالاتصال بحارث.

لقد حاول مناف تخفيف وقع الخبر السيِّئ على حارث بالضحك قائلا «يا أخي ربي يبارك بك ويحفظك، كيف تتعامل مع الكيا «فسأله حارث وقد بدأ صوته يرتفع «ما الذي تتحدث عنه يا بن العاهرة؟؟» فقال له مناف «لقد منحنا الله طقسا سيئا هذا الأسبوع، وقد دمرت العاصفة سيارة الكيا ولا أمل في إصلاحها»، فأجاب حارث «ما الذي تعنيه بتحطمت؟ ولماذا تدخل الله في ذلك الأمر؟ مناف، ما الذي فعلته بسيارتي؟ «فأجاب مناف «حارث، لا داعي لأن تستثار من أجل هذه القطعة من الخردة، وصدقني لن تفتقدها لو أنك قمت بقيادتها ولو لمرة واحدة، لقد كانت السيارة تافهة ولا قيمة لها». لقد تحولت المزحة إلى خصام كامل، فقد كان حارث غاضبا من ترك مناف للسيارة معرضة للخطر، ثم اتهم مناف أخاه بأنه فعل الشيء نفسه مع عائلتهما، وفي النهاية قطع حارث المكالمة، فلم يكن يريد أن يوبخ، وخصوصا من قبل أخيه الأصغر بشأن الالتزامات العائلية، وقد استمر حارث بمطالبة مناف، يجب أن تتحمل المسؤولية، حسنا إذن، اشترِ سيارة لك أو ادفع لي بدلا من السيارة التي حطمتها.

أغلق مناف الهاتف مندهشا من غضب أخيه، ثم عاود الاتصال بوالده ليشرح له لماذا لم يتمكن من الحضور إلى المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، وكانت هناك مفاجأة أخرى حينما وقف أبو حارث إلى جانبه قائلا له إنه «غير ملزم بدفع ثمن السيارة المتضررة العائدة لأخيه»، مضيفا أن «الرجل المسؤول هو من يدفع ديونه، لكنك كنت

طوال الصيف تفي بالتزامات أخيك، ولذا لا أرى أي دين هنا».

قبل بضع سنوات لم يكن مناف يتوقع أبدا أن ينحاز والده إلى جانب أي شخص في العائلة ضد حارث، لكن يبدو أن التسلسل الهرمي للعائلة تغير حقا إلى الأبد.

الفصل التاسع

التعلّم من المعلومات الخاطئة



كان مكتب أبي علي في مجمع رئاسة الوزراء معروفا بالفوضى، فقد كانت أكوام الملفات والكتب مكدسة بشكل متفاوت وخطير وعلى وشك الانقلاب ودفنه على مكتبه، وكان تابعوه يخشون للغاية من ترتيب أعماله الورقية لأنهم يعرفون أن تلك الفوضى كان تعني شيئا لأبي علي، لأنه مثل الساحر يمكنه سحب النموذج أو التقرير الصحيح من أكوامه المتناثرة في لحظة واحدة، لكنه، وعلى الرغم من ذلك، كان دائما يجد بسهولة ملفه ذا الصفحات المطوية الزوايا، وهو الملف الخاص بمشروعه المحبب المسمى بـ (الصقور).

كان في داخل الملف خليط من الملحوظات، بعضها مكتوب بخط اليد، وبعضها الآخر مكتوب على ورق الحاسوب، وبعضها مسطور في دفاتر مدرسية من بحث أبي علي. إن ميزة كونك رجلا غير بارز وسط السياسيين المتسلقين الصاخبين هو الوصول إلى المعلومات بشكل غير مقيد، فقد أراد أبو علي رجالا من حوله يتفقون مع فلسفته في جمع المعلومات كعلم وليس برياضة الدم، وبطريقته المدروسة والمنهجية بدأ بتكوين ملفات عن الناس الذين من الممكن أن يجندهم للعمل في وحدته، مجموعة من الشباب كانوا يحصلون على أعلى الدرجات في صفوفهم في أكاديميات الجيش والشرطة، ورجال أكبر سنًّا سمع عنهم من القادة في أثناء مناقشة العمليات.

بحلول صيف عام ٢٠٠٩ ومع امتلاء ملف بحثه، بدأ أبو علي التفكير بطرق لتقييم هؤلاء المجندين بنفسه، ولذا نفض الغبار عن مهنته القديمة التي اكتسبها من السنوات التي قضاها هاربا في بغداد،

وتوجه متخفيا إلى كليتي التدريب، وتمكن من الوصول من خلال التظاهر بأنه عامل أو شخص ما مجهول لا يلاحظه أو يتذكره أحد، لكن من كان لديه السبب القانوني لزيارة هذه المواقع ذات الإجراءات الأمنية المشددة، الأمر بسيط، فمن خلال مصادره وسلطته في مكتب رئيس الوزراء تمكن أبو علي من القيام بمهمات استطلاعية مقنعة، إحداها كان من خلال تزوير هوية لوزارة الكهرباء ذهب بها إلى كلية الشرطة متنكرا بأنه فني جاء لفحص الأسلاك، وفي المهمة التالية قام باستعارة شاحنة من وزارة الداخلية، حتى يتمكن من التظاهر بأنه مفتش يبحث عن عيوب هيكلية مخترعة في المبنى.

ذات يوم في أواخر شهر حزيران ذهب أبو علي إلى كلية الشرطة متنكرا بزي عامل تنظيف، وكانت تلك الزيارة لا تنسى، لأنها كانت المرة الأولى التي سمع فيها عن مناف السوداني، كان أبو علي يعلم أنه لن ينتبه أحد إلى عامل التنظيف، وهو يتجول في الأنحاء دون أي إزعاج، كما أنه كان يقوم بكنس الوثائق التي كان يرميها المدربون ورؤساء الأقسام دون أن ينظر إليه أحد.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم كان أبو علي يمر بضابطين يأخذان استراحة تدخين ويضحكان بإعجاب من اقتحام مناف السوداني لمدينة الصدر كسائق كيا، لقد أخبر الضابط الأكبر زميله بأن ذلك الشاب يمتلك الجرأة، وليس من السهل إخافته، فتنبهت أذنا أبي علي، وحينما عاد إلى مكتبه كتب اسمه في ملف الصقور الخاص به، وفكر في داخله قائلا: حينما يتخرج من الكلية سيكون هذا الرجل

لي، لكـن في غضون ذلك، أبعدت الأمور السياسـية والأمنية أبا علي البصري عن حملته التجنيدية.

طـوال عامـين مـن عمله منـذ أن تـولى منصب مديـر الأمن لدى رئيس الوزراء نوري المالكي اكتسب أبو علي سمعته كرجل بعيون لا يفوتها شيء، وعندما كان السياسيون وقادة الأمن يجلسون في مكتب رئيس الوزراء، كان يلاحظ الشكاوى والزيف بصمت.

كانت مهمة رئيسـه إبقاء القادة السياسيين سعداء، بينما كان عمله الحفاظ على المدينة أكثر أمانا، ولذا حينما كان ينتقل كبار الشخصيات العراقيـة أخـيرا إلى اجتماعهـم التـالي، كان أبـو عـلي يعود بهـدوء إلى مكتبـه للتفكـير في جوانب المعلومات التي سـمعها للتـو، وأيٌّ منها تمثـل تهديدات أمنية حقيقية وأيٌّ منها مزيفة، ومع ذلك، فقد تحولت الممـرات الطويلـة لمجمع رئاسـة الـوزراء في ذلك الصيـف إلى غابة خائنة من السياسيين الغادرين والمتطلعين.

كان الجميع في العراق يصرخون مطالبين بوقف القتل، من حزب المالكـي إلى شركائـه في الائتلاف الحكومـي إلى المجتمع الدولي الذي كان ينفق سنويًا مليارات الدولارات لإعادة بناء العراق، لكن رئيس الـوزراء، عـلى أية حال، لم يكن يثق بالكثير مـن قادة الأجهزة الأمنية الرسـمية في البـلاد، ولذلـك قـرر تشـكيل وحدتـه الأمنيـة الخاصة باسـتخدام أموال مـن موازنته التقديرية الخاصة بـه حتى يتمكن من تجاوز البرلمان.

قال أنصار المالكي السياسيون إن أفعاله قانونية، فيما قال منتقدوه

عكس ذلك، فقد كان لرئيس الوزراء ميزانية خاصة لا تخضع لأي رقابة، كما أنها تحمي إجراءات هذه الوحدات الأمنية الخاصة من المراجعة أيضا، وكانت إحدى هذه الوحدات تابعة لأبي علي، لكن أيضا هناك وحدات أخرى وكان أكثرها إثارة للجدل هي القوة ٥٤ والتي شكا منها أعضاء البرلمان العراقي في ذلك اليوم.

كان أبو علي يجلس مرارا وتكرارًا على الأرائك الفخمة في المكتب الشخصي للمالكي، بينما كان رئيس الوزراء يتلقى إحاطة من القوة ٥٤، الحرس الامبراطوري التابع له والمعروف أيضا باسم لواء بغداد. أصبح القادة العسكريون الدعامة الرئيسة في المجمع الحكومي وكذلك في مقر قيادة العمليات الأمنية في بغداد، وإذا أراد رئيس الوزراء اعتقال شخص ما، سواء كان مشتبها به في قضايا الإرهاب أو عدوًّا سياسيًّا فإن مثل هذه المجازفات، تقوم بها القوة ٥٤ التي تتولى المهمة، فهم على أية حال ليسوا بحاجة لإبلاغ أي قسم آخر أو تنسيق أعمالهم معهم، ولم تكن هذه حدود أعمالهم فحسب بل كان اللواء يدير مركز اعتقال خاص به في ركن من أركان مطار المثنى القديم على بعد مسافة قصيرة بالسيارة من المنطقة الخضراء ومبنى رئاسة الوزراء.

وبغض النظر عن ما ادعى أنصار رئيس الوزراء، فإن الوحدة وعملها كان ينتهك كل قوانين العراق الجديدة التي كانت تهدف إلى منع جرائم الماضي حينما كانت قوات الأمن الصدامية تتصرف بحصانة اختفى بسببها عشرات الآلاف من الأشخاص مثل والد

أبي علي البصري وأجداده وشقيقات زوجته كذلك.

كانت إحاطات القوة ٥٤ لرئيس الوزراء متفائلة بشكل روتيني، فهي تشرح بالتفصيل كم هو عدد الارهابيين المشتبه بهم والذين تم القبض عليهم، ومدى التقدم الذي كانوا يحرزونه في الكشف عن قياديين في القاعدة، لكن ذلك لم يكن صحيحا، فقد أخبر اللواء رئيس الوزراء مرتين خلال عامين بأنه ألقى القبض على زعيم القاعدة في العراق (أبو عمر البغدادي) وقد أعلن مكتب رئيس الوزراء بابتهاج عن هذه النجاحات المفترضة، كان أقرب مثال لها في عام ٢٠٠٩، إلا أن ذلك تسبب بحرج في وقت لاحق حينما تبين أن تلك الأخبار لم تكن صحيحة.

إن سجل تلك المجموعة المتقلب وسمعتها في استخدام التعذيب لانتزاع المعلومات قد أكد على العيوب العميقة في وكالات الاستخبارات العراقية، ومع ذلك كان المالكي يرى أن جهاز المخابرات الوطني الرسمي التابع له منقوصٌ، نظرا للعدد الكبير من ضباط مخابرات صدام الذين تم إعادة تعيينهم بواسطة محمد الشهواني، لكنه لم يكن يستطيع إغلاق وكالة المخابرات الوطنية، فقيامه بذلك سيتم اعتباره بمثابة هجوم مباشر ضد الحكومة الأمريكية التي مولتها.

وبدلا من ذلك جعلها المالكي خارجة عن الموضوع، وسمح بإصدار مذكرة توقيف بحق الشهواني، مما دفعه إلى مغادرة العراق إلى الأردن المجاور، ثم قام بعد ذلك بإغراق وكالة المخابرات الوطنية

بـالاف المجندين الجـدد من الرجال الذين لم تكـن لديهم خبرة في مجال مكافحة الإرهاب، بل أعضاء في حزبه السياسي، وبحلول عام ٢٠٠٩ كانت جودة العمل المنبثقة من الدائرة المدعومة من وكالة الاستخبارات المركزية غير موثوقة لدرجة أنه تم تهميشها بشكل فعال.

وبينما كان المالكي منهمكا بالسياسـة، سـعى أبو علي للتعامل مع الأمن، لكن القوة ٥٤ لم تكن تساعد في ذلك، ومن ناحية أخرى، فإن الاتهامات التي أطلقها نواب من ائتلاف المالكي الحاكم بأن القوة ٥٤ كانت تعذب مواطنيه من العراقيين كما كانت تفعل مخابرات صدام لم تلق آذانا صاغية، حيث يزعم أن أكثر من أربعمائة شـخص معتقلون في سجن المثنى دون أوامر توقيف أو أي إشراف قانوني، لم تلفت نظر رئيـس الوزراء إلى الأنباء، فقد رفض تلـك الاتهامات ووصفها بأنها تشويه من قبل خصومه السياسيين.

لقـد كان أبـو عـلي يعلم أن تلـك الاتهامات مـن البرلمانيين كانت صحيحة، فقد كان يتم اعتقال العراقيين من المناطق السنية وتعذيبهم مـن قبل القادة الذين يسـعون للحصـول على معلومـات عن خلايا القاعـدة. كانت أفعالهـم مقلقة له بحقيقة أن أولئك القادة فشـلوا في إدراك أن تكتيكاتهـم لم تكـن لتجعـل البـلاد أكثر أمنـا، لكنه وبدون غطاء سـياسي مـن المالكـي لم يكن أبو علي يسـتطيع كبـح جماح هذه الانتهـاكات، ناهيك عن اقـتراح معاقبة المسـؤولين عنها، وبدلا من ذلك كان أبو علي يأمل في أن يحفر القادة المنافسون قبورهم بارتكاب المزيد من الأخطاء.

في تلك الأثناء كان على أبي علي القيام بعمل عاجل، فبينما كان الجيش الامريكي قد كسر تمرد القاعدة عبر شمال وغرب العراق، لكن بغداد ظلت تتعرض للتفجيرات، لقد كان المالكي يأمل بالفوز بولاية جديدة في الانتخابات المقرر إجراؤها في كانون الثاني من عام ٢٠١٠، لكنه لا يستطيع القيام بذلك إذا كانت العاصمة تحت الحصار، ولذا فقد كان مستقتلا من أجل الحصول على مجرد رذاذ من الأخبار الإيجابية، مثل عمليات مكافحة الإرهاب الناجحة، فهو لم يكن بحاجة إلى فضائح كتلك التي تسبب بها البرلمانيون المنافسون فيما يتعلق بالقوة ٥٤، ولهذا السبب استبقى رئيس الوزراء أبا علي بعد انتهاء الاجتماع أخيرا، وبأسلوبه المقتضب كالعادة طلب المالكي من مدير استخباراته الجديد تقديم شيء يمكن نسجه كنصر بدلا من تلك المعلومات الخاطئة من القوة ٥٤.

لقد كان أبو علي متشككا في ذلك، فقد كان لديه ثلاثة رجال فقط تحت إمرته، وأمامه ستة أشهر على الأقل لكي يسلم لقائده إرهابيًا بارزا. إن ما لم يكن يهتم بفهمه المالكي هو عامل الوقت والاجتهاد اللازمان لتجميع معلومات استخبارية جيدة، وإيجاد مصادر موثوقة والقبض على أو قتل الأهداف التي تسبب أكبر قدر من الضرر، لقد أراد أبو علي إثبات ذلك مرة واحدة وإلى الأبد، في أن مهارات التحقيق الجيدة هي ما يحتاجه العراق في الحرب على الإرهاب، وليس الخوف والتعذيب والسلاسل، لم يكن متأكدا من أن لديه عددا كافيا من الضباط لإنجاز هذه المهمة، لكنه كان يعرف من سيصطاد لإنجازها.

لقد حطم الأمريكان شبكات كاملة من الإرهابيين في المحافظات السنية الشمالية والغربية من خلال زيادة القوات والتحالف مع العشائر السنية، وفي عام ٢٠٠٧ تمكنت القوات الأمريكية حتى من تعقب وقتل عنصر القاعدة العراقي الذي خطط وتزعم مجموعة التفجير المروع في ضريح سامراء.

لقد كان واحدا من أكثر الهجمات المروعة منذ أن أطاحت الولايات المتحدة بنظام صدام حسين والذي لم يحل لغزه بعد هو التفجير الانتحاري الذي حدث في ظهيرة شديدة الحرارة من شهر آب عام ٢٠٠٣، حيث صدم أحد الانتحاريين والذي كان يقود مركبة خلاط إسمنت (خبَّاطة) مليئة بالمتفجرات الجدار المحيط بمقر الأمم المتحدة في فندق القناة، حيث تسبب الإنفجار بانهيار الفندق المكون من ثلاثة طوابق ومحاصرة مئات العاملين في المجال الإنساني تحت جدران من الخرسانة، ومقتل الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في العراق سيرجيو دي ميلو الذي دفن تحت عدة أطنان من الأنقاض وسحقت رجلاه بسبب الركام، وعلى الرغم من أنه بقي حيًّا لعدة ساعات بعد الانفجار، لكن عمال الإنقاذ لم يتمكنوا من الوصول إليه.

لقد كان دي ميلو واحدا من سبعة عشر شخصا ماتوا في الهجوم، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتم فيها استهداف منظمة إنسانية في منطقة الحرب. كانت تلك الضربة انتهاكا لقواعد الحرب الدولية، والتي تتم بموجبها معاملة المنظمات الدولية وعمال الإغاثة على أنهم

غير مقاتلين، مما أدى إلى الانسحاب الكامل لتلك المنظمات من العراق.

إن تعقيد الهجوم وحجم القنبلة لم يترك مجالا للشك، مثل تفجير سامراء، بأن القاعدة كانت مسؤولة عنه، لكن بعد ست سنوات على الحادث لم يتم العثور على العقل المدبر للهجوم على فندق القناة.

في الوقت نفسه، كان رئيس الوزراء العراقي يتلقى بشكل شبه يومي قائمة طويلة من الشكاوى من المجتمع الدولي بشأن فشل حكومته في تلبية التوقعات الضرورية للحفاظ على استمرارية تدفق مليارات الدولارات من المساعدات المالية للعراق، فقد تم إلقاء اللوم على رئيس الوزراء بسبب التأخير في بناء المدارس، وعدم إحراز تقدم في الإصلاح القضائي، والفساد المستشري في مفاصل الدولة، وبالطبع الوضع الأمني المتردي.

لقد فكر أبو علي أن الجميع سيستفيدون إذا أظهر مكتب رئيس الوزراء للأمم المتحدة اختراقا في قضية التفجير على مكتبها في عام ٢٠٠٣، وفي حزيران من عام ٢٠٠٩ جمع أبو علي رجاله الثلاثة في مكتبه المزدحم، فقد أمضوا ست سنوات في قوات الأمن العراقية الجديدة، لكن علاقتهم بأبي علي تعود إلى أيام المنفى، وكانوا أذكياء وجديرين بالثقة، وفي الوقت الحالي، كانوا يمتلكون نفس المصادر التي يملكها أبو علي.

لقد قال لهم أبو علي أن لا يفكروا أن مهمتهم كحل للحرب على الارهاب، ففي كل الكتب والمذكرات السياسية والكتيبات العسكرية

الميدانية التي كتبت في واشنطن ولندن وأماكن أخرى عن الإرهاب السني، واستراتيجية مكافحة التمرد، وجمع المعلومات الاستخبارية لم يكن لدى أي شخص في واشنطن ولندن أو في أي مكان آخر في العالم وصفة لتحقيق ذلك، وبدلا من ذلك قال لهم أبو علي إن عليهم أن يتخيلوا مهمتهم مثل صقر يطارد فريسته.

كانت المهمة الأولى تحديد المشتبه به، ولفعل ذلك أمر أبو علي فريقه بجمع أي أدلة كانت لدى قوات الأمن العراقية الأخرى بشأن تفجير فندق القناة، ومعرفة ما إذا كانت هناك أي وكالة أخرى ما زالت تجري تحقيقا أو وجود مشتبه بهم في الحجز.

لعدة سنوات، تم جمع قصاصات من المعلومات من قبل أجهزة عراقية مختلفة من بينها قوات مكافحة الارهاب، ووكالة المخابرات المحلية والقوة ٥٤، لكن لم يتحدث أحد من مديري الوكالات بشكل مباشر مع بعضهم البعض، ففي الواقع كانوا يزدرون بعضهم البعض، ومع حدوث التفجيرات الانتحارية كل يوم تقريبا في العاصمة، كان هجوم فندق القناة ذكرى بعيدة في فترة العنف التي لا يمكن وصفها.

بسلطة تسنده من رئيس الوزراء قطع أبو علي الجمود بين الوكالات، وخلال بضعة أيام كان لديه ورجاله أحجية معقدة من القرائن، والأهم من ذلك كله اسم، فقد كان هناك سجين عراقي قد أدين بانتمائه لخلية تابعة للقاعدة في بغداد قد أشار بأصابع الاتهام إلى المشتبه به الرئيس في التفجير، وهو طيار مدني عراقي متقاعد كان

يعيش بين نخبة أزلام صدام، لكن حظوظه تراجعت بعد سقوط الديكتاتور.

أمر أبو علي فريقا من القوة ٥٤ بالعثور على الطيار المتقاعد طالبا منهم أن لا يلمسوه ولا يعتقلوه، فقط اعثروا عليه، وبمجرد أن عرف أبو علي أين يعيش الرجل قرر هو ورجاله كيفية المضي قدما.

بالنسبة لرجل يزعم أن يديه ملطختان بالدماء، كان الرجل ويدعى علي العزاوي يعيش براحة تامة في منزل من ثلاثة طوابق في أحد الأحياء السنية الراقية غرب بغداد، وبالتحديد في منطقة اليرموك، وهو حي وارف بني لضباط صدام العسكريين وعائلاتهم. لقد امتلأت السجون العراقية والأمريكية بالمشتبه بهم من الإرهابيين السنة، لكن لسنوات لم يفكر أحد في تفجير فندق القناة إلى أن انقض أبو علي ورجاله مثل الصقر الجارح الذي أطلقوا عليه اسم فريقهم.

لقد عرف مدير الاستخبارات أنه ومع وجود عدد قليل جدا من الرجال سيتعين عليه وضع خطة بسيطة، وكانت الخطوة الأولى هي إلقاء القبض على المشتبه به، ومن ثم تحديد ما إذا كان العزاوي بالفعل قائدا لخلية تابعة للقاعدة، أو أن التهمة الموجهة ضده هي قضية خطأ في تحديد الهوية لأنه اسم شائع.

كان أبو علي يعتقد أن أسهل طريقة للتأكد من ذلك هي الشروع بعملية تقصي، وإدخال رجاله إلى منزل المشتبه به للعثور على الأدلة التي بإمكانهم إيجادها. بعد أيام قليلة من المراقبة أفاد فريقه أن المشتبه به عرض منزله للبيع، ولم يرد أبو علي أن يغامر بفرار العزاوي من

بغداد أو ما هو أسوأ من ذلك مغادرة البلاد، لذلك وفي يوم ٢٦ حزيران أعطى الضوء الأخضر لبدء العملية.

كانت الخطة أن يقوم اثنان من صقوره بالتظاهر كسماسرة عقارات، وكإسناد لجعل تغطيتهم مقنعة، استعارا مبلغ ١٠ آلاف دولار من المصروفات النثرية المحفوظة في مكتب رئيس الوزراء وذهبا إلى منطقة اليرموك بهدف الدخول إلى منزل المشتبه به.

وطرق الضابطان السِّرِّيَّان، وكانا يحملان حقيبة النقود، الباب الأمامي للعزاوي، وبعد شرح مختصر دعاهم إلى الدخول، فيما كان أبو علي يراقب الوضع من سيارة على بعد بنايتين، كان الصقران هناك لبدء محادثة باستخدام صفقة العقار كذريعة، ولجعل العزاوي يهدأ ومعرفة ما إذا كان هناك أي مؤشر على أن الرجل متعاطفٌ مع الإرهابيين، فلم يكن من المفترض تصعيد الأمر، ولكن في حال حدوث أي شيء خطأ، كان أبو علي قد جهز فريقا احتياطيًّا من القوة ٥٤، لأنه لم يكن لديه ما يكفي من الرجال اللازمين لحماية فريقه.

لم يمض وقت طويل قبل أن يعود رجلا أبي علي إلى الشارع مرة أخرى، لكنهما عادا هذه المرة بدون حقيبة النقود، ومن خلال منظاره اليدوي رأى أبو علي أن الرجلين أعطيا إشارة يدوية متفق عليها مسبقا بأنه يجب القبض على العزاوي.

قفز أبو علي من السيارة وأمر فريق القوة ٥٤ بالذهاب إلى المنزل، وقد دفع ضجيجهم العزاوي إلى الباب الأمامي من المنزل حينما بدؤوا بالتدفق في حديقته المنزلية، ولم يقاوم المشتبه به اعتقاله وغادر

بهدوء مع الحرس.

تحت إشراف أبي علي ظل العزاوي صامتا لأسابيع، فبخلاف الادعاء الوحيد من قبل السجين الآخر بشأن دور العزاوي في هجوم عام ٢٠٠٣ على مكتب الأمم المتحدة، لم يكن لدى الصقور ما يكفي من الأدلة لتورطه في تفجير المقر، لكن الوحدة ظلت تراقب منزل العزاوي، وعلى مدى الأشهر الستة التالية كانوا يراقبون جواسيس القاعدة وقادة الخلية والممولين، فلاحظوا أنهم كانوا يستخدمون المسكن كمنزل آمن لهم وينقلون الأسلحة والأموال النقدية لخططهم الإرهابية فيه، ثم أمر أبو علي أخيرا بهدم جدران المنزل، حيث تم الكشف عن مئات الآلاف من الدولارات نقدا ومواد لصنع القنابل، وفي مواجهة الأدلة المتزايدة ضده، اعترف العزاوي أخيرا بالتخطيط لهجوم مكتب الأمم المتحدة، وبتنظيم تفجير إرهابي آخر في مدينة الصدر عام ٢٠٠٨.

أرسل أبو علي إلى قيادة عمليات بغداد، أسماء ومواقع نصف دزينة من المشتبه بانتمائهم إلى القاعدة، والذين قال العزاوي إنهم مشاركون معه في خليته، وفي غضون ذلك حقق رئيس الوزراء المالكي نجاحا في مكافحة الإرهاب كان يأمل فيه قبل خوض الانتخابات الوطنية، لكن مع ذلك، كانت هناك مشكلة، فعندما أمر رئيس الوزراء وسائل الإعلام الرسمية بنشر خبر اعتقال العزاوي، فإن مكتب الأمين العام للأمم المتحدة لم يصدق الخبر، فبحلول نهاية عام ٢٠٠٩ أدى انعدام الثقة إلى تلف العلاقات بين كبار مسؤولي الأمم المتحدة وبين المالكي

ودبلوماسيين عراقيين آخرين، لأن المسؤولين الأجانب كانوا يعرفون أن رئيس الوزراء يقوم بتسييس المعلومات الاستخبارية واستخدامها لصالحه قبل الانتخابات، والأكثر من ذلك أن البرقيات السرية إلى لندن وواشنطن خلصت إلى أن المالكي كان يتعمَّد إذكاء الطائفية كأداة للحملة الانتخابية، فيما يتجاهل التحذيرات من انتهاكات حقوق الانسان من قبل قوات الأمن العراقية.

لذلك فإنه عندما تم نشر أخبار قضية العزاوي، كان هناك شك واسع النطاق بين الكثير من الدبلوماسيين الأجانب بأن العراقيين تمكنوا من إلقاء القبض على الرجل المطلوب، خصوصا بعد رفض المالكي مشاركة طرق أبي علي الاستخبارية، لكن تلك الأخبار جعلت الأمريكان ينتبهون، فإذا كان هناك رجل محترف يتعقب أعضاءً كبارًا في القاعدة والمتعاطفين معهم، فإن القوات الأمريكية تقوم بالشيء نفسه وتريد معرفة من هم أولئك الأفراد.

من وجهة نظر المالكي فإن أبا علي سلم الأخبار الأمنية الإيجابية التي كان يتوق اليها، وبعد قضية العزاوي تلقى مدير الاستخبارات تفويضه المنشود بتجنيد المزيد من الأعضاء والتي أصبح يشير إليها باسم استخبارات خلية الصقور، ومع اقتراب عام ٢٠٠٩ من نهايته، عاد للبحث في ملفه ذي الصفحات المطوية الزوايا من المرشحين وبدأ يجري الاتصالات معهم.

في صباح باكر نضِرٍ من شهر تشرين الثاني، كان هناك حوالي ٥٠٠ عراقي بما فيهم مناف السوداني يقفون في تشكيل على أرض كلية

الشرطة لحفل تخرجهم الرسمي، وكانوا يؤدون التحية العسكرية في أثناء عزف النشيد الوطني للعراق الجديد، وظلوا منتبهين، بينما كانت الشخصيات الحكومية البارزة تخطب فيهم من منصة مرتفعة ومغطاة.

كان أبو علي يجلس في الصف الثاني برفقة حارسه الشخصي كممثل رسمي لمكتب رئيس الوزراء، فيما كان أحد حراسه في الحقل المليء بالأوساخ بانتظار أوامر رئيسه، وعندما انتهت الخطب أطلق الطلاب البهجة ورموا بقبعاتهم في الهواء، ثم أشار أبو علي إلى حارسه الذي يتحرك بين الشباب أن يقوم بالبحث عن مناف، وقد وجد الملازم محاطا بأصدقائه، وقد عرفته البذلة الزرقاء الرسمية على أنه ينتمي إلى جهاز استخبارات الداخلية.

كان حارس أبي علي يعتقد أن شعره الأسود الشائك وجسمه العضلي من المفترض أن يجعله يبدو رجلا قويًا، لكن ابتسامته العريضة أفسدت التأثير كله مما جعله يبدو كأنه طفل صغير. مبارك، قال له الحارس الشخصي وهو يربت على كتف مناف لجذب انتباهه، مضيفا: إن قائدي يريد الحديث معك بكلمة، هل يمكنك أن تتبعني من فضلك؟.

قاد الحارس الخريج الجديد عبر الحشود إلى سيارة أبي علي (اللاندكروز) اللامعة، ولم يظهر مناف توترا وهو يصعد إلى المقصورة الداخلية الجلدية الرائعة للسيارة، مما جعل أبا علي يرغب به أكثر بسبب رباطة جأشه، فقال أبو علي للملازم الجديد: السلام

عليكم، هل ترغب بالمجيء للعمل معي؟.

لقد أخبر مدير الاستخبارات الفخور منافًا عن مهمته قائلا له: نحن ننقذ الأرواح، ونحن نقوم بذلك بطريقة احترافية ونحافظ على نزاهتنا، ثم أخبر منافًا تفاصيل عامة عن العملية الخفية للعزاوي كنوع من العمل الذي سيشارك فيه إذا انضم إلى الصقور، وقد أقنع منافًا وثمانية مجندين آخرين جددًا أيضا بالانضمام إليه.

بحلول انتخابات كانون الثاني نمت الصقور إلى فريق مكون من ثلاثة عشر رجلا هم أبو علي واثنا عشر رجلا مخلصا. وبينما كان مناف السوداني يستقر بعمله الجديد مع خلية الصقور، وجدت أبرار، عبر بغداد من الجانب الآخر، عملا في وزارة التعليم العالي، حيث كان عمها موظفا مدنيًّا كبيرا، ففي السنوات الست التي تلت الإطاحة بنظام صدام ظلت هذه الوزارة ملاذا للسنة، وظلت ممراتها المتداعية ملجأً للباحثين والأكاديميين وموظفي الخدمة المدنية من الذين كانت عائلاتهم مثل الكبيسيين، أشخاصا لديهم أجيال من الشهادات الأكاديمية المطبوعة في حمضهم النووي.

قبل عام ٢٠٠٣ كان الرجال والنساء وراء الكواليس هم الذين يحافظون على استمرارية عمل الحكومة، لكن حكومة المالكي لم تولِها اهتماما يذكر حيث صوت القليل من أفراد الوزارة لصالح حزبه.

كانت أبرار تذهب يوميًّا إلى عملها كموظفة جديدة في القسم الذي يشرف على شهادات الدكتوراه، وتقديم أطروحات في الكيمياء والبيولوجيا، وكلا القسمين كانت أبرار شغوفة بهما، وعلى

الرغم من أنها لم تكمل بحث التخرج الخاص بها في ذلك الوقت، لكنها حاولت أن تتأقلم معه، لقد كانت تستمتع بدقة التحضير لدى الخريجين من أجل شهاداتهم واختباراتهم، ومع ذلك فقد كان لديها القليل من القواسم المشتركة مع زملائها كما كانت تعتقد، فالعديد من النساء في قسمها كن متزوجات بالفعل والبعض منهن من الشيعة، وعندما يتعلق الأمر بالموضوع الأقرب إلى قلبها، وهو وفاة أختها، فقد وجدت أنها لا تستطيع الحديث مع زملائها عن الموضوع، كان الجرح ما يزال طريًّا للغاية ولذا احتفظت به لنفسها.

كانت أبرار تسكب المزيد والمزيد من نفسها على صورتها الرمزية عبر الإنترنت والمسماة (بنت العراق)، فقد كانت شخصية ثرثارة وجريئة مع الكثير من الثقة والأصدقاء، ومن خلالها عثرت أبرار أخيرا على صوتها، ففي الليل، حينما ينام بقية العائلة، كانت تقوم بتسجيل الدخول إلى غرفة الدردشة المفضلة لديها في الموقع المسمى (شموخ الإسلام)، وبحلول عام ٢٠١٠ كان عدد أفراد المنتدى حوالي ١٢ ألفا، حيث تتمحور النقاشات في خط ضيق جدا هو الجهاد، والاحتلال الأمريكي غير الشرعي وجرائم الاحتلال والفقه الإسلامي.

لقد وجدت أبرار هنا أشخاصا يفهمون كيف هو شعور فقدان قريب بسبب الجيش الأمريكي الصليبي، فقد شعروا بألمها، وبدأت تفهم آلامهم، وجاء في إحدى المشاركات أن «الجهاد الحقيقي الوحيد هو جهاد القاعدة، وأن قتل الصليبيين هو عمل إلهي، وهو

الطريـق الصالـح لـكل المسـلمين الحقيقيين، كـما يجب قتل الشـيعة، أولئك الكفار». وافقت أبرار على الفور على هذا المنشـور وكتبت إن «الشيعي الوحيد الصالح هو الشيعي الميت».(*)

(*) غالبـا ما يسـتخدم المتطرفـون والطائفيـون والإرهابيون المنتديـات والمواقع التي تدعي الإسـلام والتدين للترويج عن أفكارهم السيئة وتطرفهم باسـتخدام أحاديث وآيـات قرآنيـة لإقنـاع الضعفـاء والمهزوزيـن وعديمـي الثقافـة، لغرض اسـتغلالهم وتجنيدهـم في التنظيـمات الإرهابيـة فيما بعد، حيث يعتبر موقع ما يسـمى بـ (شـموخ الإسـلام) أحد المواقع المعروفة التابعة لتنظيم القاعدة الإرهابي، وهناك العشرات من المواقع التابعة لمختلف المجاميع الإرهابية والمتطرفة تبث سمومها عبر شبكة الإنترنت دون رقابة. المترجم

الفصل العاشر

مطاردة الفريسة



لم يكن لدى أبي علي البصري عرف المقامرة أبدا، فقد نشأ وهو يشاهد رجالا في المقاهي يلعبون الورق أو طاولة النرد من أجل رهان ودِّي، لكن والده تجنب ألعابا كهذه قائلا: إن الضعفاء فقط من يعتقدون أن مصيرهم يمكن أن يتحسن بألعاب الحظ. لقد رأى أبو علي أن في تلك الكلمات حكمة عندما انتشرت شائعة في الحي عن أحد أعمامه الذي ظل يخسر في لعب الورق، مما دفع أولئك الذين يدين لهم بالمال أن تجرَّؤوا وانتقدوه علنا، بينما أصبح عمه شهيرا بسوء الحظ وفقد ثقته بنفسه.

كان أبو علي يستيقظ كل صباح على إيمان راسخ بأن الله لن يمنح الجنة للإنسان ما لم يعمل على إعانة نفسه، فقد نجا خلال عقدين في المنفى من الديكتاتور لأنه استخدم ذكاءه واعتنق الصبر والحذر بدلا من الانجرار وراء العاطفة، ولهذا السبب فحينما كان يستذكر الأحداث، فقد كان من المفارقات في تلك المهمة التي جرت في عام ٢٠١٠ وعززت سمعة أبي علي والصقور مع الأمريكان كشريك يمكن الوثوق به في مجال مكافحة الإرهاب جاءت، حينما ألقى مدير الاستخبارات حذره المعتاد من النافذة ووعد بالقبض على أحد أهم عملاء القاعدة على قائمة المطلوبين الأمريكية.

خلال معظم عام ٢٠٠٩ نفذ القياديون العراقيون في تنظيم القاعدة سلسلة من الهجمات المعقدة والقاتلة بشكل غير اعتيادي في العاصمة العراقية، والتي سخرت من تفاخر الجيش الأمريكي بأن زيادة عدد القوات التي تبجح بها قد أخمدت التمرد.

وفي الواقع كان عشرات الآلاف من العراقيين العاديين الذين كانوا يحاول مساعدة البلاد بالوقوف على قدميها مرة أخرى خائفين من الموت خلال تنقلاتهم اليومية في الذهاب إلى العمل، ففي ذلك العام فجرت القاعدة وزارة الخارجية ووزارة المالية مما أسفر عن مقتل ٩٠ شخصا، بعد ذلك استهدفت وزارة العدل ومجلس محافظة بغداد مما أسفر عن مقتل ١٥٥ شخصا، وكان الهدف التالي المنطقة القريبة من المنطقة الخضراء، حيث كان موظفو الحكومة العراقية يوقفون سياراتهم ويسيرون إلى عملهم كل يوم، مما تسبب بمقتل ١٢٧ شخصا، وفي النهاية صدم انتحاريون بتاريخ ٢٥ كانون الثاني من عام ٢٠١٠ بشاحنات مفخخة ثلاثة فنادق كان يعمل ويعيش فيها مراسلون ودبلوماسيون وعمال إغاثة أجانب.

مع رحيل رجل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في بغداد محمد الشهواني، كان الأمريكان بحاجة إلى شريك جديد يمكنه وقف إراقة الدماء وكشف لغز كيفية عمل شبكات الإرهاب في بغداد، فقد كان من الضروري والحيوي للعراقيين والأمريكان تحقيق ما يشبه الأمن في العاصمة العراقية، حيث يعيش فيها ما يقرب من خمس سكان البلاد.

ومن وجهة نظر واشنطن اراد كلا من البيت الابيض والبنتاغون عكس الميل المتشدد بأن غزو العراق أصبح أعظم كارثة في السياسة الخارجية الأمريكية منذ حرب فيتنام، وفي غضون ذلك كان رئيس الوزراء نوري المالكي يعلم أنه لن يستمر في منصبه إذا لم تنتهِ اراقة الدماء.

لذلك، وفي وقت متأخر من نهار يوم شتوي، حينما تغطت سماء بغداد بحجاب رمادي ثقيل، كان فريق من ستة أمريكيين من القوات الخاصة المسؤولة عن مطاردة كبار المشتبه بهم بالإرهاب، يقودون سياراتهم من مقر التحالف على بعد بنايات قليلة نحو بناية أبي علي الصغيرة المكونة من طابق أرضي منخفض محاط بعدد من (الصَّبات) الكونكريتية في الركن الشمالي الشرقي من مجمع رئاسة الوزراء، لعقد أول لقاء لهم مع رجل المخابرات المفضل لدى المالكي.

بصفته مسؤول أمن رئيس الوزراء، قضى أبو علي ثلاث سنوات ونصف السنة من العمل مع مسؤولي المراسم من السفارة الأمريكية، وكذلك مع فرق دبلوماسية وأمنية من البيت الأبيض لتنظيم اجتماعات رسمية مع رئيس الوزراء العراقي، وكان ضباط ومستشارو المخابرات الغربية يعرفونه من حضوره الصامت في قيادة عمليات بغداد، حيث يتم التخطيط لعمليات مكافحة الإرهاب الوطنية وتنفيذها. لقد اكتشف أولئك الضباط والمستشارون الغربيون مؤخرا أن هذا الرجل المتواضع يدير كذلك عملياته الاستخبارية بدعم من رئيس الوزراء.

جلس الأمريكان جميعا في أقصى نهاية الطاولة الخشبية الضخمة، والتي كانت كبيرة جدا بالنسبة للغرفة المجاورة لمكتب أبي علي، ولم يكن مدير الاستخبارات العراقي يعرف ما يمكن توقعه من الاجتماع، وما إذا كان الفريق الأمريكي سيعامله على أنه عميل إيراني أم لا، أو ربما عدو محتمل في ضوء سنوات من الشائعات التي كان

ينشرها محمد الشهواني.

ذهب أبو علي إلى الاجتماع متلهفا من أجل فرصة لتغيير هذا الرأي، وبدلا من العدوانية جاء الأمريكان بحسن نية، وسألوا عما إذا كان أبو علي على استعداد لمساعدتهم في تقديم كبار الإرهابيين في العراق إلى العدالة.

في عام ٢٠٠٦ قتل الأمريكان أول زعيم للقاعدة في العراق، أبا مصعب الزرقاوي، الرجل الذي كان يدبر التمرد الجهادي ضد الجنود الأمريكان والحكومة العراقية التي يقودها الشيعة بهدف إقامة دولة دينية سنية متشددة، وبعد أربع سنوات كان القادة الجدد للجماعة الإرهابية من قدامى المقاتلين في هذه الحرب، ولذا لم يكن معظم الأمريكان على دراية بأسمائهم، لكن العراقيين يعرفون هويات أولئك الإرهابيين الذين كرسوا أنفسهم لتدمير بلادهم.

كان اثنان من أولئك القادة في الجماعة الإرهابية عراقيين وهما: أبو عمر البغدادي وهو رجل دين كبير السن استولى على المجموعة، والثاني مناف الراوي ضابط الشرطة في عهد صدام، والذي أصبح بعد الغزو في عام ٢٠٠٣ مسؤولا عن جميع الهجمات الإرهابية في العاصمة العراقية.

الرجل الثالث لتنظيم القاعدة في العراق كان أبا أيوب المصري الذي تدرب وعاش مع أسامة بن لادن في أفغانستان، ولأنه كان وزيرا للحرب في التنظيم داخل العراق وأحد أقدم شخصيات القاعدة المخضرمين الذين ما زالوا على قيد الحياة، فقد وضعت

الحكومة الأمريكية مكافأة قدرها مليون دولار على رأسه.

وعلى الرغم من كل قوتهم العسكرية، كافح الأمريكان للعثور على أولئك القادة الثلاثة، وفي الواقع أعلن الجيش الأمريكي عام ٢٠٠٧ أن أبا عمر البغدادي ليس شخصا حقيقيًّا، ونظرا لإخفاقات الأمريكان والتقارير الكاذبة للقوة ٥٤ التابعة لرئيس الوزراء المالكي عن أسر وقتل أبي عمر، فقد كانت جميع الأطراف في أمس الحاجة للمساعدة في العثور على فريستهم.

قال أبو علي للأمريكان وهو متحمس للحصول على موافقتهم «أخبروني أيهم ترونه على أنه أكبر تهديد وسأمسك به في غضون شهر»، فقد كان على معرفة قليلة بمن يكون على قائمة أكثر المطلوبين لدى الأمريكان، لكنه كان واثقا من أن الرجال الاثني عشر الذين جمعهم سيكونون على استعداد لأي تحدٍّ، فمع الموارد غير المحدودة تقريبا لدى الأمريكان والمعرفة المحلية لدى الصقور يمكنهم معا أن يحدثوا الفرق.

ردًّا على سؤال أبي علي في ذلك النهار، أعطى العقيد في القوات الأمريكية الخاصة لزميله العراقي الجديد اسما واحدا فقط وهو مناف الراوي المسؤول عن التفجيرات الإرهابية في العاصمة ومؤسساتها الحكومية.

استلقى أبو علي على كرسيه مسترخيا وتناول رشفة من الشاي وهو يحاول الحفاظ على استقامة وجهه، لم يكن قد لعب البوكر من قبل أبدا، لكن في تلك اللحظة أدرك الشعور بالنشوة عندما يكون

لـدى اللاعـب ورقٌ رابحٌ، فقبـل ذلك التاريخ بعـام كان أبو علي قد نجح في تجنيد جاسـوس داخل تنظيم القاعدة، وقد سجل له العميل بشـكل سري اجتماعـا عقد في سـوريا بين تنظيم القاعدة ومسـلحين سنة آخرين.

لقد شـملت المعلومات الاسـتخبارية التي حصـل عليها أبو علي مـن ذلك الاجتماع أسـماء أعضاء قياديـين للقاعـدة في العراق، ومن الأسماء التي مررها العميل إلى أبي علي كان اسمًا يدعى علي العزاوي، واسمًا آخر يدعى مناف الراوي الذي نجا مـن معركة الفلوجة ومن ثلاث سنوات لاحقة في سجن عسكري أمريكي، بينما كان يترقى في صفوف التنظيم الإرهابي.

لقـد كان لـدى أبي عـلي تفاصيـل عـن نشـاطات الـراوي، وكل مـا يحتاج إليـه الآن هو العثور عليـه، فإن كان الأمريـكان قد جاؤوا لاختباره وفريقه فلن يخسر، ولذلك قال لهم: امنحونا شـهرا، شـهرا واحدا فقط.

إن معظم مسـؤولي الاسـتخبارات حـول العالم يعترفـون بحقيقة أساسـية عـن طبيعة عملهـم وهي إن معظـم المهمات هـي مزيج من الحـظ والعمـل الجاد، يسـتطيع العمـلاء السريُّون توفـير مقدار كبير مـن البيانات، ويمكن للمحللـين قضاء أيام في غربلة المعلومات، كما يمكن للفـرق التكتيكية أن تحدد بدقة المكان الذي يكون فيه الهدف في أثنـاء العمليـة، لكن حتى يتـم القبض على الشـخص، فإن عنصر عـدم اليقـين موجـود دائما، حيث يمكـن أن يحدث أي شيء بشـكل

خاطئ، أو يغادر الهدف منزله الآمن قبل دقائق قليلة من وصول فريق الاعتقال.

بعد بضعة أيام من لقائه بالعقيد الأمريكي، كان لدى أبي علي ضربة حظ جيدة، فقد علم من مصدره في القاعدة بأن من المتوقع وصول الراوي إلى بغداد قريبا، فقد كان العراق يستعد لانتخابات أخرى، وهذه المرة للبرلمان الوطني، ومع تعرض حكومة المالكي للضغط مجددا، أدرك أبو علي أن لديه فرصة نادرة للحصول على تعاون بين الأجهزة الأمنية المتنافسة في العراق، فالقائد العام لم يكن يريد حصول تفجير ضخم يقوض فرصته في الانتخابات، ولذلك حصل أبو علي بسهولة على موافقة الوحدات الخاصة التي يسيطر عليها رئيس الوزراء بنفسه واستخبارات الداخلية التي كان يقودها صديق قديم له من أيام المنفى، على إنشاء نقاط تفتيش جديدة حول ضواحي بغداد والطرق الرئيسة في العاصمة، وحصلت الألوية التي تدير تلك النقاط على ملصقات تتضمن صورة الراوي واسمه، لكن وعلى الرغم من حالة التأهب القصوى فشلوا في إلقاء القبض على القيادي في القاعدة، وبدلا من ذلك تمكنت الخلايا الإرهابية من تفجير مائة قنبلة وقذيفة هاون في أنحاء بغداد يوم الانتخابات، مما أسفر عن مقتل ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين ناخبا.

مع ذلك، رفض أبو علي الاستسلام، وبقيت العاصمة في حالة تأهب قصوى، في الوقت الذي كان يتصارع فيه السياسيون على نتائج الانتخابات، حيث جاء المالكي وتحالفه الانتخابي في المرتبة

الثانيـة أمام كتلة منافسـة، وكان على الزعيـم العراقي خوض معركة قانونية للحفاظ على منصبه، ووسـط تلك الاضطرابات السياسـية، فإن الصقور ظلوا يتأكدون من بقاء صورة الراوي التعريفية في نقاط التفتيش.

بعد أربعة أيام وفي يوم ١١ آذار جنت اليقظة ثمارها، فعلى الطرف الشمالي لبغـداد أوقـف شرطي اتحـادي في منطقة حي حطين سـيارة شـوفرليت كابرس مترَبـة وطالب بهويـات الـركاب، وكان الراوي يسـافر باسـم مسـتعار، لكن لم يكن ليخطئ في التعـرف على ملامح وجهـه، حيث تم القبض على المشـتبه بـه بالإرهاب وتسـليمه للقوة ٥٤.

عنـد ذلـك أصبح عمـل أبي علي معقَّـدًا، ذلك أن رئيـس الوزراء المالكي طلب من أبي علي الحفاظ على سرية الاعتقال عن الأمريكان، لأنـه لم يرد أن يعلن أي أحد باسـتثناء قواته الأمنية، تحقيق انتصار في مكافحة الارهاب خاصة أن مسـتقبله السياسي في ذلك الوقت كان على المحك.

لقد أراد المالكي من الراوي إفشـاء أسراره عن شـبكات القاعدة في العاصمـة وكان يرغـب في نتائـج سريعة، لكن وخـلال العشرين يومـا التالية لم تسـتطع القوة ٥٤ دفع الـراوي إلى الانهيار والاعتراف بـما لديه، ولم يكن من الواضح كيف تعاملـت القوة مع المعتقل لديها وما هي الأسـاليب التي اسـتخدموها في محاولة اسـتخلاص وانتزاع المعلومات منه، لكن الراوي لم يتكلم إطلاقا، لذلك ومن دون تحقيق

أي تقدم كان ينمو الإحباط لدى المالكي، وفي نهاية شهر آذار تولى أبو علي التحقيق بنفسه.

عندما رأى أبو علي السجين لأول مرة شعر بالغثيان في معدته، فقد اعتم سرب من الذباب الأسود الضوء الهزيل في زنزانة الراوي، وكانت الجدران الكونكريتية العارية متسخة ببقع بلون الصدأ والبراز الجاف، ولم يكن هناك مرحاض ولا دلو ولا سرير، وكان الراوي يجلس في الزاوية ورأسه بين ركبتيه ملتفا كالكرة بإحكام قدر استطاعته. لقد رأى أبو علي على الفور أن التكتيك الوحيد الذي تم تجربته على السجين كان استخدام القوة الغاشمة، ولذا فكر بأن هذا الأمر بحاجة إلى تغيير على الفور.

سار أبو علي نحو زنزانة الراوي النتنة باستراتيجيته الخاصة قائلا للحارس: يا فتى لماذا هذه الزنزانة قذرة للغاية؟ ثم صاح على الحراس، لماذا لم ير الطبيب هذا السجين؟ من هو المسؤول عن هذا التعسف؟.

لقد بدا الحارس في حيرة من أمره، فهذا النوع من الاهتمام بالسجين كان أمرا نادرا في مركز اعتقال القوة ٥٤، وكان هذا بالضبط ما يعتقد أبو علي أنه يجب أن يحدث، فإذا لم يتمكن الألم من تحطيم الراوي، فإن استعادة كرامته ربما قد تأتي بنتائج. فصاح قائلا للحارس: يا فتى أريد أن يتم تنظيف هذه الزنزانة فورا، وأريد أن يتم أخذ هذا السجين إلى غرفة مدير السجن حتى يتمكن من الاستحمام.

بعد ساعة، كان الراوي نظيفا ويرتدي (دشداشة) مغسولة حديثا

وسراويل دافئة، وهي ملابس أخبره الحراس أنها من خزانة ملابس أبي علي الخاصة، ثم منح الراوي خصوصية الصلاة، وقدم له الخبز الساخن والشاي والقشطة الحلوة والعسل، وهو الإفطار المفضل لدى الأطفال العراقيين. دخل أبو علي الغرفة مرة ثانية، وكان الراوي في الحالة التي يريده أن يكون عليها، ممتنا وودودا وبمعدة ممتلئة.

أمضى رئيس خلية الصقور، بعد ذلك، أربع ساعات يسأل الراوي عن عائلته، وكيف نشأ، ومن كان والده، ومن الذي كان يرعى والدته حينما تخلى عنها ابنها لصالح الجهاد مع القاعدة. لقد كان أبو علي يقوم بتحريك للإرث الحضاري لدى كل رجل عراقي، والذي يمارسه كل يوم منذ ولادته، وهو أن الأبناء مسؤولون عن رعاية أمهاتهم، مؤكدا له أنه إذا تعاون معهم فإنه سيعتني بأسرته، لكن تلك الحيلة لم تنجح، فقد جلس الراوي عند طاولة صغيرة ليست أكبر من طاولة المعلم وأخبر أبا علي أن لديه الرجل الخطأ، قائلا إنه: مجرد عامل بناء جاء للبحث عن عمل في بغداد ولا يعرف أي شيء عن القاعدة أو الهجمات الإرهابية.

جلس أبو علي بهدوء على الجانب الآخر من الطاولة وهو ينقر بأصابعه ويحاول التحلي بالصبر، فقد كان يعرف أنه قد حقق نوعا من الاختراق، ففي الواقع إن مجرد انفتاح الراوي بالكلام هو إحراز نوع من التقدم، لكن في ذات الوقت كان الموعد النهائي لأبي علي مع الأمريكان يلوح في الأفق، فقد مر شهر على لقائه مع العقيد، ومن الناحية التقنية فإنه فاز بالرهان الذي وضعوه، فقد تم تحديد موقع

الراوي، لكن لم تكن لديه معلومات استخبارية مفيدة يمكن أن يتقاسمها مع الأمريكان.

كان أبو علي يعرف أنه وعلى الرغم من أن الراوي كان وراء القضبان، لكن شبكته في الخارج ما زالت فعالة، وكل ما يعرفه أن لدى القاعدة خططًا وشيكة لمهاجمة بغداد، وكان أبو علي بحاجة إلى المساعدة، لكن المالكي المهووس بإرثه السياسي ما زال مصرًّا على عدم إبلاغ الأمريكان بالاعتقال.

لقد كان عناد المالكي معروفا، لكنه هذه المرة ذو عواقب مميتة، ففي الرابع من نيسان ومع استمرار عدم حل نتائج الانتخابات، فجر انتحاريون من القاعدة بسيارات ملغومة سفارات إيران ومصر وألمانيا في بغداد، فيما لم تنفجر سيارة حاولت استهداف السفارة الفرنسية ونجحت قوات الامن العراقية بالقبض على الانتحاري.

قتل في تلك التفجيرات نحو ٤١ شخصا جميعهم من العراقيين، وكانت هذه المأساة آخر ما يحتاجه المالكي، وبينما كانت خدمات الطوارئ لا تزال تحصي الإصابات، وحلفاء العراق الدوليون يجرون مكالمات هاتفية غاضبة مع مكتب رئيس الوزراء، ضغط أبو علي على المالكي لتقديم تنازلات، قائلا له: نحن بحاجة إلى جلب الأمريكان حالا، مضيفا: إنه لا يوجد لديه خيار آخر مما دفع رئيس الوزراء إلى الموافقة أخيرا على طلبه.

سار أبو علي عبر الفناء من مكاتب رئيس الوزراء إلى مكتبه واتصل بالعقيد الأمريكي مخبرا إياه بأنه اعتقل الراوي، بالمقابل كان

لدى الأمريكان أخبار مفاجئة له، فقد اعتقلوا شقيق الراوي التوأم، فأدرك أبو علي أن هذا بالضبط نوع النفوذ الذي يحتاجه للتغلب على مقاومة الراوي وعدم الإفصاح بما لديه.

لقد كان مدير الاستخبارات يعلم أنه إذا أردت أن تقنع شخصًا بخيانة قضية ما وأن يدير ظهره للحياة التي كان يعيشها منذ سبع سنوات، ويكشف عن أسماء الرجال الذين قاتل معهم، فيجب أن تمنحه سببا للقيام بهذه الخيانة، وبالنسبة للعراقي فإن هذا السبب هو عائلته. لقد أخبر أبو علي الأمريكان أنهم إذا وافقوا على مقايضة حرية الأخ التوأم للراوي مقابل المعلومات حول شبكات الإرهاب في بغداد فيمكن له أن يدفع الراوي إلى الانفتاح بالكلام، وبعد أن قضى عدة أيام مع المعتقل خلص رئيس خلية الصقور إلى أن الراوي ليس منظِّرا دينيًّا متطرِّفا مثل المقاتلين الأجانب الذين أرسلتهم القاعدة إلى العراق، فقد كان الرجل قاتلا وعميلا مأجورا، ولكنه بالنسبة لابي علي، ليس قابلا للإصلاح تماما، ولهذا السبب قرر الأمريكان المقامرة بما يعرفه أبو علي بشكل أفضل منهم.

سلَّم الأمريكان الأخ التوأم للراوي إلى العراقيين، ثم بدأ رئيس خلية الصقور يشد صامولات العاطفة التي يعرف أنه لا يمكن لأي عراقي مقاومتها، فقد وضع الأخوين في نفس الغرفة واستدعى أمهم المسنَّة، ثم شرح لها أنها يمكن أن تفقد ولديها لأن الجرائم المتهمين بها تستحق عقوبة الإعدام أو أن منافقًا يمكن أن ينقذ شقيقه التوأم، وكل ما هو مطلوب أن يخبر أبا علي بما يعرفه عن شبكات الإرهاب في بغداد.

بالإنصات إلى دموع والدته انكسر الراوي أخيرا، وتدفق بسيل من الأسماء والتفاصيل قدمها عن البيوت الآمنة والمتفجرات وسلاسل التمويل والتي استغرقت أياما لتدوينها، وحينما انتهى كان لدى أبي علي الهيكل التنظيمي الكامل للقاعدة في بغداد.

عندما بدأت الشرطة الاتحادية في اعتقال المشتبه بهم حول العاصمة، أدرك أبو علي أن الشريان الغني من المعلومات الاستخباراتية الذي انفتح له قد تعمق بشكل أكبر، فبمجرد أن أبرم الصفقة لإنقاذ شقيقه، تخلى الراوي عن تحفظه ومنح أبا علي أثمن معلومة لديه، فحينما تم الضغط عليه لشرح كيفية اختياره للأهداف في العاصمة قال الراوي لمدير الاستخبارات بأن القرارات كانت تتخذ بعد استشارة رجلي القاعدة في العراق اللذين كانا أعلى على قائمة المطلوبين منه رتبة، وهما أبو أيوب المصري وأبو عمر البغدادي، وكان هناك ساعي بريد واحد ينقل الرسائل بين الرجال الثلاثة.

لقد عاش القياديان خارج شبكة الاتصالات في العراق، فلم يستخدما الهواتف الخلوية أو البريد الإلكتروني للتواصل ويعتمدان فقط على السعاة لتسليم رسائل مكتوبة بخط اليد، وتبين أن الأمريكان الذين يستخدمون بُناهم التحتية الإلكترونية للمراقبة شديدة القوة لتفريغ البيانات من شبكات الاتصالات، كانوا يعرفون أن القياديين ليس لديها أي بصمة إلكترونية، فلمدة أربع سنوات كانوا يحاولون عبثا العثور عليهما.

لقد وجد أبو علي الآن مبادرة قوية، فقد قادت المعلومات خلية الصقور إلى منزل مؤلف من طابقين بالقرب من مسجد بلال الحبشي التاريخي والذي يقع في محيط ربع دائرة منفصل في العاصمة المترامية الأطراف يفضله السنة من الطبقة الوسطى وليس أنصار القاعدة، ولكن هناك في ممر صغير مقسم بواسطة حواجز كونكريتية طويلة لحماية المدرسة المجاورة من التفجيرات المحتملة، كان يعيش الساعي الذي كان منذ أشهر همزة الوصل بين زعيمي القاعدة والعالم الخارجي وهو رجل يدعى جعفرًا.

عندما أبلغ الرجال أبا علي بهذا الخبر أصبحت معدته متوترة من الإثارة، لقد ظل اعتقال الراوي سريًّا، لكن أبا علي لم يكن متأكدا فيما إذا لاحظ قادة القاعدة غيابه، فإن كان ذلك قد حصل، فربما قد أوقفوا عملية تسليم الرسائل للساعي، وإذا لم يكن كذلك، فإن الصقور بحاجة إلى التحرك بسرعة، واكتشاف ما إذا كان الطريق الذي يمكن أن يقودهم إلى اثنين من أكبر الرجال المطلوبين في العراق ما زال سالكا.

أصدر أبو علي أمرا بإجراء المراقبة في نفس الليلة، وكلف ضابطه الأقدم الرائد بسام بالمسؤولية، وهو رجل مدخن طويل ونحيف وله شارب رفيع ينحني إلى الأعلى مثل ابتسامة، من جنوب العراق، فقد والده في دهاليز مخابرات صدام.

لقد اختاره أبو علي ليكون نائبا له، فهو على عكس الكثيرين ممن شغلوا وظائفَ كثيرة في أجهزة الأمن العراقية، كان بسام يفهم أن

أفضل معلومات استخبارية لا يتم الحصول عليها من خلال سلسلة مـن اللكمات في كليتي أحـد المعتقلين، بل من خـلال العقل والصبر والمناورات التي هي مكونات النجاح.

بعد منتصف الليل بقليل ارتدى بسام قميصا أسود طويل الأكمام وسترة مصفحة، وقاد برفقة أربعة رجال سيارات مطعَّجة وغير مميزة في الحـي، لم يكـن لدى الصقـور الوقت الكافي لإقامة مراقبة مناسـبة للشارع، ولم يكونوا يعرفون الروتين اليومي للساعي، وكانوا يأملون أن يكـون إمـا نائـما في المنـزل، أو أن يتمكـن شـخص ما مـن عائلته إخبارهم أين يمكن أن يكون.

كان المبنـى مظلـما عندمـا تسـلل رجال بسـام إلى المنـزل، ففتحوا القفـل ونظروا في الداخل فرأوا أن أطباق العشـاء مـا زالت مبللة في المغسـلة ووسـائد السرير ما زالـت دافئة، لكن لم يكـن أحد هناك، لم يعـرف بسـام مـاذا يفعل، لكـن كان لديه حـدس أن طريدته لا تزال في متنـاول اليـد، وعليه أن يتحلى بالصـبر، وكان على الفريق أن يبقى طوال الليل يراقب.

عندما خرج بسـام من المنزل شـاهد مصابيح أمامية لسيارة قادمة عـلى الطريـق، فاختبـأ خلـف الباب وحـذَّر رجالـه بـضرورة التزام الهـدوء، ثـم فتح بـاب السيارة، في الخـارج، ومن ثم أغلـق، وكسر صوتان لرجل وامرأة السـكون المخيم. كان من الواضح من الطريقة المألوفة في الحديث أن الرجل مع زوجته، حيث كانت الزوجة تشتكي مـن آلام في الأمعاء ومن طبيبها، وكان الـزوج يطلب منها أن تتحلى

بالصبر بينما يقوم بركن السيارة، ثم سمع بسام باب السيارة يفتح مرة ثانية وقرر التصرف، فإن كان الرجل الذي يتحدث هو الساعي فلن يمنحه الفرصة للهرب بالسيارة بعيدا، فصاح برجاله تقدموا! تقدموا! تقدموا! وركض عبر الباب الأمامي، فصرخت المرأة مرعوبة من اندفاع الأجساد المتدفقة المارة بها، ثم قفز أحد رجال بسام وأمسك بالسائق بطريقة عناق الدب، كان المشتبه به في حالة من الاضطراب، فقد تم القبض عليه في منتصف الطريق نحو السيارة، لكنه حارب بيأس محكوم عليه بالفشل، فقد تخلص من معرقله وبدأ بالفرار، لكن فريق بسام فتح النار عليه أربع مرات قبل أن يسقط، فصاح بسام مرارا وتكرارا أوقفوا إطلاق النار لأننا نريده حيًّا، فقام الضابط المخضرم بوضع لفافة لوقف النزف على الرجل وانطلقوا به إلى المستشفى، حيث بقي بسام في غرفته طوال الليل يتمشى ويدخن إلى جانب سريره.

عند شروق الشمس، كانت خلية الصقور واثقة من أنها حصلت على الرجل المطلوب، فقد كانوا يعرفون اسم جعفر الكامل وعدد أفراد أقاربه الذين كانوا بالفعل في المعتقل العراقي، بما في ذلك كبير عائلته، وعندما أفاق الساعي من غيبوبته، كان بسام يقف إلى جانب سريره مع ذلك الرجل الأكبر سنا وهو عمه، حينئذ قال له محقق الصقور «السلام عليكم، يجب أن تشكرني لأنني أنقذت حياتك»، كان جعفر مقيد اليدين إلى فراشه وهو ضعيف من نزف الدم، لكن جراحه لم تفعل شيئا لتهدئة غضبه فبصق على بسام قائلا «يا بن العاهرة، لقد حاولت قتلي قبل أن تنقذني».

طرح الرائد القضية ضد جعفر دون أي ذريعة أو تحايل، وجعله يعرف مدى علم الصقور بالفعل بالشبكة ومدى يأس موقفه، وبينما كان بسام يتحدث، كان جعفر مستلقيا مغمض العينين، ولم يظهر إشارة على أنه سمع الكلمات. كان عمه شاحبا ومرتعدا بشكل واضح، ثم قام بسام بعرض خيط النجاة لجعفر قائلا له: إنه إذا قدم معلومات كافية لقيادته عن كبار قياديي القاعدة، فإن بسامًا سيقوم بإطلاق سراح نجل جعفر من السجن، حيث كان من المقرر إعدامه، وإنه سيتأكد من أن جعفرًا سيحكم عليه بالسجن المؤبد على جرائمه بدلا من عقوبة الإعدام، كما أن باقي أفراد أسرته سيكون لديهم حصانة من الملاحقات القضائية مستقبلا.

عند ذلك تدخل عم جعفر، فقد كان العفو يعني أن عشرات الأقارب ستتاح لهم الفرصة للعيش بشكل طبيعي وأن لا يكونوا هدفا للانتقام، مثل العديد من العراقيين السنة لكونهم لديهم ارتباطات بالإرهابيين المدانين، وأمر جعفرًا بقبول الصفقة والبدء بالتحدث.

عندما حل وقت الغداء، كان بسام قد تعلم الكثير عن كيف يتواصل أكبر المطلوبين في العراق مع بعضهم البعض وبشكل أكثر مما كان يعرفه الأمريكان طوال أربع سنوات، فقد عرف الجدول الزمني للساعي، وكيف كان الإرهابيون يخفون رسائلهم تحت أصص الزهور الفخارية، والرابط الأخير في سلسلة الاتصال وهو منزل في سامراء يعيش فيه الساعي الآخر، كما علم بسام أيضا أن

مهمـة جعفـر التالية من المقـرر أن تبدأ في غضون الاثنتين والسـبعين سـاعة القادمة، ولذلك قال بسـام لأبي علي في مكتبه إن «أمامنا ثلاثة أيـام فقط للتخطيـط لعمليتنا إذا أردنـا العثور على أكـبر إرهابيين في العراق»، ثم قال بسام شيئا يعرفه كلاهما بأنه غير مريح سياسيًا، لكنه مـع ذلك صحيح، وهـو إنه ربما يكون فريق الصقـور قد حصل على كنز من المعلومات الاستخبارية، لكن أبا علي لم يكن لديه سوى اثني عـشر رجلا فقط تحت إمرته، وهـم بالكاد يكفون لمدة أربع وعشرين ساعة من المراقبة لمنزل في بغداد، المدينة التي يعرفونها جيدا مثل ظهر أيديهم فما بالك بسامراء؟.

لـذا فإنهم إن أرادوا النجـاح في القبض على أكثر رجلين مطلوبين في البلاد فسـيتعين عليهم الاتصـال بأصدقائم الجدد من الأمريكان. وهكـذا وللمـرة الثانية في حياته خلال شـهر اتصـل أبو علي بالجيش الأمريكي. رئيسه، رئيس الوزراء المالكي لم يكن يعجبه ما كان يخطط أبـو عـلي للقيام به، ولذا لم يبلغه بذلك مسـبقا، فلم يكن أبو علي يهتم بالسياسـة، بـل إن اهتمامـه كان ينصب عـلى تحقيق النتائـج، وهكذا كانـت مقامـرة أخرى غير اعتياديـة لمدير المخابـرات البراغماتي، لأن الإطار الزمني كان ضيقا ولم يترك أمام أبي علي أي خيار آخر يذكر.

جلس أبو علي على الكرسي المعدني في مكتب يقع في غرفة عمليات سرية مخبأة في إحدى زوايا معسكر بلد، وهي قاعدة عسكرية أمريكية خارج العاصمة العراقية، وكان يركز على أن يحافظ على تعابير وجهه هادئة، ومحاربا الرغبة في العبث بنظارته الشمسية، فقد كان قبل ثلاثة

أيام يشعر بالثقة في فرصتهم، لكن مزاجه تغير الآن، فقد كان لديه ما يطلق عليه زملاؤه الأمريكان تسمية توتر ما قبل المباراة.

عندما قام أبو علي بتقديم أول إحاطة معلوماتية للأمريكان، كانت شكوكهم واضحة، فهو لم يفهم تماما ماذا أطلقت تلك المعلومات الجنونية بين بغداد وواشنطن، ولم يقدر تماما ندرة السماح لمسؤول عراقي بدخول مركز العمليات العسكرية للجيش الأمريكي، ولم يكن يعلم أن الأمريكان خصصوا مئات الملايين من الدولارات للعملية، من المقاتلات النفاثة إلى طائرات المراقبة المسيرة إلى الرجال المدربين تدريبا عاليا، ولم يكن يعلم أن البيت الأبيض نفسه قد تم اطلاعه على مهمة العثور على الارهابيَّيْن، وربما قتلهما، لأنهما كانا مسؤولَيْن عن مقتل عشرات الجنود الأمريكيين وعمال الإغاثة الدوليين والمواطنين العراقيين، لكن ما كان يدركه تماما هو إنه في حال نجاح العملية فإن رئيسه، رئيس الوزراء نوري المالكي سيحصل على الثقة الكاملة.

لكن إذا حصل خطأ ما، فسيتم إلقاء اللوم على أبي علي، الذي يجلس الآن على بعد مئات الأميال عن الحدث ومعزول عن رجاله ومحاط بشاشات تعرض البث الحي للهدف، إن ما أنهك أبا علي في اللحظات التي سبقت بدء العملية لم يكن الخوف من الفشل، بل كان عبء المسؤولية الأخلاقية، فقد كان صقوره والقوات الخاصة العراقية إلى جانب حلفائهم الأمريكان يخاطرون بحياتهم بعملية قد بدأها هو بنفسه.

لقد بدأت عملية «وثبة الأسد» كما كان مخططًا لها قبل شروق شمس يوم الأحد في الثامن عشر من نيسان، عندما انطلق جعفر، ساعي بريد القاعدة من بغداد بحمولة من أصص الزهور، وقاد سيارته شمالا باتجاه سامراء، وهي نفس البلدة التي فجرت فيها القاعدة ضريح العسكريين عام ٢٠٠٦، على بعد نحو ثمانين ميلا شمال العاصمة والقريبة من مسقط رأس صدام حسين.

لقد ظلت البلدة مركزا رئيسا للتجنيد ونشاط المتمردين السنة، والسبب يرجع جزئيًّا إلى أنها كانت القاعدة الرئيسة لعضو آخر بارز في القاعدة وهو أبو بكر البغدادي الذي سيصبح فيما بعد زعيما لتنظيم داعش.

حافظ الأمريكان على المراقبة الجوية للسيارة، وتابعوها إلى أن وصلت إلى بناية تقع على طرف المدينة، حيث توقف السائق جعفر ودخل إليها، فقد كان ذلك هو المكان الذي من المقرر أن يلتقي فيه بالساعي الآخر لتمرير الرسائل إليه، ثم أظهرت تغذية الأقمار الصناعية الأمريكية وصول مركبة ثانية، حيث خرج السائق الثاني من تلك الشاحنة الصغيرة، وبعد اجتماع سريع داخل البناية، قام الرجل الثاني بنقل أصص الزهور من سيارة جعفر إلى سيارته، وكان أبو علي يشاهد لقطات من الطائرة المسيرة بدون طيار بعد نقل البضائع، ثم انطلق الساعي الثاني أولا باتجاه الغرب قبل أن يعود مرة أخرى، وكأنما كان يخشى أن يكون متابعا، ثم توقف عند متجر لبيع الأدوات الإنشائية واشترى خليطا من أكياس الإسمنت، ثم

توقف بعد ذلك عند تاجر جملة واشترى طحينا، ورمى بالأكياس فوق أصص الزهور.

حينها تحرك السائق مرة أخرى غادر سامراء وعاد مرة ثانية حيث قاد سيارته نحو ساحة لبيع السيارات المستعملة وحاول استبدال شاحنته بمركبة أخرى، وعلى ما يبدو لم يستطع إبرام صفقة بهذا الخصوص وبعد ذلك عاد إلى الطريق في نفس الشاحنة.

في غضون ذلك كان قد تم حشد فريق مكون من القوات الخاصة الأمريكية والعراقية في سامراء وهم على استعداد لشن غارة برية بمجرد وصول الساعي إلى وجهته، بحلول فترة ما بعد الظهر وصلت الشاحنة الصغيرة إلى منطقة الثرثار، وهي منطقة صحراوية غرب سامراء كانت تستخدمها القاعدة كمعسكرات تدريب.

شاهد الفريق في معسكر بلد الشاحنة وهي تسلك ممرا مهترِّئا نحو منزل ريفي بسقف من القش ولا يوجد أحد في الأفق، لقد كان الموقع المعزول مثاليًا للاختباء، ولا يستطيع أحد الاقتراب من المنزل دون علم الناس في الداخل، لكن في ذات الوقت لم يكن هناك مكان للهرب، عند ذلك أعطى القادة الأمريكيون الضوء الأخضر للقوات البرية بالاقتحام وهم واثقون أن هذا هو مكان الاختباء الذي أمضوا عدة سنوات في البحث عنه.

أحاطت القوات العراقية الخاصة من القوة ٥٤ والقوات الأمريكية الخاصة بالبيت الريفي، فاستسلم ١٦ شخصا بينهم زوجة أبي عمر البغدادي وعدد من أبنائه، لكن خلال عملية البحث لم يتم

اكتشاف أي إشارة على وجود أكثر شخصيتين مطلوبتين في العراق.

بالعودة إلى معسكر بلد، بدأ أبو علي بالتعرق عندما سمع بهذه الأخبار، فمعلوماته الاستخبارية أصبحت مثل العنب المتفسخ، فهو ممتلىء وجذاب حتى تتذوق طعمه الفاسد، فمشى إلى ركن غرفة القيادة، وفي لحظة ضعف نادرة اتصل ببسام الذي كان مع الوحدة على الأرض، قائلا «يا أخي يجب أن نتفقد شيئا ما، ولا يمكننا أن نسمح بأن يتحول كل شيء إلى حطام»، فطلب منه بسام أن يتحدث إلى جعفر.

لقد انتهى وقت لعب دور الشرطي الجيد، فمن الواضح أن سجينهم لم يخبر الصقور بكل ما يعرفه، لذلك قال مدير الاستخبارات لجعفر إن صفقته لم تعد مطروحة على الطاولة، وصرخ به قائلا: سنقتل ابنك ونقتلك ما لم تخبرني بما حدث!» عندها كشف جعفر دليلا حاسما، فالبيت الريفي في الثرثار كان فيه مكان للاختباء تحت أرضية المطبخ، وعندما نقل العراقيون إلى الأمريكان هذه المعلومة، مزقت قوات الكوماندوز الأمريكية الأرضية المبلطة للمطبخ ليجدوا اثنين من كبار قادة القاعدة في العراق وهما أبو أيوب المصري وأبو عمر البغدادي واللذان قتلا بعد معركة قصيرة بالأسلحة النارية، لقد استحوذ الأمريكان على كمية كبيرة من الملفات المخبأة، بما في ذلك اتصالات الاثنين بقادة القاعدة في باكستان، بعد ذلك قاموا بنسف المنزل.

عندما وصلت أنباء العملية إلى البيت الأبيض ورئيس الوزراء

العراقـي، دفع الأمريكان والعراقيون قدمـا بمزيد من العمليات بناءً على تلـك المعلومات الاسـتخبارية الجديـدة، وخلال الأيـام الثلاثة التالية أسرت عملية «وثبة الأسد» وقتلت العشرات من الشخصيات البـارزة في القاعـدة، بما في ذلك العديد منهم في مدينة الموصل شـمال العـراق، وللمـرة الأولى منذ عام ٢٠٠٣ هنأ قائـد القوات الأمريكية في العراق الجنرال راي أوديرنو والبيت الأبيض بشـكل علني قوات الأمن العراقية على تحقيق الانتصار في مكافحة الارهاب.

لقـد كان رئيـس الوزراء العراقي ينعم بالتملـق، بينما كان أبو علي يكتفـي بمصافحة نظرائه الأمريكيين بهـدوء، فقد قالوا له إن «طبيعة عملنا أن نبقى في الخفاء، وقد لا يفهم أحد قدر الدور الذي قمت به في كل هذا، لكن كن مطمئنا بأننا نفعل ذلك»، وقد غادروه وهو مليء بالتفـاؤل قائلـين: إنك أصبحت تعرف كيف تصـل إلينا، فإذا كانت لديك أية استشارة أخرى فأخبرنا بذلك.



الفصل الحادي عشر

أن تعيش أفضل أيام حياتك



في خريف عام ٢٠١٠ كان حارث ينقر على لوحة المفاتيح في غرفة مكتبه المنزوية بعيدا أسفل ممر معتم وطويل في وزارة الكهرباء، وشاشة حاسوبه من نوع آي بي أم التي عفا عليها الزمن مقسمة على أربعة أقسام من تغذية الفيديو المنفصلة بصورة شبه ثابتة، من الكاميرات الموضوعة حول محطة توليد الكهرباء في الدورة جنوب بغداد.

كان حارث يُسائل نفسه: كيف وصلت حياتي إلى هذا المكان؟ كيف يمكن للصبي الذي ألَّف الشعر ذات مرة، والشاب الذي شعر بإثارة الحب الرومانسي أن تتحول حياته إلى عمل مكتبي روتيني يجلس بمفرده ويراقب تغذية الكاميرا التي لا تتغير؟.

كان هذا العام بالنسبة للكثير من العراقيين قد حقق تقدما رائعا، فرئيس الوزراء نوري المالكي قد انتصر في انتخابات قاسية ومثيرة للجدل، وتم تجديد تفويض أبي علي البصري لمحاربة الإرهاب، حيث يرجع الفضل في ذلك إلى النجاح الذي حققته عملية «وثبة الأسد»، أما مناف السوداني فقد انضم إلى الصقور وأمضى أشهرا في التدريب على معدات المراقبة المستخدمة للتنصت على المشتبه بهم بالإرهاب، لكن رئيس حارث الذي كان وزيرا للأمن الوطني تغيرت وظيفته بعد الانتخابات وأصبح موظفو مكتبه بما فيهم شقيق السوداني الأكبر عاطلين عن العمل.

لقد كانت توصية حارث من الوزير ثابتة، لكن لم يكن لديه سوى القليل من خيارات العمل، هكذا انتهى به الأمر في سن التاسعة

والعشرين من العمر، في وظيفة مكتبية كضابط صغير، فيما كانت على الورق، إحدى الوكالات الأمنية الجديدة والحيوية في العراق والمكلفة بحماية خطوط أنابيب النفط ومحطات الكهرباء، فلعدة سنوات ظلت محطات الطاقة الكهربائية هدفا مفضلا لهجمات المسلحين، فقد كانت القاعدة تعلم أنه إذا لم تتمكن الحكومة التي يقودها الشيعة، في ثالث أكبر بلد مصدر للنفط الخام في العالم، من إبقاء استمرارية الأضواء على مواطنيها، فإن لدى الجماعة الإرهابية قضية دق إسفين بين الناس والحكومة يمكن لهم استخدامها، خصوصا بين المجتمعات السنية من أجل إثارة الاضطرابات ضد سلطاتهم.

على الرغم من أن الوزارة كانت لديها مسؤولية هائلة، إلا أن موقف معظم زملاء حارث لم يكن حيويًّا، فقد اقتحموا الوظيفة مثل روتين الموظفين المدنيين العراقيين، فلا تحل الساعة الرابعة عصرا إلا وكان المكتب فارغا، فالجميع كانوا يسجلون وقت الانصراف ويذهبون إلى منازلهم، وكانوا يصلون إلى الوزارة في بعض الأحيان عند منتصف النهار ويشربون الشاي في مجموعات صغيرة حول السماور الذي يعتني به البواب، ويغادرون بعد أن تعلو الشمس في كبد السماء، لم يكن مهما بالنسبة لديهم أنهم كانوا يرتدون الزي العسكري ضمن قوات الأمن العراقية، فهم ليسوا جواسيس، مثل شقيقه الأصغر مناف، شخص ذو رتبة، أو شخص متجه للقيام بمهمات مثيرة، وعلى العكس من زملائه، حاول حارث أن يفكر في وظيفته بشعور من الفخر، لكن كان من الصعب الهرب من حقيقة أن ما كان يفعلونه كحراس للبنية التحتية الحيوية للبلاد كان ببساطة

شرب الشاي ومراقبة شاشات الفيديو.

في عام ٢٠٠٩ ارتفعت نسبة البطالة بين الشباب في العراق إلى ١٨ بالمائة، فإذا لم يكن لدى المرء شهادة جامعية أو اتصالات سياسية فهو محكوم عليه بالكفاح، مثل أبناء عمومة حارث الذي كانوا ينقلون البضائع في الأسواق، أو الانضمام إلى جيش العاطلين عن العمل المتسكعين في المقاهي، يناقشون السياسة أو كرة القدم أو لا شيء على الإطلاق، ويمددون وقتهم بأقداح الشاي الصغيرة حتى منتصف النهار؛ في مثل هذه البيئة فإن أي وظيفة حكومية، مهما كانت مملة، تعدُّ نعمة، لأنها تعني راتبا مدى الحياة، لكن حارثًا لم يكن مثابرا أيضا، فقد قضى شطرا كبيرا من حياته بدون هدف، والآن لديه ما يحفزه لأن يكون أفضل أو لفعل شيء أكبر، ألم يكن هذا ما قيل له طوال طفولته؟ وبينما كان زملاؤه يضيِّعون الوقت، سعى حارث للعثور على فرصة لإخراج نفسه من الوظيفة التي لا يحبها، لذلك كان يبقى متأخرا في العمل أكثر من أي من الأشخاص المدعين.

كان حارث يبقى في مبنى الوزارة الرَّثِّ في حي المنصور غربي بغداد وهو يمضي ساعات في مكتبه في البحث على الإنترنت، وهو أمر لم يكن يستطيع فعله في المنزل، فلم يكن لدى السودانيين جهاز حاسوب، حتى إن كان لديهم فمع انقطاع التيار الكهربائي في مدينة الصدر وضجيج أطفاله الصغار وعشرات الأقارب الآخرين هناك لن يجد أبدا لحظة سلام، بينما كان لديه في أثناء اتصاله بالإنترنت في الوزارة، نافذة تطل على بقية العالم، وكان يرى كيف تعمل

الجيوش الأخرى والأدوات التي يستعملها الشرطة في أوروبا لتأدية وظائفهم، كما كان بإمكانه رؤية الأماكن الجميلة على عكس أي شيء في خياله الجامح، مثل المياه الزرقاء للبحر والجبال المغطاة بالثلوج.

في الليالي النادرة التي كان فيها حارث في مدينة الصدر، كان يفضل رفقة إخوة زوجته رغد، حيث يقضي الرجال الساعات وهم يلعبون ألعاب الفيديو، بينما كانت زوجته تنام لوحدها، وفي الصباح حينما تبدأ بتجهيز أطفالها للذهاب إلى المدرسة، تظل من المرات القليلة التي يبقى فيها الزوجان معا. لقد حاولت رغد أن لا تظهر مرارتها لحارث، لكنها كانت تفشل عادة، فقد كان زوجها أصعب اختبار أرسله الله لها على الإطلاق.

«لقد غطت ابنتك في النوم الليلة الماضي مرة أخرى وهي تبكي، إن الأطفال بحاجة إلى أبيهم، لكنك لم تكن موجودا في البيت، ألا تشعر بالخجل من جعلهم يعانون هكذا؟». عندما بدأت رغد بالتذمر، تركها حارث ببساطة وخرج من مشتملهم ونزل إلى الأسفل حيث والدته كانت تعد الفطور للعائلة.

كانت رغد مثل الكثير من النساء العراقيات اللواتي نشأن على فكرة أنها لكي تكون محترمة فيجب عليها أن لا تفقد رباطة جأشها أبدا، ربما كانت تعرف أن مشاكل العائلة مع حارث لم تحل بعد، لكن دورها يجب أن يكون إظهار الدعم الثابت له، لأنها إن تفوهت بكلمة واحدة ضد زوجها أمام السودانيين الآخرين فسيكون أمرا لا يغفر.

لقد كانت النقطة المضيئة في حياة رغد وفي حياة كل السودانيين

قد حدثت في وقت سابق من العام، عندما أعلن مناف عن تجنيده من قبل وحدة استخبارات النخبة. لقد رفع هذا الخبر الأسى عن العائلة، حيث بدأت عائلة زوجها بإعادة حساب كيف ستؤثر ترقية مناف على المكانة الاجتماعية للعائلة وإمكانات العمل لأشقائه الآخرين.

لقد كان لدى رغد سببٌ للأمل، فقد أصبحت هي وزوجة مناف صديقتين مقربتين وكانت تعلم أن مكانتها سترتفع لدى الأسرة إلى جانب نسمة. كان حارث أنموذجا للَّباقة بعد إعلان مناف، فقد ترك الشقيقان الخلاف حول الحافلة الصغيرة المحطمة وراءهما، وعلى الرغم من مشورة والدهما، لكن منافًا سدد لأخيه شيئا من المال مقابل الإصلاحات التي أجراها، بالإضافة إلى ذلك كان من دواعي ارتياح حارث أن والده وجد شخصا يشكو إليه كلما كانت هناك مشكلة.

دعا حارث منافًا للخروج إلى مقهاهما القديم، الجحر البائس في الجدار القريب من كلية الشرطة وسط بغداد لتدخين الأركيلة، ومعرفة ما إذا كان بإمكانه التقاط شيء لتطبيقه على حياته المهنية. لقد تذكر مناف تلك الليلة باعتبارها نقطة تحول، فقد ترك حارث منافًا يدخل إلى المقهى أمامه ويختار المقعد الذي يريده على الطاولة، وعندما أحضر الصبي النركيلة ووضع جمر الفحم الأحمر في الصينية لتسخين التبغ، استطاع مناف أن يرى على وجه شقيقه تغيرات طفيفة، فقد اختفى الغضب الذي استهلكه لفترة طويلة، وفي الواقع كانت على

وجه حارث ابتسامة صادقة حينها هنأ منافًا على حسن التوفيق من الله.

عندما كانا يكبران معا لم يكن حارث يتبختر على بقية إخوته في المنزل أبدا، لقد كان الجميع يرون أنه ذكي، لكن منافًا لم يكن متأكدا من ثقة حارث بنفسه، فضرب والده له وتوبيخه بشدة قد جرح بعمق إحساس أخيه الأكبر بالثقة بنفسه، وكان مناف يعرف أن حارثًا لم يكن يتقبل الأمر بسهولة، لكنه في الوقت ذاته لم يكن يقدّر أبدا كيف كان يعيش بقية الإخوة السودانيين تحت ظله، والطريقة التي كانوا يضطرون بها جميعا لمغادرة الغرفة، لأن حارثًا يريد أن يدرس، فقد كان من الواضح أن الأطفال العشرة الآخرين من أبناء السوداني أقل أهمية بشكل جوهري.

وبينما كان يسحب دخان التبغ إلى رئتيه، استطاع مناف أن يرى أنه على الرغم من كل تلك المزايا، لكن حارثًا ما يزال بحاجة إلى المساعدة من أجل أن يرى بقية الأسرة ما تربوا على تصديقه بأن بإمكانه أن ينجح في أي شيء يضعه في ذهنه.

ما الذي تريد أن تفعله؟ سأل مناف شقيقه بعد أن أخبره حارث بإحباطه من وظيفته الأمنية الجديدة، فقال حارث إنه لا يعرف بالضبط، ثم سأل شقيقه عن نوع العمل الذي يقوم به في خلية الصقور، وعندما وصف مناف له كيف كانت مهماتهم تتركز في تعقب وإيجاد الإرهابيين المطلوبين والحفاظ على أمن البلاد، أضاءت عينا شقيقه الأكبر.

لقد قال مناف لحارث إن لدى أبي علي البصري معايير صارمة، فقد كان وقوفه في مقدمة صفه في الكلية هو من وضعه على خط مراقبة مدير الاستخبارات، لكن الحصول على درجات عالية لم يكن كافيا، فقد كان يريد رجالا قادرين على التفكير بسرعة، ويمكنهم العمل لساعات طويلة وحساب المجازفات مثل رحلات مناف السابقة إلى مدينة الصدر.

وقال مناف لشقيقه الأكبر: «إنك بحاجة إلى إيجاد طريقة للحصول على بعض الخبرة والعثور على شخص تثق به يمكنه مساعدتك»، عند ذلك شد حارث قبضة يده على ماسورة الأرگيلة، فقد كان الشخص الوحيد الذي يعرفه في مجال المخابرات هو شقيقه الأصغر، لكن بعد بضع لحظات من التفكير، تذكر شخصا آخر، وكان ضابطا كبيرا في قوته الأمنية، فعندما بدأ حارث عمله لأول مرة، ألقى الرجل الأكبر سنا وهو العقيد علي حسين محاضرة للرجال الجدد عن الأمن التشغيلي وأهمية الاحتفاظ بالمعلومات السرية التي يتعلمونها من العمل، فقد كان العقيد علي حسين يشرف على جمع المعلومات الاستخبارية للقوة، وعلى الرغم من أن حارثًا لم يكن يعلم شيئا عن خلفية الرجل، إلا أنه أعجب بطريقته في الحديث.

بحلول الوقت الذي عاد فيه الشقيقان إلى المنزل في تلك الليلة، كان حارث قد بدأ بالفعل يفكِّر في كيفية التوصل إلى العقيد علي حسين، فإن كان الارتقاء يعني المخاطرة، فإن هذه ستكون خطوته الأولى نحو ذلك.

كان العقيد علي حسين يقف جيدا في الظلام في القاعة المليئة بالحرس من الشباب، وكانوا مرتبين في مكاتب حديثة وأنيقة على شكل هلال، فيما ترتفع فوقهم وفوقه شاشة الفيديو الخاصة به وهو يشرح لهم في محاضرة جديدة بشأن التكنولوجيا الحديثة في الوزارة، وباعتباره مدير استخبارات للبنية التحتية في مجال النفط ومحطات الطاقة العراقية، فقد كانت لديه مهمة ضخمة للحفاظ على تلك الأصول الحيوية من التخريب أو التفجير.

لقد لاحظ العقيد أن كثيرا من رؤوس الجالسين كانت تهبط تدريجيًّا نحو صدور أصحابها، وهو أمر يحدث كثيرا في أثناء إلقائه للمحاضرات التعليمية، كما لاحظ أن هناك رجلا واحدا في منتصف القاعة كان يدون النقاط التي كان يشدد عليها. وعندما انتهى العقيد من درسه كانت القاعة صامتة، ولم يكن متأكدا بقاء أي شخص مستيقظا، فيما عدا ذلك الرجل المتحمس الذي بدأ يتحرك بسرعة في الممر تجاهه.

ناداه حارث: سيدي، سيادة العقيد، وألقى له تحية عسكرية نشطة، مضيفا: أود أن أشكركم على المحاضرة التي تلقيتها منكم اليوم، هل يمكن من فضلك أن تخبرني عن المزيد عن العمليات الاحترازية التي تتخذها، فلدي فضول شديد بشأن مسائل الاستخبارات؟.

لم يكن العقيد علي حسين يعرف ماذا يفعل لهذا الشاب، هل يصفعه على وجهه جرَّاء وقاحته، أو يكتفي بالابتسام له، فمن كان يظن أنه سيتعامل مع ضابط كبير بهذه الطريقة؟ فجميع الذين نشؤوا

في عراق صدام لا بدَّ أنهم يعرفون أن لا أحد صحيح العقل يمكن أن يقترب من ضابط مخابرات بمثل هذا الطلب، لكن حارثًا ظل مثابرا على مضايقة العقيد حتى حصل على وعد بلقاء معه في اليوم التالي، فقد أثار شغف كهذا شخصيةَ العقيد، فكل شخص جاد يجب أن يكون ذا تفكير بسيط، أو أنه يخفي برنامج عمل. لم يكن قد مضى على حارث ضمن قوة الحرس فترة طويلة، أو ربما كان جاسوسا أرسلته وكالة منافسة لتقييم كيفية إدارة العقيد لقيادته، لذلك قرر العقيد مراقبة حارث بنفسه لكي يصل إلى حقيقة الأمر.

وعلى الرغم من حذره، وجد ضابط المخابرات نفسه منجذبا إلى حارث في أثناء اللقاء به في اليوم التالي، وفكر الضابط في نفسه بشيء ما عن سلوكه، فقد كان تودد حارث في جزأين، لكن كلا الجزأين مخلصان، فيما أفاد الفريق الخاص بالعقيد بأنهم لم يجدوا أي شيء غير مرغوب فيه حول خلفية حارث التي تعود لمدينة الصدر، فقد كان ذكيًّا ومجتهدا، وكان ينهي واجبه في ثلث الوقت الذي يستغرقه ضابط صغير آخر، كما أنه لم يشتبه في ارتكاب عائلته أية جرائم سياسية، لقد كان نظيفا بقدر ما يكون الرجل العراقي عليه.

على الرغم من خرقه لكل البروتوكولات المهنية، إلا أن العقيد قرر منح حارث، الذي لم يكن لديه تدريب استخباري رسمي، أدوار دعم صغيرة في العمليات التي أدارها العقيد ضد المخربين لأنابيب الطاقة في العراق، وقد تشرب حارث المعلومات مثل الإسفنج، حيث كان العقيد يعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يحصل على متدرب

أفضل منه، ولذلك أوصى بحارث لأخذ دروس تمولها الحكومة في شفرات الحاسوب، حرصا منه على مساعدة الشاب على المضي قدما في طريقه.

في غضون عام تم اختيار حارث للتدريب في معسكر دبلن، وهو برنامج تديره الولايات المتحدة في قاعدة عسكرية جنوب غرب بغداد، فاجتاز الدورة بامتياز وبعد شهر عاد إلى الوزارة رجلا متغيرا، فقد تبنى أسلوب وسلوك مدربيه الأمريكان، فقد بدأ يرتدي سماعة لاسلكية (بلو توث) لهاتفه ونظارات شمسية من نوع «ري بان» العاكسة والتي كانت شائعة بين الجنود الأمريكان.

وقد بدأ زملاؤه يطلقون عليه لقب (الروبوت) لأنهم كما يقولون عند المزاح أنه وقع في حب التكنولوجيا تماما مثل الأمريكان، وبدا حارث من أوائل الذين يحضرون إلى المكتب صباحا وآخر من يغادرونه مساءً، وكما كان في أيامه في سوق جميلة، حيث اكتسب سمعة أنه قادر على أن يبيع السجاد إلى تاجر السجاد، فقد عمل حارث هذه المرة أيضا للحصول على ما يريد وهو الخروج.

الفصل الثاني عشر

وحيدا في البريّة



في حزيران من عام ٢٠١٢، كان قد مضت ستة أشهر على مغادرة آخر القوات الأمريكية العراق، وأبو علي ما زال يحاول التأقلم مع الشعور بالقطيعة، أما في واشنطن فقد كان القادة السياسيون مشغولين بالترويج للانسحاب، باعتباره دليلا على النجاح، وهو ادعاء ردده قادة بغداد، فكلاهما قد زعم النصر على القاعدة، معلنين أن الحملة العسكرية المستمرة للقضاء على أنصار الجماعة في المناطق السنية العراقية في الغرب والشمال قد كسرت قبضة الجماعة الإرهابية في البلاد، كما أن الاختراقات الاستخبارية التي قضت على الخلايا النائمة في بغداد تعني أن المهمة قد أنجزت بشكل جيد جدًّا.

لقد كان لمثل هذه التأكيدات طرفٌ من الحقيقة، وبالتأكيد قد مكنت السياسيين من إلقاء خطب رنانة، لكن أبا علي وغيره من العاملين في مجال الأمن تعاملوا معها على أنها كلام فارغ، فربما كان لدى واشنطن ترف تحويل انتباهها بعيدا عن العراق إلى مخاوف وطنية أخرى، لكن أبا علي لم يفعل ذلك، فقد كانت بلاده ما تزال تحت مرمى نيران القاعدة، فقبل مغادرة آخر القوات الأمريكية في كانون الأول من عام ٢٠١١ بقليل نظم العراقيون غارة مشتركة لمكافحة الإرهاب بالاعتماد على معلومات تم الحصول عليها من أحد أكثر العملاء المزدوجين موثوقية لدى أبي علي وهو جهادي في مدينة الموصل الشمالية، وأسفرت العملية التي استغرقت يومين عن اعتقال العشرات من المشتبه بانضمامهم للقاعدة، لكن الأهم من ذلك هو جزء من المعلومات الاستخبارية التي زادت من قلق أبي علي.

المعلومـات التي حصلت عليها خلية الصقـور كانت تضم قائمة بـ ١٢٠٠ اسـم، الغالبية العظمى منهم من قدامى المقاتلين العراقيين للقاعـدة في العـراق ومن ذوي الدوافـع الأيديولوجيـة، وفي الواقع كانـوا قد نجحـوا في التهرب من حملة التفتيـش الأمريكية، وما زالوا طليقين، مما يعني أنهم يشكلون خطرا حقيقيًّا وقائما أمام أبي علي.

كانت الحقيقة الكالحة بعد الانسـحاب الرسـمي للقوات القتالية الأمريكيـة هـي أن أبا علي عليـه أن يعمل بأدوات أقـل للحفاظ على أمن بلاده.

لقـد ازداد المنـاخ المسـموم للبيروقراطيات في بغداد في السـنوات الأخيرة، حيث عزز رئيس الوزراء المالكي مناخ عدم الثقة، مما جعل القادة الأمنيين يتجنبون المخاطرة وغير مستعدين لمشاركة المعلومات الأمنية.

لقـد كان الافتقار إلى الحث السـياسي من قبل واشـنطن، يعني أن شـبكات الاسـتطلاع الإلكترونية التي يتبجح بها الأمريكان في جميع أنحاء العراق أصبحت غير متابعة، وكان لدى أبي علي وزملائه القليل من الـشركاء الذين يمكنهم الاتصال بهم، فيما انخفضت أعداد فرق العمليـات الخاصة ووكالة الاسـتخبارات الأمريكيـة التي تركز على العراق بشـكل حاد، ومثل معظم زملائه، لم يكن مدير اسـتخبارات بغـداد يتمتع برفاهيـة التعليم العالي ويفتقر إلى المهـارات التقنية التي كانت يتخذها نظراؤه الأمريكان كأمر مسلم به.

لقد كان أبو علي رجلًا يفضل الملفات الورقية ويدوِّن الملحوظات

المكتوبة بخط اليد، أو يعقد اجتماعات بالساعات للتذكر بدلا من تسجيلها أو كتابتها في الوقت الفعلي على أجهزة مايكروسوفت اللوحية، مثلما كان يفعل الكثير من الأمريكان الذين عمل معهم في السنوات الخمس الماضية، فقد كان نهجه في جمع المعلومات تقليديًا.

لقد اعتمد أبو علي على المصادر البشرية، بدلا من المعرفة الرقمية لبناء براعته في مكافحة الإرهاب، وقد كان الرجل الأكبر في تنظيم القاعدة عام ٢٠١٢ أبو بكر البغدادي على علم بالميل الأمريكي للتكنولوجيا المتطورة، لذا كان السبب في بقائه وكبار قيادته بعيدا عن مرمى النيران العسكرية الأمريكية لفترة طويلة هو تجنبهم لاستخدام الإلكترونيات، بالإضافة إلى أنهم كانوا من جيل مثل أبي علي، أكبر سنًا من أن يتعلموا الحيل الرقمية الجديدة، لذا كانوا يثقون بما يسمعونه وجها لوجه فقط من المتحدثين المهمين، وليس ما يقال لهم عبر شاشة هاتف رقمية، مع ذلك كان مدير استخبارات بغداد يعرف أنه لا يستطيع التخلف كثيرا عن الركب في تلك الأوقات، لذلك أرسل ربع رجاله للتدرب على الهاتف وغيره من معدات المراقبة الإلكترونية التي اشترتها قوات الأمن العراقية بعد عام ٢٠٠٣.

لقد أراد أبو علي وحدة من الصقور ذات مهارة في تعقب المسلحين عبر الإنترنت، وهي منطقة التجنيد الافتراضية، حيث كان تنظيم القاعدة يكسب المتحولين إليه، وقد برز مناف السوداني من بين الرجال الذين تم تكليفهم بفريق المراقبة الإلكترونية التابع

للصقـور، فقـد أصبح بارعـا في مراقبة المواقـع الإرهابيـة لبناء بنوك بيانات للأعضاء والروابط بين الشبكات المتباينة، وهكذا حينما تلقَّى أبـو عـلي مزيدا من التمويـل في صيف عام ٢٠١٢ قام بتوسـيع خلية الصقـور، وكان مـن الطبيعـي أن يلجأ إلى ضابطـه اللامع للحصول على اقتراحات بشأن مجندين جدد آخرين مثله.

لقد كانت المحادثة بينهما مقتضبة، فالاجتماع قد حدث بعد مناوبة طويلـة لمنـاف بالخصـوص، فقد جلس أبـو علي عند مكتبه الخشـبي الواسع، الذي كان مخفيًّا كالعادة تماما بأكوام من الملفات البلاستيكية والخضراء الرسـمية، والتـي كانت على بعد نفس عميـق من الانهيار قائلا له وهو يسـأل: بني، من الذي يمكن أن توصي به للمساعدة في تعزيز فريقنا الإلكتروني؟ كان رد مناف مقتضبا: سـيدي إنني أعرف رجلا يفيدك في هذا المجال.

بعـد أسـبوع، أدخل مناف شـقيقه حارثًا إلى مكتـب أبي علي، لقد عرف الشـقيقان أن تلك اللحظة كانـت واعدة، لأن العمل مع خلية الصقور كانت التذكرة الذهبية المحتملة التي يأمل فيها الأخ السوداني الأكبر.

كان منـاف قـد اتصل بحـارث مباشرة بعـد حواره مـع أبي علي، وأخـبره أن يلتقـي بـه في مقهاهم المعتـاد بالقرب من كليـة الشرطة، كان منـاف حتـى في الضوء الخافت المشبع بالدخـان لطاولتهم يرى عينـي أخيه تضيئان، وعندما أخبره مناف، قبَّل حارث خدَّي شـقيقه الأصغر وسأله عما يجب فعله للتحضير من أجل المقابلة مع أبي علي.

كان أبو علي قد طلب بالفعل توصيات من رؤساء حارث السابقين، ولذلك كان مناف يعرف أن أخاه مرشح بشكل جدي، ونصح حارثًا بالاستعداد للحديث عن أنجح عملياته الأمنية وخبراته العملية، فيما تعهد حارث بالصوم حتى يوم المقابلة لكي يفقد من وزنه ويبدو لائقا.

في الليلة التي سبقت الاجتماع، طلب حارث من رغد كيَّ ملابسه الرسمية وأمر ابنه مؤملًا أن يلمع حذاءه، ثم ذهب إلى والده وطلب منه أن يدعو له، وفي صباح اليوم التالي وبينما كانا في طريقهما إلى المقابلة، تلقى حارث نصيحة أخيرة من مناف قائلا: أحذِّرك من أن تكون مغرورا جدًّا، فلن تحصل على الوظيفة ببساطة لأننا قريبان مع بعضنا البعض، فالمدير ليس من هذا النوع.

عندما دخل السودانيَّان إلى مكتب أبي علي، بدأ مدير الاستخبارات بتقييم حارث، فقد كان يعرف بالفعل سمعته كرجل منضبط ومجتهد، وعندما قدم نفسه، استطاع أبو علي أن يرى من سلوك حارث بأن لديه ثقة هادئة بنفسه، ولم يتململ من الصمت الذي عمَّ جوَّ الغرفة لعدة دقائق، وهو تكتيك غالبا ما كان يستخدمه أبو علي في استجواب المعتقلين لتحديد حجم المعتقل.

لقد علم أبو علي من خلال التقييمات التي تلقاها من رؤساء حارث السابقين أن السوداني الأكبر كان يعمل بشكل جيد في فريق، وهو مع ذلك يعرف كيف يمسك زمام المبادرة، وكان هذا النوع من التفكير الحديث هو الذي أراده أبو علي، فقد كان بحاجة إلى أفكار

جديدة لهزيمة الإرهابيين، وعندما سأل حارثًا كيف يمكن للصقور أن تكون أكثر استباقا في تعقب الإرهابيين المشتبه بهم عبر الإنترنت، لم يتراجع الشاب عن التعبير عن بعض الآراء.

بعد عشرين دقيقة من المقابلة، ارتاح مناف، فقد اعتقد أن شقيقه يقدم انطباعا جيدا، لكنه يعلم أن أبا علي لم يكن ليتسرع، وعليهما انتظار قراره، وعندما اقتربت المقابلة من نهايتها أدهش أبو علي الأخوين وهو يقوم من مكتبه الفوضوي ويصافح يديهما، وقال لحارث: مبارك، لقد تم تعيينك.

على مدى الأشهر الثلاثة التي تلت، أجرى حارث التدريب المكثف الذي أكمله شقيقه قبل سنوات، حيث تعلم المهارات التقنية اللازمة للمراقبة الإلكترونية، وتقنية إنشاء الأسماء المستعارة وقصص التغطية اللازمة للتسلل إلى غرف الدردشة المشفرة على الإنترنت، حيث يجتمع الجهاديون السنة ويناقشون الهجمات، عندما اكتمل التدريُب انضم حارث إلى فريق مناف في وحدة الصقور الإلكترونية في واحدة من أحدث ساحات القتال في الحرب العالمية على الإرهاب.

إن الإسلام السني المتشدد في السعودية والذي تم شحنه من قبل تنظيم القاعدة ليصبح سيفا أيديولوجيا لم يكن موطنه العراق، إلى أن أصبح محور قتال القاعدة بعد عام ٢٠٠٣، ففي الواقع كانت الأغلبية المسلمة من السنة والشيعة بعد الغزو متشابهين في أحجامهما عن التعبير المنحرف للإيمان الذي اقترن به الجهاديون لتبرير قتل الأبرياء

من النساء والأطفال.

إن نفور العراقيين الواسع من القاعدة، إلى جانب الغضب واليأس من الحكومة تأجج إلى احتجاجات شعبية ضد رئيس الوزراء نوري المالكي وحكومته، ففي كانون الأول من عام ٢٠١٢ اجتاح السكان من السنة والشيعة شوارع وسط بغداد، مطالبين الزعيم بالتنحي، وهو انعكاس للاحتجاجات عبر المناطق التي يهيمن عليها السنة العرب في شمال وغرب العراق، وعلى الرغم من أن معظم تلك الاحتجاجات كانت سلمية، لكن رئيس الوزراء رفض الاستجابة لمطالب تحسين البنية التحتية والوظائف والحقوق السياسية.

لقد ندد المالكي بالمتظاهرين ونعتهم بالإرهابيين، وأطلق العنان لقواته الأمنية ضدهم، حيث اتخذ القمع صبغة طائفية، وقتلت القوات العراقية العشرات من العراقيين واعتقلت الآلاف من السنة بتهم الإرهاب، وصوَّر التلفاز العراقي الرسمي المتظاهرين بأنهم ملتحون همجيون، لكن على الأرض كانت الاحتجاجات مأهولة بالعراقيين العاديين من الطبقة الوسطى، وشيوخ دين معتدلين وسياسيين وشعراء وحتى من العجائز الجدات المتعاطفات الحزينات، ومن بينهم أبرار الكبيسي ووالدها الاستاذ الكبيسي، وكان ينقلها ابنه في عطلة نهاية الأسبوع أو جار الكبيسي إلى مخيم الاحتجاج المترامي في أطراف الرمادي، الذي يشمل عدة شوارع في المدينة، حيث كان الجو أشبه بالكرنفال. فالعربات تقدم القهوة وبعض الوجبات الخفيفة، بينما كان الباعة يبيعون المكسرات المحمصة والفواكه، وكانت المنصة

الخارجية تستضيف المتحدثين في الحشود، في حين أصبحت عشرات الخيام المصطفة حول المحيط أماكن لإقامة المشايخ والسياسيين البارزين واستقبال الأنصار.

قبل عطلة أعياد الميلاد توجهت عائلة الكبيسي إلى الرمادي لحضور تجمع من هذا القبيل لمناقشة خطابات المالكي المهددة، كانت أبرار تستمتع بطاقة الحشود، وقضت وقتا في التطوع في مركز الإسعافات الأولية، بينما كان والدها يجلس مع شيوخ القبائل.

عندما عادوا إلى بغداد، أخذت أبرار معها إلى البيت قشعريرة الإثارة والرضا في وجود روح العشيرة، فقد كان معسكر الاحتجاج يتمتع بالحيوية التي تفتقر إليها غرف الدردشة عبر الإنترنت، لأن رفاقها على الإنترنت متمركزون حول ذواتهم ويتنافسون كما لو كانوا يؤدون أدوار اختبار على مسرحية أيديولوجية.

وجدت أبرار في الرمادي عراقيين يشتكون بمرارة مما يعتبرونه سلوكَ تمييزٍ من قبل حكومة المالكي ضدهم، لكنهم كانوا لطفاء وممتنين ولا ينحنون، وكان بإمكانها العمل لساعات في المركز الطبي في جو الحر الشديد، ولم يكن هناك روح واحدة أهملت تقديم الشكر من أجل قيامها بالمساعدة.

عشية عيد الميلاد، ألقى المالكي خطابا وطنيًّا متلفزا، متمنيا للشعب أعيادا سعيدة، كان الخطاب جزءًا من التقاليد السياسية العراقية منذ الإطاحة بنظام صدام، وهو طريقة لتكريم الحكومة للمسيحيين العراقيين، الذين كانوا يشكلون واحدة من أكبر التجمعات الدينية

في الشرق الأوسط.

في البداية، وعندما بدأ المالكي الحديث عن الوحدة الوطنية، بدا أن رئيس الوزراء سيستغل هذه المناسبة للاعتذار عن رد فعل حكومته الغليظ على حركة الاحتجاج، لكنه بعد ذلك تغيرت نبرته، وبدأ صوت رئيس الوزراء يرتفع وينتقد المحتجين السنة ويصفهم بالإرهابيين. لقد غذّى خطاب المالكي في أعياد الميلاد المزيد من التظاهرات، ونزل المزيد من الناس إلى الشوارع، بعد ثلاثة أيام أمر رئيس الوزراء بمداهمة أكبر مواقع الاحتجاج، مخيم الرمادي، حيث قضى الكبيسيون بعض الوقت، وأسفر الاعتداء الحكومي عن مقتل ما لا يقل عن ثلاثين شخصًا، بضمنهم امرأة كبيرة السن وصبي.

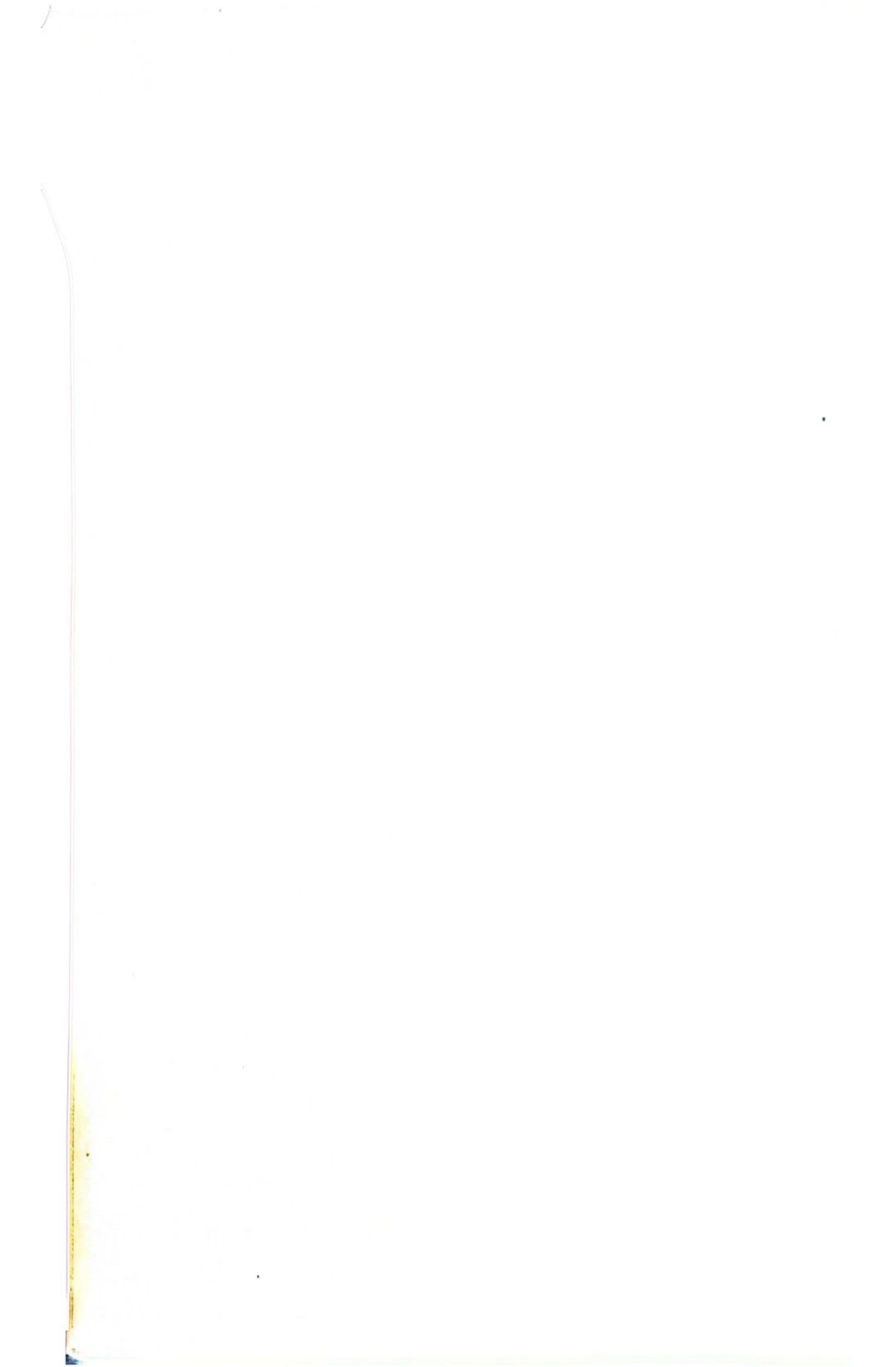
بالنظر إلى هذا الرعب، لم يفهم أبو علي ماذا حدث لهذا الرجل الذي كان قد عرفه في السابق كقائد براغماتي، ويبدو أن السلطة قد أصابته بالطيش، فقد بدا مثل صدام من قبل، يرى الأعداء في كل مكان، ولم يكن مهما بالنسبة له أن أبا علي قد أطلعه على قائمة تضم ١٢٠٠ اسم من القاعدة، فقد كان رئيس الوزراء يرى كل السنة كتهديد بالنسبة له، وفي نهاية عام ٢٠١٢ كانت السجون العراقية مكتظة بالرجال من السنة على الرغم من عدم وجود أي دليل على ارتباطهم بالإرهاب.

كان من الواضح لمدير الاستخبارات أن تصرفات المالكي من شأنها أن تزرع مزيدا من عدم الاستقرار، وعلى الرغم من أن معظم المتظاهرين لم يكونوا جهاديين، إلا أن الخلايا النائمة للقاعدة

كانت على استعداد لاستغلال الاضطرابات المتصاعدة لتحقيق مآربها الخاصة في الأيام التي تلت ذلك، فقد حضر مبعوثو أبي بكر البغدادي صلاة الجنازة على القتلى وتعاطفوا مع السنة الساخطين، وعندما همس المحرضون عن خطط جارية لإسقاط رئيس الوزراء، كان قلة من القيادات السنية في العراق قد فكروا في رفع أيديهم من أجل وقفهم.

الفصل الثالث عشر

إيقاظ الوحش



في أوائل شهر آيار من عام ٢٠١٤ اعتقلت قوات الأمن العراقية سبعة أعضاء في تنظيم داعش الإرهابي في الموصل، ثاني أكبر مدن العراق المعروفة بغناها برجال الأعمال السنة. كان قد مضى أكثر من عامين على مغادرة آخر الجنود الأمريكيين للعراق، وتم وقف نزف الدماء الطائفية بين السنة والشيعة، وبدأ العالم الغربي ينسى الأخبار المتعلقة بالعراق ومشاكله ومآسيه والإرهاب الذي كاد يقضي عليه.

وبالفعل كان القادة الأمريكان الذين عادوا إلى واشنطن يتفاخرون بأنهم أهلكوا صفوف القاعدة في العراق، وكانوا يتلقون الترقيات والوظائف المربحة لما بعد التقاعد، أما في بغداد فقد كان رئيس الوزراء نوري المالكي منشغلا بالبقاء في السلطة، بعد انتخابات برلمانية غير مرضية بالنسبة له كشفت الانقسامات العميقة في البلاد.

لقد فقد حزبه العديد من المقاعد، وتعرضت سيطرته على السلطة إلى التهديد، وفي اندفاعه للبقاء سياسيًّا على السطح، لم يكن يولي اهتماما بما يعتقد أبو علي أنه أحد أهم العوامل التي تبلور الإرهاب، وهي عملية الاعتقالات الواسعة النطاق للسنة، فقد كان المالكي في هذا يقلد زملاءه في جميع أنحاء الشرق الأوسط، حيث يعتقد الحكام أنه يجب انتزاع المواطنين الغاضبين من الشوارع كالحشائش الضارة، بدلا من غرس الإصلاحات الديمقراطية، لكن أبا علي كان ينظر إلى تلك الممارسات بازدراء، معتقدا أن تلك الإجراءات الأمنية العقابية ستأتي بنتائج عكسية وتغذي المزيد من الغضب والإرهاب ليس إلا.

الحقيقة إنه، وعلى الرغم من أن بقية العالم قد تحول انتباهه بعيدا

عـن العـراق، لكن رجالا مثل أبي علي لا يسـتطيعون فعل ذلك، فقد كان سرطـان التطـرف حقيقيًّا، لكـن القوات الأمنيـة العراقية كانت تركـز على عدو متخيـل، وهو كل العراقيين السـنة، بدلا من قيادات وأعضـاء تنظيـم القاعـدة الذين تـم التحقق من وجودهـم في وثائق المجموعة الخاصة التي استولت عليها خلية الصقور.

كان أبـو علي يعلم أن حيـاة العراقيين تعتمد على تتبع هذا التهديد الحقيقـي، وليس التهديد المتخيل، حتى لو كان هو وصقوره يقومون بذلـك فقط، والذيـن بلغ عددهم ثمانيـة وأربعين رجـلا، كان المناخ السـياسي في العـراق غـادرا، ودعـم رئيـس الـوزراء المالكـي حملـة الاعتقـالات الجماعيـة الشـاملة للقيادات السـنية البـارزة في البلاد، معتقدا بشـكل خاطئ، وهو يقترب من عامه العاشر في السـلطة، أن الانتماء الطائفي لمنتقديه قد جعل منهم طابورا خامسا.

مـع ذلك، حـاول أبو علي أن يبقي رأسـه منخفضـا والتركيز على أهدافـه المحـددة، وهـم الجهاديـون المخضرمون الذين بقـوا على قيد الحيـاة، وأعادوا إحيـاء التنظيم بعـد أن قتل العراقيـون والأمريكان القادة السابقين للقاعدة عام ٢٠٠٩.

لقـد كان الرجل الذي تولى مقاليد السـلطة هو أبا بكر البغدادي، فقد أمضى سنوات بعد الانسحاب الأمريكي من العراق يعيد تكوين صفـوف القاعـدة بالمجندين من المناطق السـنية في العراق وسـوريا، الدولة الواقعة في شمال وغرب العراق، والتي كانت متزعزعة بسبب الحرب الأهلية الدائرة فيها.

تمكن البغدادي من إعادة تسمية الجماعة باسم الدولة الإسلامية في العراق والشام، أو داعش، لكي تعكس وصولها الجديد عبر الحدود وملء خزائنها من الأموال النقدية عبر عمليات الابتزاز والسرقة والتهريب، كما قدمت الحرب الأهلية في سوريا للمجندين الجدد طريقة لاكتساب الخبرة في الخطوط الأمامية من ساحة المعركة، وهي مهارات يعرف زعيم الإرهاب أنها ستكون ضرورية قبل هجومه المخطط له في وطنه.

لقد كشف الرجال الذين تم اعتقالهم في آيار من عام ٢٠١٤ عن معرفة عميقة بشبكات داعش المالية في الموصل، وتم استدعاء الصقور للمساعدة في إقناعهم بالكشف عن المزيد من التفاصيل، ولم يستغرق الأمر طويلا حتى عرف أبو علي أن المعتقلين يعرفون شيئا أكثر أهمية، فقد كان أولئك الرجال جزءًا من خلية لداعش قامت قبل أيام فقط من اعتقالهم بتفجير الجسور التي تمتد على نهر دجلة وتعمل كنسيج اتصال لتجارة المدينة.

وقال المعتقلون لأبي علي إن هذا كان العمل التحضيري لهجوم أكبر بكثير، حيث قدموا مواقع دقيقة لمعسكرات في صحراء الجزيرة غرب الموصل، كانت الجماعة الإرهابية تستخدمها لتدريب المقاتلين وتخزين الأسلحة، فيما أخبروا أبا علي أن هناك هجومًا قادمًا ليس له نظير، ولا يمكن له تخيله، ومرَّر أبو علي معلوماته الاستخبارية إلى أعلى التسلسل القيادي قائلا: إن جميع الأدلة تشير إلى هجوم للإرهابيين في أوائل حزيران القادم.

في يوم ٣١ آيار، وفي اجتماعي أمني عاجل عقده رئيس الوزراء، رفض القادة العسكريون الذين اختارهم المالكي للإشراف على الموصل تقرير أبي علي ووصفوه بأنه هستيريا، وعندما كرر المسؤولون الدوليون في بغداد التهديد بشأن شن هجوم وشيك على الموصل، والذي كانت تعتبره جيوشهم ذا مصداقية، أخبرهم العراقيون بأنه لا يوجد ما يدعو للقلق بشأنه.

لقد اتضحت العواقب الكارثية لتلك الرسالة المحذرة في السادس من حزيران من عام ٢٠١٤ عندما بدأ قادة بغداد بتلقي مكالمات هاتفية مذعورة بأن قوافل من الشاحنات الصغيرة وسيارات الدفع الرباعي كانت تندفع عبر الصحراء في شمال غرب العراق وتطلق نيران المدفعية على القوات العراقية المتمركزة حول الموصل، وخلال أسبوعين فقط تفوقت قوات الصدمة الإرهابية على الآلاف من قوات الأمن العراقية الواهنة والسيئة التدريب.

لقد كان القادة العسكريون الذين يقودون عملية الدفاع عن المدينة، هم نفس القادة الذين رفضوا تحذيرات أبي علي الاستخبارية وتركوا مواقعهم في العشرين من حزيران، تاركين الضباط من الرتب المتوسطة في الميدان دون خطوط إمداد بالذخيرة أو الطعام أو الماء، فيما ترك الجنود العراقيون الموجودون على الأرض من الذين نجوا من القصف الأوّلي لداعش يهربون للنجاة بحياتهم.

لم تكن تصدق طليعة المجاميع الإرهابية حظهم الجيد، فقد استحوذوا على عربات مدرعة ودبابات تم تركها على عجل من قبل

الجيش العراقي الذي اتجه إلى الجنوب باتجاه بغداد، مما أسفر عن قتل آلاف الجنود واقتلاع عشرات الآلاف من العوائل قبل أن يصلوا إلى مسافة ٩٠ ميلا عن العاصمة.

في اليوم الأول لشهر رمضان من ذلك العام والذي بدأ في ٢٤ حزيران، أعلن المتحدث الرسمي باسم أبي بكر البغدادي تأسيس ما يسمى بالدولة الإسلامية، وبعد عشرة أيام، أي في الرابع من تموز ظهر البغدادي بنفسه للعلن لأول مرة وهو يتحدث من منبر جامع النوري الكبير في مدينة الموصل، ووعد أن يعيد لإخوانه من السنة «كرامتهم وقدرتهم وحقوقهم وقيادتهم» بحسب زعمه.

في بغداد، استمع كلٌّ من السودانيين والكبيسيين في غرف معيشتهم لبيانات داعش، حيث كان يعاد بثها من قبل القنوات الإخبارية العربية، وشعرت العائلتان بالذعر مما سمعاه، فقد عاد المتعصبون إلى السيطرة مجددا، وكانت آلاف الأسر العراقية تفر ذعرا للحفاظ على حياتها، فبلادهم المسكينة التي نجت بالكاد من أول هجوم للقاعدة قبل عقد من الزمان، ستكون محاصرة مجددا بحرب أخرى مع الارهابيين.

في شرق بغداد أصيب أبو حارث وأم حارث بالرعب من صور متواصلة تظهر المقاتلين الإرهابيين وهم ينفذون مجزرة جماعية لعراقيين شيعة(*)، خصوصا أولئك الذين يرتدون الزي العسكري

(*) المقصود هنا بالمجزرة هي الجريمة الكبرى التي ارتكبتها عصابات داعش الارهابية بعد أسر ١٧٠٠ جندي جميعهم من الشيعة من الفرقة ١٨ من قاعدة سبايكر

من الذين كانوا يتدربون للخدمة في القوات الأمنية العراقية، أما خارج منزل السوداني في مدينة الصدر، فقد كانت مكبرات الصوت تقوم بتشغيل الهتافات للقتلى، وناشدت جميع الرجال بالتسجيل في التطوع للقتال، وقد خشي أبو حارث أن يتم نشر أبنائه في الخطوط الأمامية للمساعدة في الدفاع عن الوطن من أولئك الشياطين.

على بعد خمسة أميال في منطقة العامرية في غرب بغداد، كان الأستاذ الكبيسي يشعر أيضا بالقلق على سلامة أبنائه، فكلاهما كانت له وظيفة إدارية برواتب عالية، لكن ذلك لن يحميهما من الانتقام الذي تغذيه الأدلة المعادية للسنة التي تطلقها الأحزاب السياسية الشيعية والقنوات الإخبارية.

كانت المشاهد من الموصل والمجتمعات التي دمرها داعش مرعبة، حيث تناثرت جثث العراقيين في الطرق والحكايات المخيفة التي ترويها العوائل التي تمكنت من الفرار قبل وصول موجة الإرهاب، أما أبرار فكانت الوحيدة التي أرادت تشجيع التطورات، لكنها تخشى التصريح بآرائها أمام العائلة، فالثناء على سوء حظ مسلم يمكن أن يجلب الحظ السيِّئ للعائلة، على الأقل هذا ما كانت تعتقده والدتها.

هذا الرأي الذي أخفته أبرار سرًّا عن عائلتها ظهر على الإنترنت

الجوية وإعدامهم بطريقة بشعة بعد أن نقلوهم إلى منطقة القصور الرئاسية في تكريت يوم ١٢ حزيران عام ٢٠١٤، ولا أدري لماذا لم تسمِّ المؤلفة الجريمة بمجزرة سبايكر مع أنها معروفة جدا في العراق. المترجم.

إلى العلن تحت اسم (بنت العراق) التي حمدت الله على تخليص بلادها مما اعتبرته نيرَ وقمعَ الحكومة الشيعية، فقد كانت تشاهد ما فعلته القوات المسلحة العراقية في عام ٢٠١٢ بحق المدنيين الأبرياء والشباب الشجعان والعائلات والجدات الذين تجمعوا سلميًّا في الرمادي والموصل للمطالبة بالحقوق المدنية وإنهاء الفساد.

لقد توقعت أبرار وزملاؤها عبر الإنترنت أنها ستكون مسألة وقت قبل اندلاع الانتفاضة، فبعد كل شيء ما الذي كانت تتوقعه الحكومة بعد حملتها الوقحة لقتل منتقديها وإسكاتهم؟.

تنحدر أبرار من عشيرة سنية قوية في الأنبار، حيث الرجال فيها لا يتراجعون أمام الظلم، فالرجال الحقيقيون والعراقيون الحقيقيون يفضلون الموت على الخضوع للقمع، وهذا ما تفعله قوات داعش التي وعدت سنة العراق بالتحرر من نهيق الحمير الشيعة من أجل دماء العراقيين الشرفاء، بحسب ما كتبت على الإنترنت.

عندما كرر أبو بكر البغدادي مطالب السنة المتظاهرين خلال خطبته الافتتاحية كخليفة للمؤمنين في الموصل، كان الأمر بالنسبة لأبرار كما لو أن الله استجاب لدعواتها، فهنا كان زعيم أراد أن يعيد الكرامة والمعنى لحياة السنة في العراق، والآلاف من المسلمين في جميع أنحاء العالم كانوا يبايعون الحاكم الجديد، وربما كان هذا الزلزال السياسي يجلب لها الأمل الذي كانت تبحث عنه.

حتى خصوم ابو علي كانوا يحترمون ، على مضض، مهاراته المهنية، فحينما يتعرف على طريدة يركز بشكل شديد، وكانت ملحوظاته

حادة مثل سكين الجزار، فيما كانت قدرته على رؤية الأساليب من خلال مؤشرات البيانات نادرة في الحكومة العراقية، فقد كان يجلس بهدوء ويفكر بشكل عميق، وبفضل رعاية رئيس الوزراء، كان مدير خلية الصقور يتمتع بحرية العمل خارج حدود البيروقراطيات المتعثرة في العراق، كما أن لديه إمكانية الوصول إلى الأموال الكافية لبناء شبكة من الوكلاء والمخبرين، أما سمعة أبي علي المعروضة أمام الجهاديين فهي جعل الأمر يستحق لدى المخبرين، بينما يقومون بالإدلاء بالمعلومات، وجعلهم يشعرون بالاحترام وحتى بالشرف في قرارة أنفسهم لخيانة رفاقهم الإرهابيين.

لقد كانت هذه المهارات أكثر من مهمة في صيف الضربة الخاطفة لتنظيم داعش عبر العراق، فقد انهار الجيش العراقي، واحتشد المواطنون بالملايين للدفاع عن بلدهم، بينما كان ضباط المخابرات ومن بينهم أبو علي يحاولون بيأس منع الإرهابيين المتطرفين من الاستيلاء على البلاد.

لقد انكشف شهر تموز وكأنه كابوس لم يستيقظ منه العراقيون، حيث يقدر أن أربعة ملايين نسمة من البلاد محاصرون تحت حكم داعش، وقد تمكنت المليشيات العراقية التي تم تشكيلها على عجل والوحدات العسكرية التي أعيد تشكيلها لاحقا من صد ووقف الجيش الإرهابي تقريبا على بعد نحو ٩٠ ميلا شمال بغداد.

لم يتذكر أبو علي وزملاؤه آخر مرة استطاعوا أن يناموا فيها، حيث كانوا يهرعون إلى مركز قيادة مؤقت في سامراء محاولين انتزاع كل

المعلومات من مصادرهم بشأن تنظيم داعش، وفي غضون ذلك كانت البلاد تائهة، حيث تضخم رد الفعل العنيف تجاه المالكي الذي ظهر خلال انتخابات الربيع الماضي في حزيران، وقد اتحدت البلاد كلها في ذلك الوقت بإلقاء اللوم عليه في الخسارة المهينة لثلث أراضي البلاد لصالح تنظيم داعش الارهابي، وترك البلاد بدون حماية، مما أصاب الأمة بالصدمة بالفعل بسبب الصراع.

بحلول آب، وكان مستقبل العراق على المحك، تحرك حلفاء العراق الدوليون بما فيهم الولايات المتحدة والمرجعية الشيعية في العراق بشكل مشترك لإخراج المالكي من منصبه، وفي مكانه، التفُّوا حول أحد أنصار حزبه الشجعان حيدر العبادي، وهو رجل تلقى تعليمه في بريطانيا، وقد جعل منه قصر قامته وسلوكه اللطيف مرآة عاكسة للرجل الذي حل محله.

كان أول يوم للعبادي في المنصب في الثامن من أيلول عام ٢٠١٤ مرًّا وحلوًا، فبينما كان يجلس للإحاطة من قبل مديريه الأمنيين وقوات التحالف المشكلة حديثا، والتي ستساعد العراق في الحملة العسكرية ضد تنظيم داعش، رأى الزعيم الجديد أن لديهم القليل من المعلومات الاستخبارية، ناهيك عن خطة لتحقيق النصر، تذكر العبادي عسر الهضم الذي شعر به في أثناء قراءته لعشرات الصفحات من التقارير الواردة من أجهزة المخابرات العراقية، فلم تستطع الجمل البيروقراطية والتعتيمية إخفاء حقيقة أن قادته لا يعرفون شيئا عن قدرات وبنية العدو، والتي لا يعرفها بالفعل من

قراءة الصحف الأجنبية أو تشغيل التلفاز، وكان الاستثناء الوحيد هو الرجل الهادئ الذي جلس في أقصى الطاولة وبعيدا عن الأضواء وهو أبو علي البصري.

لقد قام أبو علي بجمع إيجاز بشأن خلفيات قادة تنظيم داعش المعروفين، وكانت الغالبية منهم لديهم سجلات في السجون العراقية والأمريكية، ولخص بعض عمليات مكافحة الإرهاب التي قامت بها وحدته سابقا، والمعلومات التي حصلوا عليها من معتقلي الموصل في شهر آيار، ومقدار استعداده وخبرته في العمل مع الأمريكان. وأخبر أبو علي العبادي أنه لا يملك الموارد اللازمة لشن حرب ضد عدو بارع ومدجج بالسلاح، كالذي يواجهه العراق، لكنه يعرف كيف يضع عيونا داخل معسكر العدو، مشيرا بالقول إلى رئيس الوزراء بأنه لا يعرف شيئا عن الحرب، لكنه يعرف الجواسيس، فلدينا العديد من الوكلاء الذين يغذوننا بالمعلومات بالفعل، لكن ما أرغب به هو إدخال أحد رجالنا إلى الداخل.

إن واحدة من أروع الأصول التي يمتلكها مدير الاستخبارات هي شبكة من المخبرين الموثوق بهم، والتي تمثل مصادر بشرية بالقرب من الهدف، يمكن لعمليات المراقبة الإلكترونية أن توفر معلومات بشأن من حضر اجتماع أو أمر بشن هجوم، لكن ما لا يمكن للتنصت تحديده هو الشعور بمعنويات العدو والتزامه أو نواياه، فقط عيون وآذان البشر المتميزة يمكنها فعل ذلك، خصوصا أولئك الذين تعهدوا بالولاء للعدو، وهذا هو السبب في أن شبكات

كهذه نادرة وقيمة للغاية، كان الشيء الوحيد الأفضل من وجهة نظر أبي علي هو مصدر بشري يمكن أن يزرعه بنفسه، باعتباره من الأصول السرية التي كان ولاؤها بلا شك للعراق.

كان العبادي يعلم بالصعوبات الكامنة في تجنيد جواسيس داخل تنظيم داعش، أو إدخال ضابط عراقي في صفوف التنظيم المتطرف، لكن الحرب العنيدة في البلاد دعت إلى إيجاد حلول جريئة، ولذلك منح رئيس الوزراء الجديد أبا علي البصري المزيد من الاستقلالية، وميزانية أكبر وتفويضا بإجراء عمليات هجومية منفصلة.

غادر أبو علي قاعة اجتماعات رئيس الوزراء، وسار عبر الممرات الفخمة المكسوة بالرخام خارجا إلى ساحة وقوف السيارات، واستمر متجاوزا سيارات الدفع الرباعي اللامعة، مارا بحديقة صغيرة من الزهور لا تزال تتفتح في الهواء الحار في أواخر الصيف، نحو البناية المكيفة التي كانت مقرا للصقور لست سنوات، وبمجرد وصوله إلى غرفة الاستراحة الضيقة، قال: أيها الرجال، لدينا مهمة جديدة، يجب أن نتسلل إلى داخل تنظيم داعش.

إن ما تم تصميمه كحديث حماسي لرفع المعنويات قوبل بإنذار مخيب للآمال، فلعدة أشهر تقريبا كان رجاله يراقبون نشوة المجموعة الوحشية في التعذيب وقطع رؤوس المئات من ضباط وجنود الشرطة العراقية التي توثقها المجموعة في مقاطع فيديو دعائية يومية، لقد أراد أبو علي متطوعا يتظاهر بأنه جهادي ويذهب متخفيا ليبلِّغ عن أسرار العدو، ولم يرغب أحد من مجموعة الصقور بالمخاطرة بحياته

في الذهاب وراء خطوط العدو، ولا حتى بالنسبة لقائدهم المحترم.

في وقت لاحق من الأسبوع، كان مناف وحارث يضحكان مما يعدَّانه طلبا فظيعا، مسكين أبو علي، يتذكر مناف وهو يفكر، سيكون يوما باردا في الجحيم قبل أن تتحقق هذه الأمنية.

كانت أم مصطفى تجلس على كرسي منخفض، مرهقة قليلا من سنوات العمل في المطبخ، وأمامها دلو صغير من القرع الأخضر الباهت، وتحمل مقشارة معدنية رفيعة، وهي تنفض معصمها بضربات خبير قصيرة لتجعل اللب مجوفا، وهي التقنية الموروثة منذ عقود لطهي القرع المحشي، طبق الخضار المحشي المفضل لابنتها أبرار.

عائلة الكبيسي تتناول وجبة الطعام الثقيلة هذه مرة واحدة في الشهر على الأقل، منذ أن تعلمت أبرار المشي، لكن أم مصطفى المرأة الممتلئة الجسم وذات البشرة الناعمة في نهاية منتصف العمر بعيونها اللطيفة البنية، كانت تطبخها في كثير من الأحيان عندما كانت تريد إظهار المحبة الزائدة لأحد أولادها الخمسة، وفي ذلك اليوم كانت تفترض أن الكبيسيين بحاجة إلى نفس القدر الكبير من الراحة التي يمنحها طعامها.

لقد عاد زوجها إلى المنزل في وقت مبكر بشكل غير معتاد في سيل من الصراخ الغاضب، فقد تسببت أبرار ابنتهما البارعة والذكية في فضيحة يمكن أن تلحق الضرر بمستقبلها، فمنذ أن حشد العراق للحرب في وقت سابق من ذلك الصيف، كانت بغداد بأكملها في

حالةً من التوتر، فقد استعبد القتلة من تنظيم داعش مليوني عراقي، وسكان بغداد متوترون خوفا من عودة موجة الهجمات الإرهابية والتي ستدمر حياتهم، وهو الخوف الذي زرعته القاعدة في نفوسهم منذ منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

لكن الغريب أن أبرار لم يكن لديها قلق بشأن ذلك، فقد كان هناك شيء آخر يستهلكها، شيء غيَّرها من الداخل. لقد راقبت أم مصطفى ابنتها لأسابيع، فقد كانت تشع طاقة تدفعها من الفراش في الصباح الباكر لتبقى مستيقظة حتى وقت متأخر من الليل، ومهما كان ذلك الشيء الذي يجري، فقد رفضت أبرار الاعتراف به، ناهيك عن التوضيح، فقد كان ما يترشح من داخلها وحشيًّا وشديدَ السطوع.

كانت أم مصطفى قلقلة، لكنها لم تعرف ما الذي تركز قلقها عليه، ففي الخارج لم يكن هناك شيء يختلف عما هو معتاد، فأبرار لم تشترِ أي ملابس جديدة، وهي لا تزال ترتدي نفس الحجاب الرزين ذي النقوش السوداء والبيضاء، والعباءات التي لا شكل لها والتي تصرف الانتباه عنها كما ينبغي للمسلمة المحترمة.

لقد كانت أبرار تصل إلى المنزل من العمل في وقتها المعتاد، لذلك لم تصدق والدتها أنها تقيم علاقة حب سرية، لكنها كانت تشعر بالغريزة فقط بأن أبرار تخفي سرًّا ما، والشيء الوحيد الذي يمكن أن تتخيله أم مصطفى هو أن أبرار ربما تكون قد وقعت في حب شخص ما في العمل، وهو تطور سيكون معجزة صغيرة، لأن أبرار لم تبدِ اهتماما بالرجال أبدا، وطالما كانت أم مصطفى تأمل أن تتزوج

ابنتهـا وتسـتمتع بعملها كما تفعـل في حياتها، لكن مكالمـة هاتفية من مدير الوزارة الذي أشرف على أبرار جعلت أحلام أم مصطفى أشبه بأحلام اليقظة، فقد طلب المسـؤول لقاءً عاجلا مع الأستاذ الكبيسي وسرعان ما اكتشف زوج أم مصطفى ما يجري بالضبط.

قـال له المدير إن شـجارا حدث في ردهة الـوزارة، ولم يتضح على مـاذا كان الخـلاف في البداية، لكن الغضب اندلع بشـكل غير لائق، فقد تشاجرت مجموعة من النساء من قسم أبرار بشأن الدين، وكانت هناك صيحات وشـتائم، وتقارير عـن أن ابرار تفوهت بقنابل لفظية يمكن أن تؤدي إلى اعتقالها، فقد أفاد العديد من الشهود أنها أساءت إلى الشـخصيات الدينية الشـيعيَّة البارزة في البـلاد، وانتهى الخلاف المطـول بقيام ابنة الأسـتاذ الكبيسي الصغيرة والمهذبـة بصفع إحدى زميلاتها المحجبات على وجهها.

جلـس الأسـتاذ الكبيسي في صمـت مذهـولا، وهو يسـتمع إلى المسـؤول الذي يروي المشـاجرة، فـإن ابنته لم تحرج نفسـها وعائلتها بأكملهـا فحسـب، بل أسـاءت إلى القسـم مـن خلال الخـوض علنا في الميـاه الخطـيرة للطائفيـة، فقد كانـت لغتها تشـبه لغـة الإرهابيين المسـاعدين لتنظيم داعش، وهو أمر مخيف كثـيرا، خصوصا في ذلك الوقـت، فبينـما البـلاد في حالة حرب، فـإن من الممكـن إدانتها ليس باعتبارهـا متعصبة فحسـب، بـل باعتبارهـا متعاطفة مـع الإرهاب أيضا.

لقد نجا مدير أبرار، وهو سني مثل الأستاذ الكبيسي، من تقلبات

السياسة العراقية وسوق العمل الذي حدث خلال العقد الماضي، والذي تم فيه إزاحة العراقيين المفضلين في عهد صدام بعيدا لصالح ضحاياه، وهم الأغلبية الشيعية في البلاد، لكنه لم يكن يريد أن يفقد وظيفته الآن، ولذا قال للبروفيسور الكبيسي إن هناك ضغوطا عليه لطرد أبرار من العمل، ولأنه يحترم أبرار ومكانة الأسرة الأكاديمية والاجتماعية، لم يلتزم بتعصب الشابة ضد الشيعة وما يشكله ذلك من مخاطر على مسيرته، قائلا لوالدها إن «أبرار تعوم في مياه خطرة، ولا يستطيع أحد لا أنا ولا أنت أن يعوم خلفها ويبقى على قيد الحياة».

شعر الأستاذ الكبيسي كما لو أنه عالق في عاصفة رملية غريبة، ولم يكن يرى طريقا واضحا في هذه الكارثة، إن المخاطرة بالسمعة مثل الفايروس من شأنه أن يصيب الأسرة بأكملها وليس أبرارَ فحسب، وكان يجب أن يكون هناك حل للتخفيف من حدة المشكلة وحفظ ماء الوجه للجميع، بما فيهم المدير.

تناول الرجلان القهوة وتوصلا إلى اتفاق مبدئي يتضمن، توقف أبرار عن القدوم إلى العمل، والمدير سيدفع بهدوء باتجاه إجازة طويلة الأجل متاحة لمعظم الموظفين في الوزارة من الذين يريدون متابعة الاستمرار في التعليم، وسيتعين على الكبيسيين أن يجدوا مكانا لأبرار لكي تختبئ فيه وتواصل دراستها للحصول على شهادة أخرى.

عاد الأستاذ الكبيسي إلى المنزل غاضبا، ولم تنبس ابنته ببنت شفة بشأن ما حدث، كيف تجرؤ أبرار على تعريضهم جميعا للخطر في مثل

هذا الموقف المحرج؟

كان من المؤكد أن كلماتها الحادة ستستقر في روح والدتها مثل شظايا قنبلة، فقد كانت بعد كل شيء شيعية مثل زملاء أبرار، وعلى الرغم من أن الأسرة لم تكن تمارس الشعائر الشيعية، لكن أم مصطفى ربَّت الأبناء على احترام جميع التقاليد الإسلامية. كيف أصبحت ابنتها غاضبة لدرجة نسيان تربيتها؟.

كانت أم مصطفى تستمع لصراخ زوجها دون أن تنطق بكلمة، أبرار كانت تجلس على أريكة غرفة المعيشة منسحبة وغير مستجيبة، وعندما نفدت طاقة الأستاذ الكبيسي، أعلن أنه سيصعد إلى الطابق العلوي للاستلقاء. طلبت أم مصطفى من ابنتها أن تتبعها إلى المطبخ، حيث يمكنهما التخلص من ارتباك العالم الخارجي وسط فوضى الأشياء المألوفة: مفرش المائد المغطى بالبلاستيك المزخرف بأزهار الأقحوان، والدقات المزعجة لصوت ساعة الحائط، ومكونات الطبق المفضل لابنتها.

لقد كانت تقضي كل يوم في هذه الغرفة مع ابنتها لما يقرب من ثمانية وعشرين عاما، تحتسي الشاي وتطبخ الوجبات، وعندما كانت أبرار طفلة التحقت بالفصول الدراسية الدينية التي كانت تدرسها أم مصطفى في المدرسة الابتدائية الواقعة على طول الطريق إلى منزلهم في العامرية، وفي المساء كعائلة كانوا يشاهدون التلفاز، وعلى الرغم من اتفاقهم على أن حكومات الأغلبية الشيعية المنتخبة بعد الإطاحة بصدام كانت بمثابة كارثة للعراق، لكن أم مصطفى لم تكن توجه

انتقادات شاملة لجميع السكان الشيعة، لكن يبدو وبطريقة ما أصبح كما كان لدى ابنتها غضب ساحق لدرجة أنه قضى على حياة من الأخلاق والأعراف وانفجر في الأماكن العامة.

لم تكن أم مصطفى تعرف ما الذي تقوله لأبرار، وكيف تشكك في مشاعرها ومعتقداتها، فلم يكونوا من نوع العائلات التي تحدث فيها مثل هذه الأشياء، ولذلك بدلا من العثور على الكلمات الصحيحة ركزت ذهنها على إعداد الطعام أمامها، على أمل أن تنقل الوجبة حبها لها واهتمامها بها.

منذ تلك الليلة، كرست عائلة أبرار كل جهودها لإلغاء قرار المسؤول، وتدخل عمها لتقديم التماس من أجل إعادتها إلى وظيفتها، وحاول والدها ذلك أيضا، كما أن كل القدامى في الوزارة من الذين كانوا من السنة مثل عائلتها حاولوا الدفاع عنها قدر الإمكان، لكنهم لم يعودوا يملكون نفس السلطة كما في السابق، فقد جعلت الفورة التي اندفعت بها أبرار سامة للغاية، بحيث لا يمكن لمسها.

وبينما كان الجميع مشغولين بمحاولة إصلاح الضرر الذي تسببت به، هكذا هي الطريقة التي كانت تنظر بها ابرار.

فمنذ أن أعلنت داعش خلافتها في شمال العراق، عرفت أبرار أن حياتها ستتغير جذريًا، ذلك أن عودة ظهور التمرد لمواجهة الحكومة العراقية الفاسدة والقضاء عليها تماما هو ما كانت تنتظره هي وأصدقاؤها على الإنترنت بفارغ الصبر منذ عدة سنوات. ولعدة أشهر ظل أولئك المقربون يضغطون عليها للانضمام إليهم في تنظيم

داعش، لكن الأمر لم يكن سهلا لامرأة شابة في بغداد لم تكن متزوجة ولم تقضِ ليلة من حياتها خارج منزل والديها اكتشافُ طريقة لعبور الخطوط الأمامية للوصول إلى المنطقة الواقعة تحت سيطرة المجموعة.

إن فقدان أبرار لوظيفتها كان من أفضل الأشياء التي يمكن أن تحدث، فقد منحت أبرار الفرصة للتصرف. لم يكن من طبيعتها أن تفعل كل ما قيل لها، لكن لم يكن لديها مشكلة في اتباع توجيهات المرشد الذي وجدته عبر الإنترنت في غرفة الدردشة المفضلة لديها في موقع (شموخ الإسلام).

كانت أبرار تتابع مناقشات أبي نبيل عبر الإنترنيت لسنوات، وعلى عكس والدها وعمها، لم يكن أبو نبيل حاصلا على شهادة جامعية، لكنه كان فخورا بكونه ولد في سامراء وهي نفس المدينة التي ولد فيها زعيم داعش أبو بكر البغدادي.

لقد اكتسب تعليمه من ساحات القتال في العراق بعد الغزو الأمريكي لعام ٢٠٠٣، وقاتل المحتلين وسجن حتى في سجن أبي غريب سيِّئ السمعة، وقال إنه يحمل بفخر ندوب التعذيب التي حصل عليها من القوات الصليبية، ولم يتعب من قول إن الله نجاه من اعتقاله على أيديهم، فكرَّس حياته للجهاد، وهي دعوة تعلمها في السجن.

كان أبو نبيل يقتبس آيات قرآنية جميلة، ولديه دائما إجابات للمشاكل التي كانت تطرحها على الإنترنت بشأن الظلم الذي أظهرته الحكومة تجاه السنة مثلها، وبشأن الخطط الخبيثة التي كانت

لدى القوى الغربية لإبقاء العراق ضعيفا ومنقسما. لم يكن ذلك الرجل متبجحا، لكن من الواضح بالنسبة لأبرار أن أبا نبيل كان رجلا موضع ثقة من قبل قادة داعش، خصوصا بعد أن تم ترقيته من قبلهم على الميدان المحيط بسامراء وهي الوظيفة التي جعلته واحدا من أهم عشرين قائدا للمجموعة.

بمرور الوقت توسعت لدى أبرار مشاعر شديدة تجاهه، وعلى الرغم من أنه تم تحذيرها مرارا وتكرار من الوثوق بأي شخص، لكنها أخبرت أبا نبيل عن البحث السري الذي كرست نفسها له في الظروف العصيبة التي واجهتها في بغداد، حتى أنها أخبرته باسمها الحقيقي، وبالمقابل شجع أبو نبيل أبحاثها المختبرية، وأصبح من أكثر المشجعين حماسة لها، وكان يقول لأبرار مرارا وتكرارا: إن أولئك الكفار لا يقدِّرون مواهبك، والخلافة بحاجة إلى أفضل وألمع المسلمين لينضمُّوا إلى قضيتنا، ونحن بحاجة إلى أشخاص أمثالك.

هكذا هي الطريقة التي كانت تنظر بها ابرار.

في الظلام الذي يسبق الفجر جاء صديق شقيقها عقيل، كان والداها يظنان بأنه سيصطحبها إلى المطار، ويساعدها في المرور عبر حواجز وحواجز من نقاط التفتيش التي تستغرق وقتا طويلا وتوديعها بالطائرة المغادرة إلى تركيا.

كانت أم مصطفى قد استيقظت منذ الرابعة فجرا، لإطعام ابنتها وجبة الفطور، وكانت تشرب الشاي بينما كانت أبرار تسير من الأريكة إلى النافذة، فقد بدت متحمسة كأي امرأة شابة في أول رحلة

لها إلى الخارج، ولم يكن لدى أم مصطفى سببٌ للشك فيما أخبرته به ابنتها بأنه تم قبولها للدراسة في معهد أبحاث السرطان، في مدينة صقاريا التركية وهي مدينة جامعية تقع بين إسطنبول وأنقرة، وإن المعهد سيقبل نقلها إلى الدراسات العليا هناك، على الرغم من أن الفصل الدراسي الأول قد بدأ بالفعل.

كانوا يعيشون أوقاتا غريبة، وقد افترضت أم مصطفى أن الحرب ضد داعش قد عطلت الحياة في تركيا أيضا، وفي الواقع فقد كانت سعيدة أن ابنتها الذكية ستتاح لها في سن الثامنة والعشرين الفرصة لإنهاء دراستها بعد أن وضعت الكثير من العراقيل في طريقها في العراق.

الحقيقة أن نسخة أبرار عن الواقع كانت مختلفة تماما عما تتخيله والدتها، فقد عقدت صفقة مع عقيل، فمقابل مبلغ يعادل راتبها الشهري في الوزارة، سيقوم عقيل بقيادة السيارة من بغداد إلى مسقط رأسه في القائم، وهي بلدة على الحدود العراقية مع سوريا، والتي أصبحت منذ الصيف الماضي محورا رئيسا لعمليات داعش، فقد كان صهر عقيل قياديًا في داعش، وهو المسؤول عن العمليات العسكرية هناك، حيث كانت أبرار تخطط للتوسل به من أجل تقديمها إلى القيادات العليا للتنظيم، وفي داخل حقيبتها كانت قد جلبت هدية للخليفة، وهو ثمار المشروع الذي كانت تعمل عليه سرًا منذ أن كانت طالبة جامعية في جامعة بغداد، والذي بدأ في مختبراتها أولا ثم في المنزل ثم في غرفة خلفية صغيرة لا يستخدمها أحد في منزل والديها.

في الليلة التي سبقت رحيلها، كانت قد ختمت بعناية صنيعها الدبق في عبوات من الحليب المجفف الفارغة، ثم أخفتها وسط ملابسها في الحقيبة بالقرب من الباب الأمامي، وطمأنت نفسها بأن أحدا لن يزعجها بفحصها، فلن ينتبه أحد لشخص مثلها كامرأة هادئة وترتدي الحجاب على الرغم من أن أصدقاءها عبر الانترنت قد أوصوها بتوخي الحذر.

توقف عقيل عند الباب الأمامي لمنزل الكبيسي، بعد أن أذن المؤذن لصلاة الفجر في المسجد عبر الشارع، ثم دعته أم مصطفى للدخول وتناول الشاي، كانت قد وعدت نفسها بأنها لن تبكي عندما يحين وقت مغادرة أبرار، لكنها لم تستطع الإمساك بزمام نفسها، أما ابنتها فقد كانت متوترة للغاية لدرجة أنها ابتعدت عن حضن والدتها، قائلة: ماما ليس لدينا وقت، لا أستطيع أن أفقد موعد طائرتي، سأتصل بك بمجرد وصولي إلى تركيا.

بعد عشر ساعات وقطع مئات الأميال، سار عقيل وأبرار بالسيارة عبر طريق ترابي مليء بالحفر خارج الأراضي الخاضعة للسيطرة العراقية عبر طريق تهريب أقامه حراس داعش وجنود الخطوط الأمامية العراقيون قبالة الطريق السريع خارج الرمادي في الصحراء الغربية. كان عقيل قد هيَّأ الأوراق اللازمة للعبور من الأراضي العراقية إلى الأراضي التي تحتلها داعش، وقد سمح لهم الجندي المكلف بالواجب والذي كان نائما بالمرور دون يلقي نظرة عليهما، ولأول مرة في حياتها شكرت أبرار الطرق الفاسدة لقادة

العراق الشيعة، فقد وصلت إلى الخلافة وكانت القائم على مرمى حجر أمامها.

لم ترَ أبرار سوى القليل من تلك البلدة الحدودية السقيمة المتربة بعد وصولها إلى منزل عائلة عقيل، خصوصا بعد أن أخبر صهره بما هرَّبته في أمتعتها. كان المعجون اللزج الداكن مادة سامة تدعى «ريسين»(*) وهو أحد العوامل الكيمياوية السامة المحظورة بسبب قدرته المميتة على أولئك الذين يستنشقونه، وقد أخبرت أبرار المجلس العسكري المحلي لداعش أنها يمكن أن تساعدهم في استخدام هذا السلاح القوي لضرب أعدائهم، وقد علمت أبرار من مرشدها أبي نبيل أن الجماعة الإرهابية لديها قسم خاص بالأسلحة الكيمياوية، وكانت تأمل أن هديتها ستسمح لها بأن تحتل مكانة بين صفوفهم.

أرسل القيادي، قريب عقيل، تقريرا يبلغ بذلك إلى رؤسائه في الموصل، يحكي فيه عن العالمة العراقية غير العادية، ومع ذلك لم تحصل أبرار على إذن بالسفر إلى هناك حتى يحصل القيادي في القائم على موافقة من قبل القيادة العراقية، مما يعني أنه يجب عليها الانتظار إلى أجل غير مسمى، وسرعان ما نفد صبرها من ذلك.

(*) الريسين (Ricin) بروتين شديد السميَّة، يستخرج من بذور نبات الخروع، والجرعة السامة المتوسطة للإنسان تقدر بـ ٢ ملغم، ويعتبر أكثر سميَّة من سم الكوبرا بمرتين، ولا يوجد لهذا السم ترياق مما يجعله سمًّا شديد التأثير. أعراضه الأولية تعتمد على طريقة التعرض له، ويحضر كسائل يمكن تجفيفه ليصبح مسحوقا يتطاير بالهواء لو استنشق فإنه يسبب الوفاة في خلال ٣٦-٤٨ ساعة نتيجة الهبوط في جهازي التنفس والدوران. المترجم.

انتشرت أخبار السلاح الكيمياوي بين صفوف المسلحين في القائم، وطلب عدد من القادة عرضا له، لكن المشكلة أنه لم يكن ولا عنصر واحد هناك يحمل الشهادة الثانوية، ناهيك عن معرفة أساسية بالكيمياء وعلم الوراثة والبروتينات، فقد شعرت أبرار بأنها معلمة في مدرسة ابتدائية، لأنها كانت تعيد عليهم مرارا وتكرارا من خلال نفس الشروح والذي اختبرت فيه مادة الـ» ريسين» على الأرانب في البداية، ومن ثم على أحد كلاب الشوارع الذي تم الإمساك به.

وقالت أبرار لهم إن «مادة الريسين قاتلة لأنها تمنع خلاياك من تصنيع البروتينات، وهو يحطم جسدك من الداخل»، مستخدمة أبسط لغة قدر استطاعتها، ثم وجهتهم إلى الإنترنت حيث تكثر القصص عن كيفية استخدام مادة الريسين في العمليات السرية، وأخبرتهم كيف تم استخدامها من قبل السوفييت لقتل معارض مناهض للحكومة في السبعينيَّات، وكيف استخدمه الإرهابيون الأمريكان لمهاجمة عضو في الكونغرس الأمريكي.

بدا الرجال الملتحون يفهمون بشكل أفضل وهم يشاهدون الحيوانات تمرض وتتوقف عن التنفس، لكنهم أصروا على رؤية تأثيره على البشر أيضا، فأحضروا لها أسيرا وهو مزارع سوري كان يعيش عبر الشريط الضيق للنهر والذي كان حتى ظهور خلافة داعش الحدود الطبيعية بين البلدين، وقد أجبرته أبرار على ابتلاع بعض الريسين، لكنه لم يمت على الفور بل دخل في غيبوبة، مما أثار قلق أبرار، لأنها كانت تعتقد أنها أتقنت مستوى الجرعة التي

تعجل بالموت في غضـون دقائق، ويبدو أن الإرهابيين لم يهتموا كثيرا للموضوع، فقد بدوا أنهم مفتونون برؤية مسـيرة المزارع البطيئة نحو الموت، وكيف بدأت أعضاؤه تفشل وتحولت بشرته إلى اللون الأزرق بينما كان جسده يكافح للحصول على الأوكسجين، ثم قاموا بإطلاق النار عليه عند تلك النقطة للتأكيد على انتهاء صلاحيته بالفعل.

كان أسوأ جزء من إقامتها في القائم هو الافتقار إلى جهاز الحاسوب والهاتف، وهو ما كان ممنوعا على جميع النسـاء لدى داعش، ولم تكن أبرار تسـتطيع البقـاء مقطوعة عن الاتصـالات بالجميع، بما في ذلك أبـو نبيل، وكانت تأمـل أن يقوم بتحضير تقديم لها لعلماء الأسـلحة الكيمياوية في الموصل، لكن على ما يبدو فإن العجلات البيروقراطية لداعـش كانت تتحرك ببطء مثل بغـداد بغض النظر عن عدد المرات التي يصلي فيها المرء في اليوم.

لقد ظلت أبرار محبوسـة في بيت عائلة عقيل، بينما كانت تنتظر نبأً من الموصل، ومثل كل النسـاء الأخريات في البلدة كان عليها ارتداء الحجاب الكامل من الرأس حتى أخمص القدم الذي يصر عليه تنظيم داعش لغرض الحشـمة، فلم يسمح للنساء بالعمل، ورجال العشائر الذين يسـيطرون على الحدود لم يسـمعوا عن عالمة من قبل، وخاصة امـرأة مثل أبرار التي تنحدر من عائلة عراقية معروفة، فقد اشـتبهت بأنهم يشـعرون بالأسـى تجاهها، فبعـد كل شيء لم تكـن متزوجة ولم يكن لديها أطفال، رغم أنها كانت في الثلاثين من عمرها تقريبا.

لقد كرسـوا حياتهم لمحاربـة الحكومة العراقيـة، لكنهم لم يفهموا

لماذا قد تتخذ امرأة نفس هذا القرار، لذلك عودت نفسها على الصبر، فبمجرد وصول الإذن من الموصل، ستسافر إلى هناك وستذهب إلى الجامعة الأسطورية في المدينة، حيث قام تنظيم داعش بتحويل مختبراتها لأسلحته وأبحاثه العلمية، والعمل في مركز النشاط إلى جانب علماء ذوي دوافع أيديولوجية مثلها، فقد كان هذا حلمها، حيث سيعيدون إحياء العصر الذهبي للإسلام، عندما أحدث العلماء والباحثون ثورة في فهم العالم الطبيعي.(*)

لقد كانت وكالات الاستخبارات الأجنبية، ودون علم أبرار، قد وجهت بشدة انتباهها بالفعل لأنشطة داعش داخل جامعة الموصل، فحتى قبل إعلان أبي بكر البغدادي خلافته، تم وضع خطط أبحاث لبناء وتطوير برامج أسلحة موضع التنفيذ، وكانت المجموعة الإرهابية في طريقها لإنتاج سلاح كيمياوي، إلى أن قاموا بالاستيلاء على الموصل، وكان ما يفتقر إليه مقاتلو داعش هو فقط بيئة آمنة وحصينة لصنع مثل هذه القنابل غير التقليدية، كانت مختبرات الجامعة من أكثر المختبرات تقدما في البلاد، وكان لديهم مخزون من مادة الجمرة الخبيثة استخدمه الباحثون من قسم العلوم الزراعية لإنتاج لقاحات للماشية، وكان لدى أقسام الكيمياء والبيولوجيا خزين من اليورانيوم المنخفض التخصيب لإجراء الاختبارات الطبية، وكذلك السلائف الكيميائية التي يمكن خلطها لصنع

(*) لاندري حقيقة، هل هذا كلام أبرار أو كلام المؤلفة لإضفاء المزيد من الإثارة على قصتها للقارئ الأجنبي، فأي إسلام وأي عصر ذهبي يقبل بتجريب المواد الكيمياوية السامة على البشر كما حدث في قصة الفلاح السوري المسكين في هذا الفصل؟. المترجم

أسلحة الكيمياوية خام، فالعراق واحد من البلدان القليلة في العالم التي لديها خبرة مباشرة برعب الحرب الكيمياوية، وكانت أولا في ساحات القتال في أثناء فترة الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيّات، ثم عندما هاجم صدام مواطنيه عام ١٩٨٨ في مجزرة يسميها ضحايا الإبادة الجماعية بالأنفال.

لا تزال تلك الفظائع حية في ذاكرة العديد من قادة البلد الجدد بما فيهم أبو علي، لذلك عندما سيطر تنظيم داعش على أكبر منشأة لإنتاج الأسلحة الكيميائية(*) لدى صدام في حزيران من عام ٢٠١٤، كان المسؤولون الأمنيون العراقيون في حالة من العصبية، إن لم يكن في حالة هستيريا بالكامل، فقد انتشرت شائعات، عن امتلاك التنظيم الإرهابي لمخزون من الأسلحة الكيميائية، كالنار في الهشيم، وفي أيلول من عام ٢٠١٤، عندما تم نشر القوات العراقية في محافظة صلاح الدين تم نقل البعض منهم إلى المستشفى بعد معركة حامية، ووصلوا وهم يعانون من أعراض غريبة مثل القيء وصعوبة التنفس، حيث أوضح الأطباء أنهم تعرضوا لغاز الكلور السام الذي استخدمه مقاتلو التنظيم الإرهابي، وكان مرشد أبرار أبو نبيل أعلى قيادي في المنطقة وقت وقوع الهجوم المفترض بالأسلحة الكيمياوية.

(*) المنشأة المقصودة هنا هي منشأة جابربن حيان- والسؤال هنا لماذا تركها الأمريكان بمخزونها من المواد الكيمياوية السامة، وهم يعلمون بها، ولم يدمروا تلك المواد أو ينقلوها طوال تلك الفترة، ولماذا لم تتحرك الحكومة العراقية تجاه هذه المواد الخطيرة طوال تلك الفترة حينما كانت الموصل تحت سيطرتها وتركتها سائبة لتقع بيد عصابات داعش الارهابية؟.

خلال الأشهر القليلة التي تلت، التقط مسؤولو الاستخبارات العراقية والأجنبية بما في ذلك وحدة الصقور الالكترونية أحاديثَ من الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي المشفرة، حيث يجتمع فيها العلماء المتظاهرون بالتقوى مثل أبرار، وكان الكثير منهم يتفاخرون بأنهم سينضمُّون لتنظيم داعش للمساعدة في بناء ترسانة من الأسلحة المحظورة، وكان أولئك المتطرفون يتبادلون التركيبات والوصفات لصنع الجمرة الخبيثة والسارين وغاز الخردل(*).

كانت وكالات الاستخبارات الأجنبية تراقب عن كثب الطرق الرئيسة التي يستخدمها الإرهابيون الأجانب لتهريب أنفسهم من تركيا إلى الأراضي التي تسيطر عليها داعش، بحثا عن أي إشارة عن المواد الأولية الخام والتي يمكن مزجها لتصنيع الأسلحة الكيمياوية المحظورة، وفي حالة واحدة من هذا القبيل عام ٢٠١٥، أبلغ الأمريكان العراقيين عن خلية مكونة من ثلاثة أشخاص تمكنت من جلب شاحنة تضم حاوية مليئة بمعدات المختبرات، ومراوح العادم الصناعية الكبيرة إلى البلاد، فقامت الصقور بالمراقبة ثم اعتقلت الرجال الثلاثة الذين اعترفوا أخيرا في أثناء الاستجواب بأنهم فعلوا ذلك بأوامر من القادة في الموصل.

لقد سعت آلة الدعاية التابعة للجماعة الإرهابية إلى تضخيم الخوف الذي أطلقته التقارير عن أسلحتها الكيمياوية، وفي بغداد

(*) الجمرة الخبيثة والسارين والخردل مواد بايولوجية وكيمياوية تستخدم في صناعة الأسلحة المحظورة. المترجم

كانت الخطابات المذعورة في البرلمان والنقاشات لا تنتهي في البرامج الحوارية المسائية بشأن كيف يمكن للعائلات حماية أنفسها في حال حصول هجوم من هذا النوع، أما وزارة الدفاع العراقية فقد أمرت بتسليم عاجل لأقنعة الغاز ومعدات الوقاية للجنود على الخطوط الأمامية، وفي محاولة للحفاظ على الروح المعنوية في البلاد أمر رئيس الوزراء حيدر العبادي بفرض حظر شامل على كل التقارير عن أي هجمات بيولوجية أو كيميائية.

في خضم كل ذلك، كانت أبرار لا تزال تنتظر في مدينة القائم، وفي منتصف حزيران من عام ٢٠١٥ وبعد شهر من وصولها تلقت أخيرا كلمة الإذن التي كانت تنتظرها، أنها ستكون موضع ترحيب في الموصل، وكل ما هي بحاجة إليه الآن هو إيجاد طريقة للوصول إلى هناك، فقد استهدف الأمريكان أربعة من كبار قادة داعش في ثلاث غارات جوية مختلفة على الطرق المحيطة بالموصل، كما أن الجماعة الإرهابية أوقفت كل تحركات كبار مسؤولي التنظيم حول بغداد.

مع هذا التحول، اتضح أن طريق أبرار نحو الموصل لن يكون مستقيما وضيقا، بل طويلا ومتعرجا ويمر عبر بغداد، وهكذا أمرها تنظيم داعش بالسفر، حيث قالوا لها إنها بحاجة إلى العودة إلى منزلها والحصول على جواز سفر وجمع أكبر قدر ممكن من المال، ثم اتباع طريق الزيارة الذي تم ترسيخه جيدا والذي يسلكه (المسلمون) الأجانب لدخول المناطق الشرقية التي يسيطر عليها تنظيم داعش.

لم يكن بإمكان تلك المرأة أن تشكك في الأمر، لذلك ولأول مرة منذ ثلاثة أسابيع تم تزويد أبرار بهاتف، حيث اتصلت بوالدتها وأخبرتها أنها ستعود إلى العاصمة العراقية في اليوم التالي، وكما تتذكر والدتها، كانت عودة أبرار متوترة بعض الشيء، ولم يكن لدى أي شخص في العائلة سبب للتشكك في قصتها، حيث أخبرت والديها أنها بحاجة إلى العودة إلى العراق للحصول على نسخ من الأوراق المطلوبة الأخرى، كما قالت إنها حصلت على عمل بدوام جزئي في معمل للأدوية في تركيا كان يملكه رجل سوري، لأن تكلفة السكن والمعيشة كانت باهظة للغاية.

عند عودتها إلى منزلها جددت أبرار جواز سفرها وأفرغت حسابها المصرفي البالغ عشرة آلاف دولار، والذي كانت قد وفرته من راتبها في الوزارة، وعلى الرغم من أن أبرار أخبرته أن كل شيء على ما يرام، لكن الاستاذ الكبيسي كان يشعر بالقلق، وقد قام بالاتصال بصديق العائلة الذي كانت ابنته تدرس في تركيا أيضا، لكن يبدو أن كل شيء قد تم تفحصه جيدا، ولأن أبرار كانت دائما قوية الإرادة، لم يجدوا سببا لمنعها من المغادرة مرة أخرى.

في ٢٣ تموز، وللمرة الثانية خلال عدة أشهر، ودع الكبيسيون ابنتهم، وهذه المرة طارت أبرار بالفعل إلى تركيا، وبمجرد وصولها إلى إسطنبول فعلت ما فعله المئات من (المسلمين)(*) الأجانب في

(*) استخدمت المؤلفة كلمة مسلمين مرتين للدلالة على الإرهابيين الأجانب، مع أن أولئك المجرمين ليس لهم علاقة بالإسلام سوى بالاسم مثلما تصف المقاتلين لدى

ذلك العام، فقد تسللت إلى حافلة متجهة إلى منطقة غازي عنتاب على طول الحدود السورية، وجندت مهربين لنقلها إلى مدينة الرقة عاصمة داعش في تلك البلاد، ولدهشتها كان الترحيب الذي تلقته هناك باردا ويميل إلى العدائية، ولأول مرة منذ سنوات تساءلت أبرار في نفسها عما إذا ارتكبت خطأً، فبدلاً من الاحترام والتفاهم الذي حظيت به من قبل رفاقها العراقيين، كانت الوحدة التابعة لداعش في الرقة متغطرسة ومشبوهة.

لقد قدمت لها أذونات ودعوات من قبل أكبر أعضاء الخلافة احتراما مثل أبي نبيل وقائد منطقة القائم، لكن ذلك لم يكن يعني شيئا لدى السوريين، وتم تعيين حارسة لها من شرطة الحسبة التي تعتبر بمثابة شرطة الآداب لدى داعش، وتم إرسالها إلى أحد مساكن النساء التابعة لداعش، حيث بقيت معزولة عن الإنترنت وعن هاتفها لمدة ٤٥ يوما. لم تكن أبرار تعرف أبدا سبب احتجازها، سواء أكان يشتبه بكونها جاسوسة أجنبية، أو ما إذا كان القسم السوري من داعش ببساطة أكثر ضعفا من الجانب العراقي، وإذا كان حراسها يعتقدون أنهم يكسرون إرادتها فهم مخطئون، فقد كانت تحب أن تكون بمفردها، وحيدة مع دفاترها وأبحاثها، ومع وقت لمراجعة عملها العلمي والتفكير في طرق جديدة لتصنيع السموم القوية، وفي النهاية جاءها أحد حراس شرطة الحسبة وأبلغها أنها ستنتقل إلى

داعش بالجهاديين للإساءة إلى كلمة الجهاد التي حرفت عن معناها، وهذا من واقع الإيحاء والدس في الصحافة الأجنبية، وقد أبقينا على التسمية بين قوسين حرصا على أمانة الترجمة.

الموصل في اليوم التالي.

كانت السيارة التي تقلها عبارة عن حافلة صغيرة بيضاء، تشبه تلك التي تنقل الركاب في شوارع بغداد، وهي مليئة بالركاب من النساء، والواقع كانت الظاهرة غريبة، حيث القيادة على طريق مع غريبات كلٌّ منهن مخفيات بنقاب أسود من الرأس حتى أخمص القدم، كن جميعهن في منطقة داعش لفترة كافية حتى يتعرفن على القواعد، وممنوع عليهن الكلام حتى لا تغري أصواتهن المحاربين الذكور عن عملهم، ولا يمكن الكشف عن أي قطعة لحم من أجسادهن لنفس السبب، لذا كن يجلسن ساعة بعد ساعة في مؤخرة الحافلة، وأيديهن مغطاة بقفازات سوداء سميكة، ومحمصات مثل الدجاج في بداية حرارة الصيف.

وعلى عكس أبرار، كانت بقية النساء الذاهبات معها إلى العراق كعرائس للمقاتلين هناك، وعلى الرغم من قانون الصمت، كانت النساء في مؤخرة الحافلة مع أبرار يتهامسن فيما بينهن، فبعضهن كن يدعُون والبعض الآخر يثرثرن، فيما كان البعض منهن يغمزنها بالكلام لمعرفة ما تفعله أبرار في ما يسمى بالخلافة، وقد تذكرت أبرار ما قاله لها أبو نبيل دائما إن عليها أن لا تثق بأحد، فلم يكن لديها أي فكرة عن نوعية النساء اللواتي كن تحت كل الطبقات من الملابس، فربما كان هذا نوعا من الاختبار النهائي قبل أن تصل إلى الموصل، لذلك لم تتفوَّه بأي كلمة، مع أن رحلتها كانت على وشك الانتهاء.

في العاشر من أيلول وقد تجاوزت درجة الحرارة ١٠٠ فهرنهايت

(حوالي ٣٧ درجة مئوية)(*) عند الساعة العاشرة صباحا، توغلت حافة أبرار في داخل الموصل، وتم اصطحابها على الفور إلى منزل أرملة عراقية وابنتيها المراهقتين واللتين قتل والدهما (الجهادي) في الصيف الماضي، حيث أفرغت أبرار حقيبتها واستعدت للانتظار الطويل. لقد شعرت بأنه كان من الغريب أن تكون في عالم مألوف، ومع ذلك يبدو مختلفا جدا، فكل من أتى وخرج من المنزل كان يتحدث باللهجة المحلية العراقية، لكن النساء كن يتصرَّفن وكأنهن نشأن على كوكب آخر، وليس في البلد الذي تعرفه أبرار.

كانت أم سارة الأرملة قد تزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وبالكاد أنهت دراستها الابتدائية، وكان زوجها معروفا جيدا كعضو في القاعدة منذ عدة سنوات، ونتيجة لذلك كانت تعيش حياة مستورة للغاية، والأشخاص الوحيدون الذين تعرفهم من سكان المدينة البالغ عددهم ٣ مليون نسمة هم أفراد عائلتها فقط، وعلى الرغم من تفاخر خلافة داعش بأن شوارع الموصل أمينة والناس سعداء، فإن أم سارة كانت ترفض الخروج إلا برفقة وليٍّ أمرها.

لقد عاشت في الحي لمدة عقدين وكان زوجها معروفا باسم شهيد القضية، لكنها ظلت تشعر بالقلق من أن عصابات الشرطة الدينية الجوالة ربما تضايقها أو تضربها حتى داخل المنزل، حيث تنتمي، فقد كانت تمتثل لقيود تعاليم داعش، وأجبرت بناتها وأبرار على تغطية

(*) كتبت المؤلفة ١٠٠ درجة في النص الأصلي، ولأنه من غير المعقول ذلك الرقم فأغلب الظن أنها تقصد ١٠٠ درجة فهرنهايت والتي تعادل ٣٧ درجة مئوية.

شعورهن، على الرغم من أنه لم يكن هناك رجل موجود كي يراهن، ولم يكن لديها هاتف، ناهيك عن التلفاز والحاسوب في المنزل. وكانت الأخبار الوحيدة التي تأتي من العالم الخارجي من اخ ام سارة عندما يجلب الطعام والبقالة.

لقد نشأت أبرار في بغداد، وكانت تعتبر نفسها متدينة، لكنها لم تكن تتورع عن التجول في المدينة سواء سيرا على الأقدام أو في سيارة أجرة يقودها رجل من غير عائلتها أو أقاربها، ولم ترَ أن هناك خطأً في أن تدرس المرأة العلوم أو تشارك في نقاشات دينية عبر الإنترنت مع مجموعة من الغرباء، فقد منحها الله عقلا واعتبرت أن إرادته أن تستخدمه، لكنها في الموصل كانت تشعر بالقيود في كل منعطف، وحينما وصلها الخبر بأن مسؤول برامج الأسلحة الكيمياوية في داعش سيقابلها، تصورت أنه سيتم نقلها إلى المختبرات في الجامعة حيث كانت تعلم أن العلماء هناك يقومون بالأبحاث، واعتقدت أنه ستتاح لها الفرصة لمناقشة بحثها في بيئة مهنية لمنشأة أبحاث، حيث الناس يرتدون المعاطف المختبرية البيضاء ويتحدثون بلغتها الأكاديمية، لكن بدلا من ذلك، جاء الرجل إلى بيت أم حارث، وقدم نفسه كمسؤول برنامج الأسلحة الكيمياوية لداعش، وهو رجل عراقي متكلف يدعى أبا رويدة.

جلس القيادي في مجلس العائلة على وسادة عميقة على الأرض ثم نصب شقيق أم سارة حاجزا خشبيًا في منتصف الغرفة، وعندها فقط تم دعوة أبرار إلى الحضور، كان أبو رويدة سلفيًا جهاديًا حقيقيًا، وقد

رفض النظر إلى امرأة ليست من أقاربه وأصر على أن يقوم شقيق أم سارة بتقديم الشاي له حفاظا على السياسات الصارمة للفصل بين الجنسين التي يتبناها تنظيم داعش.

هكذا بعد كل استعداداتها وترقبها، وجدت أبرار نفسها مرتدية رداء من البوليستر الأسود من الرأس حتى أخمص القدمين وفي حجاب كامل للوجه، وتتحدث عبر حاجز مع الرجل الذي سيقرر قبولها أو عدم قبولها في صفوف فريق أبحاث أسلحة الخلافة، وبدلا من مناقشة أمجاد الإنجاز العلمي، كان الشيء الوحيد الذي يثير اهتمام أبي رويدة هو العدد الأقصى للوفيات التي يمكن أن يسببه الهجوم بمادة الـ (ريسين).

لقد استمر أبو رويدة بالقول: «أختي لقد شاء الله أن نغلب الكافرين ونطهر هذه الأرض، وسيكون العلم سلاحا نستخدمه ببراعة لهذا الغرض فقط». لم تكن أبرار متاكدة من كيفية تقديم أفكارها، فمن الواضح أنها ستكون معركة شاقة لجعل هذا الرجل يحترم أي شيء تقوله.

لقد كسر الصمت المخيم بالغرفة بصوت رنين هاتف وهي عبارة عن ابتهالات قرآنية يفضلها تنظيم داعش، وبدا أبو رويدة يتحدث على الجانب الآخر من الحاجز، فمن الواضح أن قيود الاتصالات لم تكن تنطبق عليه، ومع ثرثرة المكالمة أصبح من الواضح لأبرار أنه ليس لديه أي اهتمام بها، وعندما عاد الصمت والهدوء مرة ثانية، قدمت أبرار لأبي رويدة نفس البرنامج التعليمي الذي فازت به

على الرجال وقدمتـه في القائم. لقد أخبرته كيف يمكن حصاد نبات طبيعـي فطري في العراق وتنقيته إلى مستويات سـامة وكيف يمكن للحقـن أو الـرش المركـز أن يتسبب بقتل العشرات مـن الناس على الفور.

بـدا القيـادي أبو رويدة غـير مهتم قائلا لها:» أختـي، إن الله أمرنا بقتـل المئات وليس العشرات، مـاذا يمكننا أن نفعـل لإحداث دمار شـامل؟ هـذا مـا نريـد معرفتـه. سـألت أبـرار فيـما إذا كان بإمكانها التحدث إلى العلماء الآخرين، ومعرفة المواد والمركَّبات التي يمكنهم الوصـول إليها، قائلة «عند ذلك فقـط، يمكنها أن تقدم تقريرا حول الأسلحة الكيميائية التي يمكن تصنيعها».

ردًّا على ذلك، فإن كل ما سمعته كان صوت نخر عميق، يبدو أن أبا رويدة قد وقف أو نهض من على الوسائد التي كانت تصطف على الجدار مـن الجانب الآخر مـن الحاجز، ولم تكن تعرف مـا إذا كانت هـذه هـي طريقته في رفض طلبهـا، أو مجرد صوت يصـدره رجل في مكانته حينما يكون مستعدا لمغادرة الغرفة.

بعد أسـبوعين حصلت على الإجابة، ولو أنها لم تكن الإجابة التي تأمـل فيها، فقـد أمرت بالعودة إلى القائم لمسـاعدة منشـأة على إنتاج الأسـلحة هناك، ولم يسـمح لها بدخول مختبرات الجامعة أبدا بعد كل شيء.

سافرت أبرار إلى الرقة مجددا ومن ثم إلى تركيا، فقد تحطم حلمها، وعندما عبرت الحدود إلى منطقة غازي عنتاب، كان الوقت في أواخر

شـهر تشرين الثاني، وكانت رياح الخريف تحمل لسـعة من البرد، ولم تعـد الملابس الصيفية التـي كانت قد حزمتها معها مـن بغداد كافية، لكـن أبـرار لم تتذكـر شـعورها بالـبرد، فبمجـرد وصولهـا إلى المدينة التركيـة هرعت إلى أقرب مقهى للإنترنـت، وهو أول دخول لها على الإنترنت تحصل عليه بعد مغادرتها إلى الخلافة منذ ثلاثة أشهر تقريبا، قامت بتسجيل الدخول إلى غرف الدردشة القديمة الخاصة بها، فهي بحاجة ماسـة إلى معرفة أخبـار أصدقائها عبر الإنترنت، بالخصوص أرادت أن تسـأل مرشـدها أبـا نبيل الذي وجهها إلى هـذه النقطة، ما الذي يجب أن تفعله بعد ذلك، لكن قلبها غرق بالحزن عندما لم ترَ أي رسـائل جديدة من مرشدها، وفي الواقع لم تكن هناك أي علامة على وجوده على الإنترنت، ولم يكن أيٌّ من أسـمائه المسـتعارة نشطا في أي منتدى من منتديات المناقشـة على مواقع التواصل الاجتماعي العادية لأسـابيع، ثـم قامت أبرار بتفحـص أخبار داعـش وذهبت إلى موقع تويـتر لمعرفـة ما إذا كانت هنـاك أي أخبار عنه، فـلا يمكن أن يختفي تماما كما تعتقد، ثم رأت منشورا، كان تأبينا مزهرا الرجل وصف بأنه (أسـد الجهـاد)، فقد قتـل أبو نبيل يـوم ١٥ تشرين الثـاني الماضي في هجـوم جوي بغارة أمريكية في ليبيـا، وقد وصف تأبين داعش كيف تم إرسال القيادي العراقي إلى الدولة الواقعة في شمال إفريقيا لإنشاء فرع للتنظيم هناك، وقبل مغادرته لم يكلف نفسه حتى ليقول وداعا.

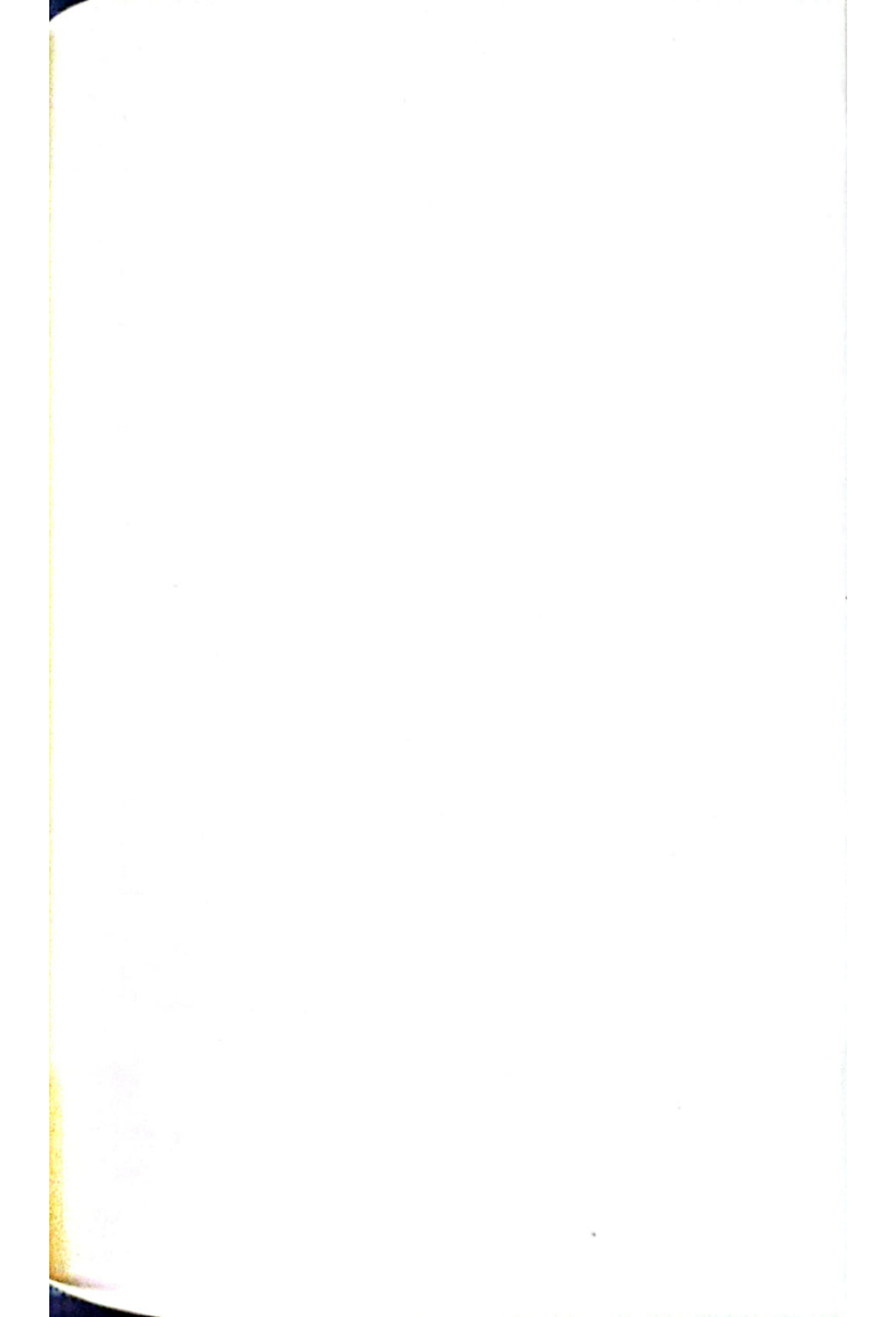
لقـد أمضت أبرار الأيام القليلة التاليـة وحيدة في غرفتها بالفندق في مدينة غازي عنتاب، وهي تدعو بالهداية، فهي لم تكن تريد العودة إلى حياتهـا القديمـة في بغداد في ظـل الحكومة الفاسـدة، وإذا عادت

إلى القائم فستجد نفسها مثقلة بكل أنواع القيود، قد تكون قادرة على إجراء أبحاثها بمفردها هناك، لكن رجال القبائل من ذلك الجزء من العراق لم يحترموا المرأة العالمة، وبالتأكيد، بمرور الوقت سوف يجبرونها على الزواج وإنجاب الأطفال، مثل أي زوجة مطيعة لداعش، ولذلك فكرت في أن الخيار الوحيد المتبقي، هو أن تظهر للعالم ما تستطيع أن تفعله، وكانت تخطط للقيام بهجوم خاص بها، حيث أدركت أن الأمر قد يستغرق شهورا من التنظيم، وستحتاج إلى المزيد من المواد الخام ومختبر، وهي المواد التي أصبح الحصول عليها في بغداد صعبا بعد أن فقدت وظيفتها.

كان صندوق البريد الإلكتروني الخاص بها مليئا بالرسائل من إخوتها وهم متلهفون للحصول على أخبار جديدة عنها حتى يتمكنوا من طمأنة والديها بأنها بأمان.

ذات صباح، وبينما كانت تسير من فندقها إلى مقهى الإنترنت وهي تنوي الرد أخيرا على توسلاتهم، لاحظت أبرار إعلانًا من شركة أدوية تركية تبحث عن عمال لديهم خلفية علمية، وكان الإعلان مكتوبًا باللغة العربية - على ما يبدو يستهدف آلاف السوريين المتعلمين جيدًا الذين اجتاحوا المدينة التركية هربًا من الحرب في وطنهم.

كتبت أبرار عند ذلك رسالة موجزة إلى المنزل قالت فيها «أخبروا بابا وماما بأنني بخير ولديَّ وظيفة في مصنع أدوية وأدرس بجد».



الفصل الرابع عشر

الحرب تهاجم الوطن


@BLOG_BIB

كان الضياء الأول في مدينة الصدر مشرقا بلون برتقالي خوخي ناعم بشكل لافت، وحرارته تنتشر عبر هواء الصباح المليء بالغبار والرطوبة، وكان اليوم هو الخميس ١٣ من آب، وأم حارث لم تستطع النوم جيدا على سريرها الخشبي المؤقت على سطح المنزل في حرارة بغداد الخانقة، فلم يكن أحد يتذكر متى انخفضت درجة الحرارة أقل من ١٠٠ درجة فهرنهايت (نحو ٣٧) درجة، أو آخر مرة هطلت فيها الأمطار.

لقد كانت البلاد في حالة حرب مع تنظيم داعش لمدة عام، لكن في صيف عام ٢٠١٥ لم تكن الحرب على الإرهاب هي التي أزعجت العراقيين في بغداد، فقد كان ارتفاع درجات الحرارة على رأس شكاويهم الكثيرة، فيما كانت الكهرباء قليلة للغاية، والاثرياء فقط من يستطيعون النوم ليلا بشكل جيد تحت ضجيج المراوح السقفية او وحدات التكييف التي تعمل على المولدات، لذا كان معظم سكان العاصمة البالغ عددهم أربعة ملايين نسمة يستيقظون وهم متعرقون ونزقون.

في مدينة الصدر كان لدى الناس أسباب للشكوى أكثر من غيرهم، فلم يكن الأمر أن درجات الحرارة في الصيف ليست لا تطاق فحسب، بل أيضا ما يقدر بنحو ٣٠ بالمائة من شباب المدينة كانوا على الخطوط الأمامية، إما مع القوات العراقية النظامية أو المليشيات الشيعية التي حشدت للقتال ضد المتطرفين السنة.

وبينما كان أبناء مدينة الصدر يقاتلون ويقتلون من أجل تحرير

العراق، كانت العائلات تكافح لتغطية نفقاتهم، سوق جميلة المفتوح للهواء الطلق كان يبعد ميلين فقط عن منزل عائلة السوداني، ويعد الدعامة الأساسية لسكان مدينة الصدر، الذين يعيشون من راتب إلى راتب أو انتظار رواتبهم الحكومية الشهرية، وعلى عكس محلات السوبر ماركت الحديثة التي تنتشر في الأحياء الأكثر عصرية من بغداد، كان يمكن للسكان المساومة والشراء بالجملة، وبما أن سوق جميلة يفتح في وقت مبكر جدًّا، بعد صلاة الفجر مباشرة، لذا يمكن للمتسوقين العودة إلى منازلهم في وقت مبكر قبل فترة الحر الطويلة.

لقد دفعت هذه الفكرة أم حارث إلى التقلب على حصيرة نومها ووقفت ببطء لتتفحص ركبتيها المصابتين بالتهاب المفاصل، ثم تفوهت بصلاة شكر قصيرة وهي تشق طريقها عبر أحفادها النائمين باتجاه السلم، وفي طريقها لكزت مؤمل اكبر ابناء حارث، كانت وظيفتها كأمٍّ حاكمة في بيت السوداني تحضير شاي الصباح، أما وظيفته كابن أكبر غير متزوج هو الجري إلى السوق لشراء الخبز الذي يأكله الجميع على الفطور.

تذكرت أم حارث كم أن الشوارع ما زالت هادئة في ذلك الصباح، فقامت بفتح جميع الأبواب والنوافذ على أمل دخول بعض النسمات الباردة والمساعدة في تبريد الطابق الأرضي، حيث سيجتمع كل الأشخاص الستة عشر الموجودين في البيت قريبا لتناول الفطور، ثم سمعت زوجات أبنائها وهن يهدهدن الأطفال في أثناء تغيير حفاظاتهم، وحفيداتها وهن يتشاجرن على السطح وهن يطوين

الملاءات، وسرعان ما توغل طفلان صغيران إلى المطبخ حيث كانت تضع أكواب الشاي والسكر في صواني الفطور. كانت أم حارث تصب الماء المغلي على طبقة سميكة من أوراق الشاي في (الكتلي)(*) حينما شعرت بهزة تحت قدميها، فيما شعرت الفتيات على السطح بضربة من الهواء على وجوههن يشبه اللكمة، فاستدرن غربا باتجاه مصدر موجة الضربة حيث شاهدن عمودا هائلا من الدخان الأسود يتصاعد إلى السماء على بعد ميل واحد.

لقد اكتسب سكان بغداد في سن معينة من الذين عاشوا خلال فترة التمرد في فترة العقد الأول من القرن الحالي مهارة حياة رهيبة غير عادية، فلديهم أذن مثالية لتحديد الانفجارات، سواء أكانت جلجلة تحطم عظام سيارة ملغومة، أو صفير قذائف الهاون القادمة، أو الفرقعة الجليدية لبناية مسلحة تنهار من الغضب المكثف لمفجر انتحاري، لهذا السبب لم تكن النساء في بيت السوداني بحاجة لفتح التلفاز أو الراديو لمعرفة أن شاحنة ملغومة انفجرت في مكان ما من مدينة الصدر.

لقد كن على حق، ففي وقت سابق من ذلك الصباح، وبينما كانت سماء الليل ما تزال سوداء داكنة، قاد رجل حليق الذقن يرتدي دشداشة بيضاء شاحنته عبر العاصمة متوجها إلى منطقة حي جميلة الشيعية، مارًّا بالعديد من نقاط التفتيش الأمنية دون أن يكلف أي

(*) (الكتلي) أو إبريق الشاي يستخدم تقريبا بنفس تسميته الإنكليزية في العراق (kettle). المترجم

جندي نفسه عناء التحقق مما كان يقوم بنقله.

وصل أصحاب المحلات الصغيرة التي تؤطر السوق عند الفجر لفتح أقفالهم المعدنية المسننة وأبوابهم الحديدية الخضراء، ولم يلاحظوا الغريب ولا شاحنته البيضاء والتي تشبه عشرات السيارات التي تظهر في السوق ومليئة بالخضار المعد للبيع، فيما قال المتواجدون عند السوق للشرطة إنهم لم يروا السائق أو الشاحنة قبل ذلك الصباح.

بدأ السوق يمتلئ بالمتبضعين بعد أن أذن المؤذن لصلاة الصبح، وكان الهواء مليئًا بروائح البقدونس الطازجة المغسولة والكمون المقلي، وفي نحو الساعة السادسة بدأ السائق ببيع بضاعته وهو ينادي بصوت عال معلنا عن طماطته الرخيصة واللذيذة، وحينما اصطف حشد الناس من حوله قام بتفجير شاحنته الملغومة فتطايرت أجساد البشر وتناثرت على أسطح المنازل وعلى الشارع بعيدا، أما الأشلاء المقطوعة فذهبت إلى مسافة أبعد من ذلك، فقد كان حجم الانفجار يقدر بنصف حجم انفجار الشاحنة الملغومة في مدينة أوكلاهوما سيتي.

في منزل السوداني قدمت أم حارث صلاة صامتة من أجل النساء اللواتي سيندبن قريبا أحباءهن الذين قتلوا في الانفجار، كان رأسها ما يزال ثقيلا من النوم، لكن ضجيج ستة أطفال صغار كانوا يتوسلون لتناول وجبة الفطور انتزعها من أفكارها، فقد أدركت فجأة أن مؤملًا لم يكن في المنزل مع خبزهم، وفكرت، يا إلهي لقد أرسلته إلى السوق، فبدأ قلبها يخفق وصرخت، مرسلة موجة جديدة

من الصدمة عبر المنزل، أين مؤمل؟ الأطفال الذين لم يصرخوا بدؤوا بذلك وقد صدموا بصراخ جدتهم، نزل ثلاثة من إخوة حارث وهم يركضون مسرعين من الدرج متأثرين بالذعر في صوت والدتهم، وكانت رغد زوجة حارث خلفهم مباشرة.

لقد أرسلته إلى جميلة، كررت أم حارث، وصوتها يرتفع من الخوف، فعضَّت رغد جزءًا من قبضتها كي لا تصرخ، رغم أن كل عصب في جسدها كان يرتعش، ويحثها على التحرك، فلم تكن تستطيع الجري في الشارع للبحث عن ابنها، فقد كان من غير اللائق أن تظهر المرأة المتزوجة في الأماكن العامة، خاصة بثوبها المنزلي بغض النظر عن الأسباب.

بدلا من ذلك، بدأت رغد تتفحص وجوه الأسرة المجتمعة، فلم يكن حارث ولا مناف في البيت، وقد افترضت رغد أن زوجها قد قضى واجبه الليلي في مقر الصقور، وهو أمر أصبح روتينيًّا منذ أن تم تجنيده قبل عام تقريبا، وفي غيابهما كانت تنظر في عيني منذر أصغر أخوة السوداني، والذي كان آخر من نزل إلى الطابق الأرضي وهو يمطِّي ذراعيه النحيلتين على رأسه كما لو أنه غير مهتم بما يجري في العالم.

لقد أمضى هذا الشاب البالغ عمره ٢٠ عاما بتفاؤل الشباب المعتد بنفسه والذين لا يعرفون الانزعاج، ففي منزل مليء بالنساء، كان منذر بعينيه البنيتين الدافئتين وأنفه المعقوف، لديه دائما من يجلب له الشاي ويطبخ طعامه ويغسل ملابسه. كان أسلوب تربية الأطفال

قـد أصبح قديما إلى حد كبير حينما قدم هذا الطفل إلى الأسرة، واتفق الجميع على أنه كان مدللا، لكن إحساسه بالاستحقاق لم ينضج إلى مستوى الغرور وطبيعته الطيبة كانت دائما تساعد في تهدئة الحالة المزاجية.

لقد كانت رغد سعيدة ذات مرة بأن العمَّ منذر كان يحب الدلال في المنزل، لأن ذلك يعني أنه سيكون موجودا مع مؤمل حينما يكون والده غائبا، ولذا هرعت أم حارث ورغد إلى الشاب، وخرج منذر مسرعا من المنزل دون أن يعاد الكلام عليه مرتين. وكما يطير العندليب بعيدا(*)، يقع سوق جميلة على بعد عشر دقائق من منزل السوداني، أما سيرا على الأقدام فقد استغرقت ضعف طولها في ذلك الصباح، فقد ركض منذر بأسرع ما يستطيع عبر الأزقة السكنية الضيقة، مارا بالمنزل المسكون ومحل تصليح السيارات الذي يملكه أصدقاء والده، وكلما مرَّ على وجه مألوف صرخ به هل رأيت مؤملًا؟

كان الدخان يتصاعد بسحابة سوداء زيتية ورائحة زيت الوقود الكريهة تعلق بشكل ثقيل في الجو، وبالقرب من السوق كانت الطرق مليئة بجيش من الرجال القلقين الذين مثل عائلة السوداني لديهم أقارب في السوق في ذلك الصباح. اندمجت صرخات الجرحى بصفارات سيارات الإسعاف، وتجاوز منذر طوق الشرطة، محاولا السير مع العوائل المتهسترة عبر شارع السوق المدمر، فضاع هيكله النحيف في وسط فوضى الأجساد، ففي أثناء تحركه في الشارع ظن

(*) إشارة إلى قصيدة (نشيد إلى العندليب) الشهيرة لـ جون كيتس. المترجم

كما لو أنه دخل الجحيم، بينما كان يحاول تجنب برك الدم الكثيفة والأطراف المقطوعة، وسار عبر جثث متفحمة ومجموعة من الرجال الملطخة خدودهم ولحاهم بالدماء، ولم يتعرف منذر على الفرق بين أحشاء الذبائح المعروضة للبيع في أكشاك الجزارين وأجزاء الأجساد البشرية المتناثرة عبر الشارع الضيق. بعد لحظات قليلة في الدمار والفوضى، أدرك منذر أن من المستحيل أن يجد مؤملًا هنا، كان بحاجة للاتصال بحارث ومناف وإخبارهما بما حدث، وحيث وقف منذر كان طعم الدخان الناتج عن احتراق البلاستيك وزيت الوقود يبدو مثل نهاية كل شيء.

لقد مر عام منذ انتخاب رئيس الوزراء حيدر العبادي، لكن أبا علي وصقوره لم يحرزوا تقدما كثيرا في اختراق صفوف تنظيم داعش، وفي الواقع فإن الحرب كلها كانت تشن بمساعدة ثلاثة آلاف عسكري أمريكي وألف عسكري إضافي من القوات الدولية(*)

(*) تتجاهل المؤلفة هنا وبشكل متعمد الدور الذي لعبه الحشد الشعبي وفتوى الجهاد الكفائي التي أصدرها المرجع الديني السيد علي السيستاني منذ ١٣ حزيران من عام ٢٠١٤، والتي دفعت بعشرات الآلاف من المتطوعين لقتال تنظيم داعش الإرهابي. الوقت الذي تتحدث عنه وهو عام ٢٠١٥ كان الحشد يخوض المعارك في الفلوجة والرمادي إلى جانب قوات الشرطة والجيش العراقي، كما كانت هناك معركة لبيك يا رسول الله الثانية والتي انتهت يوم ١٤ تشرين الأول من عام ٢٠١٥ وبمساعدة العشائر السنية المنتفضة على الإرهاب بتحرير قضاء بيجي في محافظة صلاح الدين بالكامل من سيطرة داعش، الحشد الشعبي العراقي قوة ضمت الآلاف من مختلف الديانات والقوميات كالمسيحيين والتركمان والأكراد، وفي الوقت الذي ادعت فيه المؤلفة أنها تحاول أن تروي بطولات العراقيين في مقدمتها لكنها هنا تصادر تماما جهود أكثر من ١٦٠ ألف مقاتل عراقي ضحوا بأرواحهم من أجل بلادهم وكأنهم

بينما كانت القوات المسلحة العراقية المعاد تشكيلها في حالة شلل وفقا للجنرال راي أوديرنو، رئيس أركان الجيش الأمريكي والقائد السابق للقوات الأمريكية في العراق.

إذا لم يكن التهديد الوجودي للجماعة الارهابية رهيبا بما يكفي، فإن طاقم العبادي كان يصارع أيضا مع كارثة مالية تلوح في الأفق، فقد كانوا يكافحون من أجل دفع الرواتب الحكومية شهرا بعد شهر، ناهيك عن شراء الأسلحة والذخيرة والمواد الغذائية التي يحتاجها الجيش العراقي للاستمرار في القتال يوميًا، كان العراق عاجزا تماما ورئيس الوزراء بحاجة ماسة إلى أخبار جيدة.

في غضون ذلك، لم يربح أبو علي وصقوره سوى بضع ياردات في الماراثون لبناء شبكة من الجواسيس خلف خطوط العدو، أي الأشخاص الموثوقون الذين يمكنهم إخبارهم بما تخطط له داعش ومتى وكيف ستضرب بعد ذلك، فقد كان أبو علي لا يزال مقتنعا أنه بحاجة إلى رجل داخل المجموعة المتشددة لإحراز تقدم، لكنه لم يقدر على أن يأمر أحدًا من رجاله بما قد يكون مهمة مستحيلة، بل كان يسعى إلى أحد يتطوع للقيام بها.

حينما رن هاتف حارث في صباح ذلك الخميس، كان هو ومناف نائمين بعد ليلة عمل عادية في مقر الصقور، فقد كانا قد عملا حتى ساعات الصباح الأولى في عمليات تفحص دقيق في مجموعات

غير موجودين، قد تمرر المؤلفة كذبتها على القارئ الغربي الذي لا يعرف شيئا لكن ذلك لن يمر على العراقيين.

الدردشة عبر الإنترنت، وكان الأخوان يغفوان في مقر الصقور والستائر مسدلة على النوافذ لمنع أشعة شمس الصيف، والممرات خارج المكاتب فارغة، لأن الوجبة الصباحية لم تكن قد وصلت بعد إلى العمل، حارث ومناف ينامان على الأصوات المألوفة للأذان، لذلك اخترق الصوت القوي للمغنية اللبنانية الشهيرة نانسي عجرم ضباب النوم، فقد كان منذر على الخط.

- أخي أين أنت؟ هل سمعت بالأخبار؟

- كلا منذر، ما الذي حدث؟ هل والدانا بخير؟

- حارث شغل التلفاز، لقد تعرضت جميلة للتفجير، والشوارع تتدفق بالدماء

- يا خرا، قال حارث وسرعان ما جلس على الأريكة، ووضع أكوابًا ورقية سكب فيها شايا باردا وأغلفة الحلويات على الأرض.

- منذر، تكلم ما الذي حصل، لا أستطيع الوصول إلى جهاز التحكم، ما الذي يجري؟

- أخي إنسَ ذلك وأنصت إليَّ، أنا في السوق، محاط بالجثث، ولم يستطع أحد إيجاد ابنك، هل تسمعني حارث؟ تعال إلى المنزل، فمؤمل مفقود الآن!

- ما الذي تقوله بحق الجحيم؟ أين مؤمل؟ ما الذي فعلته والدته معه؟ ما الذي يجري؟، ركل حارث منافًا ليوقظه، ثم قام

بتمرير الهاتف إلى أخيه وهو يندفع بحثا عن جهاز التحكم ليشغل التلفاز، تذكر مناف لاحقا أنه كان يجهد نفسه لسماع صوت أخيه الأصغر وسط نشاز صفارات سيارات الإسعاف في خلفية الحديث عبر الهاتف، فقد كان صوت منذر يأتي أعلى وأرفع من الطبيعي، مستمرا في تكرار قوله، أخي حاول أن تجد أين يتم نقل الجرحى، إنها فوضى ونحن بحاجة للعثور على مؤمل، إنه مفقود.

نظر مناف إلى حارث ووجهه مزرق من انعكاس توهج شاشة التلفاز، وكانت الشاشة تظهر تقريرًا حيًّا من مدينة الصدر يظهر المباني المألوفة المنخفضة في سوق جميلة، كانت الجدران مقطعة مثل شرائح البطيخ الناضج من الانفجار، متقيئة بالجثث المحترقة والمركبات المحطمة، وكان الرجال يكافحون لنقل صرر ثقيلة سوداء من الشارع، وكان مناف يرى من خلال شرائط الجينز الممزقة وقطع القطن الملونة أن تلك الصرر التي لا يمكن التعرف عليها كانت أجساما بشرية، لقد تحول وجه حارث المتهالك بالفعل من قلة النوم إلى اللون الرمادي، وكانت عيناه ذواتا اللون البندقي غير مركزتين، وبدا وكأنه مصاب بالدوار، فقال له مناف: حارث تحرك! لنذهب إلى مدينة الصدر فنحن بحاجة للعثور على ابنك.

قاد مناف سيارته مع حارث عائدين إلى مدينة الصدر بأسرع ما يمكن في ساعة الذروة الصباحية لحركة المرور، وقام بمناورة بسيارته حول الحافلات الصغيرة التي جلبت الطلبة والطاقم الطبي

إلى المستشفى التعليمي، وتجاوز صفوف السيارات المتجهة إلى العمل على الممرات اليمنى باتجاه وزارة النفط، وكان الجسر الممتد على القناة الجافة بين بغداد ومدينة الصدر مزدحما بسيارات الإسعاف، وشاحنات سوداء صغيرة مطلية بشارة جيش المهدي، المليشيا المحلية لمدينة الصدر.

لقد أصبح الهاتف الخلوي الأسود من نوع سامسونغ لمناف ساخنا عند لمسه من مكالماته المتواصلة، فقد كان هو وحارث في أمس الحاجة لمعرفة أخبار عن الضحايا، لكن الفوضى أدت إلى عدم وجود مركز لتبادل المعلومات، لذا لجأ مناف إلى ما يفعله كل العراقيين بشكل غريزي، ليستخدم الواسطة، فقام بالاتصال بكل من يعرفهم في أكاديمية الشرطة، واتصل بكل زملائه الذين يعملون في واجب الطوارئ في مدينة الصدر في ذلك الصباح، وسألهم عما إذا كانوا يعلمون أي شيء عن الصبيان المراهقين الذين تم أخذهم إلى غرف الطوارئ في المنطقة أو إلى الطب العدلي.

في الساعة التي استغرقها مناف لقيادة سيارته من وزارة الداخلية إلى سوق جميلة، لم يعرف شيئا ذا أهمية، فلا قوائم للجرحى تم تجميعها، وقد تم استدعاء جميع عمال الطوارئ المتوفرين للعمل، لكن أولويَّتهم كانت إنقاذ الأرواح وليس تحديد هوية الموتى.

أوقف مناف سيارته من نوع هيونداي سيدان بيضاء على الرصيف بالقرب من السوق وسلم الهاتف منزعجا إلى حارث الذي ظل هادئا بشكل غير معتاد في مقعد الراكب، وكانت عيناه حزينتين ومنعزلتين

تماما، ولم ير مناف أخاه جزعا إلى هذا الحد منذ اليوم الذي علمت فيه العائلة برسوبه في الجامعة، فقال له: حارث لملم نفسك واتصل بمنذر ربما لديه ما هو جديد، سأعود بعد عشر دقائق. قفز مناف من السيارة وركض مهرولا باتجاه موقع القنبلة.

كان الهواء المليء بالدخان مختنقا برائحة اللحم البشري المحترق، وهوية الشرطة في يده، مندفعا في وسط مجموعات من الرجال الباكين، ومر بثلاث سيارات إسعاف وألقى نظرة خاطفة في كلٍّ منها، وشاهد ملاءات ملطخة بالدماء، فقد كانت الطواقم الطبية في رحلتها الثالثة ذهابا وإيابا من المستشفى إلى مكان الانفجار، وقد اقترحوا عليه أن يذهب إلى مستشفى الإمام علي، حيث يتم جمع قوائم بأسماء القتلى.

كانت المجزرة أسوأ مما يمكن تصوره، وعندما عاد إلى السيارة لم يكن متأكدا مما تم إخبار أخيه به، فعندما وصل رأى حارثًا ينقر بأصابعه على حافة النافذة، فقد كان هذا أكثر ما قام به من حركة طوال الصباح، فقال لأخيه صائحا: مناف قد بنا السيارة إلى المنزل، فقد أخبرنا منذر أن نعود إلى المنزل، ولم أعرف أي شيء آخر لأن هاتفك انتهى شحنه، فاستدار مناف محاولا قيادة الـ» سيدان «إلى المنزل، وهو يلعن ويدفع ذراعه اليسرى خارج النافذة بفارغ الصبر في محاولة لدفع جمع من رجال الشرطة بعيدا عن طريقه، فقد منحته سنوات من ارتداء الزي الرسمي شعورا بأنه لا يقهر.

لكن الشك والريبة في ذلك الصباح أزالت ثقته بنفسه وتركته ضعيفا وغير مستقر. حينما دخل بسيارته في الزقاق الرث أمام منزل

العائلـة، قفـز حارث خارجـا من السـيارة حتى قبل أن يقـوم مناف بإطفاء محرك السـيارة، وركـض عبر المدخل إلى داخـل المنزل، وبعد ثـوانٍ لحق بـه مناف إلى المطبخ، لكن مما يبعث على الارتياح أن مؤملًا كان يقـف هناك وهو يعانق والده والدموع تنهمر على وجهيهما، بينما كانت رغد والنساء الأخريات منفعلات حولهما مثل الطيور الطنانة.

لقـد كانـت ملابس مؤمـل مبقعة بالسـخام لكنـه لم يصب بأذى، وكانـت أم حارث تقـف في زاوية المطبـخ بجانب الفـرن الكهربائي ويداها مرفوعتان في الهواء تشـكر الله على سـلامة حفيدها، ثم سـأل منـاف مؤمـلًا أيـن كان، وأصبح صوته أكثر خشـونة ممـا أراد، أبعد الصبي رأسه عن صدر والده، وعيناه محمرتان وكان يكافح ليجيب، ومـن دون سـابق إنذار تراجع حـارث عن ولده وصفعه على رأسـه قائلا، أجبنا يا بني أين كنت؟ لا يجب أن نشـكر الله بل نلعنك، انظر ماذا فعلت بجدتك!، تدفقت عينا مؤمل مرة أخرى، ولكن ليس من الصفعـة، كما كان يعتقـد مناف، بل من ذاكرة مجـردة ما زالت تحتفظ بمشهد إراقة الدماء القاسي التي شهدها اليوم.

لقـد أخبر الصبي عائلته أنـه كان بالفعل في منتصف طريق عودته إلى المنزل عندما انفجرت القنبلة، لم يكن يعرف السـبب، لكنه شـعر بالحاجـة إلى العـودة ليرى مـا حدث قبل دقائق قليلـة، لذلك عاد إلى المخبز، وشـاهد أنه بدلا من الأعـمال التجارية الصاخبة كانت جثث الزبائن المحترقة متناثرة والدم في كل مكان حوله.

لقـد انهـار الصبي، لم يعـد بإمكانه إكمال الجملـة، وكان هذا كافيا

لكـي تتدخل جدته فقالت أم حارث كفى! الجميع بحاجة إلى شرب الشـاي والركون إلى الهدوء. انضم مؤمل إلى الكبار في غرفة العائلة، واسـتقر كلٌ منهم في مكانه المألوف حول السـفرة، وتم تشغيل تلفاز العائلة الوحيد والمثبت على زاوية الجدار على قناة الشرقية التي كانت تبث بلا توقف مناظر الدماء والأشـلاء على امتداد الشـوارع الرئيسة لسـوق جميلـة، وبحلول المسـاء تم تأكيـد وفاة ٦٧ شـخصا كان ٢٨ منهم مثل مؤمل أطفالا دون سن الخامسة عشرة.

أمـضى أبو علي البـصري فترة ما بعـد الظهر في الممرات المكسـوة بالرخـام في مكتـب رئيس الـوزراء، وهو يتجول بـين اجتماعات مع قـادة سياسـيين غاضبـين وهو يطالبـون بما يطالـب به سـكان مدينة الصـدر، وهـو وقـف الهجمات. لقد شـعر نوعـا ما بالغضـب الذي يعيشـه مسـؤولو مكافحة الإرهاب في جميـع أنحاء العـالم، فلم يكن السياسـيون مهتمين أبدا بالعمل اليومي الشاق اللازم لدرء الهجمات بنجـاح، بل كانوا مهتمين فقط بالتنفيـس عن إحباطهم عند حدوث خطـأ، ولا يعنـي ذلك أن أبا علي يمكـن أن يلومهم على حمام الدم في السـوق، فقد كانت الحرب تمر بفترة حرجـة، فيما كان رئيس الوزراء العبادي بحاجة إلى الروح المعنوية للبقاء في أعلى مستوى ممكن، لكن صور جثث الأطفال المغطاة بأكفان بيضاء في مدينة الصدر لم تسـاعد في هذا الأمر، وقد غدا الرجال الذين توَّجوه كزعيم للعراق يحاولون علانية تشويه سمعته.

لقد شعر رئيس الوزراء العبادي كما لو أنه يعيش نسخة حية من فيلم «عيد جرذ الأرض»(*) الفيلم الذي شاهده منذ عدة سنوات في لندن، ولم يكن قد فهم الكثير من النكات في وقتها، لكنه وبعد أن أصبح زعيما للعراق، غدا لديه تقدير جديد للفكاهة السوداء، وليجد نفسه يترأس نفس الاجتماعات ونفس المشاكل الأمنية مرارا وتكرارا، فلا أحد في العالم، لا المستشارون العسكريون الأمريكان، ولا قادة الأمن العراقيين الذين عينهم العبادي قبل عام واحد قادرين على تقديم البيانات التي يحتاجها الزعيم العراقي، والمتعلقة بأعداد المتطرفين الذين يحاولون تدمير بلاده وقتل مواطنيه، أو الخلايا التي تهدد العاصمة، أو التقييمات الواقعية بشأن التهديد الذي تتعرض له البنية التحتية الحيوية للبلاد ومواقعه الدينية المقدسة.

لقد قام العبادي بقراءة التقارير واحدا تلو الآخر بشأن الموضوع، وكلها كانت تقييمات سرية تعتمد على المراقبة الإلكترونية التي قام بها

(*) عيد جرذ الأرض: هو عيد سنوي يحتفل به في ٢ شباط في الولايات المتحدة وكندا. وفقا لما جاء في المأثورات الشعبية، فإن الفأر يخرج من جحره في هذا اليوم، فإذا كانت السماء مكفهرة ولم يشاهد الفأر ظله على الأرض، فهذا يعني أنه سيغادر جحره ولن يعود إليه، وهذه علامة على انطواء صفحة فصل الشتاء. أما إذا ظل الطقس صاحيا خاليا من الغيوم، وشاهد الفأر ظله، فهذا يعني أنه سوف يخاف من ظله ويلازم جحره لستة أسابيع إضافية، وهذا علامة على أن فصل الشتاء سيبقى مدة ستة أسابيع، أما الفيلم فهو فيلم كوميدي أمريكي بنفس العنوان أنتج سنة ١٩٩٣ بطولة بيل موراي وآندي ماكدويل، يدور الفيلم حول فيل كونورس الذي يعمل مذيعًا تليفزيونيًا للنشرة الجوية، في أثناء تغطيته ليوم عيد جرذ الأرض يجد نفسه يعيد نفس اليوم في كل مرة، وقد أضيف الفيلم عام ٢٠٠٦ إلى السجل القومي للأفلام الأمريكية، باعتبار أنه من الأفلام التي لها تأثير حضاري وثقافي أو جمالي كبير. المترجم.

التحالف الدولي الذي تقوده أمريكا لمحاربة تنظيم داعش، بالإضافة إلى تحليلات نشرها من يسمون بالخبراء في واشنطن ولندن، لكن الزعيم العراقي ترك بقناعة لا تتزعزع هي أن الجميع لا يعرفون عن ماذا يتحدثون.

لقد فهم أبو علي إحباط العبادي، وفي كثير من النواحي شاركه ذلك، فقد برع رجاله في إنتاج تفاصيل دقيقة عن خلايا معينة تابعة لداعش، وفي غضون العام الماضي، اكتسبت الصقور وقوات الأمن العراقية فكرة أوضح عن القوة النسبية للجماعة الإرهابية، لكن هذه النجاحات لن تصل إلى حد كبير عندما يتمكن رجل واحد من اختراق الدفاعات التي وضعها الجيش والشرطة حول العاصمة، ليقود شاحنة ملغومة إلى واحدة من أكثر مناطق الشيعة تأثيرا في بغداد، وقتل أفراد من عائلات الجنود الذين يخاطرون بحياتهم على الخطوط الأمامية.

من الناحية السياسية، كان الهجوم على سوق جميلة محرجا للعبادي؛ لأنه فتح الباب أمام اتهامه بعدم الكفاءة، كما أنه خاطر بفتح جراح الطائفية التي بدأتها مثل هذه الهجمات الإرهابية في المقام الأول.

منذ أن تولى أبو علي منصبه كمدير للأمن لرئيس الوزراء الجديد، شارك في دورات تدريبية كافية، وبعد ساعات من المحادثات مع زملائه الأجانب لفهم المعركة الفلسفية التي تدور رحاها بين المتخصصين في المخابرات منذ أحداث الحادي عشر من أيلول، حيث طرح السؤال، هل التقنية التكنولوجية العالية هي الحل للحرب على

الإرهـاب كما يعتقد الامريكان؟ وهـل يمكن أن يؤدي التنصت على عدد كاف من المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني، أو تصوير عدد كاف من المركبات والمباني بواسطة الأقـمار الصناعية وعلى بعد آلاف الأميال في السماء إلى إيقاف العدو؟.

لقد كان حجم البيانات التـي أنتجها الأمريكان هائلا، ورأى أبو عـلي هـوس زملائه بعـروض (الباوربوينت) المكونـة من مخططات ملونة والرسومات والنتائج القابلة للقياس، كان أبو علي ينظر بحسد إلى الطرق التي استخدمها أولئك البيروقراطيون الماهرون معلوماتهم لتبرير وتوسيع ميزانيتهم التشغيلية، لكن أبا علي لم يكن يخوض حربا عالميـة على الإرهـاب، فقـد كان بحاجة إلى اكتشـاف تفاصيل محددة لهجـمات إرهابيـة محـددة، مثل تحـركات رجـل واحد بقنبلـة واحدة يتجه إلى سـوق مليء بالمزارعين وربات البيوت، أو أين سـيكون قائد كبير لداعش الأسـبوع القابل، ولذلك السبب وجد أبو علي نفسه في أثناء النقاش الاسـتخباري يقف إلى جانب تأكيد الحاجة إلى المصادر البشرية، وليس البيانات الضخمة وسحر التقنيات العالية.

لقـد أدرك أبـو علي من السـنوات التـي قضاهـا في العمل السري ومـن البحث عـن القاعدة في العـراق، أنه في الوقت الـذي يبدو فيه من المهم معرفة من يخطط لمقابلة من، وهو شيء يمكن تتبعه بواسطة طائرة مسيرة أو من خلال تتبع موقع الهاتف عبر تقنية (جي بي أس)، لكـن أفضل نوعية من المعلومات الاسـتخبارية التي يمكن الحصول عليهـا كانت تـأتي من معرفة ما يقولـه الناس داخل تلـك الغرف أو

من التقاط حديث في أثناء الجلوس على مقعد في حديقة، إن وجود مصدر هناك، داخل تلك الغرف إذا كان المصدر جزءا من تلك الحوارات هو المعيار الذهبي الذي أراد تحقيقه.

لقد أبقت الاجتماعات المطولة في المنطقة الخضراء يوم الخميس بعد التفجير أبا علي يعمل حتى بعد منتصف الليل، ثم سار في طريقه إلى سيارته البيضاء من طراز لاند كروزر بانتظار السائق ليقله إلى المنزل لينام بضع ساعات قبل العودة إلى العمل مجددا، وبينما كانا يجوبان شوارع بغداد الخالية، عبر المتاجر المغلقة والمنازل التي كانت تدعو من أجل سلامة أطفالهم، تساءل في نفسه كيف يجد شخصا يمكن أن يدخل إلى عرين الأسد.

في مدينة الصدر، مساء ذلك اليوم، كانت تتفتح غابة كثيفة من خيام الجنائز مثل الحشائش المرّة، وكان منزل السوداني هادئا بشكل غير عادي، حيث الجميع مستغرقون في التفكير أنه كم كانت العائلة محظوظة في خداع الموت. عاد أشقاء حارث من المسجد بأخبار أن جيرانهم لم يحالفهم الحظ، فقد قتل ما لا يقل عن ستة أشخاص تعرفهم العائلة في ذلك اليوم، ووفقا لتقاليد الحي كان الحداد حدثا عاما طويلا، يتم على مرأى ومسمع العائلة والأصدقاء، واجتذبت الطقوس حشدا من الأقارب والأشخاص المرتبطين بشبكات معقدة من العلاقات الاجتماعية والمهنية أو الانتماء إلى حزب سياسي أو دعم من الفريق نفسه.

لم يكن حارث أبدا مشاركا متحمسا في مثل تلك الأحداث،

فدائما ما كانت تلك التجمعات الكبيرة التي تهدف إلى تقديم المواساة تـؤدي إلى ثرثـرة عـن الأحيـاء، وربما يكـون حارث قـد حصل على وظيفـة مرموقة في خلية الصقور، لكن في مجتمع متماسـك مثل مدينة الصدر لم ينس أحد عاره الماضي، ولذا تفاجأ السودانيون عندما أعلن حارث أنه سـيقدم تعازيـه لضحايا التفجير وخاصـة العائلات التي فقدت أطفالا في الحادث.

لمدة ثلاثة أيام انتقـل حارث من خيمة عـزاء إلى أخرى، وأصبح كئيبـا أمام صـور لأكفـان وتوابيت الخشـب التـي كان يراها بحجم الأطفـال، وبـين تلاوة الصلـوات وشرب فناجـين القهـوة المرة، تم سـحب حارث جانبا مـن قبل مجموعة من الجـيران، وكانت عيونهم جامـدة من الغضب، فقد أرادوا معرفة هوية الانتحاري، ومن الذي فشـل في منعه، وما الذي يفعله ضباط مثل حارث الآن للحفاظ على سلامتهم.

كانت المعلومات هي البلسـم الوحيـد الذي قد يجلب العزاء لهم، لكـن لم يكن لديـه شيء ليقوله لهـم، فالصقور لم تكن تعلـم من نظَّم الهجـوم، ناهيـك عن من نفذه، وهذا ما جعل حارثًا يشـعر بالخجل، وبعد عـدة أيام وتفكيك خيام العزاء، اسـتيقظ حارث وهو يتصبب عرقـا باردا، فقـد حلم أن مؤملًا كان يحاول الهـرب من مبنى محترق، وكان يشـاهد، وهو عاجـز عن القيام بشيء، ابنه وهو يتعثر ويسـقط وتبتلع النيران جسده.

لقد أراد حارث أن يهرب من لوعة الوجع في الفشل وإيجاد طريقة

مـا للتخفيـف من الألم الذي يشـعر به جيرانه، ولذا شـعر حارث أن الوقت قد حان، بالنسبة له، للتقدم بخطوة أخرى.

الفصل الخامس عشر

التطوع للخطر



بعد أسبوع من تفجير سوق جميلة، توصل حارث إلى قرار، فبينما كان في طريقه إلى العمل مع مناف، أخبر شقيقه أن العودة إلى العمل الروتيني القديم لا تؤتي أكلها، فالجلوس في المكتب والتقاط الأدلة عبر الإنترنت حول مكان وجود الجهاديين العراقيين لم يعد كافيا أبدا، وقال إنه يريد القيام بالمزيد من العمل لوقف التهديد الإرهابي الذي يمزق مجتمعاتهم.

عندما دخل مناف إلى مجمع الصقور، راقب حارثًا وهو يقفز من السيارة ثم يسير إلى الممر المبطن بالحصى إلى بناء من طابق واحد يعمل فيه كبار ضباط الصقور، وحينما دخل هناك أخبر مساعد أبي علي بأنه بحاجة إلى لقاء فوري معه، كان المساعد، في البداية، مترددا في مقاطعة اجتماع للمدير، لكن حارثًا قال له: إنه سيريد رؤيتي، أخبره أني مستعد للتطوع.

تلك الكلمات جعلت المساعد يقفز من مكانه ويسرع إلى المكتب الداخلي، حيث كان أبو علي خلف مكتبه المصقول من خشب (الماهونجي) وهو يتحدث بالهاتف، ثم مرر للمدير مذكرة مكتوبة بخط اليد، ومن ثم شاهد أبا علي وحاجبيه يرتفعان وهو يقرؤها، نهض المدير ببطء من كرسي مكتبه المصنوع من الجلد الأسود ووضع هاتفه على صدره لمنع المتصل من سماع أمره وهو يقول: اتصل بالقادة وحدد موعد اجتماع عاجل بعد ظهر اليوم، وتأكد أيضا من وجود مناف وحارث، وبهذا استدعى أبو علي الشقيق الأكبر لعائلة السوداني من أجل رؤيته.

أحضر لهما المساعد كأسين من عصير المانجو وشايًا أسود ساخنًا، ثـم جلس حـارث، مرتديا زيّـه الأزرق الداكن، عـلى كرسي مذهب صلـب الظهر مواجها لمكتب أبي عـلي، ولم يلمس أيًا من المشروبات، لكن نظر في عيني مدير الاستخبارات وقال ما كان أبو علي ينتظر من أحدهـم قوله منذ شـهور: إن مـن واجبي تجاه الله وتجـاه الوطن منع مـوت المزيد من الأطفال. فقام أبـو علي من مكتبه وجلس إلى جانب حارث تاركا ثقل الكلمات ليستقر في الصمت، وبعد أن فعل ذلك، انحـسرت الاختلافات في العمر والرتبة وازدهرت علاقة الألفة بين الاثنـين والتي نشـأت مـن إدراك أن الرجلين كانـا يتخذان خطوات ذات عواقب هائلة.

سأله أبو علي: لماذا الآن يا بني؟ ما الذي تغير بالنسبة لك؟ توقف حـارث قليلا ثم قال: إنه ابني، فقد كدت أفقده، ولم أكن أدرك حتى هذا الأسبوع كم خذلته كأب، ولذا فإنني من خلال القيام بهذه المهمة فإن لديَّ القوة أن أنقذه من مصير رهيب واحد على الأقل.

في وقـت لاحق مـن ذلك اليوم اسـتدعى أبو علي ثمانيـة من كبار مسـؤولي الاستخبارات الذين سـمح لهم بسماع عمليته السرية، ولم يكونـوا يعرفون مـا يمكن توقعه قبل الاجتـماع، لذلك حينما وصف رئيس الصقور ما الذي يدور في رأسـه وقدم لهم الأخوين السـوداني انبهـر العديد منهم من أثـر الصدمة، وأعرب آخرون عن تحفظهم في الـشروع بمثل هذه المهمـة، وقال أحدهم: إنه لأمـر خطير جدا، فيما قـال ضابط من المخابـرات: إنه انتحار، ولا يمكننا أن نضحي بالمزيد

من الرجال الصالحين. وكانت وكالته قد نظرت في عملية مماثلة لكنها لم تجد أي شخص على استعداد لتنفيذها.

وبينما كان المسؤولون حول الطاولة يعرضون آراءهم وقف حارث حازما وصامدا، لكن منافًا بدا متألما بشدة، فقد علم من خلال محادثتهما في ذلك الصباح أن شقيقه كان يفكر في نوع من الإجراء الصارم، لكن الآن فقط بدت خطورة قرار حارث ماثلة للعيان حقا، وعند الاستماع إلى القادة الجالسين عند الطاولة كان مناف يوافق بصمت على تقييماتهم، فقد كان الخطر جسيما، ومع ذلك كان يشعر بالانقسام، فقد كان يعلم بالتأكيد مدى ذكاء أخيه، ويعلم أنه إذا قدر لشخص ما أن ينجح فسيكون حارثًا، الذي استنزف في سعيه لتحقيق إنجاز من أجل محو العار الذي جلبه على عائلته وجعل والدهم فخورا به في النهاية، لكنه في الوقت نفسه يعلم أنه إذا نجح الصقور في جعل حارث يتسلل إلى خلية تابعة لداعش، فمن غير المرجح أن يتمكن شقيقه من الخروج منها على قيد الحياة.

بعد أن قال المسؤولون ما يتعلق بهم، التفتوا إلى أبي علي، وانتظروا أن يدلي برأيه، فقد حانت لحظة القرار، لقد كان رئيس خلية الصقور يتأرجح طوال الصباح بين الفرح الأناني بالحصول على إجابة للمشكلة التي أزعجت العراق لفترة طويلة، وبين الشعور بالذنب لإرساله أحد رجاله بمهمة كانت احتمالات نجاحها وبقائها ضئيلة جدًا.

أخذ أبو علي نفسا عميقا ونظر مباشرة إلى حارث، لم يكن مدير

الاستخبارات يعرف كثيرا عن طفولة الشاب الذي أمامه، لكنه يعلم أن شخصًا يمكنه البقاء والنجاح في مدينة الصدر هو شخص لديه القدرة على التحمل، لكن هل هذا يكفي لتحمل المصاعب النفسية والعاطفية للمهمة السرية بين الإرهابيين حين تكون زلة واحدة كافية لكشفه وإنهاء حياته؟ هل يستطيع حارث وهو الشيعي العراقي أن يخدع المسلحين السنة ليعتقدوا أنه واحد منهم؟ هل يمكن لحارث أن يعيش لوحده إذا قتل ضابطه المسؤول؟ لم يكن هناك بالطبع وقت للتفكير في شكوكه، فقد كانت معظمها متأرجحة على أية حال، كان حارث رجله ومن ثم في مسؤوليته، وسيكون لأبي علي القول الفصل في ذلك، ولذا وضع عواطفه جانبا وأعلن رئيس الاستخبارات أن عملية عرين الأسد قيد التنفيذ.

خرج حارث من الغرفة وأمسك بشقيقه في عناق دب كبير، لقد كان العثور على متطوع مجرد بداية لهذه الخطة المعقدة، العقبة التالية كانت تدريب حارث الذي ولد وترعرع في الحي الشيعي الأكثر شهرة في بغداد، ولكي يمر كمتشدد سني فهو بحاجة إلى قصة تخفٍّ مفصلة ولهجة جديدة والمزيد من الحيل النفسية للنجاة من الضغط والعزلة للمهمة الخطيرة والطويلة.

خلال خمسة أسابيع تدرب حارث على العزلة، ثم تعلم كيف يصلي مثل الجهاديين ويتحدث مثلهم ويتظاهر بأنه منهم. كان أبو علي مسرورا بتقدم حارث، مثل طائر صغير يتعلم كيفية الطيران، ومثل كل العراقيين نشأ حارث مع قدرة هائلة على الحفظ، فقد كانت

المدارس تطالب الأطفال بحفظ دروسهم عن ظهر قلب، وعندما كان صبيًّا، كان حارث يحفظ القرآن كاملا ومجلدات من الشعر. إن كل تلك القدرات العقلية سيتم تطبيقها لتذكر تفاصيل الاجتماعات التي حضرها والكلمات الدقيقة للمحادثات التي سيسمعها في أثناء وجوده ضمن خلية لداعش.

لقد كانت خطة أبي علي هي جعل حارث ينتحل شخصية مواطن من محافظة الأنبار غرب العراق التي كانت بؤرة التطرف، فقد تعلم ضابطه الشاب كيفية تمهيد لهجته لتقليد أسلوب المنطقة، وفي الليالي الطويلة التي قضاها في غرف الدردشة والتي انتحل فيها شخصية عضو في داعش مكنت من جعل لغتهم وطقوسهم مألوفة لديه، لكن كان أيضا هناك شيء بخصوص حارث لاحظه أبو علي وجعله أيضا مصدرا ذا قيمة وهو قدرته على التقسيم، والحفاظ على نواة الشعور والعناية بزوجته وأطفاله في أعماق نفسه، إلى جانب الجرح الذي كان يحمله لسنوات عديدة.

لم يكن لدى أبي علي أي فكرة عن ذلك، حتى جلب الطبيب النفسي لتقييم استعدادات حارث العقلية، والذي أخبره أن عار عائلته أصابه بجراح شديدة في داخله، فإذا كانت لديه القوة لفصل نفسه عن تلك المشاعر العميقة، فسيكون حارث قادرا على عزل نفسه من الصدمات والضغوط كونه جاسوسا.

عندما اكتمل التدريب أعاد أبو علي الاجتماع مع ضباط المخابرات الثمانية، الذين تم إطلاعهم على مهمة حارث وللحصول على فرصة

من أجل اختبار مهاراته. وقد أثار ضابط الصقور سيرة الجهادي الذي تم تبني هويته، ثم أسماء وسيرة رجال داعش الذي سيعرِّفهم باسمه المستعار، فيما قال الضابط الذي درب حارثًا على قصته بأنه مقتنع به، ثم وقَّع الطبيب النفسي على لياقة حارث العقلية، كما فعل ذلك البارع في التكتيك الحربي الذي درب حارثًا على القطرات المميتة وطرق أخرى للاتصال عندما يكون متخفِّيا.

التفت أبو علي بعد ذلك إلى مناف الذي كان يجلس مع الفاحصين، فقد كان مناف يعرف شقيقه أكثر من الرجال الآخرين في الغرفة، وقد أراد مدير الاستخبارات أن يسمعه يقول إن حارثًا مستعد للشروع في المهمة قبل أن يمنح الضوء الأخضر. لقد عرف السوداني الأصغر أن شقيقه مصمم على اغتنام هذه الفرصة ليثبت نفسه مرة واحدة وللجميع، والحقيقة إن خطورة المهمة لم تكن لتثنيه عن القيام بها.

لقد كان مناف يأمل في أن حاجة حارث لإثبات أن والدهما كان على خطأ لن يعرِّض المهمة للخطر، ولذا قال أمام مجموعة الضباط: سيدي، اعتقد أن الملازم حارثًا السوداني جاهز، فأجاب أبو علي، وأنا أيضا مقتنع لنمضي إذن».

ثبت مناف حزام مقعده وشاهد شقيقه ينحني إلى الأمام من أجل رؤية أفضل من النافذة، فقد كانت الطائرة التابعة للخطوط الجوية العراقية قد بدأت هبوطها في بيروت، وكان حارث يرفع رأسه لإلقاء نظرة خاطفة على البحر الفيروزي المتلألئ تحتهما، فقال لمناف بلمحة من الحنين في صوته: تخيل حياة يمكنك أن ترى هذا في كل يوم،

يمكن للبحر أن يجعل أي شيء أكثر جمالا حتى في مدينة الصدر».

لقد كان ذلك في أيلول من عام ٢٠١٥، وكان أبو علي قد منح الأخوين إجازة لمدة أسبوع كاعتراف بمدى صعوبة التدريب، كانت لديهم فرصة للذهاب إلى أي مكان يحلو لهم على حساب أبي علي، ولم يكن الشقيقان قد غادرا العراق من قبل، كما لم يكن أيٌّ منهما على متن طائرة من قبل، ولذا اتفقا على الفور على اختيار العاصمة اللبنانية لقضاء إجازتيهما».

لطالما سميت مدينة بيروت بباريس الشرق الأوسط، فهي مدينة الحياة الليلية المثيرة والأحلام الكبيرة، وعلى عكس القاهرة التي تتمتع أيضا بسمعة طيبة بالنسبة للكازينوهات والملاهي الليلية، فهي تضم عددا كبيرا من السكان الشيعة، وبالنسبة لشابين من مدينة الصدر أضافت هذه الحقيقة طبقة إضافية من الراحة.

سيزوران بلدا جديدا، حيث يمكنهما أن ينفِّسا عن بعض تعبهما وتجربة أشياء جديدة، وأيضا حيث لا تبدو لهم الحياة غير مألوفة تماما بالنسبة لهما، ولم يصرح أبو علي بذلك عندما قدم لهما تلك الهدية، لكن منافًا أدرك أن مديرهم كان يريد أن يحصل حارث على فرصة لتنظيف ما في رأسه وأن يختبر محيطا جديدا.

نادرا ما كان أبو علي يتحدث عن السنوات التي قضاها في المنفى، على الرغم من أنه يذكر باعتزاز في بعض الأحيان الموجات الفولاذية الرمادية لبحر الشمال والأشجار الخضراء الشاهقة في السويد. لقد كان مناف يدرك أن مديره يحب العراق، لكنه أيضا كان يقدر بعمق

تجربته في الخارج. وقد قال أبو علي لمناف لاحقا، ربما يرى حارث شيئا فريدا، شيئا ما يأسره كثيرا لدرجة أنه يعيد التفكير بقراره دخول عرين الأسد، لقد كان أبو علي مثل مناف لديه مخاوف بشأن العملية، لا يتعلق ذلك باستعداد حارث، ولكن لأنهما كانا يكرهان المخاطرة، لقد انحفر في ذهن مناف مرارا وتكرارا أنه لن تكون هناك طريقة سهلة لإنقاذ حارث إذا احتاج إلى المساعدة، وإذا حدث خطأ ما فإن شقيقه سيكون فريسة سهلة لهم.

لقد كان مناف مخطط أجازتهما طوال الأسبوع، وكان ينوي القيام بكل ما يمكنهم فعله من أجل قضاء وقت ممتع، وخلال الرحلة التي استغرقت ساعتين من بغداد، وضع الأخوان قائمة بالرغبات، فقد أرادا زيارة المسجد العمري، وهو المكان الذي أعلن فيه المحارب العظيم صلاح الدين الأيوبي انتصاره على الصليبيين، أرادا أيضا تجربة الويسكي، وهو ما يشربه كل الأثرياء في الأفلام المصرية، وربما حتى عرق اليانسون اللبناني الشهير الذي قيل لمناف عنه مرات لا تحصى منذ سنواته الأولى في أكاديمية الشرطة، وقد أكد له أصدقاؤه، إن النساء هناك يحببن شرب العرق، وعندما حطت الطائرة في بيروت أضاف حارث رغبة جديدة وهي إنه أراد أن يضع قدميه في أمواج البحر الهادئة.

لقد كانت أيامهما الستة رائعة، فقد تجولا في شوارع بيروت الصاخبة والمزدحمة حتى الساعات الأولى من الصباح، وأنفقا ثروة صغيرة في الترفيه عن نفسيهما في ملهى ليلي، وغادرا الملهى غير

مصحوبين، وكانا في حالة سكر شديدة من الويسكي الرخيص، بحيث لم يكونا مهتمّين بأي شيء سوى الوصول إلى أسرَّة غرفتيهما في الفندق، وقد التقطا قدرا كبيرا من الصور في المواقع الشهيرة من المدينة، ما زال مناف يحتفظ بها في هاتفه، ففي إحدى الصور كان حارث يقف بجوار المنارة على كورنيش بيروت، وصورة أخرى في الممشى على البحر مرتديا قميصا أحمر وبنصف ابتسامة. لقد كان من الصعب من تلك النظرة البعيدة في عينيه معرفة أنه كان يقدر مدى السعادة التي يشعر بها.

في آخر ليلة لهما في العاصمة اللبنانية، جلس مناف وحارث في مقهى ذي واجهة بحرية يدخنان الأرگيلة ويلتقطان الفستق من طبق، فقد أراد حارث أن يقضي ساعات إجازته الأخيرة في مشاهدة الأمواج. لقد غطت الأغاني الصاخبة لنجم البوب اللبناني على همس وهدير الأمواج، لكن الرائحة النقية التي تنساب من البحر كانت تذكارا لطيفا لرحلتهما.

لقد رأى مناف شقيقه أكثر سلاما من أي وقت مضى، وفي الواقع لم ينجح حارث أبدا في السباحة في البحر ولا أخوه الذي لم يتعلم كيف يسبح، ومع ذلك فإن إيقاع المد والجزر والمياه الزرقاء العميقة لمست شيئا في داخله. أطلق حارث دخان التبغ من الأرگيلة واسترخى إلى الوراء في كرسيه وبدأ يتحدث عن المستقبل قائلا لأخيه: يمكن أن يعاد بناء بغداد بشكل جميل مثل بيروت إذا انتهت حربنا مع داعش إن شاء الله، مضيفا: عندما يحدث ذلك ربما يمكننا تغيير وظائفنا،

أعثر على مكان على طريق القناة في محيط مدينة الصدر مليء بالمياه، وأفتح لنا مقهى خاصًا بنا، مثل هذا المقهى.

كان مناف قد وضع نقطة هي عدم الحديث عن العمل في ذلك الأسبوع، وذلك بأوامر من أبي علي لمساعدة أخيه على الاسترخاء، ومع ذلك أخبره رئيس الاستخبارات، أنه ستكون هناك لحظات خلال الرحلة سيتحدث فيها الشقيقان عن حياة مختلفة ومستقبل مختلف، وعندما يحدث ذلك، كان على مناف أن يختبر عزيمة حارث، وأوضح له أبو علي أن حارثًا إذا أعرب عن أي شك أو تردد، فسوف نوقف الخطة قبل أن تبدأ على الأرض. استطاع مناف أن يسمع البهجة في صوت أخيه، وهو يتخيل مذاق إدارة المقهى الخاص به، وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي سمع فيها حارثًا وهو يتحدث بصراحة عن أحلامه، كانت تلك هي اللحظة التي تنبأ فيها أبو علي.

فرد مناف: كما تحب، لكن لماذا ستنتظر حتى يتحقق ذلك الحلم؟ إذا كنت تريد أن تقوم بذلك، أنا متأكد أن أبا علي سيساعدك بالاستقرار هنا، انسَ العراق والقرف الذي تمر به البلاد، تعلم كيفية إدارة مقهى هنا في بيروت ثم تعود إلى الوطن بعد انتهاء الحرب، أناس قليلون فقط يعرفون بالمهمة السرية، ولن يلومك أحد إذا قررت الانسحاب.

جلس حارث على الفور مستقيما وهو مندهش من كلام مناف قائلا: أخي، لقد أسأت الفهم، أنا مستعد للتضحية بروحي من أجل العراق، لكنني قصدت فقط أنه بمجرد أن ننجح في ذلك، فربما

يمكننا القيام بفعل شيء آخر، مضيفا وهو يتأمل: هناك شيء آخر، ماذا سيقول والدنا إذا عرف أنني استقلت؟.

لقد أثار وصول الأخوين إلى مدينة الصدر موجة من الإثارة في المنزل، فقد كانت نسمة، زوجة مناف، قد أمضت الصباح كله تتشكى عما سترتديه، أما رغد زوجة حارث فلم تهتم، فقد عرفت من التجربة السابقة أنه مهما كانت الجهود التي ستبذلها في مظهرها فلن تجلب انتباه حارث لفترة طويلة.

مع ذلك عندما اجتمعت العائلة للاستماع إلى مغامرات الأخوين وتذوق الحلوى اللبنانية التي جلباها كهدايا إلى المنزل، شعرت رغد أن شيئا تغير في زوجها، فبدلا من الانسحاب مع منذر وبقية إخوته إلى غرفة الجلوس الرئيسة للعائلة، دعاها حارث وأطفالها للجلوس معا في شقتهم في الطابق العلوي، فبدأت بصنع الشاي، بينما كان يجلس هو مع أطفالهما الثلاثة على الوسائد الأرضية في أكبر غرفة من الغرفتين التي يعيشيان فيها، حيث تضاعفت إلى غرفة نوم للأطفال وغرفة للمعيشة.

لقد كان حارث، عادة، غير صبور مع الأطفال إن لم يكن خشنا بشكل صريح، لكنه في ذلك اليوم كان الأطفال ينهلون من اهتمامه غير المتوقع، فقد سأل كلًّا منهم عن دروسهم المفضلة في المدرسة والرسوم المتحركة التي كانوا يشاهدونها في التلفاز، وحاول تملق مؤمل للحديث عن كرة القدم، وأي مركز يحب اللعب فيه وأيًّا من فرق بغداد المحترفة يشجع.

بحلول فترة العصر عندما عادت رغد إلى الطابق السفلي لمساعدة أم زوجها في التنظيف، لم يكن الجو مريحا تماما، لكنه أفضل من صمت الشقة الذي يجلبه حارث معه إلى المنزل. على الرغم من أنه مضى على زواجهما عقد من الزمن، إلا أن حارثًا لم يثق برغد أبدا، وفي تلك الليلة بينما كانا يتشاركان السرير نفسه، لم يكن لدى رغد أي فكرة أن زوجها سيباشر في واحدة من أخطر مهمات التجسس التي يمكن تخيلها على الإطلاق.

لقد بدأ صباح اليوم التالي عاديًّا تماما، ارتدى حارث ومناف ملابس العمل وتناولا الفطور مع والديهما على السفرة، وأخذ حارث قطعتين من (الصمون) كعادته، وهو الخبز العراقي البيضوي الشكل، وشرب الشاي ثم خرج إلى السيارة دون أي تعبير جارف من المودة تجاه الأسرة، وكان مناف هو الوحيد الذي يعرف أنه إذا سار كل شيء وفقا للخطة في ذلك اليوم، فلن ترى العائلة حارثًا لوقت طويل.

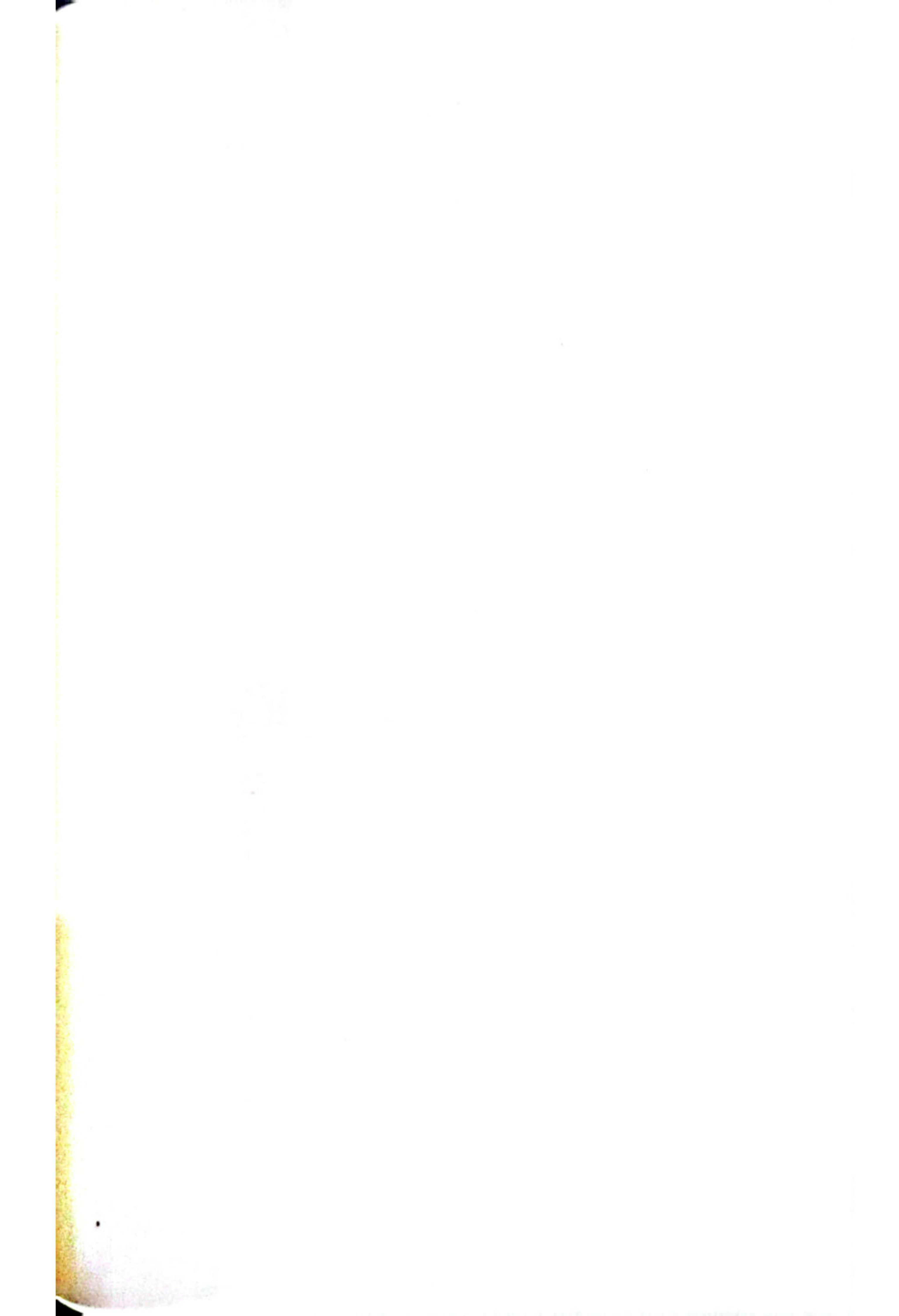
قاد الاثنان سيارتهما بصمت خلال ساعات الذروة الصباحية الأولى في بغداد، لم تكن هناك شكوك اللحظات الأخيرة ولا أناشيد دامعة لزوجته أو أطفاله، فبالنسبة لحارث لم يكن هناك نظرة إلى الوراء، فمهمته القادمة ستبدأ طريقه نحو الفداء، وعلى طول الطريق السريع المزدحم بدأ حارث تحوله، فقد طلب من مناف إطفاء مسجل السيارة، الجهاديون الحقيقيون لا يستمعون إلى الموسيقى، وأفرغ جيوبه من أغلفة العلكة أو أي قطعة ورق تشير إلى هويته الحقيقية،

وأخيرا اختفت حروف العلة الطويلة التي تميز اللهجة الشيعية في الجنوب وأحفادهم في مدينة الصدر، وبحلول الوقت الذي دخل فيه مناف إلى مكتب الصقور في مجمع المطار، كان حارث في طريقه إلى أن يصبح أبا صهيب، العامل السني الساخط والطائش من حي الأعظمية في بغداد.



الفصل السادس عشر

إطلاق المهمة



بحلـول خريـف عام ٢٠١٥ كانت خلية الصقـور قد بنت مخططا تفصيليًّـا للمتعاطفـين مـع تنظيـم داعـش وخلاياهم في بغـداد وما حولها، وكانت خطتهم لتسريب حارث في المجموعة تعتمد على أحد مخبري أبي علي، وهو رجل ذو مستوى منخفض يحمل حقائب داعش والـذي تم اعتقاله في أثناء توزيعـه للأموال على أنصار الإرهابيين في العاصمة العراقية.

كان المخـبر ويدعى محمد الجبوري مجرما تافها ارتكب عددا قليلا مـن الجرائم قبـل أن يأخـذه تنظيم داعـش، وينحدر من قبيلة سـنية مرموقة، لكن هذا الفرع من العائلة كان طرفا فاسدا، وحينما اعتقلته خلية الصقور، كان اثنان من أشقائه في السجن بالفعل أحدهما بتهمة اختـلاس والثـاني بتهمـة الإرهاب. لم يكـن الجبوري يعمـل لصالح داعـش لأسـباب أيديولوجيـة، بل من أجل المـال، ولذا اسـتفاد أبو علي من جشـع الجبوري، وأخبر سـجينه أنه إذا جعل من نفسه مفيدا لخلية الصقور، فيمكنه تسهيل حياة أخويه في السجن، وإذا وافق على العمـل مع الصقور كجاسـوس مـزدوج فإنه سـيمنحه ٢٠٠ دولار شهريًّا، وهو راتب أفضل مما كان يمنحه إياه تنظيم داعش.

لقـد كان ذلـك العـرض جيدا بـما يكفـي للجبوري الـذي وافق عـلى العمـل، وسرعان مـا سرق معلومات مهمة عن شـبكة البيوت الآمنـة للإرهابيـين في بغـداد، وقد دفع نجاحـه في ذلك كمخبر لأبي علي إلى إعادته إلى شـوارع بغداد في ذلك الصيف، فقد أراد منه مدير الاستخبارات أن يستأنف عمله السابق مع داعش، ولكن كجاسوس

للصقـور هذه المرة، كما قام بتعيين مناف السـوداني كمسـؤول عليه، معتقدا أنها طريقة جيدة لجعل ضابطه الشـاب اللامع يكتسب المزيد من الخبرة الميدانية.

كانـت قواعد لعبة الوكيل بسـيطة وهي أن الجبـوري يحصل على المـال إذا قـام بالحضور وقدم معلومـات جيدة، وإذا فشـل الجبوري فـإن أخويه في السـجن سـيتحملان العواقب، وفي حـين كانت تلك القواعد مباشرة، إلا أن تطبيقها لم يكن كذلك، كما عرف ذلك مناف عندما قاد سيارته مع جاسوسه الجديد من السجن إلى محطة الحافلات المركزية في بغداد.

قـال له منـاف: جدد عملك مـع خليتك ثم اتصـل بي بعد عشرة أيام لتقديم إبلاغك الأول. شاهد السوداني الأصغر العميل المزدوج وهو يبتعد تحت أشـعة الشـمس الحادة ويضيع نفسـه وسـط حشـود الـركاب المنتظرين للبـاص لأخذهم إلى منازلهـم، وعندما قاد مناف سـيارته بعيـدا، دعا أنه لم يسـمح لقاتل بدم بارد بالعودة إلى شـوارع بغداد.

أبـو عـلي وكبـار الضبـاط في الصقـور حـذروا منافًا بأن تشـغيل الـوكلاء، خصوصـا وكيلـه الأول يتطلب صـبرا مثل انتظـار ولادة طفله الأول.

اسـتحضرت فـترة الهـدوء بـين الاجتماعـات أسـوأ السـيناريوهات، ولكن لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله العميل المزدوج لتغيير أو تسريع الأحداث، وبينما كان مناف ينتظر أول اتصال، فقد ساءت عادته بتدخين

الأرگيلة بشكل كبير وفقد شهيته للطعام ولم يستطع النوم.

في اليـوم الـذي كان من المفـترض أن يقـدم فيه الجبـوري تقريره الأول، أخذ مناف هاتفه معه في كل مكان حتى أنه كان يدخله معه إلى الحمام حتى لا تفوته أي رسـالة، لكن اليوم جاء وذهب بدون كلمة، وانغمس مناف في البؤس، معتقدا أنه فشل دون أن يكون لديه فرصة للبدء بشكل صحيح، لكن في اليوم الحادي عشر منذ اختفائه في محطة الحافلات أرسـل الجبوري الإشـارة المتفق عليها وبـدأت المعلومات بالتدفـق، لقد صدَّق رفاقه القدامى قصـة التغطية التي قدمها لهم أبو عـلي ليشرحها مبررا غيابه الطويـل، فقد قال لهم إنه اختطف من قبل رجال عشـيرة منافسـة لهم، وهو أمر شائع كثيرا في العراق لدرجة أن مسـؤولي تنظيم داعش لم يستجوبوه، وبدلا من ذلك أعطوه مبلغ ٩ آلاف دولار ليقـوم بتسـليمها لأنصـار داعش في جميـع أنحاء بغداد، وقد قال لمناف إنه تابع بالضبط من حيث توقف قبل اعتقاله.

على مدى عدة أسـابيع حصل مناف مـن الجبوري على معلومات حيوية بيَّنـت معرفة الحكومة العراقية بالجماعـة الإرهابية، وقد زوده العميل بهوية الرجل المسـؤول عن التخطيـط للهجمات في العاصمة العراقيـة واسـمه: أبو قسـورة، وقـد عرفـوا أن الطريق اللوجسـتي المسـتخدم لنقـل المتفجـرات إلى بغداد يبدأ مـن القائم، وهـي مدينة عراقيـة حدوديـة مع سـوريا، حيـث كان لدى تنظيـم داعش مصنع لعمـل السـترات الانتحاريـة والسـيارات الملغومـة، ومـن ثـم يمتد الطريق عبر محافظة الأنبار ومنها إلى مدينة الطارمية الصغيرة على بعد

ساعة بالسيارة عن بغداد.

بسبب كل تلك المعلومات المهمة، طلب أبو علي من الجبوري أن يلعب دورا أكثر أهمية، حيث أراد إدخال حارث في هذه الشبكة حتى يتمكنوا من إحباط هجمات داعش المخطط لها، وليس مجرد فهم تنظيمها، فقد كان يعتقد أن الجبوري سيكون أداة لوضع حارث في داخل التنظيم، ولذلك قام أبو علي ومناف بتوجيه جاسوسهما المزدوج عن الكيفية التي يقوم بها بذلك.

كان الجاسوس يخبر قادة داعش في القائم والموصل عن مجند جديد موثوق به من بغداد يدعى أبا صهيب يريد مساعدة قضيتهم وإسقاط الحكومة العراقية، كما أن أبا صهيب (حارث) مستعد لمبايعة أبي بكر البغدادي وخدمة الخلافة بأي شكل من الأشكال يحتاجونه. وبمجرد أن نصب الجبوري الشرك، لم يستغرق الأمر طويلا لدى الإرهابيين لالتقاط الطعم.

لقد اتصل أبو قسورة بأبي صهيب على (التلغرام) وهي منصة وسائل اجتماعية مشفرة يستخدمها الجهاديون للتواصل، وأخبر المجند الجديد المحتمل لداعش أين يمكن أن يلتقيا ومتى، فقد قال له القيادي في داعش: سافر إلى الطارمية واحضر صلاة الجمعة وستجد ما تبحث عنه هناك.

في يوم عادي وبدون زحام شديد تستغرق الرحلة إلى الطارمية من بغداد نحو ٤٥ دقيقة، صباح اليوم الذي قاد فيه مناف سيارته وهو يحمل حارثًا إلى موعده، كانت السيارات تنزلق عبر نقاط التفتيش

على الطريق السريع، بينما كانت العائلات تتجه شمالا نحو الرمادي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

يتذكر مناف أن الرحلة استمرت بخفقان القلب، وقد قرر أبو علي أن يحافظ الأخوان على بصمة خفيفة في هذه الرحلة، فلم يكن لديهما استطلاع مناسب قبل أن يصلا، ولم يكونا يعرفان شكل المسجد أو عدد المخارج، أو كم عدد أعضاء تنظيم داعش بين المصلين، ومع العلم بتاريخ الطارمية كمنطقة تجنيد شعبية للقاعدة، فإن أبا علي كان يعتقد أن عدد المتعاطفين مع العدو سيكون كبيرًا.

لقد أخبر مناف شقيقه ببعض الأشياء نفسها التي قالها لجاسوسه الأول، وذكّره بالاتفاقات بشأن تنبيه الصقور عن التهديد الفوري وطلب الإحاطة، ونصحه بالصبر لجعل الإرهابيين يثقون به. قاما بعد ذلك بالدخول في طريق زراعي فارغ على بعد كيلومتر أو نحو ذلك من المسجد، إن احتمال دخول غرفة مليئة بالمتطرفين العنيفين لم يبدُ أنه يقلق حارثًا، أما مناف فلم يكن على يقين أن ذلك هو الموقف المناسب، ولذلك أعاد على مناف التفاصيل مرة أخرى، كان على مناف أن ينتظر لمدة ساعتين لعودة حارث، فقال له: لا تكن مغرورا، لا تكن متعجرفا، ولا تنس أنهم سيراقبونك مثلما تفعل الصقور.

أجاب حارث: لا تقلق يا أخي، أستطيع معالجة نفسي، ثم نظر إلى ساعته ونزعها عن معصمه وسلمها لأخيه قائلا: أيًا كان ما سيحدث فلا تأتي للبحث عني، أستطيع التعامل مع نفسي، وبذلك خرج من السيارة وسار باتجاه المسجد.

جلس مناف في السيارة ونوافذها هابطة وهو يشتم نفسه على عدم إحضار أي شيء للأكل أو الشرب، فلم يرد ترك منصبه من أجل شيء تافه مثل زجاجة ماء، وقد اعتبر ذلك مجرد درس للتجارب المستقبلية، وسرعان ما سمع الصوت المألوف للمؤذن وهو يدعو المؤمنين للصلاة، ثم صوت إمام عبر مكبر الصوت وهو يتلو بعض الآيات القرآنية للصلاة الأسبوعية، وقد قرر مناف ان العد التنازلي لساعتين لعودة حارث بعد تأدية خدمة العبادة كاملة قد بدأت.

من المحتمل أن يكون لدى الجهاديين عملاء داخل المسجد يراقبون حارثًا في أثناء الصلاة، وأن الاجتماع مع خلية داعش لن يبدأ إلا بعد أن يطلب الإمام من الجميع الذهاب بسلام، وقد كانت غريزة مناف صحيحة، لكن بعد أن أصبحت ظلال الظهيرة أطول، لم تكن هناك أي علامة على حارث، وقد حاول مناف أن لا يترك الأفكار السوداء تطغى عليه، كان هاتفه مليئا برسائل من مقر الصقور وزملائه الضباط يسعون للحصول على تحديثات، مناف كان يجيب مرارا وتكرارا بعبارة بسيطة «لاشيء يذكر»، وقد اقترب موعد صلاة المغرب حينما لمح مناف أخيرا وميضا من الحركة على بعد ثلاثمائة يـاردة على طول الطريق، ومما أراح مناف أن الشخص الذي يقترب لم يكن غريبا، فقد كانت الخطوة النشيطة للرجل الذي يقترب هي خطوة أخيه، وكانت ابتسامته كبيرة بما يكفي لتضيء السماء المظلمة لتبث نجاحه حتى قبل أن يصل إلى السيارة، وقال لمناف أنا دخلت، أنا دخلت.

الفصل السابع عشر

داخل عرين الأسد


@BLOG_BIB

استيقظ حارث من نومه وهو يشعر بالضياع ورائحة البحر في أنفه ويده تضغط على فمه في محاولة غير واعية لكبت الصراخ، وكأنه كان ممدَّدا على فراش من رغوة رقيقة، كان مرتبكا تماما حتى أدرك أن كابوسا أزعجه فاستيقظ، نفس الحلم الفظيع الذي كان يطارده منذ عدة أشهر.

كان المشهد كما وصفه لمناف يبدأ دائما بسلام، ويرى نفسه مثل شخصية سينمائية يسير على طول شاطئ البحر في بيروت، والأمواج ترتطم عند ركبتيه، ومن خلال وهج الشمس كان يرى من بعيد امرأة ذات شعر بني مجعد، امرأة ما، كان يعتقد أنها حبه الأول نسرين، فيشعر بفيض غامر من الفرح، وبعد ذلك، ومن دون سابق إنذار كانت موجة عملاقة تتحطم فوق رأسه وتسحبه من قدميه، فيهبط جسده تحت الماء ثم يسحبه تيار شديد بعيدا نحو البحر والماء المالح ينسكب في حلقه وحارث مغمور بيقين أنه سيموت. لقد بقيت تلك الرؤيا مثل خطاف السمك في معدة حارث عندما فتح عينيه وتذكر أين كان مكانه.

لقد كان ذلك في كانون الأول من عام ٢٠١٥، حينما كان محاطا بإرهابيي داعش النائمين في مزرعة في الطارمية، والذي غدا منزله لمدة ثلاثة أشهر حتى الآن، فمنذ أن أوصله مناف في أول لقاء له مع أحد قادة داعش، عمل حارث أو أبو صهيب على أن يجعل من نفسه شخصا لا غنى عنه في هذا المحور من طاغوت داعش، فقد كان تعريفه بالجماعة الإرهابية من قبل محمد الجبوري قد نجح مثل

السحر، كما أن تدريبه على رعاية ذلك المزيج من التقوى والتطرف حقق ما كان يأمله هو ومناف، فبعد أسابيع من مهمته السرية، أصبح مستأمنا لدى قائد خليته الإرهابية، وهو مزارع يبلغ من العمر ٥٤ عاما يدعى أبا مريم، والذي كان يقاتل إلى جانب القاعدة منذ عام ٢٠٠٥ ثم تحول إلى تنظيم داعش.

كانت الغرفة المستطيلة التي ينام فيها حارث ورفاقه قد غدت مألوفة بالنسبة له مثل راحة يده، فقد كانت ثلاثة جوانب من الحائط مبطنة بمراتب إسفنجية مزدوجة مغطاة بقماش أحمر مطرز، أما مقابل الحائط الرابع الأقرب إلى الباب، كانت هناك خزانتان مصنوعتان من الخشب الصقيل باللون البني الغامق الرخيص، إحداهما تحمل فناجين زجاجية وعلبة محكمة الغلق مليئة بالسكر وصواني تقديم من الألمنيوم، أما الخزانة الأخرى فكانت مليئة ببطانيات سميكة من البوليستر كان الرجال يتغطون بها أثناء الليل في الفراش، كانت مروحة السقف معلقة وسط الغرفة وهي واحدة من الكماليات القليلة في المزرعة، والتي يتم استخدامها عندما يكون لدى أبي مريم وقود كاف لتشغيل مولد المزرعة.

نادرا ما كان الروتين اليومي يتغير، فعند شروق الشمس كان الرجال يستيقظون ويزيحون بطانياتهم ثم يصلون، وبعد فطور سريع، يحول أبو مريم الغرفة إلى مدرسة ويقوم بتعليم أعضاء الخلية ألف باء الإرهاب، حيث تعلم الرجال كيفية توصيل المتفجرات وإجراء عمليات الاستطلاع، وفي المساء كانوا يتعلمون النصوص

الدينيـة المحبوبـة لأبي بكـر البغـدادي، وفيـما بين ذلـك كان الرجال يسـاعدون في الأعمال الروتينية للمزرعة وتمارين لتقوية العضلات. دأب أبـو مريم يحث رجاله على البقـاء في حالة تأهب، لأن قادتهم في الموصل يمكن أن يصدروا أمرا بعملية جديدة في أي وقت.

في الأسـابيع الثلاثة الأولى كانت تتم مراقبـة حارث في كل دقيقة يقظـة، ولم يـترك لوحـده أبـدا، وبينـما كان يقـوم بالخـارج بالأعمال الروتينيـة، كان رفاقـه الجدد في تنظيم داعـش يقومون بتفتيش حقيبة الكتـف التي جاء بها، والتي كان يخزن فيها ملابسـه الإضافية، وكان يشـعر أن كل كلمة يقولهـا يتم فحصها، لكن بفضـل تدريبه في خلية الصقـور تمكن حارث مـن التقدم ببطء في المجموعـة، وقد أثبت أنه بارع في الدروس التقنية ودراسة القرآن، ولم يمنحهم أي سبب للشك في إخلاصه للقضية، وعلاوة على ذلك قدم سمة مميزة للخلية، وهي جزء من شـخصيته السرية التي أنشـأها أبو علي البصري، فقد كانت لدى أبي صهيب هوية أحوال مدنية عراقية تظهر أنه من سكان بغداد وسـيارة مسـجلة في بغداد، وهذا يعني أن أبا صهيب قادر على السفر مـن وإلى العاصمة أسـهل من الرجال الآخريـن في الخلية، وبالتأكيد أسـهل مـن العراقيـين الآخريـن الذيـن تظهـر هوياتهم المدنيـة أنهم ينحدرون من مناطق خاضعة لسيطرة داعش.

بعـد أكثر من شـهر بقليل على انضمامه للخلية، سـار أبو مريم إلى حارث بعد صلاة العشـاء وسلَّمه هاتفا محمولا، وقد اتضح أن ذلك دليل على أن حارثًا قد اجتاز الاختبارات الأولية التي حددها القائد،

وكان على الخط أحد قادة داعش في الموصل المسؤول عن الهجمات في بغداد ويدعى أبا قسورة، والذي أخبر أبا صهيب دون أي مقدمات أنهم اختاروه ليكون ملاك الموت، أي الرجل الذي سيقود متفجرات الجماعة الإرهابية إلى العاصمة العراقية.

ثم أمره أبو قسورة بنقل اثنين من العرسان، وهو الكناية التي تستخدمها الجماعة للتعبير عن المفجرين الانتحاريين، إلى بغداد، وعندما أعاد الهاتف إلى أبي مريم تلا حارث دعاء الشكر، ولا بدَّ أن قائد الخلية ظن أن تلميذه قد غمره شرف المهمة التي كلف بها، فقال له: يا بني عسى أن تمجد أفعالك وأعمالك من قبل الله. وقد رفعت المكالمة من الموصل مكانة حارث في المزرعة، وفي اليومين التاليين، استقر على روتين ثابت وإن كان صعبا، حيث كان هو وأبو مريم ينتظران وصول العريسين، وفي أثناء ذلك تم إعفاء أبي صهيب من جميع أعمال المزرعة حتى يتمكن من الاستعداد لتلك العملية الهجومية.

في المساء الذي سبق كابوسه المتكرر، وقبل غروب الشمس بقليل ظهر شابان نحيفان على الطريق الترابي المؤدي إلى المزرعة، وكان العريسان أحدهما تونسي والآخر عراقي، وكانا بالكاد كبيرين بما يكفي من العمر كي يحلقا ذقنيهما، ولم يقل القادمان الجديدان أي كلمة في تلك الليلة، وحينما حان وقت النوم ناما بهدوء مما أثار دهشة حارث.

وبدلا من ذلك بقي الضابط السري سهرانَ، ويشعر بضغط

الانسحاق بشأن الطرق التي يمكن أن تسوء مهمته من خلالها، ففي الصباح إما أن يكون شريكا في وفاة عشرات المدنيين في العاصمة، أو أنَّ رفاقه من الصقور سيمنعون الهجوم باعتراضه هو وركابه. كان ذلك أول اختبار كبير لهدف أبي علي البصري، حيث من المفترض أن تعمل الصقور على تحييد التهديد، وفي ذات الوقت جعل الأمر يبدو لقادة داعش كما لو أن أبا صهيب قد نجح من خلال نشر معلومات خاطئة عن هجوم مفترض بالقنابل.

فبينما كان يتدرب في بغداد بدا ذلك المنطق أنيقا ورائعا وسهلا بالنسبة لحارث، لكنه في جوف الليل في الطارمية وهو محاط بالإرهابيين المتشددين، بدت المهمة شاقة إن لم تكن مستحيلة. لقد كانت الفرصة الوحيدة لنجاح حارث تكمن في تنبيه الصقور إلى أنه تم تنشيطه، وفي الوقت الحالي كانت الأداة الوحيدة للاتصال بوحدته هو هاتف نوكيا مخبأ في سيارته، بعيدا عن غرفته في المزرعة.

لقد كان بين فراشه والباب قائده أبو مريم وأربعة جهاديين آخرين، عرف حارث من بحثه لعدة ليالٍ بكل الطرق الممكنة للخروج من المزرعة، إنه لا توجد طريقة يمكنه من خلالها التسلل من الغرفة دون أن يوقظ الآخرين، وحتى لو تمكن حارث بطريقة ما من الوصول إلى هاتفه، أو ربما حتى الهرب من المزرعة فما هي النتيجة؟ سيظل يسير إلى الأبد في المنطقة الريفية ولن يتمكن من الذهاب إلى أي مكان، فهو لا يعرف أي أحد يعيش في ذلك السهل الواسع بينه وبين بغداد، وحتى خارج تلك المزرعة كان يعتبر غريبا

لدى الكثيرين وعدوا للجميع.

كان حارث وحيدا في الظلام ومع خوفه يصارع الرغبة في الفرار، فقد اعترف أن لديه القليل من الخيارات والكثير من الخصوم المرعبين، بدءًا من أبي مريم، فقد كان يشعر بالهلع من ذلك القيادي في داعش، على الرغم من أنه لم يخبر منافقًا بذلك بعد. كان أبو مريم نحيلا مثل ساق الذرة، مع قوة مدهشة في أطرافه الطويلة، والتي كانت مثل وجهه داكنة بسبب سنوات من العمل في طقس العراق القاسي، وقد لاحظ الجهاديون عند لقائه أن القيادي لم يكن لديه شعرة واحدة رمادية في رأسه، على الرغم من أنه كان يبلغ عمر العديد من آبائهم، وكانت هذه في نظرهم علامة على الصبر والانتصار على المصاعب التي تحملها كمزارع وضغوط القتال ضد الجيش الأمريكي لعقد من الزمان.

ومثل والد حارث، كان أبو مريم رجلا يلتزم بكلمته، وعلى الرغم من إعجابه به، لم يكن لدى حارث أدنى شك في كيفية رد فعل أبي مريم على الخيانة، ففي الأسبوع الأول له في المزرعة، وبينما كان تحت الاختبار في الخلية، تبع أبو مريم حارثًا إلى الخارج خلف المبنى الرئيس، لقد كانت هوية حارث الحقيقية سرًّا عميقا، لكنه شعر أن عينيَّ أبي مريم قد نفذت إلى روحه مباشرة وقال له: إذا خنتنا يوما فسأكون أنا الشخص الذي يقطع رقبتك.

خارج المزرعة كانت الكلاب البرية تنبح في جوقات متقطعة، أما في الداخل، فقد احتاج حارث إلى شيء ما لإلهاء نفسه عن هاتفه

الذي لا يمكن الوصول إليه، لذلك ركز على العريسين اللذين ينامان على بعد أقل من عشرِ أقدام، ففي غضون ساعات قليلة، وحينما تكسر الشمس الأفق، سيقوم حارث وهذان الغريبان بالاغتسال والوضوء ثم يسجدون إلى جانب بعضهم البعض ليتضرعوا إلى الله أن يستجيب لصلواتهم، حارث سيطلب أن يبقى بأمان، ولم يكن لديه فكرة عما يدور في أذهان الشابين، هل هما مثله؟ هل يفكران في أميَّهما؟ هل يسهبان في أفضل ذكرياتهما عن حياتهما القصيرة تلك؟.

في ظلام مزرعة الطارمية، كان حارث يحاول تهدئة قلقه باستذكار أفضل لحظاته وهي وسيلة كان قد تعلمها خلال تدريبه، فقد تذكر، عندما كان طفلا، كيف كانت والدته تضع يديها الناعمتين والطريتين على جبهته عند مرضه، وكيف كانت تتحرك شفتا نسرين وهي تقرأ شعره، لكن الاتهامات المتبادلة والأسف كانت تدخل عنوة بينهما. خلال عطلتهما لم يجد هو ومناف الوقت الكافي للخروج من العاصمة اللبنانية لرؤية الجبال المغطاة بالثلوج، فهل ستكون لديه فرصة أخرى للقيام بذلك؟ هل كان سيصبح أكثر سعادة لو ترك حياته في العراق وبقي في الخارج بدلا من ذلك؟ لقد كشف لمناف مع استمرار مهمته عن خوفه المطلق، ليس لأنه سيموت فحسب، بل أيضا لأنه سيموت وهو يشعر بالندم.

وبينما كان ينتظر أن تنكشف السماء عن ضيائها، لجأ إلى البلسم النفسي الوحيد الذي يعرفه، فقد تلا بهدوء أكثر تضرع مريح في القرآن، وهي نفس الآيات التي كان يتلوها الشابان اللذان كان يقود

بهما السيارة إلى بغداد في وقت لاحق من اليوم قبل محاولتهما قتل نفسيهما.

سرعان ما بدأ صياح ديك النهار، وتحول انتباه حارث، فقد تثاءب الرجل الذي يرقد بالقرب من الباب، وفي الزاوية كان أبو مريم قد بدأ يسعل، الضجيج المتقطع لمدمن على التدخين، وهو يقف وينتقل إلى كل فراش ليهز كل رجل من أجل الاستيقاظ،

كان حارث مستلقيا على ظهره وهو يتمطى ويسترق النظر إلى العريسين، وفكر حارث: إنهما يبدوان صغيرين جدًّا في ضوء النهار الباكر، كما بديا أنهما استراحا بشكل جيد، لقد قاوم إغراء التحديق بهما وهما يرتديان ملابسهما، وكان كل واحد منهما يزرِّر قميصه المكوي حديثا والذي كان معلقا بخطافات على ظهر الباب.

كانت الملابس هي الزي الرسمي للموظفين الحكوميين في بغداد، وقد اختاره حارث للمساعدة في اندماجهم مع جيش من المسافرين في ساعة الذروة، والذين كانوا يقودون سياراتهم إلى بغداد في كل يوم.

بدأ أبو مريم الأذان، وهي إشارة على أنه يجب على الرجال رفع فراش نومهم ووضع سجادات الصلاة على الأرضية.

لقد تم منح العريسين أماكن الشرف القريبة من القيادي، مما أعطى لحارث الفرصة أن يلاحظهما من الخلف، ولم يلحظ أي توتر لديهما، على الرغم من أنه قد يكون هذا آخر يوم لهما على وجه الأرض، وبمجرد انتهاء الصلاة خرج عدد من الرجال مع أبي مريم

للتدخين. لم يكن من المفترض على أتباع داعش أن يدخنوا السجائر، لكن أبا مريم كان مدمنا ولم يتخلَّ عن عادته من أجل أي شخص حتى لو كان الرب.

أدرك حارث أن الوقت بالنسبة له قد حان للتحرك، عليه أن يتصل بالهاتف قبل فوات الأوان، فتبع العريسين إلى المطبخ وهو يفكر كيف يمكنه القيام بهذه الخطوة. كلا الرجلين كانا يلتهمان بيضا مسلوقا وقطعا من الخبز الدائري المسطح المتبقية من عشاء الليلة الماضية فقال لهما: بالعافية، المصطلح العراقي لتمني شخص ما وجبة لذيذة، خذوا راحتكم، فلا يزال لدي أشياء يجب أن أقوم بها قبل رحلتنا. تركهما وخرج إلى مخزن الحبوب وهو يلوح بيده لأبي مريم وهو يعبر الفناء، فنظر القيادي إلى حارث من الأعلى الأسفل قائلا له: هل أبقاك شخيري مستيقظا؟ أجبر حارثًا على ضحكة باهتة ليقول: كلا سيدي، كلا، لقد نمت بهدوء وعلى استعداد لتولي مهمتي، لكنني الآن في عجلة من أمري، يجب أن أحصل على الوقود، فلا نريد أن نفشل، لا سمح الله، بسبب نفاد وقود السيارة.

داخل المخزن، سحب حارث غطاء الغبار عن سيارته من طراز تويوتا كورولا سيدان البيضاء المستخدمة جيدا، وهي مسجلة باسم أبي صهيب، ثم فتح باب السائق وجلس فيها، قامعا رغبته بالوصول إلى الفتحة الموجودة في القماش بالقرب من أرضية السيارة للوصول إلى الهاتف الذي كان قد خبأه فريق الصقور التقني هناك، وبدلا من ذلك قام بتشغيل المحرك، وتعمد وضع كلتا يديه على المقود بينما

كان يقود سيارته إلى الفناء مارا بأبي مريم. سحب القيادي رزمة من الأوراق النقدية من جيبه وأخرج منها عدة أوراق من أجل حارث وانحنى نحوه في السيارة، فقال حارث: سأعود خلال نصف ساعة سيدي، فقال له القيادي: اذهب في رعاية الله، همس حارث بحمد الله وهو يقود سيارته مارا بالجهاديين نحو طرف المزرعة، ثم استدار يسارا على الطريق الترابي المؤدي إلى مركز الطارمية.

عندما توارى منزل المزرعة عن الأنظار، كانت هناك ظلة مزدحمة من أشجار النخيل تحجب السماء، وكان الطريق خاليا، بينما حارث يسير إلى الأمام، كانت يده اليسرى تتلمس الشق باحثة عن الحفرة تحت مقعد السيارة بالقرب من الأرضية ويده اليمنى تمسك بعجلة القيادة، حيث من المفترض أن يوجد هاتف أسود صغير من نوع نوكيا، حينما لمست أصابعه سماعة الهاتف البلاستيكية، سمح لنفسه بابتسامة صغيرة تدل على الارتياح، ثم بدأ يقلق مرة ثانية، هل تملك البطارية طاقة كافية لإجراء مكالمة، فلم يكن لديه شاحن، ولا وقت لشحن الجهاز على أية حال، ولم يكن يستطيع أن يطلب من عامل المحطة مساعدته، لأن شيئا غير عادي كهذا سينتقل بالتأكيد عبر سلسلة القيل والقال المحلية إلى أبي مريم، وبشكل تلقائي عادت إليه بسرعة نغمة صوت أبي علي، بأن الأشياء الصغيرة والتفاصيل هي التي تبقيك على قيد الحياة.

لقد كان حارث بحاجة إلى تشغيل الهاتف قبل أن يصل إلى البلدة، لكن كان عليه أوّلًا تخليصه من مكانه المخفي، ولم يكن يجرؤ على

إيقاف السيارة خشية من أن شخصًا ما يراقبه، وببطء ربط السماعة البلاستيكية في الشق في نسيج القماش، وقد بدا الأمر أكثر صعوبة مما كان يتوقع، وسرعان ما تضاءلت صفوف أشجار النخيل واقتربت السيارة الفارغة من التقاطع، وعليه أن يستدير باتجاه البلدة. تسلح حارث بمزيد من الصبر ونجح أخيرا في تحرير الهاتف، فحبس أنفاسه وهو يضغط على زر التشغيل وتنهد بصوت عال عندما سمع صوت جلجلة مألوفة، لقد اشتغل الهاتف حيث يمكنه الاتصال بالصقور لتحذيرهم من الهجوم المنتظر.

اتجه حارث بالسيارة نحو محطة الوقود وعيناه تراقبان الطريق، وحدد رقما واحدا مبرمجا مسبقا على الهاتف، بعد ثلاث رنات يقطع الاتصال كما تم تعليمه، ثم يعاود الاتصال ويقطع المكالمة ثم يتصل بعد الرنات الثلاث وأجاب مناف في المرة الثالثة. فأخبر أخاه أن العائلة تخطط للتسليم اليوم، وهناك اثنان من الهدايا من المتوقع أن تكون في طريقها إليهم قبل الساعة التاسعة صباحا.

كانت الشفرة بسيطة لدرجة كافية، والصقور بحاجة إلى الاستعداد لاعتراض اثنين من الانتحاريين، وعليهم التحرك بسرعة، فقد كانت الساعة تشير إلى منتصف السادسة صباحا، وبغداد على بعد ساعة بالسيارة. قطع مناف الخط دون أن يرد وسرعان ما أغلق حارث الهاتف مرة أخرى بمجرد وصوله إلى محطة الوقود على أطراف طريق الطارمية الرئيس. لم يكن هناك وقت لإعادة الهاتف إلى مخبئه دون أن تتم رؤيته، وبدلا من ذلك قذف به تحت مقعده حينما فتح الباب لتحية

العامل قائلا: سلام عليكم يا حاج، فرد الرجل: وعليكم السلام يا بني، فقال حارث: أنا مسافر اليوم وأريد أن أملأ الخزان بالوقود، هل يمكنك أن تجيبني إلى هذا الطلب؟، فقال الرجل: على الرحب والسعة يا بني، يداي في خدمتك، فاستدار الرجل إلى الجانب البعيد من السيارة ليبدأ بضخ البنزين.

كانت المحطة فارغة ما عدا سيارة حارث، وبدت شبه مهجورة في ضوء الصباح الباكر، كان المبنى المتضرر مظلما بسبب الطقس وسنوات من الأوساخ تغطي النافذة، حيث العامل يحتفظ بالمخزون، وبينما كان العامل منشغلا استغل حارث الفرصة لإخفاء الهاتف مرة أخرى، حيث وضع حذاءه على لوحة تشغيل السيارة وتظاهر بربط حذائه. فصاح عليه العامل من فوق السيارة، الحمد لله إنه يوم رائع للسياقة إلى أين تتجه؟ فنظر حارث من فوق حذائه ورد قائلا: إلى بغداد إن شاء الله، ثم خفض عينيه بسرعة كي لا يشجعه على المزيد من المحادثة، ثم شد رباط حذائه بقوة وحشا هاتف النوكيا بسرعة في الشق الممزق لبساط الأرضية، حينئذ قال له العامل: لا أستطيع تخيل أن أرتدي هذه، فنظر إليه حارث مرة أخرى وهو غير متأكد مما يعنيه العجوز، فقال العامل: أقصد تلك الأحذية، مشيرا إلى قدمي حارث، فالأربطة تسبب المشاكل والآلام في ظهري، ومن المؤلم أن أتكئ وأربطها بالطريقة التي تفعلها.

أدرك حارث أن العامل لم يكن سارحا كما كان يعتقد، ولم تكن هناك طريقة لمعرفة ما إذا كان قد رأى الهاتف أم لا، وإذا كان كذلك

فهل سيقول ذلك لأي شخص، كان على حارث أن يتصرف كما لو أن الأمر طبيعي، فانحنى مرة أخرى لالتقاط بعض الخيوط وأعقاب السكائر ولكن من أرضية السيارة، ثم قال لحسن الحظ أن جسدي ما زال قويًّا، مبتعدا عن نظر الرجل العجوز، ثم ألقى حارث القمامة على الأرض وسلم العامل الأوراق النقدية التي أعطاه إياها أبو مريم، فقال الرجل يحفظك الله أرسل تحيتي إلى أبي مريم، وأعاد إلى حارث المتبقي من المبلغ، فشغل حارث المحرك مرة ثانية وابتعد.

لقد كان هذا الحديث المختصر بالنسبة لأي شخص آخر أمرا لا يستحق الذكر، لكن العيش بسرية بين الأخيار والأشرار جعل من حارث غير متأكد الى اي جانب يقف الشخص الآخر، هل كان ذلك العامل ودودا فقط؟ أو كان يهدد بفضح حارث من خلال تأكيده على أن قائده صديق له؟.

قاد حارث سيارته بأسرع ما يمكن من أجل العودة إلى بيت المزرعة، وحينما وصل شاهد العريسين قد انتهيا من أكل طعامهما وهما ينتظران في الفناء مع أبي مريم. لم يلقِ القيادي نظرة إلى حارث، وربت على كتفي العراقي والتونسي مودعا قائلا لهما: اذهبا برعاية الله فهو الذي يرشدكما في طريقكما. ابتعد حارث مرة أخرى عن منزل المزرعة وقاد سيارته في نفس الطريق الساكن والمظلل بأشجار النخيل وجلس راكباه في المقعد الخلفي للسيارة صامتين، وقد تبدل هيكلهما النحيف بأحزمة ناسفة ضخمة كانا يرتديانها تحت معاطف شتوية بأزرار محكمة.

كان هـواء الصباح باردا بما يكفي لجعل ملابسهما تبدو مناسبة، على الأقل كان هذا ما يأمله حارث، لأنه بحاجة إلى أن يجتاز بهما نقطة التفتيش الأولى دون دعم أو مساعدة. بعد اجتياز محطة الوقود والانعطاف على طريق بغداد السريع أنزل حارث زجاج نوافذ السيارة، فقد كان بحاجة إلى بعض الهواء النقي لتفتيح مزاجه، ولم يقل راكباه كلمة واحدة منذ أن بدأ قيادة السيارة، فهو لا يزال لا يعرف حتى اسميهما ولم يكن يريد معرفة ذلك أصلا، وقد بدأ يتفحصهما من خلال مرآة الرؤية الجانبية، كان التونسي يجلس خلفه مباشرة وجسده متصلب ويميل نحو النافذة ونظرته تحدق في البعيد، كما لو كان يفكر بشخص ما يحبه، أما الثاني فكانت يداه متشابكتين بينما قدمه اليمنى تدق بشراسة، فقد بدا عراقيًّا طوال الوقت، فمن محادثات الليلة السابقة كان من الواضح أنه يفهم التعابير المحلية والتناقضات التي تربك العرب الآخرين، كانت أصابعه القصيرة والغليظة مشوهة بالجروح، كما لو أنه رجل على معرفة بالعمل الصعب. التقت عينا حارث بعيني العراقي بينما كانت السيارة تتدحرج فوق الطريق الوعر غير المستوي، والذي يؤدي إلى انحدار مدخل الطريق السريع، فقال حارث: اعتذر ألف مرة، سيكون الطريق أكثر سلاسة الآن، فأعاد العراقي نظرته، كانت عيناه البنيتان الغامقتان تطلقان لمعانا مثل حيوان محاصر، ثم سأل حارثًا كم تبعد الرحلة؟ فرد حارث: ألم تذهب إلى بغداد من قبل؟ فأجاب: أبدا، لقد عاش خالي هناك قبل وصول الغزاة، لكننا لم نزره أبدا، وقد هرب من منزله عندما صادر الكفار منزله، فقال حارث: إنه لأمر مؤسف أنك

لم تر بهاء بغداد، فصمت الرجل قليلا ونظر من النافذة قائلا: إن شاء الله سيكون أجري في الجنة أعظم.

شعر حارث بوخزة في صدره، شيء يشبه الأسف، ثم سمع صوت أبي علي في رأسه: إن هذا الرجل ليس صديقك وسيقتلك إذا عرف من أنت حقًا. ابتلع حارث الجملة في بلعومه ورد بحماس كما يفعل المؤمن الغيور: اعتمادا على حركة المرور يجب أن نصل إلى وجهتنا في غضون ساعتين، جزاكما الله خير الجزاء الذي تستحقون. تحركت سيارة الكورولا بثبات على الطريق السريع، مارا عبر الحقول الذابلة والمهلهلة وأكياس البلاستيك تتراقص في النسيم، فمنذ بداية الحرب على داعش، لم يكلف المزارعون المحليون أنفسهم عناء العمل في تلك الأرض والتي يمكن أن تصبح في أية لحظة خطًا أماميًا جديدا، أو تنزلق إلى أيدي العدو تماما، وسرعان ما بدأت السيارات أمام حارث تتباطأ عند اقتراب أول نقطة تفتيش، وأصبح الممر الأيمن مغلقا بثماني عشرة شاحنة، شريان الحياة لاقتصاد البيع بالتجزئة في العراق، وهي تحمل جميع البضائع التي تحافظ على تغذية العاصمة وتأثيثها وتسليتها. أثاث وفواكه من تركيا، وإلكترونيات من الصين ورز من الهند.

جلس سائقو الشاحنات وأرجلهم تتدلى من أبواب سياراتهم، وهم يدخنون بتكاسل، بينما كان جنود الحاجز يحاولون تسيير حركة المرور. لقد أعطوا الأولوية للمركبات الصغيرة التي يقودها العمال، بينما كانت الشاحنات تنتظر لساعات أو حتى أيام من أجل أن تمر، قام

حارث برفع زجاج نوافذ السيارة في مواجهة تسلل السحب السوداء من العادم واندمج مع الخط الأسرع حركة، واستطاع حارث رؤية أربعة جنود عند مقترب العبور، كانوا يقفون تحت الظل الشحيح للوحة نقطة التفتيش المتدلية والمزينة بشارات وحدتهم العسكرية وبملصقات باهتة من أثر أشعة الشمس لأعضائها الذين قتلوا في أثناء أداء واجبهم.

قال حارث للعراقي بصوت خشن، توقف عن التململ فأنت تبدو متوتِّرا ونحن لا نريد أن نمنحهم سببا للنظر في داخل السيارة، بدا العراقي محرجا بينما كان التونسي يحدق به غاضبا، ثم قال له: إن هذا ليس هو الوقت للتفكير مرة ثانية، فرد العراقي قائلا: لا تشكك في شجاعتي فأنت لا تعرف ما في قلبي، فرد حارث: اخرسا، لا تتحدثا ونحن نمر. تحرك الطابور بسرعة رغم ازدحام الطريق، بحسب اعتقاد حارث، بينما كان يشاهد الجنود يلوحون للمركبات بالعبور دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفتيش، كان الحارسان في منتصف العمر وزيهما منتفخ حول الخصر، ولا يبدوان مستيقظين تماما، أو يركزان على المهمة التي بين أيديهما، والتي لم تكن تحريك سير المرور بل مراقبة إشارات الخطر.

استمر حارث بجعل سيارته الكورولا تتحرك وركز عينيه المدربتين على الحافلة الصغيرة أمامه وهي سيارة أجرة تربط بين المدن كان سائقها ينقل العائلات من الأنبار إلى أقاربهم في العاصمة. كان يأمل من خلال ذلك تجنب أن يتم إيقافه، وقد نجحت الخطة،

فبالكاد ألقى الجنود نظرة على الكورولا، ومرّوا برمشة عين، ولم يلاحظ حارث أحدا من الصقور عند نقطة التفتيش، لكنه حينها عاد إلى الطريق السريع واستعاد سرعته مرة أخرى، كان يأمل أن يكونوا قد رأوه.

كان مناف شبه نائم في مدينة الصدر عندما سمع الإشارة من أخيه، فقد عمل حتى وقت متأخر في مركز المراقبة الإلكترونية في وزارة الداخلية ولم يصل إلى المنزل إلا نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكالعادة قامت زوجته لصلاة الفجر ونقلت هاتفه إلى غرفة جلوسهم الصغيرة لتوصيله بالشاحن هناك، وقد أخبر نسمة عشرات المرات أن الهاتف أهم ما يملكه، ولا يمكن إيقاف تشغيله أبدا ولا يجب أن تهبط بطاريته أبدا، وعندما بدأ يرن عند منتصف الساعة السادسة صباحا استيقظ مناف على الفور وجاهد للعثور عليه، فقد كانت شفرة الاتصال مصممة لتناسب منزل السوداني، وشقة مناف كانت بها مقبس كهربائي واحد في غرفة الجلوس فقط وليس في غرفة النوم، لذلك كان من الممكن أن لا يصل إلى الهاتف دائما عند المحاولة الأولى، لذلك اتفقا على أن يقوم حارث بالاتصال مرة ثانية إذا فشلت الأولى، وقد وصل مناف إلى الهاتف في المرة الثالثة، وبحلول الوقت الذي قام فيه حارث بتسليم رسالته، كان مستيقظا تماما ويستعد لارتداء بنطاله، وقد احضرت له نسمة كوبا من الشاي المحلى بينما بدأ مناف بتنبيه الفريق.

لقد أمر وحدة القناصة بالانتشار على الفور، ثم اتصل بأبي علي،

وقال لمدير الصقور إن التسليم قادم ربما في الساعة التاسعة صباحا، وهناك عريسان في الطريق، فرد عليه أبو علي قائلا: اتصل بي إذا وصلوا بغداد، فرد مناف: إن شاء الله وتأكد من أنهم سيفشلون. قفز مناف إلى سيارته المتسيوبيشي السوداء من طراز سيدان، لاعنًا وهو يتحرك داخل وخارج حركة المرور في ساعة الذروة المبكرة، فحتى في هذه الساعة المبكرة بدا أن نصف سكان مدينة الصدر كانوا على الطريق بالفعل.

توجه شمالا إلى طريق بغداد الدائري وأصدر أوامره بالهاتف لجمع أربعة صقور آخرين كانوا مثله، يتسابقون لمنع التفجيرات الانتحارية المزدوجة والحفاظ على سلامة أخيه والمدينة.

كان مناف قد ساعد بالفعل في احباط سبع هجمات تفجير منفصلة، وفي هذه العملية كان قد شحذ أسلوبا للتعامل مع هذه التهديدات، وبينما كان يسرع على الطريق الدولي السريع متعرجا هنا وهناك بين الشاحنات الثقيلة والحافلات الصغيرة المليئة بالركاب، دخل إلى مقر الصقور في وقت قياسي لينضم إلى بقية الفريق المكون من أربعة أفراد، كان الوقت ثمينا، فلديهم أقل من ساعة للوصول إلى موقع اعتراض سيارة حارث، فتوجه الرجال شمالا خارج المدينة، وكان وجهتهم نقطة تفتيش الجيش الأقرب إلى الطارمية، وهي جزء من حزام دفاعي متعدد الطبقات يحيط بالعاصمة.

لقد خلق هذا النظام كوابيسَ مرورية، لكنها من الناحية النظرية يمكن أن توفر طرقا متعددة لقوات الأمن لمنع الإرهابيين، كما

يفترض، من محاولة اختراق أكبر مدينة في العراق، لكن ضعف هذا النظام يكمن في التضارب بين مختلف صنوف القوات الأمنية العراقية التي تسيطر على نقاط التفتيش، فقد سمحت بعض الوحدات بمرور كل السيارات دون إلقاء حتى نظرة، بينما كان البعض الآخر يطالب برشوة مالية، ولذا قام قادة داعش الذين جندوا أبا صهيب (حارثًا) في شبكة السعاة الخاصة بهم بأعمالهم مستفيدين من نقاط ضعف النظام، فمع هوية الأحوال المدنية لديه بأنه من بغداد ولوحة أرقام السيارة، فإن من غير المرجح أن يتم إيقافه، وإذا طلب الجنود رشوة كان لديه نقود يقوم بتسليمها لهم، حتى في الحالات النادرة التي يطلب فيها من الركاب الخروج من السيارة لتفتيشهم، فإن لدى المسلحين خطة، ففي مثل هذه الظروف كان الإرهابيون يقومون بتفجيرات هنا وهناك.

لقد كان مناف وفريقه الحصن الوحيد ضد مثل هذه النتيجة المأساوية، فإما أن يصل الانتحاريون إلى بغداد بأمان وينفذوا خطتهم الأصلية، أو أن يقوموا بتفجير أنفسهم قبل ذلك فيقتلون عددا من القوات العراقية وحارث معهم. تلقى مناف تقريرا مسبقا في نحو الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة حيث وصل هو وفريقه إلى وجهتهم، فقد قيل له إن سيارة تويوتا كورولا بيضاء يقودها حارث قد مرت عبر نقطة التفتيش مع راكبين في المقعد الخلفي، وتوجهت إلى طريق أبي غريب السريع نحو موقع مناف، أمر مناف بسرعة أحد رماة الصقور بالاختباء على ارتفاع مغطى بالشجيرات يطل على الطريق للاستعداد.

كان القناص على دراية بالتضاريس كما هو حال المزارعين المحليين، وكان يعلم أنه لم يتبق سوى دقائق على ظهور سيارة حارث الكورولا البيضاء، وفي غضون ذلك طلب السوداني الأصغر التحدث مع الضابط المسؤول عن نقطة التفتيش، وأوضح له إن لدى الصقور عملية خاصة جارية لتحييد هجوم انتحاري بالقنابل، لكنه لم يذكر حارث ولا المهمة السرية، ولتجنب إراقة الدماء حث زميله الضابط على إبعاد رجاله والسماح لوحدته بالتعامل مع الموقف، فقد كان آخر شيء يريده مناف انتحاريًا مذعورا يقتل زملاءه من الجنود أو تقوم المليشيا في نقطة التفتيش بإطلاق النار على أخيه. وبينما كان يتحدث اقتحم القناص جهاز الراديو الخاص به قائلا لمناف: الكورولا تقترب، فأجابه مناف انتظر الإشارة وقم بواجبك.

أبقى حارث سيارة الكورولا بمعدل السرعة الرابعة على طول الطريق السريع، كانت السيارة البالية ذات محرك قوي، لكنها لن تفوز بأي مسابقة جمال ولا أية سباقات، ليس بالطبع مع ناقل حركتها الحالي، ومع ذلك كانت السيارة مثالية لأداء المهمة، فقد اختلط حارث وحمولته القاتلة في أي وضع وغير ملاحظة لأي شخص لا يتوقعهم.

قبل عدة مئات من الياردات من المنعطف الذين يقودهم إلى نقطة التفتيش، حيث ينتظرهم مناف، بدأ حارث بإصدار التوجيهات، فقال للانتحاريين استمعا جيدا، (نقطة التفتيش التالية بعد هذا المنعطف صعبة، ولن يكون الامر سهلا كما اجتزنا النقطة الأولى، فهذه الوحدة

الأمنية جادة، وغالبا ما يكون لديهم كلاب تتشمَّم المتفجرات ويوقفون السيارات لإجراء تفتيش كامل، لم يكن ما يقوله بالطبع صحيحا، لكنه لم يكن خطأ أيضا، فاجتهاد قائد النقطة هو ما يملي تعامل الجنود مع حركة المرور، لكن الانتحاريين لم يكونا يعرفان ذلك.

قال لهما حارث «يجب أن تفعلا بالضبط ما أقوله لكما، فبعد بضع دقائق سأقوم بسحب السيارة إلى جانب الطريق وستخرجان، وسأقوم بفتح غطاء محرك السيارة كما لو أن لدي عطلًا في المحرك، ستتركان السيارة وتسيران باتجاه النقطة، فالناس الذين يسيرون على أقدامهم سواء في الحقول أو على طول الطريق لا يمكن إيقافهم، وهذا بالضبط ما ستفعلان، ستسيران، وفي بضع دقائق سأعيد تشغيل السيارة وأعبر من نقطة التفتيش بعدكما، وبهذه الحالة إذا أوقفوني وفتشوا السيارة فلن يجدوا شيئا، ثم سأقلكما على الجانب الآخر من النقطة.

نظر العريسان إلى حارث، فلم يذكر أحد هذا من قبل، لكن لم يكن لديهما سبب يدعوهما للشك فيما يقوله لهما، ولم يكن هناك من أحد ليؤكد لهما تعليماته، حتى إن كان لديهما شكوك. أبطأ حارث سيارة الكورولا على الجانب الغربي من الطريق حتى توقف ثم فتح الباب خارجا من السيارة، ثم سار ببطء إلى مقدمة السيارة وقال للانتحاريين: اذهبا الآن سيرا، فقام التونسي والعراقي بفعل ما قيل لهما دون شكوى، ومرَّا بالقرب من حارث عندما مد يده لفتح مزلاج غطاء محرك السيارة.

قال لهما: اذهبا في رعاية الله، وهو يرفع غطاء المحرك ويدعمه في مكانه، ثم انحنى على محرك الكورولا مظهرا كل المقاصد والأغراض كسائق يعاني من مشكلة في المحرك، ومثل الليلة السابقة كانت أعصابه تتشاجر، وقد عزم على أن يظل ساكنا، وكانت تلك الإشارة التي يبحث فريق مناف عنها طالبا من الصقور الانقضاض بسرعة.

لقد بدا أن الوقت قد توقف، وأخبر حارث منافًا لاحقا أنه أصيب بالدوار من اندفاع الدم المفاجئ إلى رأسه، وقلبه ينبض بصوت عال، لدرجة أنه لم يتذكر سلسلة الإطلاقات التي شقت الهواء خلفه وهدير سقوط الجثتين على الطريق. أول شيء تذكر أنه سمع صياحا من شخصية مموهة ترتفع من الأدغال على الجانب الشرقي من الطريق فقد صرخ القناص: لقد أنجزت المهمة.

انطلق مناف نحو أخيه صارخا في وجهه ليبتعد عن المشهد، أما بقية فريق الصقور فقد تم تدريبهم على كيفية تفكيك الأحزمة الناسفة، حيث هرولوا من خلفه وهم حريصون على التأكد من أنه تم تعطيل المادة المتفجرة. شعر حارث بساقيه ترتجفان فابتعد عن السيارة ونظر إلى الجثتين الملقاتين على بعد نحو ٥٠ قدما، كان رأس الرجل العراقي قد تفجر برصاصة القناص القاتلة، أما التونسي فكان وجهه على الأرض والدم يتجمع حول جذعه ولا يبدو أنه يتنفس.

أمضى حارث الساعات الست التالية مع شقيقه في بغداد، وأوجز له كل ما رآه وعن ما يعرفه عن قياديِّي داعش في الموصل، بما في ذلك رقم الهاتف الذي استخدمه واسم المستخدم المشفر على التلغرام،

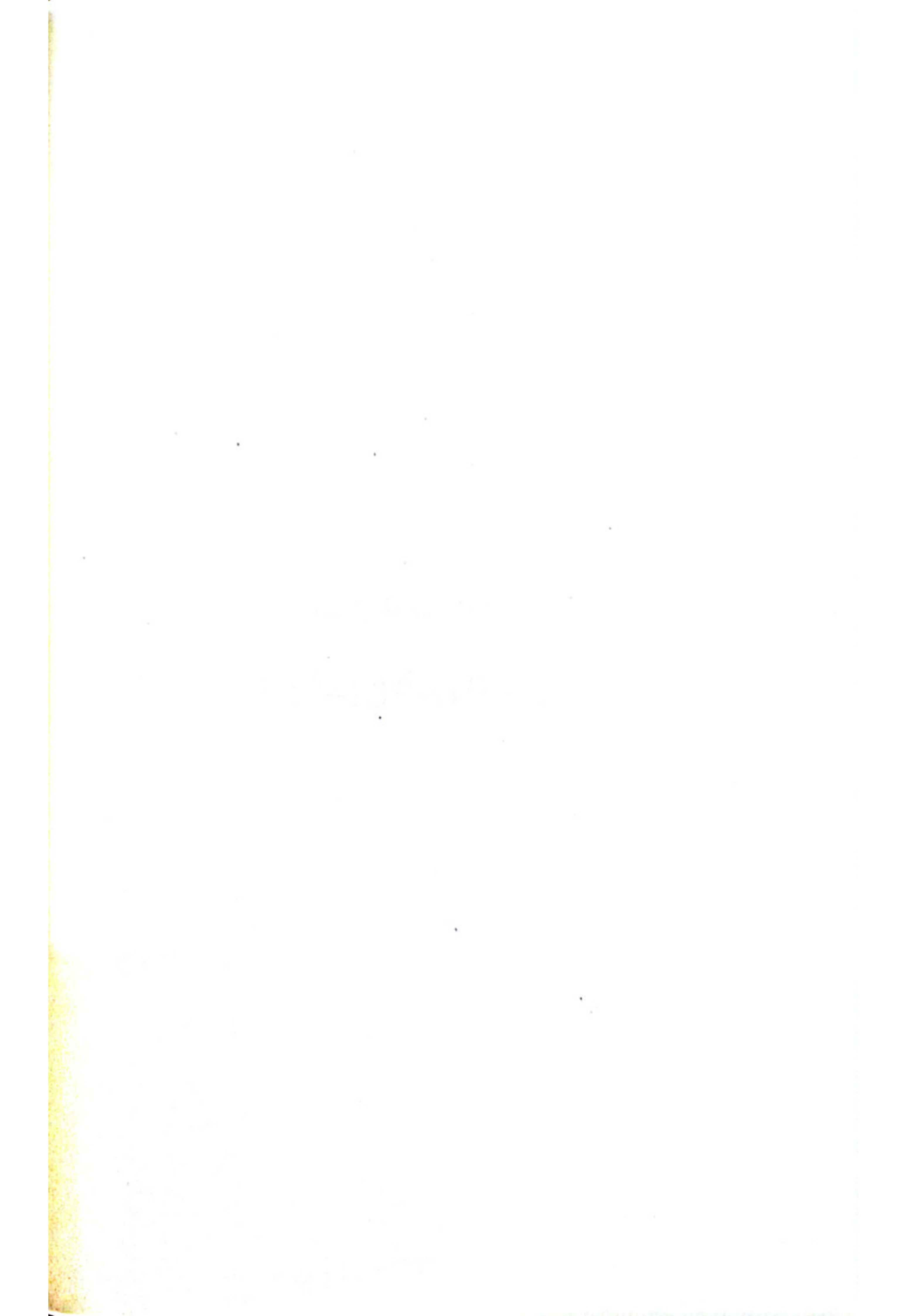
لكنه لم يخبر منافًا عن كابوسه، ثم نام بعمق لثلاث ساعات وجسده مستنزف، فهزه مناف لكي يستيقظ ثم قدم له الطعام وأمره بالعودة إلى الطارمية، قائلا لشقيقه الأكبر: لقد أبلغنا بالفعل التلفاز العراقي بأنه تم تنفيذ هجمات جديدة، وستعتقد داعش أن مهمتك كانت ناجحة، وإذا لم تعد الآن فسيتساءلون عما حدث لك.

من المؤكد أنه وبعد ساعتين عندما عاد أبو صهيب على الطريق الترابي المتعرج والمؤدي إلى بيت المزرعة، كانت الخلية بأكملها مجتمعة لاستقباله وهم يرددون دعاء النصر، وقال له أبو مريم وهو ينزل من السيارة: بارك الله بيديك، فقد مات اليوم ثلاثون كافرا. فقام حارث بتغطية السيارة، وتوضأ ثم انضم إلى الجهاديين وهم يصلون صلاة الشكر.



الفصل الثامن عشر

الـوقـوع فـي الفـخ



بحلـول صيف عـام ٢٠١٦ أصبح حارث أكثـر المجندين نجاحا بقـدر مـا يتعلق الأمـر لدى تنظيـم داعش، فمنـذ انضمامـه إلى خلية الطارميـة كلَّفـه القيـادي لدى التنظيم في الموصل أبو قسـورة بسـت عـشرة مهمـة تسـتهدف العاصمة العراقيـة، وكانت نصـف المهمات تشتمل على قنابل مخصبة معبأة في سيارات معدة للتفجير حول بغداد في مراكز التسـوق ومراكز الشرطة، والحدائق العامة الكبيرة بالقرب من مدينة الصدر، أما نصف المهمات المتبقية فكانت تشـتمل على بشر من الانتحاريين مثل التونسي والعراقي، وكان هدفها تفجير أنفسهم في مكان مزدحم قدر الإمكان.

وعـلى حـد علم كلٍّ مـن أبي مريم وأبي قسـورة فـإن كل مرة كان يغادر فيهـا أبو صهيب (حارث) المزرعة فإن معدل نجاحه فيها يبلغ مائة بالمائة، ولم يكن الأمر يقتصر لديهما على أنه لم يكن يتم إيقافه أبدا عند أي نقطة تفتيش فحسب، بل أيضا عدم إلقاء القبض على أيٍّ من الانتحاريين الذين كان ينقلهم إلى بغداد.

كان قـادة داعـش يعتقـدون أن جنودهـم كانـوا يموتون شـهداء وهـم يقتلـون العـشرات مـن الكفـار، كـما أن الشـاحنات التي كان يتـم تصنيعهـا في معمل المجموعـة الإرهابية في القائم لم تفشـل أبدا، وتمكنـت من تدمير الأرواح والممتلكات وبث الرعب في العاصمة، بحسـب ظنهم. لقـد كان العمل الذي أنجزه أبـو صهيب ظاهريًا في بغداد يعدُّ بقعة مضيئة نسبيًا لتنظيم داعش.

في أماكـن أخـرى وعبر الخلافـة التي قامـوا بتحديدها بأنفسـهم

في ذلك الصيف، اجتاحت القوات المدعومة من الولايات المتحدة مواقعهم في مدينة كوباني السورية بعد أسابيع من القتال المكثف، بينما استطاعت القوات العراقية استعادة مدينة الفلوجة الواقعة على بعد خمسة وأربعين ميلا شمال غرب بغداد.

كانت الجماعة الإرهابية تترنح أيضا من سلسلة من عمليات الاغتيال الناجحة لعدد من القياديين البارزين في داعش من قبل القوات الأمريكية الخاصة، بما في ذلك ما يسمى بوزير النفط في عام ٢٠١٥، وفي آذار من عام ٢٠١٦ قتلت غارة جوية للتحالف وزير حرب داعش المقاتل الشيشاني السيِّئ السمعة والمعروف باسم (أبو عمر الشيشاني)، ثم قتل بعد ذلك قيادي آخر في ساحة المعركة وهو جهادي تونسي مخضرم في غارة جوية أخرى.

في تموز من عام ٢٠١٦ كانت الجماعة الإرهابية لا تزال تسيطر على منطقة بحجم المملكة المتحدة ولديها ما يقرب من أربعة ملايين شخص تحت حكمها، لكن مظهرها المخادع من القوة قد بدأ يتصدع، ولم يعد تنظيم داعش يبدو أنه لا يمكن إيقافه.

داخل قيادة عمليات بغداد المكونة من الجيش العراقي والمخابرات وقادة الشرطة في الخطوط الأمامية، وكذلك ضباط الجيش والاستخبارات من التحالف الدولي، كان هناك تفاؤل حذر بأن مد الحرب بدأ يتحول لصالحهم، لكن ثمن تلك الانتصارات كان باهظا، فقد تم حشد ما يقارب من ٣٠ بالمائة من الرجال في سن القتال، وكانت الوحدات العسكرية التابعة للجيش العراقي تعاني

من معدلات خسائر وإصابات غير مقبولة في أي بلد آخر.

لقد كانت الجنائز تتلاحق لدرجة أن المقابر الرئيسة في البلاد تشهد توسعات سريعة لإفساح المجال لمزيد من الجثث، لكن أبا علي ظل يقول لزملائه إن هناك بصيصًا من الأمل، فقد كانت بغداد شبه محصنة من الهجمات الإرهابية لعدة أشهر، وكل ذلك بفضل الصقور، فقد انطوت الخلايا الإرهابية النائمة لداعش في العاصمة، وفي الوقت الذي كانت تعاني فيه العاصمة ذات مرة من هجمات إرهابية يومية، لم يكن هناك سوى ثلاثة تفجيرات انتحارية تم التحقق منها في ستة أشهر.

لقد أصدرت الصقور بيانات صحفية عن كل التفجيرات التي أمر حارث بالمساعدة بتنفيذها كوسيلة لتغطية عمليته السرية، لكن في الواقع فإن مدينة بغداد حيث يعيش أكثر من خمس سكان البلاد فيها عاشت أمانا أكثر مما كانت عليه منذ سنوات. كما أنه لم يكن أحد يعلم في قيادة عمليات بغداد بأمر ضابط الصقور المتخفي أو المهمة السرية التي تقوم بها الوحدة للحفاظ على أمن العاصمة، لكن الجميع كان يلاحظ، دون شك، أن الروح المعنوية بين سكان بغداد قد تغيرت، فقبل ذلك بعامين كان العراقيون يخشون أن يتم نهب بغداد في تكرار لنهب المغول للمدينة في القرن الثالث عشر، لكن بحلول نهاية عام ٢٠١٦ لم يكن السكان يخشون على حياتهم في كل مرة يخرجون فيها من أبواب منازلهم، صحيح أن البلاد ما زالت تحت الاحتلال، لكن العائلات كانت ترسل أطفالها إلى المدارس، وأخذت بعض الأعمال التجارية تتوسع.

لقد أدرك أبو علي أن السرية هي أمر حاسم لاستمرار نجاحات حارث، ولذا لم يقم أبدا بإنشاء ملف ورقي عن جاسوسه، وبدلا من ذلك تأكد من جعل رئيس الوزراء يفهم أن لدى الصقور سلاحًا فعّالًا في الميدان كجزء من الجهود الرامية إلى هزيمة تنظيم داعش الارهابي، وفي إحاطات مختصرة منتقاة، كان مدير الاستخبارات يشير إلى العميل (٣١)، وهو الاسم الرمزي الذي استخدمه لضابطه السري عندما كان يشارك معلومات مهمة بشأن المسلحين، والتي تم الحصول عليها من مكالمات حارث شبه اليومية مع أبي قسورة.

كان الأمريكان يضعون عاصمة الخلافة في الموصل تحت المراقبة الإلكترونية، لكن الحكومة العراقية لم تكن تعرف أبدا كم هي كمية المعلومات التي يسمحون بمشاركتها أو التي يحجبونها، مع ذلك ولمدة سبعة أشهر كان أبو علي يسلم لرئيس الوزراء العراقي معلومات استخبارية عالية الجودة من كبار العقول المدبرة لدى تنظيم داعش، وهو أمر لم يكن تحت تصرف أي زعيم عراقي من قبل، وفي كل مرة يستخلص مناف المعلومات من شقيقه، كان أبو علي يذكره أن يعبِّر عن امتنانه لعمل حارث الشاق قائلا له: ربما لا يعرف رئيس الوزراء أو جنرالات الجيش اسم أخيك، لكنهم يعرفون التضحية التي يقوم بها، فأخبره أننا جميعا نحييه على هذا الجهد.

كانت اللقاءات مع مناف هي الاتصال الوحيد لحارث بالعالم خارج تنظيم داعش، وهي تمثل فترة راحة عابرة من القسوة والضغوط في عمله. في ذلك الصيف، وبعد إحباط هجوم انتحاري آخر، جلس

مناف مع شقيقه في منزل آمن بالقرب من سجن أبي غريب، وهو يمر فيما أصبح أنموذجا مألوفا للأسئلة مثل، مع من تحدث حارث في الموصل؟ ومن زار المزرعة؟ كيف كان شعور حارث؟ لكن منافًا لمح احمرار الإرهاق في عيني حارث، ولاحظ أنه فقد من وزنه، وعندما نقل له مديح أبي علي، بدأ أخوه المتحفظ بالبكاء، وبالنظر إلى الوراء، أدرك مناف أن ذلك العرض المفاجئ للعواطف كان بمثابة تلميح بأن شيئا خطيرا كان يزعج حارثًا، لكنه في ذلك الوقت لم يفكر في سؤاله عن ذلك.

في منتصف عام ٢٠١٦ كانت انتكاسات تنظيم داعش في ساحة المعركة قد أثقلت كاهل المجموعة الإرهابية، وبين الجناح المتعصب في التنظيم بدأت تتشكل وجهة نظر شريرة لتفسير فقدان الزخم والقضاء على بعض أكثر رجالهم فاعلية في المعارك، فقد أصبح القادة الباقون على قيد الحياة مصابين بالهذيان، وفي إيمانهم المحموم بالحرب المقدسة كان هناك سبب وحيد لتلك النكسات وهو الخيانة.

إن أحد المفاهيم الخاطئة لدى الغرب عن داعش يتعلق بتركيبته الديموغرافية، فقد كان عدد المسلمين الأجانب من الدول الغربية الذين سقطوا ببراثن التنظيم نتيجة الحملات الدعائية التي تم تنفيذها ببراعة، أكبر بكثير من عدد العراقيين والسوريين المحليين وكذلك من العرب الآخرين والذين يشكلون العمود الفقري لبيروقراطية الجماعة وقوتها القتالية. كان قادة الجماعة في الغالب من العراقيين، ومن الرجال المفطومين على الوحشية المحيرة لنظام صدام

حسين وفرق التعذيب التابعة له، فلا عجب إذن أن أولئك الرجال الذين يديرون تنظيم داعش يقلدون أساليب الديكتاتور الأمنية، لذلك أنشؤوا طبقات متعددة ومتداخلة من شرطة الأمن، وحشدًا من المخبرين الذين يتجسسون على جيرانهم وعلى جميع التفاعلات العامة لضمان الامتثال للقواعد الصارمة للخلافة، سواء فيما يتعلق بطول لحية الرجل أو منع التدخين، وهكذا فإن أصغر مخالفة تكون العقوبة عليها شديدة، فتخيلوا ما الذي يمكن أن يفعله أولئك المخبرون بمن يشتبه به بالخيانة.

عندما تعاقبت النكسات في ساحة المعركة كان إداريو الخلافة، سواء أكان بمستوى قاضٍ للبلدة أو حاكم محليٍّ يبحثون عن الجواسيس، أولئك المخربون الذين يدمرون منظور دولتهم الدينية، ولذا لم يكن لديهم أحد فوق الشبهات، لا العلماء اللامعون الذين توافدوا على داعش من دول مثل فرنسا وتركيا، ولا المشاركون في الخطوط الأمامية الذين كانوا يهربون جند الله إلى بغداد، وبغض النظر عن مدى تفاني أحد المتعبدين أو نجاحه، كان تنظيم داعش ميَّالا للشك.

في الطارمية، اتبع أبو مريم إملاءات الموصل حرفيًّا، وكانت أفعاله منسجمة مع نوع الشخص الذي وصفه حارث في تقاريره المختصرة، فقد أصبح ذلك المزارع الصارم والنحيف وذو الظهر المستقيم والجلد المتغضن بعمق والمتحول إلى جهادي، صارما في الأسلوب، حيث أوضح أنه يجب إطاعة الأوامر دون أي سؤال،

وهو سلوك لا يختلف عن ما عاشه حارث في أثناء نشأته في مدينة الصدر.

لم يعرف حارث على وجه التحديد سبب دعم أبي مريم لداعش، فقد كان رجلا متدينًا بلا شك، لكنه مثل معظم العراقيين لم يترعرع على التفسير المتشدد للإسلام الذي تتبناه الجماعة الإرهابية، ومع ذلك كان لديه ازدراء شديد للسياسيين الشيعة الذين سيطروا على البلاد بعد عام ٢٠٠٣، ومثل غيره من أهل السنة في الريف، وجد أن من المستحيل التكيف مع الحقائق السياسية الجديدة بعد الإطاحة بصدام، لذا فهو من وجهة نظره يرى أن هناك شرفا يكسبه من مقاومة الحكومة الجديدة، بدلا من اختزال الحياة كمواطن من الدرجة الثانية، وإذا كان ذلك يعني قتل العراقيين بما فيهم النساء والأطفال فليكن، كانت رؤيته للعالم (مانوية) فقد كان، ومن هو على شاكلته، ضد كل الآخرين، وقد أثبت شيعة العراق والأمريكان أنهم على الجانب الآخر.

لقد كان النصر في معركة البقاء على قيد الحياة يتطلب الانضباط والقواعد والعقاب وحتى أولئك الجنود الذين يعتقد أنهم مخلصون للقضية، كانوا بحاجة للتذكير بعاقبة الخيانة والفشل، لذلك وخلال صيف عام ٢٠١٦ كان أبو مريم يملأ فترات ما بعد الظهر الحارة الكئيبة في المزرعة بإلزام المجموعة هناك بمشاهدة مقاطع الفيديو الدعائية لتنظيم داعش، ومع وجود هواء يكفي لتبريد غرفة المعيشة من خلال المروحة السقفية، كان رجاله يجلسون على أرضية الغرفة

الكبيرة وأرجلهم متقاطعة أو متكئين على الوسائد حول شاشة الحاسوب لمشاهدة مقاطع الفيديو الفجة والعنيفة والتي تم إنتاجها كجزء من مطاردة مسعورة عبر الخلافة لاجتثاث الخونة من بين صفوفها.

وأظهر أحد مقاطع الفيديو رجالا تم إدانتهم كجواسيس وهم مربوطون بشكل متعاكس في مدينة الرقة عاصمة داعش في سوريا ثم تم قتلهم بالرصاص أمام المتفرجين المتجمعين، فيما تضمن مقطع آخر اعترافات مسجلة لرجال صرحوا بتلقيهم أموالًا من أعداء داعش في مقابل تقديم معلومات استهداف لقوات التحالف، بعد ذلك تم تقييد أولئك الرجال داخل سيارة فجرها عناصر التنظيم الإرهابي، وبعد ذلك ناقش فيديو آخر عضوة في الخلافة تم انتقادها باعتبارها عميلة لوكالة المخابرات الروسية بعد مقتل العديد من المسلحين الذين كانت تعرفهم.

لقد أبقى أبو مريم مقاطع الفيديو تعمل دون توقف إلى أن انطفأ مولد المزرعة ليلا، ومع عدم توفر وسائل الترفيه فقد كان من النادر أن يبتعد الرجال عن مشاهدة المقاطع البشعة بعد عرضها المتكرر، فبعد كل شيء تم تصوير نسخة من الواقع أراد رجال خلية حارث تصديقها بشدة، لأن المجموعة التي تعهدوا لها بالولاء كانت في مهمة صالحة ولن يتم التسامح مع الهزيمة.

عمل حارث بجد ليبقى صامدا وهو يشاهد إعدام الخونة مرارا وتكرارا، وكان يتساءل في قرارة نفسه ما الذي يدفع كل ضحية

للاعتراف بالجرائم المزعومة؟ لقد افترض أن الرجال تعرضوا للتعذيب لتقديم اعترافات كهذه، لكن بينما كان يدقق في أجسادهم بحثا عن علامات سوء المعاملة لم ير أبدا أي علامات واضحة للضرب أو الإساءة، فقد كان مصورو داعش ماهرين في إظهار أجزاء مختارة فقط من جسد السجين، فعلى سبيل المثال يتم عرض وجه خال من الجروح والكدمات أمام الكاميرا، لكن ليس الجذع أو الذراعين أو الساقين، وبغض النظر عن مدى جودة الإنتاج فإن فرق دعاية داعش لم تستطع تعديل الخوف في عيون السجناء، أو العبوس الشديد على وجوههم في أثناء تلاوة اعترافاتهم المكتوبة.

في ذلك الصيف أمضى المفوضون السياسيون لتنظيم داعش ليلة في مزرعة الطارمية بعد مهمة في أقصى الغرب عند محافظة الأنبار لاستئصال الجواسيس المشتبه بهم، فقبل شهرين من ذلك تم قتل الإرهابي المخضرم شاكر وهيب في غارة جوية للتحالف، مما أثار الذعر بشأن العملاء المزدوجين المحتملين والذين يعملون ضد الجماعة الإرهابية في غرب العراق.

لقد أجبر المفوضون أعضاء خلية الطارمية على مشاهدة فيديو جديد يظهر إعدام أربعة وعشرين من أفراد عشيرة شاكر وهيب للاشتباه بتزويدهم الجيش العراقي بإحداثيات جي بي أس لتحديد مكانه. لم يكن سرًا أن هناك فسادًا في الجيش العراقي، حيث يسمح لمقاتلي داعش بالمرور عبر الخطوط الأمامية دون أي مضايقات مقابل المبلغ المناسب من المال، لكن ذلك كان مصدر غضب بين قادة

داعش، حيث يتقبل مقاتلون من داخل صفوف التنظيم منح الرشوة أو خيانتهم.

لقد أنهى المفوض محاضرته عليهم بشعار تقشعر له الأبدان قائلا وهو يشرب كوبا من الشاي غير المحلى: إن الطريق إلى النصر يحتاج إلى بندقية بعشر رصاصات، تسع للخونة وواحدة للعدو، نرجو أن يتعفَّنوا جميعا في الجحيم.

في بداية شهر تموز تلقى حارث مجموعة من الأخبار السارة، فقد اجتاز ما كان في جوهره أول مراجعة لأداء عمله في تنظيم داعش، وأشاد أبو مريم بتفانيه، وعلق على مهماته الناجحة، وبعد فترة وجيزة وخلال مكالمته الهاتفية اليومية مع أبي قسورة في الموصل، أخبره القيادي أنه تم ترقيته وتحمله للمسؤولية، وبدلا من راتبه الذي يبلغ ٣٠٠ دولار من داعش أصبح راتبه ٦٠٠ دولار، كما أنه، وبالاضافة الى نقل الانتحاريين إلى العاصمة، فإن حارثًا سيساعد في اختيار أهداف تفجير محتملة أيضا.

لم يصدق حارث حظه الجيد، لأنه لن يكون في وضع يسمح له بمنع الانتحاريين من مهاجمة العاصمة فحسب، بل أيضا يمكنه توجيه قائمة الأهداف والمعلومات التي يمكن أن يقدمها للصقور مسبقا حتى يتمكنوا من التركيز على المراقبة على مواقع محددة، وما أدركه أيضا، وهو يقود سيارته التويوتا البالية بعيدا عن المزرعة نحو بغداد في أول مهمة استطلاعية له، هو أن هذه المهمات الجديدة ستمنحه متسعا من الوقت لمقابلة مناف، كما يمكنه إطلاع مجموعته الحقيقية

من إخوته في الصقور بشكل كامل بدلا من الرسائل المستعجلة التي كان يرسلها على التلغرام في المناسبات النادرة التي يتمكن فيها من الوصول إلى هاتفه. كما أنه قد يتمكن حتى من تدخين النارگيلة أو رؤية أسرته، فقد كان ذلك شهر رمضان المبارك وهو الوقت الذي يصوم فيه المسلمون نهارا ثم يفطرون مع عائلاتهم الكبيرة ليلا.

لقد كان حارث متشوقا لمعرفة ما الذي يفعله أطفاله، وكم نما ابنه خلال ستة أشهر التي افترق فيها عنهم. لم يكن لدى حارث موعد نهائي للعودة إلى المزرعة، لأن أبا مريم يعرف أنه قد أوكلت إليه مهمة حيوية، وبقدر معرفة حارث، فقد وثق به قائده على الرغم من الهستيريا بشأن الجواسيس، فهو بعد كل شيء قد تلقى المديح على عمله.

بحلول الوقت الذي اجتاز فيه حارث نقطتي التفتيش على مشارف مدينة بغداد، غمرته فكرة الذهاب إلى المنزل، حيث يمكنه الإفطار في رمضان ويأكل طعام والدته ويرى أشقاءه الأصغر عمرا وأطفاله، فبالتأكيد هم مشتاقون إليه بقدر ما هو مشتاق لهم، وربما حان الوقت بالنسبة كي يفهموا كم أصبح مهمًّا.

بمجرد أن استدار حارث بسيارته إلى طريق مطار بغداد السريع ذي الستة ممرات والمتجه نحو وسط المدينة، سحب هاتفه السري من مخبأه واتصل بمناف قائلا: أخي أنا في بغداد، لكن لا تقلق لا يوجد هجوم مخطط له، أنا في مهمة جديدة ستسعدك. تفاجأ مناف، ولكنها كانت مفاجأة سارة، وقد أثار فضوله حينما طلب منه شقيقه أن يلتقيا

في منزل والدهما عند غروب الشمس، فقال له مناف مندهشا: هل أنت ذاهب إلى مدينة الصدر؟ فرد حارث: لا تقلق يا أخي سأشرح لك عندما أراك، ثم اتصل بأخيه الأصغر منذر طالبا إبلاغ أم حارث أنه سيكون بالمنزل ليتناول إفطار رمضان، قائلا لأخيه: لديَّ استراحة من مهمتي، لذا قل لها ألا تثير ضجة، لأنني لا أستطيع البقاء طويلا.

بعد ساعتين كان حارث جالسا في غرفة معيشة منزل السوداني في مكانه المعتاد حول سفرة الطعام، حيث قدمت والدته أطباقا من مرق الفاصولياء والرز والدجاج المسلوق وأكواب اللبن البارد، فقد قامت الأم بإخطار إخوته الثمانية حالما علمت أن ابنها الأكبر قد وصل، وعندما عادوا إلى المنزل استقبلوا حارثًا كضيف شرف، وقبّلوا خدَّه بالطريقة التي يتقن بها العراقيون تقبيل أصدقائهم المقربين، وكل الذي عرفوه منه أنه كان في مهمة سرية للغاية وحيوية للأمن الوطني.

كان أطفال حارث متحفظين بعض الشيء، وكلٌّ منهم يتساءل أين كان والدهم كل ذلك الوقت، لكنهم يعلمون أنهم ليسوا بالمكانة التي يسألون فيها عن ذلك، كانت الأسرة في خضم تبادل المجاملات عندما رن الهاتف قاطعا لحظة هياج اللحظة السعيدة التي كانوا فيها في الغرفة.

لم يصدق السودانيون آذانهم وهم يسمعون نغمة رنين الهاتف، فقد كانت نغمة نشيد داعش المشتركة التي غالبا ما كانت تستخدمها في مقاطع الفيديو الدعائية الخاصة بها، فلم يكن لأي شيعي في العراق

أن يحفظ هذه النغمة في هاتفه، فهل كانت تلك نوعا من المزاح الذي يقوم به حارث مع أصدقائه في العمل؟ ودون أن ينبس حارث ببنت شفة قام هاربا من الغرفة وحبس نفسه في الحمام قبل أن يضغط على زر الرد في هاتفه.

لقد وضع نغمة الرنين المبرمجة هذه على هاتفه باعتباره أبا صهيب لتمييز المكالمات المهمة جدا، فقد كان قائده أبو قسورة من الموصل على الخط، قائلا له: الله معك يا شيخي، متذكرا أن يتبنى لهجة أبي صهيب المتقطعة، فرد القيادي: ومعك يا أبا صهيب، لقد اتصلت لأسأل عن الجديد في بغداد، أين أنت الآن يا بني؟. شعر حارث بعصف متجمد من الفزع يحل فوقه، هل يمكن أنه تمت متابعته من قبل وحدة غير معروفة من داعش خلال مهمة الاستطلاع حول بغداد؟ هل كانوا يراقبونه حتى الآن؟ لذا أجاب بأول شيء خطر في باله قائلا:

شيخي أنا في بغداد كما أمرتني، وفي أحد أحياء (الرافضة) مستخدما الكلمة التي يستخدمها التنظيم للشيعة،(*) الرافضة هم الجماعة الذين أداروا ظهورهم لما تعتبره الجماعة الإرهابية التفسير

(*) مرة أخرى تخوض المؤلفة في قضية دينية وتاريخية معقدة، كان من الأفضل لها تجنب الحديث عنها وعدم محاولة اختصار مشكلة كبيرة أدت إلى انقسام الدين الإسلامي بين أكبر طائفتين بسطر واحد، ونحن ننقل هنا ما تقوله حفاظا على أمانه الترجمة دون تبني أو تحمل مسؤولية ما تقول. المترجم.

الصحيح للإسلام، تابع حارث: أنا أبحث عن أفضل الأهداف لجنودنا كما أمرتم، هل لديك أي تعليمات جديدة لي؟ توقف أبو قسورة قليلا قبل أن يرد بالقول: لا يا بني، طالما أنك تفي بأوامرك، ليس لدي شيء آخر، قدم لأبي مريم تقريرا كاملا عندما تعود هذا المساء. بعد أن أغلق القيادي الهاتف، أدرك حارث أن ظهره مبتل بالعرق، وقلبه كان ينبض مثل طبول العرس، ثم أخذ نفسا عميقا عدة مرات قبل أن يعود إلى غرفة الأسرة المزدحمة.

في الدقائق القليلة التي كان فيها حارث بعيدا عن الغرفة، وصل مناف الى المنزل، وللوهلة الأولى حينما رآه بدا له أن شقيقه كما لو أنه كبر عشر سنوات، وقبل أن يتفوه حارث بكلمة قال مناف: أمي اعتذر لك ألف مرة، ولكنني أمرت بإحضار حارث وإعادته إلى المقر، فهناك حالة طارئة وقائدنا يحتاجه بشكل عاجل.

كما يعلم مناف، فقد فعلت تلك الكلمات فعلها، وعندما سار مناف مع حارث إلى الفناء وعادا إلى سيارتهما، اشتبه والداهما بوجود شيء غريب يحدث، فقد مرت أشهر منذ أن شاهدا حارثًا، ثم عاد إلى المنزل فجأة ليغيب بسرعة مرة أخرى، لكنهما لم يطرحا أسئلة، فبعد كل شيء كانت هناك حرب تجري.

بينما كان الاثنان يقودان سياراتهما بعيدا قال له مناف: يا خرا(*)،

(*) هكذا وردت في النص، حيث كتبتها المؤلفة بطريقة النقحرة أي رسم الحروف وكتابتها بحروف لغة أخرى أكثر من مرة. المترجم

ما الذي حدث لك؟ هل تعتقد أنك في إجازة؟ من الذي أعطاك الإذن بالعودة إلى المنزل؟. كان حارث يبدو شاحبا كما لو أنه مصاب بالرشح، واستطاع مناف أن يرى أن شيئا فظيعا قد حدث، لكنه لا يعرف ما هو، فقال له حارث أخيرا: مناف، أعتقد أنني في ورطة، فقد يشك أبو قسورة بأنني خائن.

أوقف مناف سيارته عند بائع الشاي على جانب الطريق، عندها بدأ حارث يصف أرقه وقلقه، فقد أخبر شقيقه عن التقييم والترقية، وجنون الشك المتنامي بين رفاقه من قادة داعش، ثم وصف كابوسه وإحساسه الذي لا يطاق بالغرق وبانجرافه تحت الماء. فاستشاط مناف غضبا وقال: لماذا تغري الشيطان؟ لماذا عندما أظهروا لك ثقتهم، تجازف بعصيانهم على الفور؟ ألا ترى كم أنت متهور فيما تصنع؟ عليك أن تنسحب فأنت لا تفكر بوضوح.

صمت حارث في السيارة، بينما كان مناف يقودها غربا، عائدا نحو الطريق السريع المؤدي إلى الطارمية. في وقت سابق من الصباح لم تكن خطته محفوفة بالمخاطر، فهل فقد ميزته بعد ستة أشهر من التخفي؟ رفض حارث طلب أخيه وأخبر منافًا أنه سيعود إلى منزل المزرعة، وتوسل إليه أن لا يخبر أحدا عن طيشه أو كابوسه، وقال لمناف: إن المكالمة الهاتفية من أبي قسورة صدمته بشكل مباشر، ثم قال لمناف، لا تقلق أنا تحت السيطرة، فبحلول الوقت الذي سأصل فيه إلى الطارمية ليلا فإن كل ما سيرونه هو أبو صهيب، ولن يكون هناك المزيد من الأخطاء أعدك بذلك. رأى مناف إصرار أخيه واستسلم

لذلك، فإذا عرف أبو علي، لا سمح الله، بهذه المغامرة فإن رئيس خلية الصقور الحذر والبارد سيصر على سحب حارث من الميدان بحسب اعتقاده، وقد أخبر حارث شقيقه الأصغر أنه لن يسمح بحدوث ذلك مرة ثانية، فهو لن ينبذ تسديدته نحو المجد.

بعد ذلك بيومين تسللت شاحنة مليئة بالمتفجرات في الشوارع المزدحمة لمنطقة الكرادة وهو حي راق على طول نهر دجلة بالقرب من حرم جامعة بغداد والعديد من الوزارات الحكومية، حيث تصطف أغلى المحلات التجارية في بغداد في شوارع الحي التاريخية، ويجلس اساطين الادب والمفكرين في مقاهي الأرصفة لشرب الشاي ومناقشة حالة العالم.

كان الوقت في نهاية رمضان والعائلات تحتشد في المتاجر بحثا عن ملابس العطلة للاحتفال بعيد الفطر الذي كان من المقرر أن يبدأ قريبا، وكان الشباب يتوافدون على المقاهي الرياضية الجديدة ومقاهي الأرگيلة التي نشأت بفضل الإحساس بالاستقرار حول العاصمة، كانت بطولة أمم أوروبا تجري والمشجعون المهووسون بكرة القدم يشاهدون مباريات ربع النهائي.

قاد سائق الشاحنة الملغومة إلى العديد من المقاهي في الهواء الطلق وفجر حمولته خارج مركز تجاري من ثلاثة طوابق مما أسفر عن مقتل مجموعة صغيرة من المارة على الفور، لكن الانفجار أشعل النار في كل شيء قابل للاشتعال، وفي لحظة، أصبح المركز التجاري جحيمًا شديدا، مما أدى إلى محاصرة مئات الأشخاص في الداخل.

أصيبت بغداد بصدمة، فبحلول الصباح التالي بلغ عدد القتلى ثلاثمائة شخص، مما جعل تفجير الكرادة أكثر الهجمات دموية في العراق منذ عقد من الزمن، وعقد رئيس الوزراء حيدر العبادي اجتماعا عاجلا له مع قادة الأجهزة الأمنية، بينما كان عمال الطوارئ لا يزالون يحاولون إخماد الحريق وسحب الجثث المتفحمة من تحت الانقاض في البناية التجارية المحطمة. لم يستطع احتواء غضبه بشأن المأساة، لقد كانت بغداد في حالة تأهب قصوى، وهو إجراء احترازي ضد نزعة داعش المعروفة بالقيام بالهجمات خلال موسم الأعياد الإسلامية.

صرخ رئيس الوزراء في وجه الجنرالات والوزراء الجالسين حول طاولة الاجتماع قائلا: كيف بحق الجحيم توغل الإرهابيون إلى قلب العاصمة وعلى بعد نصف ميل من منزل عائلته، لكن لم يكن لدى أحد منهم إجابات ولا حتى أبو علي البصري، ففي تلك اللحظة من الغضب الشديد لم يكن هناك من عزاء أن نجح هو وأفراد آخرون في قوات الأمن العراقية بإحباط عشرات الهجمات الإرهابية المخطط لها، ففي مجال عملهم لم يكن هناك مجال للفشل حتى وإن كان واحدا بالمائة فهو أكثر من اللازم.

مع غضب رئيس الوزراء، كان مناف على الجانب الآخر من النهر في مقر خلية الصقور، وقام بتسجيل الدخول إلى مواقعه المشفرة في محاولة لمعرفة الخطأ الذي حدث، فهو لم يهمل اتصالا واحدا من حارث أو أي حديث من عملاء الصقور بشأن هجوم واسع النطاق

على بغداد، لكن لم يكن لديه شيء يقدمه لأبي علي عندما طلب منه تقديم معلومات عن الحادث الإرهابي أو أي تفاصيل يمكن تقديمها لرئيس الوزراء.

بثت القنوات التلفازية في كل أنحاء العراق تغطية كاملة لتداعيات الانفجار، وكان من بين الضحايا عادل الجاف، وهو راقص شاب يُعرف أيضًا باسم عادل يورو، كان من المقرر أن يبدأ زمالة دراسية في نيويورك، كما قتل ذو الفقار عريبي نجل نجم كرة القدم العراقي غانم عريبي الذي لعب في مونديال ١٩٨٦، فيما كان العديد من الضحايا من الأطفال كانوا يلعبون في المركز التجاري.

بعد يومين من حادث التفجير أقال رئيس الوزراء وزير الداخلية ورئيس وكالة المخابرات الوطنية فيما تمت ترقية أبي علي إلى منصب رئيس مكافحة التجسس ورئيس الأمن الوطني.

كان من أول الأعمال التي قام بها مدير الاستخبارات في منصبه الجديد تقديم تقرير تم تجميعه بمساعدة وكالات الاستخبارات المحلية العراقية، وقد خلص تقريرهم إلى أن السائق قد سافر إلى العاصمة من محافظة ديالى بالقرب من خط المواجهة بين الأراضي التي يسيطر عليها تنظيم داعش والأراضي الفيدرالية العراقية، فقد قاد سيارته في طريق صلاح الدين السريع للوصول إلى بغداد، وليس بالقرب من خلية الطارمية أو حارث.

ما حذفه أبو علي من التقرير هو حقيقة أن ضابطه قد تم تجميده من هذه العملية، وهو ما لم يرح مدير الاستخبارات، فمنذ إدخال

حارث في صفوف العدو تم إبلاغه بجميع العمليات الكبرى التي تستهدف العاصمة، فقد فرضت البيروقراطية الصارمة لداعش أن الأعضاء يتصرفون ضمن حدود صارمة لأراضيهم، وكانت خلية الطارمية مسؤولة عن بغداد، تساءل أبو علي ما الذي كان يفعله العدو الآن بالضبط، ولم يخطر بباله قط أن حارثًا أو أبا صهيب كان مراقبا أو أن ولاءه قد أصبح موضع تساؤل.



الفصل التاسع عشر

العودة إلى الوطن مرة أخرى



في أواخـر أيلول من عـام ٢٠١٦ وضعت أبـرار خطتها بالكامل من أجل العودة، فقد كانت الفكرة أن تتسـلَّل بشكل غير مرئي، مثل الشبح عبر مراقبة الجوازات وتسـتعيد حقيبتها الباهتة من خط سير الحقائب ومن ثم تعود إلى المنزل.

عـلى مدى الأشـهر الماضية كانـت أبرار في تركيـا وتحتفظ بوجود متخـفٍّ، مثـل العديد مـن اللاجئـين الناطقـين بالعربية مـن مناطق الحرب في الشرق الأوسـط، وقـد أصبح جزءًا من قصـة تخفيها التي أخبرت بها والديها حقيقة بالفعل، فقد قام مدير سـوري في مسـتودع للأدويـة بتوظيفها في المكتب مما منحها بعض المال لتكملة المدخرات التي كانت قد سحبتها من المصرف قبل مغادرتها العراق.

كانت أبرار تحافظ على نفسها، خارج العمل، فنادرا ما كانت تبتعد عن غرفتها في نزل رثٍّ مخصص للعاملات، وكانت تمضي السـاعات على الإنترنت في غرف الدردشة المألوفة بالنسبة لها مع أنصار داعش، وعـلى الرغم من رحلتها المخيبة للآمـال إلى الخلافة، فقد ظلت أبرار مؤمنة بهدفها في تطهير العالم من الكافرين.

بعد أن انجرفت في حماسة أولئك الأصدقاء على الإنترنت، بدأت تفكـر بشـن هجـوم بمفردها، وهـو أمر يمكـن القيام به تحت اسـم الخلافة وقائدها أبي بكر البغدادي، لذا وبمسـاعدة المواد الصيدلانية التـي سرقتهـا مـن العمل، أعـادت أبـرار سرًّا بنـاء مخزون مـن مادة الريسين، المادة السـامة التي أرادت استخدامها بعملية ذئب منفردة، وبحلـول بدايـة الخريف كان لـدى أبرار هدف في ذهنهـا وإمدادات

كبيرة ما يكفي لبدء العمل.

بعثت أبرار رسالة إلى عائلتها في بغداد تخبرهم فيها بحاجتها أن تعود إلى المنزل قائلة إن الحياة في تركيا غالية وصعبة للغاية بالنسبة لطالبة عراقية، وقد شعر والداها بسعادة غامرة لسماع ذلك، فيما أرسل إليها الأستاذ الكبيسي مالا لشراء تذكرة طائرة حيث كانوا يتوقعون وصولها في الحادي والعشرين من أيلول، لكن الرحلة من تركيا إلى العراق قد شكلت تحديا خطيرا بالنسبة لها، فبطريقة ما يتعين على أبرار اجتياز مستويات من أمن المطار دون أن تثير الشكوك بشأن شحنتها المميتة، والتي كانت قد أخفتها في علب فارغة من الحليب المجفف، فإذا تمكنت من تجاوز حرس الحدود الأتراك في المطار، فعليها أن تقوم بالبقاء متخفية خلال الرحلة حتى لا يتمكن أيٌّ من رفاقها العراقيين من الركاب على متن الطائرة تذكرها أو تنبيه المخابرات عندما تهبط في بغداد.

كان هدفها العثور على أسرة تجلس بجوارها على متن الطائرة حتى تمتزج بهم، فحتى مع قميصها العالي العنق والشادور الأسود والحجاب المشدود الذي يخفي جسدها، كانت أبرار تعلم أن كل رجل في الطائرة ينظر إليها، سيكون معظمهم متحفظين لكنهم سيتساءلون من تكون ولماذا تسافر لوحدها، فنادرا ما كانت النساء المتدينات في العراق يطرن بمفردهن إلا إن كن ثريات، وهي مكانة تحفظهن من الحكم عليهن ولومهن. كان آخر شيء ترغب به أبرار أن تجلس وسط مشهد عام، كما أن الجلوس بجانب مجموعة النساء

سيكون خطأ، لأن العراقيات يحببن الدردشة، وسوف يحشرن أنفسهن لمعرفة قصة حياتها بالكامل حتى قبل إقلاع الطائرة، لذا كان من الأفضل لها أن تجلس مع عائلة، حيث ستكون الأم مشغولة بالأطفال المزعجين مما يوفر عناء التحدث إليها وستكون متعبة جدًا، بحيث لا تستطيع استيعاب ما يبدو عليه مظهرها، وبحمد الله هذا ما حدث بالضبط، فقد غيرت مكان جلوسها لتكون إلى جانب أم شابة وطفل، فيما يجلس زوجها وطفلان آخران في صف واحد في المقدمة أمامها.

لقد استخلصت من محادثة بين الزوجين عبر المقعد أنهما كانا يتمتعان بإجازة في تركيا، وقضى الزوجان الرحلة بأكملها يشكوان من فندقهما ويصفعان أطفالهما حتى يجلسوا ساكنين، وفي هذه الأثناء جلست أبرار صامدة ومتيقظة، ومنتبهة تماما للحقيبة الجلدية السوداء اللامعة التي كانت تحت قدميها، فقد كانت لمحتوياتها سببٌ آخر لحصولها على مقعد بالقرب من العائلة، فإذا سألها أي شخص عن سبب حملها لعلب حليب الأطفال فستقول إنها مخصصة لأطفال العائلة.

بمجرد نزول الركاب من الطائرة، أدركت أبرار أن من السهل الاختباء عن الأنظار، فالعراقيون ليس لديهم انضباط فيما يتعلق بالوقوف في الطابور، وفي مراقبة الجوازات لم يحاول ضباط الأمن قط سوق الحشود حسب النظام، ونتيجة لذلك تجمعت النساء بشكل عام في طابور واحد بالقرب من مسؤول كبير في الواجب للتهرب

من ضغط الأجساد، وفي حين أن الفصل بين الجنسين ليس من العادات العراقية، إلا أن الكياسة والتأدب تجاه النساء كانت كذلك.

الضابط المناوب عموما فتح صفا خاصا للأمهات المسافرات مع أطفالهن وقد شعر أنهن متعبات ومتحيرات جدا، أما أبرار فقد حامت بالقرب من الأم وأطفالها الذين جلست بجانبهم خلال الرحلة.

عندما حان دورها لتسليم وثائقها إلى الضابط، كانت مجرد امرأة هادئة في قاعة مزدحمة وصاخبة، ولا أحد يلاحظ في حال وجود شخص يراقب، فحيت الضابط قائلة السلام عليكم وهي توصل جواز سفرها من فوق رأسها تقريبا، فقلب الضابط الوثيقة وكانت فارغة إلا من ختم دخول تركيا، فسألها ما الذي ذهب بك إلى تركيا يا أختي؟ فردت وهي تنظر إلى الأسفل: لقد كنت أدرس هناك كما ينبغي للمرأة المسلمة الصالحة أن تفعل، وإن شاء الله سأنهي دراستي كباحثة في مرض السرطان، فقال الضابط: الله أكبر، لقد خلقك صغيرة ولكن بعقل ذكي، يجب أن تجعلي عائلتك فخورة بك، فردت أبرار وهي ترفع ذقنها بفخر، سيكونون سعداء عندما يرون كيف أساعد البشرية. فقام الضابط بضرب ختمه في وسادة الحبر وختم دخولها مرة أخرى إلى العراق بتاريخ ٢١ أيلول ٢٠١٦ قائلا: مرحبا بك في بلدك يا أختي، اذهبي صحبتك السلامة.

سارت أبرار بهدوء متجاوزة ممر مراقبة الجوازات نحو آلة الأشعة السينية الصغيرة المستخدمة لفحص الأمتعة اليدوية، وهي تعتقد،

أن لا شيء في حقيبتها يمكن أن يطلق إنذار الماكنة، لكن إذا قرروا فتح عبوات حليب الأطفال، فسيندهش الحراس من المفاجأة. كان الطابور أمام أبرار مزدحما ومضطربا بالأطفال الذين يلقون بالألعاب وحقائب الظهر على حزام ناقل صغير يصل ارتفاعه إلى منطقة الصدر، وقد حاول الرجال الأكبر سنا المناورة بين الحشود والإسراع بالمرور، ثم اختفت حقيبة أبرار المتكتلة عبر شاشة الفحص بالأشعة السينية، وحاولت الحفاظ على توازنها في أثناء دفعها على طول السير.

لقد أزعجتها فوضى الناس المزدحمة، فقد كانت تعتقد أن المرأة لن تضطر إلى تحمل ذلك في أرض الخلافة، ولحسن الحظ لم يلقِ أحد بالزي الرسمي نظرة ثانية على أبرار، فقد انجرفت حقيبتها وبعد دقائق من الانتظار استرجعت حقيبتها الكبيرة من الحزام الناقل ومرت عبر الجمارك، وعبر مجموعة مزدوجة من الأبواب الزجاجية المنزلقة دون أن يوقفها أحد، ثم عبرت مقهى قذرًا يقدم الشاي الساخن وكشك الهاتف الخلوي إلى الشارع. وقفت أبرار على الرصيف بانتظار سيارة أجرة مع هواء بغداد المحمل بالغبار وهو يلتف حولها، ثم قدمت دعاء الشكر بشكل هادئ، فقد كان كل شيء يسير وفق ما خططت له، أو هكذا اعتقدت، لكن في الواقع كانت خلية الصقور تعرف تاريخ عودة أبرار إلى العراق ومعلومات رحلة الطيران الخاصة بها، قبل أن تصل إلى بغداد بفترة طويلة، وكانت لديهم عملية جاهزة لاعتراضها.

كان الأمريكان على علم بها أيضا، فبعد أن هاجم مقاتلو داعش

القوات الكردية في آب عام ٢٠١٥ بقذائف هاون تحتوي على غاز الخردل، وهو سلاح كيمياوي محظور، قام الجيش الأمريكي بتجميع وحدة خاصة لمطاردة وتدمير مستودعات السموم والأسلحة الكيمياوية التي كانوا يعلمون أن داعش تقوم ببنائها في العراق وسوريا. لقد تسببت قذائف الهاون التي استخدمها الدواعش بظهور بثور مؤلمة وحروق وغثيان بين ضحاياها، كما أنها بثت الرعب بين الأكراد في العراق من الذين نجوا من الهجمات البشعة بالأسلحة الكيمياوية التي أمر صدام بإطلاقها ضدهم في الثمانينيَّات.

لقد تسببت جريمة الحرب تلك في مقتل عشرات الآلاف وأدت إلى حظر دولي أكثر صرامة على الأسلحة الكيمياوية والبايولوجية. كان أكراد العراق مصرين على أنهم لن يسمحوا بحدوث ذلك مرة أخرى، أما في واشنطن، فقد جعلت إدارة أوباما القضاء على فرقة الأسلحة الكيماوية التابعة لداعش أولوية قصوى.

بحلول منتصف عام ٢٠١٦ اعتقد الأمريكان أنهم قضوا على جميع منشآت تصنيع الأسلحة الكيمياوية الكبيرة لدى تنظيم داعش في العراق، ففي سلسلة من الضربات الجوية باستخدام ذخائر مصممة لتدمير السموم ومنعها من الانتشار في الهواء، وقد أظهرت معلوماتهم الاستخبارية أن الجماعة الإرهابية ركزت الكثير من إنتاجها من الأسلحة الكيمياوية على غاز الخردل، لأنه كان من السهل نسبيًّا استخدامه كسلاح ويمكن أن يمرض أو يقتل عددا كبيرا من الناس.

ربما تم رفض أبرار من قبل قسم الأسلحة الكيمياوية في تنظيم داعش، لكن لا بدَّ أنها تركت انطباعا لدى بعض علماء المجموعة وقادتها، ولذا تم تضمينها ضمن قائمة مراقبة الإرهابيين، كما أن علاقة أبرار بأبي نبيل القيادي في داعش والذي قتل في غارة جوية في ليبيا عام ٢٠١٥ جعلها أيضا شخصية محل اهتمام الأمريكان، وحينما أصبح معروفا أنها عائدة إلى بغداد، اتصل الأمريكان بأبي علي من أجل المساعدة، فيما قال مدير الاستخبارات إنه سينظر في الأمر.

لقد قدم الأمريكان إيجازا مقتضبا إلى أبي علي، لكنهم لم يخبروه بمدى معرفتهم ببرنامج البحث العلمي لدى داعش أو تفاصيل عملياتهم السابقة التي استهدفت علماء الجماعة الإرهابية، فما أخبروه به كان محدودا أكثر، وهو إنه قد تشكل امرأة صغيرة من عائلة بغدادية معروفة تهديدا للعاصمة.

في البداية كان مدير الاستخبارات حذرا، ولم يكن لدى الصقور سلطة اعتقال العراقيين دون أدلة، ولم يتمكن الأمريكان من جلب أي شيء يمكن تقديمه للقاضي لطلب مذكرة توقيف، وإلى جانب ذلك كان رئيس الوزراء حيدر العبادي قد أصدر أوامرَ صارمة إلى القادة العراقيين بإبقاء أي معلومات بشأن قدرات داعش غير التقليدية من الأسلحة سرًّا، ولذا فإن ما طلبه الأمريكان من أبي علي هو الدخول في حقل ألغام سياسي ولم يكن مستعدا للقيام بذلك، على الأقل دون جمع المزيد والمزيد من الأدلة، لذلك أمر الصقور بالقيام بأفضل ما لديهم من عمل بتحضير فخ لها.

هكـذا اتضـح أن رجـال أبي علي ركـزوا أعينهم على أبـرار عندما خرجـت مـن المطـار وركبت سـيارة الأجرة التـي قادتهـا إلى منزلها، وخلال الأيام الثمانية التالية أصبحت أبرار المهمة الأكثر إلحاحا لدى الصقـور، فعلى عكـس مهمة حـارث التي لا يعرف بشـأنها إلا عدد قليـل من الناس، أطلع أبو عـلي معظم رجاله على التهديد الذي تمثله أبـرار، وخصَّـص وحدتين كاملتـين لمراقبة منزلهـا وتحركاتها في جميع أنحاء المدينة.

بالإضافـة إلى ذلـك، كان لديـه رجال يراقبـون مكالماتهـا الهاتفية ونشـاطها على الإنترنت. لم يكن أبو علي يعرف ما الذي كانت تفعله في بدايـة الأسـبوع، لكـن بحلـول نهاية الأسـبوع فهم لمـاذا اعتبرها الأمريكيون هدفًا ذا قيمة عالية.

عندما استقرت أبرار في المنزل، بدا والداها أكثر لطفا، ثم تذكرت بعـد ذلك خـلال الأشـهر التـي أمضتها عـلى الطريـق والانتظار في الغرف الفارغة ليتم اسـتدعاؤها للتشـاور مع قـادة داعش، أو نقلها بالسـيارة إلى جـزء آخـر من الخلافة، إن المـرأة البالغة مـن العمر ٢٩ عامـا قد اعتـادت على أن تكـون بمفردهـا، لكن فاتتها أشـياء معينة عن المنزل مثل رفاهية الاسـتحمام بالماء السـاخن والصابون المستورد مـن دبي الذي كانت تحب اسـتخدامه، طريقة والدتهـا في عمل مرقة الباميـاء بلحم الخروف المفضلـة لديها، لكن أبـرار لم تفوِّت الحديث المتواصل، والنقاشـات التي لا تنتهي بشـأن ما قاله سياسي معين على التلفاز، والغليان من الغضب الشـديد، ولكن العاجز الذي يعبر عنه

والدها وأعمامها، لم يكن يعجبهم ما يجري في العراق، لكنها بدت كأنها الوحيدة القادرة على فعل أي شيء حيال ذلك.

في أول يومين بعد وصولها إلى المنزل دللها والداها كما كانا يفعلان حينما كانت طفلة، فقد أعدت لها والدتها وجباتها المفضلة وجلسا معها لساعات يخبرانها بآخر الأخبار عن أبناء عمومتها وعماتها، وبالطبع كانا يريدان معرفة كل شيء عن تركيا، فأخبرتهم بما تعتقد أنهما يريدان سماعه، فقالت لهما إنها التحقت بالدراسة ووجدت أنها سهلة، وكان لديها رفيقات سكن ودودات وورعات ويحافظن على الغرفة نظيفة ولم يتصرفن أبدا بشكل غير لائق، لكنها وجدت أن تكلفة المعيشة مرتفعة للغاية وتعبت من التوفيق بين عملها الأكاديمي والمختبري، فسأل والدها هل ستحاولين العودة مجددا؟ فأجابت: إنها سترى فيما إذا كان بإمكانها التسجيل في برنامجها الدراسي القديم مرة أخرى، وربما من الأفضل لها أن تبقى في بغداد.

بعد أن ذهب والداها إلى الفراش، دخلت أبرار على الإنترنت باسم بنت العراق وانضمت إلى مجموعات الدردشة الخاصة بها، حيث كانت قد وجدت الدعم والتشجيع قبل أن تسافر إلى الخلافة، لكن اللهجة هذه المرة كانت مختلفة، فقد كانت فظة وشرسة، استفزها المتعصبون لداعش متسائلين، ما الذي منعك؟ لقد أمرنا الخليفة بالتصرف بأي طريقة ممكنة لمهاجمة الكفار، فكتبت أبرار، إنني بحاجة إلى مزيد من الناس ليساعدوني في تقديم هديتي.

كان الجانب الأكثر إرباكا عن الحياة في الخلافة هو كمية الملل

فيها، فلعدة أسابيع لم يكن لديها ما تفعله، ولم يسمح بأي من الأشياء التي اعتادت أبرار القيام بها في بغداد، فلم يكن بإمكانها الخروج بدون رجل يحرسها، ولم تكن تستطيع العمل خارج المنزل ومنعت من الاتصال بالإنترنت، وعندما وصلت أخيرا إلى الموصل وسألت عن قسم الأسلحة الكيمياوية وعن المواد الخام التي تحتاجها لتصنيع وتخزين مادة الريسين السامة، قيل لها إنها غير متوفرة.

في ساعات مللها ظهرت أول لمحات خطة القيام بهجوم في بغداد، فقد تخيلت أن تعيد معها مادة الريسين السامة إلى الوزارة حيث تعمل، وحقنها في إبريق الشاي الخاص بزملائها السابقين، فلن يتطلب الأمر أكثر من كمية صغيرة لا تتجاوز خمس أو ست حبات من الرز لقتل أولئك السيدات اللواتي كن يتباهين بتفكيرهن الديني الملوث أمامها لسنوات. لقد حركتها الفكرة، لكنها لم تكن مثالية بالنسبة لها، فإن الأعراض لن تظهر عند زميلاتها في العمل إلا بعد عودتهن إلى المنزل ليلا، وإذا نجح سمها سيمتن كلهن في غضون أيام، ولن يعرفن أبدا ما الذي قتلهن، ولن يعرفن أنها كانت هي من فعلت ذلك.

لقد وضعت أبرار تلك الفكرة جانبا، فهي لم تنضم للخلافة للانتقام الشخصي على وجه التحديد، لكنها انضمت لتطهير العراق من سبله الآثمة، وبغداد فيها الكثير من الناس الذين يعدُّ وجودهم كله كفرا، ولذا فإن لديها الفرصة لتخليص مدينتها من هذا الرجس، وظنت أنها تعرف ما يجب أن تفعله بالضبط. ناشدت أصدقاءها عبر

الإنترنت مرة أخرى قائلة: إنني بحاجة إلى متطوعين اثنين أو ربما ثلاثة من المحاربين الورعين يمكنهم المساعدة في عمليتي، أحتاج أناسا مستعدين للتضحية في سبيل الله.

في صباح اليوم التالي تحدثت أبرار مع جارها علاء، الرجل السني الذي فر مع زوجته وأطفاله من شرق بغداد في أثناء فترة الحرب الطائفية في العاصمة قائلة له: علاء أريدك أن تريني كيف يحصل الناس في حيِّك القديم على المياه.

تعدُّ خزانات المياه مشهدا مألوفا في بغداد، لدرجة أن الناس لا يلقون إليها بالا على الإطلاق، ويقدر أن واحدا من كل أربعة عراقيين لا يحصل على مياه الشرب النظيفة وهي حقيقة واقعة في عراق ما بعد صدام؛ نتيجة البنية التحتية المحطمة أو القديمة، أما في بغداد فيعود معظم العجز المائي إلى نقص السعة، فمنذ عام ٢٠٠٣ زاد عدد السكان بنسبة ٦٠ بالمائة، فالعراقيون الفارون من العنف في أجزاء أخرى من البلاد أو من مناطق أخرى في المدينة يعني أن الأحياء التي يسكنها عشرات الآلاف من السكان، خاصة في مناطق شرق بغداد ذات الأغلبية الشيعية، قد وجدوا أنفسهم بلا شبكة صرف صحي ولا أنابيب مياه كافية.

حينما كان علاء يقود سيارته في حيِّه القديم في منطقة بغداد الجديدة، جلست أبرار في المقعد الخلفي وهي تراقب مسار شاحنات المياه عبر الشوارع السكنية، وفي بعض الأحيان طلبت من علاء أن يسأل الناس الذين تلقوا عددا من براميل مياه الشرب عن عدد المرات

التي تقوم بها الشاحنات بتسليم المياه النقية، وسرعان ما اعتقدت أنها تعرف المزيد عن مصادر المياه الصالحة للشرب في المدينة أكثر من معظم الناس في جامعة بغداد.

لقد ظلت خلية الصقور في حالة من الحذر تراقب وتتساءل عن ما تخطط له أبرار، وفي اليوم الخامس للمراقبة تمكن أبو علي من فك اللغز، فقد جاء اتصال من أحد أكثر مصادره ثقة وهو مسؤول كبير في داعش في القائم، حيث قال للصقور: احذروا ابنة العراق فلديها سم وهي تعرف كيف تقتل.

أخيرا بدأت أجزاء اللغز تتفكك وتتوضح في مكانها، فقد سمع أبو علي من المخبر كيف ظهرت تلك الشابة على البلدة الحدودية في العام السابق، ونظمت سلسلة من التجارب، فالكلاب السائبة التي كانت تجوب الشوارع ماتت في وقت واحد، وكذلك فعلت ذلك باثنين من أقفاص الأرانب، وقد بدا البدو الذين عاشوا خارج المدينة يتذمرون من تلك الساحرة التي قتلت الحيوانات بلمح البصر، ثم اختفت تلك الشابة فجأة لأن القادة في القائم أرسلوها إلى الموصل.

عندما سمع أبو علي بهذا قرر أنهم بحاجة إلى إطباق الفخ بدون تأخير، أصدر مدير الاستخبارات أمرا إلى ضابط من قسم الإنترنت، وهو متخصص في اختراق غرف الدردشة الجهادية للعثور على بنت العراق على الإنترنت وتكوين صداقة معها، وبعد معرفة أنها كانت تحاول القيام بتجنيد متطوعين، طلب أبو علي من الضابط التطوع لمهمتها قائلا له: أخبرها أنك رهن إجابة دعوتها.

في اليـوم التـالي كشـفت أبرار السـاذجة للضابط المتنكـر أنها تريد مهاجمـة بغداد بسـم قاتـل قائلة له: لدينـا القوة لقتل الكفار، سـوف يستغرق الأمر بعض المعالجة الدقيقة، لكن يمكننا أن ننجح.

أصيـب أبو علي بالذعر وهو يقرأ المحادثـة، كان يعتقد أن لديه ما يكفي من الأدلة لإصدار مذكرة توقيف، لكن جانبه البراغماتي أخبره أنه لا يزال عليهم التأجيل، فربما يكون هناك أعضاء آخرون في خلية لداعـش هنا في بغداد ينتظرون اتصالًا من أبـرار، فإن قاموا باعتقالها فربما سـيقوم شـخص آخر بالخطة بدونها. أخذ مدير الاسـتخبارات نفسـا عميقـا وقرر الانتظار حتـى يثبت فخه عليهـا. كان الأمريكان غـير راضين عـن تأجيله، لكن القـرار كان بيد أبي عـلي وحده، ولذا أخـبر ضابطـه اختصاصي الإنترنـت بالترتيـب الذي وضعـه لمقابلة أبرار وحثها على المضي قدما في الهجوم، قائلا له: إذا كانت لديها مادة كيمياوية سـامة فنحـن نريد التأكد من حصولنـا عليها منها، فاطلب منهـا أن تترك لـك عينة في مكان ما حتى نتمكن مـن رؤية ما نتعامل معه بالضبط.

لم تبدِ أبرار أية شكوك بشأن الطلب، فقد وعدت بتسليم (هديتها) في اليوم التالي في موقع اختاره الصقور، وكان مخزنًا للبضائع الجافة في منطقـة الكرخ بالقرب من محطة القطار المركزية في المدينة. كان مالك المخـزن مرتبطا بأحد أعضاء خليـة الصقور ويمكن الوثوق به للقيام بـما قيل له بالضبط دون طرح أسـئلة صعبة، فقـد أراد أبو علي التأكد من عدم لمس أحد لطرد أبرار وأنه لن يكون في غير محله.

بدأت خطته في اليوم التالي، وكان أحد رجاله خارج مخزن البضائع الجافة وأمره بالبقاء متخفيا، فلم يرغب أبو علي بملء المنطقة بالكثير من الرجال، فقد كان يعلم أن أبرار ستكون متوترة وستشعر بكل العيون المسلطة عليها، وأطلع الأمريكان على خطته، لكنه لم يطلع رئيس الوزراء أو قيادة عمليات بغداد على الموضوع، فقد تؤدي مشاركة التفاصيل مع عدد كبير من الناس إلى تدمير هذه المهمة الدقيقة، لأنه أراد فهما أفضل للتهديد قبل تنبيه بقية الجنرالات العراقيين.

بدأ صباح يوم ٢٩ أيلول حارا ومشمسا وازداد حرارة مع تقدم النهار، كانت أبرار تستيقظ مبكرة كما هو الحال دائما لأذان الفجر، ولم تكن قد أفرغت حقيبتها السوداء لكنها وضعتها بعناية تحت السرير، لقد كانت مفتونة بفتح العبوات وفك المعجون ذي اللون الحليبي، ولم تكن خائفة من تسرب السموم أو تحللها، لكنها لم تكن قد حزرت بعد كيفية استخدام متطوعها الجديد في تنظيم داعش والذي عرض المساعدة بحماس شديد.

كان لدى أبرار أربعَ كعكات من مادة الريسين قسمت كل واحدة منها على نصفين ويمكنها مع المتطوع تسميم ستة عشر خزانا للمياه، فقد كان الماء هو نظام التوصيل المثالي؛ لأن السم يتم امتصاصه من خلال الجلد، وإن المئات سوف يهلكون. لقد قررت أبرار أن تقوم بإحاطة المتطوع بشكل كامل بعد أن تحصل على فرصة لتقييمه وتحديد معرفته التقنية فقط حتى يمكن نشر السم بشكل فعال، ثم

قامت أبرار بتقسيم إمداداتها من مادة الريسين على نصفين خططت لترك حصة له في الكرخ والاحتفاظ ببعض المادة لنفسها في حال تبين أن هذه فرصتها الوحيدة لتسليم السلاح الذي صنعته بعناية، وفكرت في نفسها قائلة: إن شاء الله سيسير كل شيء على ما يرام.

خلال الساعات التالية، سارت الأحداث كما كانت تأمل، فقد أوصلها علاء إلى مخزن البضائع الجافة وعندما دخلت كان صاحب المخزن متجاوبا مع التعليمات، فأخبرته أن لديها حقيبة تريد تسليمها إلى ابن عمها الذي تأخر، وسألته إذا كان بالإمكان وضعها لديه حتى يأتي ابن عمها لأخذها، وقالت له: إنني سأدفع لك ثمن الإزعاج الذي سببته لك، لأن علي العودة إلى منزل عائلتي وبيتي بعيد جدا ولا أريد أن أضايق ابن عمي.

وضع صاحب المتجر الحقيبة السوداء خلف ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية قائلا لها: لا تقلقي يا عزيزتي، عندما يصل سأسلمها له. لقد كانت في مزاج جيد عندما استقلت سيارة علاء البيضاء من طراز سيدان، ثم سألته فيما إذا كان لديه الوقت ليأخذها إلى مكان آخر. لم ترغب في إخافته، لكنها قالت له: إن المكان خطير بعض الشيء، هل يمكن أن تأخذني إلى مدينة الصدر؟ لم تكن أبرار تعرف شيئا عن الحي الشيعي المترامي الأطراف، لكنها أرادت إجراء استطلاع مماثل لدراسة نظام توزيع المياه فيه أيضا، فإذا كان الهدف من الهجوم الإرهابي هو استهداف أكبر عدد من (الكفار) فإن مدينة الصدر هي المكان المناسب للقيام بذلك. كان من العجيب، كما كانت

تعتقد أبرار في ذلك الوقت، أنها لم تفكر في استهداف ذلك الحي حتى تلك اللحظة.

كان فريق الصقور قد فقد سيارة علاء في الزحام المروري الكثيف في منطقة بغداد الجديدة في أحد التقاطعات الرئيسة، وقد غامر الصقور وتوجهوا شمالا بدلا من الشرق باتجاه مدينة الصدر، ولم يتخيلوا أبدا أن اثنين من السنة سيقودان عن عمد سيارتهما باتجاه معقل الشيعة.

بعد عدة ساعات أصبحت عواقب هذا الخطأ وخيمة، فقد أكدت اختبارات الأدلة الجنائية على المادة التي استعادها الضابط المتخصص من مخزن الكرخ أن ابنة العراق في حوزتها حقا مادة سامة قاتلة، لكنها بحلول ذلك الوقت كانت قد اختفت.

لم يتذكر أبو علي مقدار شعوره بالقلق بعد ظهر ذلك اليوم، فلم تكن لديه طريقة للعثور على المشتبه بها، ولا يعرف متى تنوي شن هجومها، وقبل غروب الشمس من ذلك اليوم تم تعيين فريق ثانٍ من الصقور لمراقبة منزلها والإبلاغ في حال عودة أبرار وجارها إلى العامرية، فقد دفع الخوف من فقدان الطريدة أبا علي إلى العمل.

اتصل أبو علي بالأمريكان مرة أخرى وأخبرهم: إننا ذاهبون إليها هذه الليلة. انبسطت ليلة الخميس تلك بالطريقة المعتادة في منزل الكبيسي، وبعد عشاء خفيف مع العائلة جلس الأستاذ الكبيسي في غرفة المعيشة على كرسيه الفخم البيج واستمع إلى البرامج الإخبارية المسائية، قامت أم مصطفى بتنظيف المطبخ، ولم تكن تعرف أين

قضت أبرار يومها، لكن ابنتها استحمت لفترة طويلة في ذلك المساء بعد أن اشتكت من حرارة المدينة وسخامها.

كانت أبرار حريصة على أن تغفو أسرتها حتى تتمكن من الاتصال بالإنترنت على حاسوب العائلة في غرفة المعيشة، ومشاركة تفاصيل استطلاعها في ذلك اليوم، فقد كان لديها هدف محتمل تم تحديده في مدينة الصدر، وهي ساحة رئيسة توزع فيها الأمم المتحدة المياه كل أسبوع.

كان الوقت منتصف الليل تقريبا حينما ساد الهدوء المنزل، لكن حينما سجلت أبرار دخولها كانت غرفة دردشتها المعتادة فارغة، فلم يكن الجهاديون الطموحون الذين يتفقون دائما مع أكثر خططها وحشية موجودين على الإنترنت. أمضت أبرار بضع دقائق عابرة في التحقق من مجموعات النقاش الإسلامية الأخرى، لكنها قررت أنها لم تعد تتحلى بالصبر على المناقشات الدينية، فأطفأت الضوء وذهبت إلى الفراش.

بعد دقائق، كان أفراد القوة الخاصة المقنعون والذين يرتدون الملابس السوداء يقومون بمحاصرة المنزل الذي يعيش فيه الكبيسيون بهدوء، واتخذ فريق مكافحة الإرهاب المسلح مواقعه على سطوح الجيران، بينما تقدمت وحدتان آخريان سيرا على الأقدام باتجاه الباب الأمامي لمنزل أبرار، كانت خطة الهجوم واضحة ومباشرة وهي اقتحام منزل الأسرة وتحييد الفتاة، والاستيلاء على أية مواد تشبه المسحوق أو الصابون، فقد قال القائد لرجاله: إن آلاف الأرواح

على كفة الميزان.

بعد الساعة الثانية ليلا بقليل، ارتجت أبرار من النوم وجفلت من فرقعة قنبلة ارتجاجية، وقبل أن تعرف ما الذي كان يجري، رفع رجال يرتدون الخوذ وأقنعة الغاز الأغطية عنها وجذبوها من سريرها، كانت الغرفة حالكة السواد باستثناء البقع الوامضة في عينيها، لم تستطع رؤية أو سماع أي شيء، فلم يمنحها رجال القوات الخاصة فرصة لارتداء الملابس المناسبة، بل ألقوا بعباءة سوداء على كتفيها ووضعوا كيسا أسودَ على رأسها. وصاح الرجال بالأوامر، فطلب أحد القابضين عليها أن: عرفي عن نفسك، كان ذلك عندما أدركت أبرار أنها لم تكن تحلم، فقد شعرت بالبرد والغضب.

كانت تعلم أن خططها قد تحطمت، لكنها أجابت محققيها بقدر ما تستطيع فقالت: أبرار بنت محمد الكبيسي، كيف تجرؤ على وضع يديك علي. لقد كانت تعرف ما يبحث عنه رجال القوات الخاصة، لكنها لم تكن تفهم كيف كشفوها، فقد كانت تفترض أنها غير ملاحظة، وتتسلل كالشبح حتى تشن الهجوم، بعد ذلك سيكون اسمها اسمًا لا ينسى أبدا.

في الجانب الأبعد من الردهة، كان الأستاذ الكبيسي وابنه الأصغر قد أجبرا على الركوع من قبل رجال يرتدون الملابس السوداء، وانتشر الدخلاء في جميع أنحاء منزلهم دون أن ينطقوا بكلمة، ولم يلاحظ الكبيسيون، من شدة الخوف، أن الفريق كان يجمع كل الأجهزة الإلكترونية الخاصة بالعائلة من الهواتف والأجهزة اللوحية

وجهاز الحاسوب المنزلي، كما أخذوا بندقية الصيد التي لوحت بها والدة أبرار عندما اقتحمت قوات الأمن باب غرفة نومها، كانت الأسرة مغمورة بغزو المنزل لدرجة أنهم لم يلاحظوا متى عثر أفراد القوات الخاصة الملثمون على الهدف الحقيقي لبحثهم وهي العبوات التي تحت سرير أبرار.

لم يعرف قائد الوحدة عن نفسه للعائلة، لكنه وهو يغادر وفريقه منزل الكبيسي الذي تم اقتحامه، أخبرهم باقتضاب أن أبرار معتقلة، وأنكم لن تروها مرة ثانية لفترة طويلة، وقد كان محقا، فقد استغرق الكبيسيون مدة ستة أشهر لتحديد مكان ابنتهم، وبحلول ذلك الوقت وجهت إليها أربع تهم تتعلق بالإرهاب.



الفصل العشرون

سباق ضد الزمن



في الساعة الثالثة عصرا في يوم مشمس على غير العادة من شهر كانون الأول عام ٢٠١٦، سمع حارث النغمة المألوفة، وهي نفس النغمة التي تستدعيه في هذا الوقت من كل أسبوع لأكثر من عام، فسحب هاتفه الأسود من نوع سامسونج المهتز من جيبه فارتفع صوت النغمة المقدسة للنشيد عاليا، كان أبو قسورة من الموصل دقيقا كالعادة، فحيَّ حارثًا القيادي العراقي لداعش بالقول: السلام عليكم شيخي، وفقكم الله بالصحة والعافية، فأجاب أبو قسورة: السلام عليكم يا جنديَّ الإسلام، الحمد لله عندي أخبار جيدة لك.

لقد كان الشهر السادس عشر لحارث وهو يعمل متخفيا مع داعش، لم يكن يعرف أبدا من المحادثات المعتادة مع أبي قسورة وقائده في الخلية أبي مريم، لكن منذ الوقت الذي بدأ فيه مهمته حتى نهاية عام ٢٠١٦ تم تركيع الخلافة، التي بدت لا تقهر، على ركبتيها على الأقل من الناحية العسكرية التقليدية، فقد استعادت القوات الحكومية مساحات شاسعة من الأراضي التي احتلها الإرهابيون في صيف عام ٢٠١٤ بمعارك ضارية، وتم التفوق على الإرهابيين وهزيمتهم من قبل جنرالات الجيش العراقيين بدعم من من طائرات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة والصواريخ البعيدة المدى، وقام كلاهما بقصف مخازن أسلحة الجماعة الإرهابية، وأصولها المالية ومعاقلها، وعلى نفس القدر من الأهمية كانت بغداد تربح الحرب النفسية، وانحرف التوازن الدقيق بين الأمل واليأس لصالح الأول، مما أدى إلى شل قدرة الخلافة على التجنيد والقتال في الغد.

كان الأخوان السوداني سلاحا سريًا على خطوط المواجهة هذه، فحارث الذي عاش في الطارمية مع العدو ورفاقه من الصقور في بغداد تمكنوا من استعادة ما يشبه الهدوء في العاصمة العراقية من خلال تفكيك ثلاثين تفجيرا انتحاريًا مخططا له وسبعة عشر هجوما بالسيارات المفخخة، وقد ساعد ارتفاع الروح المعنوية للتحالف الحكومي الهش على التركيز على الحرب البرية، كما ساعد على رفع معنويات الجمهور.

بحلول شهر كانون الأول شعر الناس في جميع أنحاء بغداد بالتغيير، فمناف وزوجته وجيرانهم تحدثوا عن عدم وجود التوتر الذي يثقل كاهلهم أثناء سيرهم في حركة المرور أو دخولهم أحد مراكز التسوق الجديدة في بغداد، ومع ذلك فإن أبا قسورة المقاتل المتشدد للخلافة كان ينضح بالثقة الشديدة في كل مرة يتحدث فيها إلى حارث، فربما خسر مقاتلوه الأرض، لكن التزامه بالجهاد ضد أمريكا والحكومة المدعومة من أمريكا في بغداد لم تتزعزع أبدا. لم يستطع حارث معرفة ما إذا كان لدى أبي قسورة أية شكوك حول الخلافة أو تكتيكاتها أو حكمة قادتها، فبعد كل شيء، إذا كان هناك أحد في الموصل أحمَق بما يكفي للتعبير عن مثل هذه التحفظات فسيخسر حياته.

بعد ظهر ذلك اليوم من كانون الأول وخلال مكالمتهما الأسبوعية، وصف أبو قسورة لحارث خطته التالية للهجوم على بغداد، وكانت أوامره يقشعر لها البدن، فقال له القيادي في الموصل: يا أبا صهيب، لدينا هدية أخرى نريد منك إرسالها إلى عمتك، ونريدها أن تتسلم

هذا الطرد قريبا في اليوم الأخير من تقويم الكفار.

(الطرد) كان الاسم الرمزي لدى تنظيم داعش للسيارة الملغومة، والهدف كالعادة بالنسبة لحارث كان العاصمة العراقية، لم تكن تلك الرسالة كاملة، فبينما كان حارث يستمع أدرك أن العملية القادمة التي ستكون الثامنة والأربعين نيابة عن داعش غير عادية. لقد كانت جزءًا من هجوم أكثر طموحا يجري العمل عليه في الموصل، حيث أخبره أبو قسورة قائلا: إن تنظيمنا المبارك يقوم بإعداد الهدايا للعديد من الأقارب حول العالم، سيحصل الكفار على تلك الهدايا في عطلة عيد الميلاد، لكن إن شاء الله ستجلب لنا تلك الهدايا الفرح وليس لهم.

لقد فهم حارث على الفور ما كان يقصده القائد الإرهابي، فقد كان ذلك قبل أسبوع فقط من نهاية العام، وكان تنظيم داعش يبحث عن طريقة لإصدار بيان شامل للعالم مفاده أن الجماعة ما زالت وثيقة الصلة، ولديها القوة على تعطيل الحياة كما يعرفها الغرب. فقال حارث لقائده: أنا مستعد يا شيخ، أخبرني ماذا يتوجب عليَّ أن أفعل؟ فرد أبو قسورة: إن الهدية يجري تغليفها وسيتم تسليمها لك فكن صبورا، سيكون هناك رجل من الأنبار على اتصال وسيقدمها لك، وسوف تكون بحاجة إلى التأكد من وصولها إلى وجهتها النهائية، كن مستعدا يا أخي، فرد حارث قائلا: لم أخذلك من قبل قط، يا شيخي، ولن أخذلك الآن.

أنهى الرجلان مكالمتهما، ثم فتح حارث فورا التلغرام، وهناك قرأ

المزيد عن محتويات الطرد والتعليمات بشأن تسليمه. استدعى الهجوم المقترح مزارعا من مدينة القائم الحدودية حيث تنظيم داعش يدير مصنع القنابل، وحارث سيقود شاحنة من نوع (كيا) إلى ضواحي بغداد، الشاحنة ستكون محملة بستة آلاف رطل من المتفجرات، وهي حمولة قادرة على قتل وتشويه الآلاف من العراقيين، والمطلوب أن يتسلم الشاحنة من المزارع ويقودها في يوم ٣١ كانون الأول إلى أسواق بغداد الجديدة المكشوفة، حيث سيفجرها وسط المتبضعين من السنة والشيعة والمسيحيين الذين يبحثون عن هدايا اللحظة الأخيرة في ليلة رأس السنة.

بعد أن انتهى من قراءة التعليمات قام حارث بتسجيل الخروج من الحساب الذي أنشأه باسم (أبو صهيب)، ومن ثم عاود تسجيل الدخول إلى قناة التلغرام المشفرة الثانية والتي يتواصل من خلالها مع مناف، فكتب حارث: أخي لديَّ أخبار، سيتم تسليم الطرد في ٣١ كانون الأول، ليس لعائلتنا في بغداد فحسب بل سيتم أيضا تسليم طرود لأقارب آخرين حول العالم، وبمجرد أن قام بتسجيل الدخول وإرسال الخبر عاود تسجيل الخروج، لم يتمكن من الاتصال بخط الاتصال المعتاد مع أخيه، فلم يكن لديه وقت ولا عذر جاهز للذهاب إلى محطة الوقود أو أي مكان آخر يتمكن من خلاله أن يتمتع فيه بالخصوصية، لذا كان عليه أن يثق بأن منافًا سيسجل الدخول إلى التلغرام ويرى الرسالة قبل انتهاء اليوم، فبعد كل شيء كان الوقت يمضي ولم يتبقَّ سوى أربعة أيام لإفشال الهجوم العالمي لتنظيم داعش.

في ذلك الصباح نفسه في بغداد، علق مناف في أحد الزحامات المرورية السيئة في المدينة وكان مغتاظا جدًّا، فقد كانت لديه الكثير من الأعمال المكتبية والعديد من العمليات، والعديد من العملاء كمصادر لدرجة أنه كان يكره إضاعة الوقت في السيارة. قد يستغرق تنقله المعتاد من مدينة الصدر إلى مقره في مركز الصقور تسعين دقيقة من الوقت، لذلك غالبًا ما ينقذ مناف نفسه من الصداع اليومي بقضاء الصباح في مركز مراقبة الإلكترونيات الآمن في وزارة الداخلية العراقية، الواقع في شمال شرق بغداد وعلى بعد مسافة قصيرة بالسيارة من منزله.

من الأساليب البيزنطية لدى البيروقراطية العراقية أن منافًا، مثل العديد من ضباط الصقور، استغلوا موارد الأجهزة الأمنية الصديقة التي يفتقر إليها فريقهم، فقد ساعدت علاقات أبي علي الوثيقة بزملائه في وزارة الداخلية في تعزيز التعاون، عندما أغلقت وكالات أخرى مثل المخابرات أبوابها في وجوههم.

طوال الصباح، كان مناف يستعرض تقاريرَ عن أحداث منفعلة عبر الإنترنت رصدتها الاستخبارات العراقية، وعندما فتح رسالة حارث في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم أدرك سبب تزايد الحماس بين الجهاديين، فقد كانت هناك عملية كبيرة قيد الإعداد، وقدم حارث معلومات كافية لمنع حدوث عمل وحشي في بغداد، لكن ماذا عن بقية العالم؟.

فرد مناف بالتلغرام قائلا: أخي أخبرني المزيد من التفاصيل عن

مكان تسليم الهدايا؟ إلى جيراننا أم بعيدا؟ أرسل التفاصيل عندما تستطيع، بعد ذلك سجل الخروج من التلغرام واتصل بأبي علي البصري على الفور قائلا: لدينا هدف جديد في بغداد وكذلك في المدن الأخرى في الخارج، وليس لدينا الكثير من الوقت، فقد تم تعيين الخطة ليلة رأس السنة.

بحلول نهاية اليوم تم نقل الرسالة عبر أوروبا وروسيا وبريطانيا، حيث كانت وكالات الاستخبارات متوترة بالفعل بشأن الامتداد العالمي لتنظيم داعش.

في وقت سابق من ذلك العام، قام رجال بايعوا تنظيم داعش بتفجير مطار بروكسل في بلجيكا، وصدموا السابلة بالسيارات في مدينة نيس الفرنسية، وتم فتح النار على ملهى (بلس) الليلي في أورلاندو بولاية كاليفورنيا، وقبل أيام قليلة من إرسال حارث الرسالة المشفرة إلى مناف، قتل رجل متسوقين في سوق عيد الميلاد المفتوح في الهواء الطلق في مدينة برلين في ألمانيا.

وضعت السلطات في ألمانيا الشرطة في حالة تأهب قصوى خلال أسبوع العطلة، أما في روسيا فقد أخلت السلطات محطات قطارات العاصمة قبل ليلة رأس السنة الجديدة بعد تلقيها تحذيرات من زرع قنابل هناك، ولم تكن التحذيرات الأمنية المشددة في تركيا كافية، فقبل منتصف الليل بقليل في مدينة إسطنبول المترامية الأطراف فتح مسلح النار في ملهى ليلي مكتظ، فقتل تسعة وثلاثين شخصا وجرح العشرات، وعندما قبضت عليه الشرطة التركية بعد أسابيع، اعترف

بتلقي أوامر من أحد قادة داعش في مدينة الرقة السورية.

في ذلـك الوقت، لم يكن حارث ولا مناف على علم بالاحتياطات المتخـذة في أماكـن أخرى، فقد كانا مشـغولين للغاية بالاسـتعداد لما ينتظرهمـا في بغداد، ووضـع مناف كل فريقه في حالـة تأهب قصوى وعلى اسـتعداد لبدء العمل، فقد مضى ما لا يقل عن أربعة أشهر على تفجير الكرادة، ولم يكن بوسـع الصقور تحمل خطأ آخر في العاصمة العراقية.

توقـع مناف أن يحـدث اتصال مع أخيه في وقت ما يوم ٣٠ كانون الأول، وهـو التاريـخ الذي قيل فيه لحـارث أن يتوقع وصول مركبة محملـة بالمتفجرات، ومرَّ أسـبوعان منذ أن رأى مناف شـقيقه حارثًا آخـر مـرة، وأصبـح قلقا بشـكل متزايد، فقـد أخبر حـارث منافًا أن أحلامـه كانت دائما عـن الموت، لم يكن مناف يمتلـك خلفية في علم النفـس، لكنـه لم يكن بحاجـة إلى شـهادة جامعية لفهـم العلاقة بين تلـك الأحلام المروعة والتوتر الذي يعاني منه حارث، لكنه كأخ وفى بكلمتـه لـه، ولم ينقل المعلومـات إلى أبي علي، ولم يخبر أحـدا أبدا عن رحلة حارث غير المصرح بها إلى مدينة الصدر، والمجازفة التي يمكن أن يتحملها عندما يلقى عليه القبض في كذبة.

طالمـا أكـد حـارث لمناف أنه يسـتطيع الاعتنـاء بنفسـه، وقد أخذ مناف بكلامه، حيث تشـير تقاريره إلى رئيـس خلية الصقور بعد كل اسـتجواب ونجـاح في منع هجوم إرهابي دائـما إلى أن حارثًا يبدو أنه يسير على ما يرام.

الآن ومع اقتراب شهر كانون الأول من نهايته، جلس مع حارث في مقر الصقور بالقرب من مطار بغداد الدولي على أريكة خشبية ذات ظهر صلب محاط بمنافض السجائر وأكواب ورقية من الشاي الأسود القوي، يعتقد مناف أن حارثًا بدا مرتاحا أكثر مما كان عليه في العامين ونصف العام الماضية، لكن وجهه كان منتفخا وعينيه محمرتان وقد أخبره أنه ما زال لا يستطيع النوم جيدا.

لقد جاء حارث إلى العاصمة متوقعا استلام الشاحنة الملغومة، لكن مرت ساعات دون سماع أي كلمة من المزارع القادم من القائم، لذلك أعاده مناف إلى مكتبهم القديم في المجمع الذي عملا به معا قبل بدء عملية (عرين الأسد) ومع مرور الكلمات عبر الممرات التي كان يزورها، توقف رجال لم يروه منذ أشهر ليلقوا التحية ويربتون على ظهره. كانت الغرفة دافئة ومضببة من دخان السجائر والضاحكين، وقد رأى مناف كيف أن شقيقه عاد إلى الحياة باهتمام زملائه، لكن لا يزال هناك شيء خاطئ فقد لاحظ رجفة في يد أخيه وهو يشرب الشاي، لم يكن مناف معروفا أنه مدمن على الكحول من قبل، لكنه استجوب العديد من المدمنين على المخدرات على مر السنين، وقد لاحظ أن حارثًا يظهر نفس التشنجات اللاإرادية التي يعاني منها الرجال المنقطعون عن المخدر.

مال مناف نحو أخيه بهدوء قائلا: «أنا أخشى أن هذا العمل سيتسبب بقتلك يا أخي، فهل تريد الانسحاب؟»، استدار حارث لينظر إليه، فلمح مناف ومضة الغضب في عينيه فقال له حارث: يا

حار، هل يوجد شخص في هذه الغرفة من يستطيع أن يأخذ مكاني؟ وإذا لم أقم بهذا العمل، فمن سيقوم به؟ فنظر مناف حول غرفة فريقهما وعرف أن شقيقه كان على حق.

منذ تدريب حارث على المهمة السرية عام ٢٠١٥ قال أبو علي إنه يود تدريب المزيد من الضباط على مهمات سرية لاختراق المجموعة الإرهابية، لكن لم يتطوع أحد لذلك، لذا فإنه بدون حارث كان من الممكن أن تضرب بغداد أكثر من ٣٦ قنبلة، وكان من الممكن أن يتغير مسار الحرب بأكمله، بالإضافة إلى أن الحكومة العراقية كانت تستعد لتحرير الموصل، وهو أمر لم يكن من الممكن اعتباره ممكنا قبل عامين ونصف العام. بدون حارث كان من الممكن أن يموت المئات من سكان بغداد في اليوم التالي، حيث من الممكن أن يقتلوا بالشاحنة المفخخة التي كانت الصقور تنتظر اعتراضها.

لم يجب مناف على أخيه، وبدلا من ذلك قام بتغيير الموضوع وسأله عن ما يرغب في تناوله على طعام الغداء. تناول الأخوان الكباب المشوي الذي يفضله حارث وأمضيا المساء وهما يدخنان الأركيلة بانتظار المكالمة الهاتفية من الساعي. بحلول منتصف الليل ومع عدم وجود أمر جديد غفا الاثنان، وقبل شروق الشمس بقليل تسلم حارث أخيرا الرسالة التي كان ينتظرها.

كان من المتوقع أن يصل الزائر من القائم عند الساعة التاسعة صباحا إلى بيت أحد أقاربه في منطقة الأعظمية، الحي الذي يهيمن عليه السنة في شمال بغداد، فقام حارث على الفور بالاستحمام

وأزال رائحة السجائر وأي آثار من الوقت الذي قضاه مع الصقور، بعد ذلك قام بحلاقة دقيقة، وترك القميص الأسود الضيق الذي استعاره من مناف مكوّمًا على الأرض ولبس ملابس أبي صهيب وهي قميص نظيف وسراويل فضفاضة، وأفرغ جيوبه ثم عاد إلى غرفة العمل، حيث كان مناف قد بدأ حديثه بشأن العملية القادمة.

كان من المتوقع أن تكون هذه المهمة مباشرة مثل السيارات الملغومة السبع عشرة السابقة التي نجحت الصقور في منعها، فقد تولى مناف فريق المراقبة المكون من سيارتي استطلاع لمراقبة حارث في أثناء استيلائه على الشاحنة الملغومة من طراز كيا، ستقوم إحدى السيارات بالتشويش على جميع الاتصالات حول الشاحنة الملغومة لمنع أي تفجير عن بعد للمتفجرات، وهو تكتيك مفضل تستخدمه داعش، أما السيارة الثانية فستكون مجهزة بفريق تفكيك الذخائر التابع للصقور، وهم الرجال الذين سيقومون بتفكيك المتفجرات قبل وصول حارث إلى الهدف. قام مناف بكل الأعمال اللازمة، ولم يتم تفويت أية تفاصيل، ولم يترك أي احتمال من دون تدقيق، فنظر مناف إلى عيني أخيه عبر الغرفة وأومأ له برأسه، فانسل حارث من الباب عائدا إلى حياته كأبي صهيب.

في الخارج كان الطقس باردا والسحب الرمادية تقذف المطر على الطريق السريع، لقد قام السوداني الأكبر بفعل ما كان يتوقع أن يفعله اسمه المستعار، فقد استقل الحافلة إلى الأعظمية، بينما كان الصقور يتابعونه على بعد مسافة، وبينما كانت الحافلة تعبر بتثاقل فوق نهر

دجلة الذي كان يتدفق بسرعة وبلون رمادي يشبه الفضة المصهورة، عاد إلى حارث الذعر البارد لكابوسه، والذي يغطس فيه تحت الماء ويغرق.

كان قد أخبر منافًا من قبل كم كان يكافح لمنع تلك المشاعر وإغلاق الأبواب التي تقسم هويته على اثنين، فقد أراد التركيز على المهمة التي تنتظره والسؤال الملح الذي فكر فيه كثيرا: ما الذي يمكن أن تتصوره عائلته إذا علمت بما كان يفعل، والتضحية التي يقوم بها من أجلهم ومن أجل البلاد؟ هل سينظرون إليه كما ينظرون إلى مناف عندما كان يعود من العمل باحترام وفخر؟.

في أثناء مرور الحافلة عبر الجسر العلوي من طريق المطار باتجاه شارع سوق الأعظمية، سحب حارث هاتفه من جيبه وكتب رسالة قصيرة إلى والده قال فيها «ادعُ لي»، بعد ذلك التقى حارث مع المزارع في مبنى إسمنتي متداعٍ وغير مطلي مكون من طابقين على طول زقاق مهدم ومليء بالأوساخ، فمثل العديد من المنازل في ذلك الجزء من بغداد، يمكن أن يضم البيت الواحد عائلة كبيرة أو ستة أشخاص. كان الجزء الخارجي من البناء مغطى بعدة طبقات من الرمل والحصى، وأسلاك حديد التسليح بزوايا متباينة في الطابق العلوي كانت صدئة، ومما زاد من هالة الإهمال، أن مياه الأمطار مع مياه الصرف الصحي المتسربة من أنبوب مفتوح، شكلت بركة كبيرة عبر الزقاق الضيق. لقد عرف حارث أنه في المكان المناسب عندما لاحظ خلال المطر المتساقط وجود شاحنة حمل صغيرة بيضاء من نوع

كيا ذات حشـية مفتوحة، وخرج رجل مسن بلحية رمادية اللون من مدخل أحد المنازل بينما كان حارث يقترب.

السلام عليكم أبا صهيب، قال الرجل وهو يمد يده إلى الشاب، فأجـاب حـارث: وعليكـم السـلام يا عـم، خصوصا بعـد رحلتك الطويلـة مرحبـا بكم في بغـداد. كان الرجل يتحـرك بعناد وعضلاته متشـنجة من القيادة الطويلـة، فتحادث مع حارث بسـهولة وأخبره عـن الرحلة وحالـة المرور والطقس على طول الطريـق، كان وجهه مسمرًّا وضامرًا من العمل في الهواء الطلق طوال حياته.

قال المزارع إنه تأخر بشكل غير متوقـع عندما أغلق الجيش نقطة التفتيش على الطرف الشـمالي لبغداد طوال الليل، ولم يتم إخباره ولا عشرات السـائقين عن سـبب الإغـلاق، فناموا في سياراتهم، وقبل الفجر بقليل جاءت مجموعة جديدة للواجب على النقطة وسـمحت للمركبـات بالمرور. كانت عينا الرجل متعبتين، لكن من الغريب أنها خالية من القلق، وقد وصف حارث لأخيه لاحقا مدى دهشته لهدوء الرجل، وفكر حارث في نفسه بأن الرجل لا يعرف ربما أنه كان يقود قنبلة، وكذلك الجنود الذين سمحوا للمركبة بالمرور باتجاه بغداد.

سـحب حـارث مبلـغ ٣٠٠ دولار مـن جيبـه وسـلمها للرجـل العجـوز، وهـو الثمن الـذي وعد بـه مقابل نقـل الشـاحنة، ثم قال للرجل: شكرا لخدمتك، حفظك الله بعودة آمنة إلى المنزل. كان مناف ورجـل آخر من فريقه يراقبان عملية التبادل من بعيد، وكان يعلم أن الخطر ضئيل حتى الآن، فلن يفجر تنظيم داعش سيارتهم وسط حي

سني تسكنه الطبقة العاملة، فهم يريدون قتل الشيعة أو المسيحيين الذين سيتسوقون قبل رأس السنة الغربية.

ركز السوداني الأصغر على خطوة حارث التالية، وهو المسار الذي ستسلكه الشاحنة الملغومة التي سيقودها أخوه، فقد كان هذا دائما أخطر مرحلة في عمليات منع كهذه، وهو الوقت الذي يكون فيه حارث أكثر عرضة للخطر، وكانت تلك هي اللحظات التي يحتاجها ليكون قريبا من أخيه قدر الإمكان.

في الزقاق صافح حارث الرجل العجوز وجلس في الشاحنة، ومثل كل السيارات الملغومة الأخرى التي كان يقودها، كانت السيارة كيا قديمة الطراز وتم إشباعها ضربا بشكل جيد قبل استخدامها كسلاح، فقد كانت أحزمة المقاعد مكسورة، والراديو أنموذج بسيط الصنع مزود بقرص على موجات (أي أم) و (أف أم) وفتحة لشريط الكاسيت، ليس لأن حارثًا يريد الاستماع إلى الموسيقى، بل لأن على صانعي القنابل إعادة أسلاك إلكترونيات المركبة من أجل التفجير، لذا فإن النوافذ الكهربائية فيها لا تعمل وكذلك الراديو.

أخذ حارث نفسا عميقا واتصل بأبي قسورة في الموصل قائلا: شيخي لدي الهدية أين أقوم بتسليمها؟ فرد أبو قسورة قائلا: ستأخذها إلى المكان الذي اخترته لي منذ أسابيع. فهم حارث معناه، فالهدف المؤكد كان بغداد الجديدة وهو حي يقع جنوب مدينة الصدر والذي كان موطنا لاثنين من أكثر الكنائس شهرة في العاصمة ويحتوي على محطة حافلات رئيسة وسينما.

لقد كانت بغداد الجديدة ذلك النوع من الأحياء التي تسكنها عائلات الطبقة المتوسطة وموظفو الخدمة المدنية والمعلمون الذين يتسوقون ملابس الأطفال وربما لعبة أو لعبتين في متاجر صغيرة تديرها عائلات، قبل الدخول إلى أحد المطاعم الصغيرة لتناول مثلجات الآيس كريم أو عصير الفاكهة الطازج.

الآن وقبل حلول عيد رأس السنة مباشرة، كانت المتاجر مكتظة، على الرغم من المطر البارد، فإذا أراد داعش بث الرعب في قلوب الشعب العراقي، فإن قتل العائلات في بغداد الجديدة هو المكان الجيد للقيام بذلك الأمر.

أغلق حارث الهاتف، ثم أدار المحرك وحرك الشاحنة، بدت الشاحنة تتمايل إلى الأمام، فقد كان هيكل الشاحنة يئن تحت وطأة ثقل المتفجرات المعبأة بين ألواح السيارة، في الوقت الحالي ركز حارث على إبقاء عينيه على الطريق والابتعاد عن السيارات من حوله والتي قد تصطدم به عن طريق الخطأ، حتى يتمكن مناف من اعتراضه، لأن أي حادث مروري طفيف سيكون كافيا لتفجير القنبلة قبل الأوان.

بينما كان حارث يقود سيارته في الشارع التجاري الرئيس لمنطقة الأعظمية، متجاوزا شققا بنيت للعائلات السنية النازحة وعلى امتداد الطريق، حيث كان بائعو الكمأ يبيعون أشهى أطباقهم، شاهد أخيرا سيارة مناف السوداء السيدان ذات الأبواب الأربعة، وعند مروره أشار بإبهامه لأخيه، بغداد الجديدة، صاح حارث من النافذة، سأترك السيارة بالقرب من سينما بغداد قرب محطة الباص.

لقد وصف تقرير الصقور، ما بعد الحدث، الدراما التي حدثت في الشوارع المكسوة بالأمطار على طول طريق بغداد السريع في أواخر صباح كانون الأول، حيث حاول حارث إبقاء أفكار الموت بعيدة، فقد ظل يخبر نفسه أنه بأمان، لكن عندما جرفت ماسحات الزجاج الأمامي رذاذ المطر، تذكر حارث جميع مقاطع الفيديو التي شاهدها في الطارمية للجواسيس الذين يقتلون، لقد رأى بوضوح التحديق الخالي من التعبير للرجال الذين كانوا على وشك الموت وكيف انتهى بهم الأمر بسيف على رقبتهم أو ببندقية على مؤخرة رؤوسهم، ما الذي سيحدث له إذا قبضت عليه الجماعة الإرهابية؟ هل يمكن للرجال الذين عاش معهم طيلة تلك الأشهر أن ينقلبوا عليه ويعذبوه ويكسروا عظامه؟ هل سيكشف في عذابه هويته الحقيقية؟.

أدرك حارث المشتت الذهن أنه فاته المنعطف على الطريق السريع في بغداد الذي من شأنه أن يؤدي به جنوبًا عبر نهر دجلة عبر وسط العاصمة وشرقا باتجاه بغداد الجديدة، وكان هذا هو الطريق الذي أمر باتخاذه، فقد تم توضيح الاتجاه بالتلغرام عبر الرسالة التي تلقاها من أبي قسورة قبل أيام قليلة، نظر من نافذته ورأى منافًا في سيارة المطاردة يرفع إبهامه إلى الأعلى وتساءل عما إذا كان كل شيء يسير على ما يرام، لكن بعد ذلك فورا رن هاتف حارث، وهو أمر لم يكن ليحدث لو كان جهاز التشويش لدى خليه الصقور يعمل بشكل صحيح، وخرج من الصمت الصوت المشؤوم للدعاء القرآني، فقد كانت الموصل تتصل مرة أخرى.

فتح الهاتف فقال القائد: السلام عليكم أبا صهيب، وكان صوته المقتضب عادة مبطنا بطبقة إضافية من الفولاذ، أخي أخبرني أين أنت الآن، وأعني في هذه اللحظة. جف فم حارث، هل عرفت المجموعة الإرهابية أنه ارتكب خطأ؟. لقد فعل حارث ما هو غير طبيعي بعد ستة عشر شهرا من الحياة السرية، فقد كذب قائلا: شيخ أنا على طريق بغداد السريع، بالقرب من الدورة، وكل شيء يسير على ما يرام، فرد القيادي من الموصل، لا ابني لا، أنت لست في المكان الذي يفترض أن تكون فيه، فأنت الآن على الطريق الدائري. شعر حارث أن دمه يتجمد، ونظر حوله، كان على يقين من أنه رأى شخصا من خليته في الطارمية على الطريق القريب، لكن لم يكن هناك أحد سوى مناف وفريق إزالة المتفجرات في سياراتهم.

لم يفهم حارث كيف وقع وللمرة الثانية في موقف حرج في غضون أشهر، شعر بهبوط في معدته وأن هناك خطأً فادحًا في شيء ما، لكن لم يكن الآن الوقت المناسب للتغلب عليها، ناهيك عن الذعر، وبالتأكيد ليس أثناء الجلوس وسط مئات الأرطال من المتفجرات والمواد الكيمياوية والقنابل العسكرية ومحامل الكرات الحديدية الصغيرة، فرد مناف قائلا: شيخي، لا داعي للقلق، تلعثم حارث في الهاتف، وواصل: المطر يتساقط والطريق شديد الازدحام بسبب حركة المرور.

انحنى حارث على مقود السيارة واضعا كوعه الأيمن عليه ليحافظ على الثبات في أثناء حمل الهاتف إلى جانب أذنه بالإضافة إلى

أنـه قام بإيـماءات بذراعه الأخرى على أمـل أن يلاحظه مناف، كانوا بحاجـة إلى أن يكونـوا أقـرب، لأن جهاز التشـويش لم يكـن يعمل، فتابـع حـارث: أنـا أنجز مهمتي يا أبا قسـورة، وأقسـم بحيـاتي أنني سأسـلم الطرد كما أمرت، فأنا جندي مخلـص للخلافة، لكن صوت القيـادي الفـولاذي مـا زال على حالـه قائلا: الله أكبر يـا أبا صهيب، ليبارك الله رحلتك.

عنـد ذاك فقـط تقدمت سـيارة المطـاردة لمناف أمام شـاحنة الكيا بشـكل مباشر فانقطع هاتـف حارث عن الاتصـال، ولم يكن يعرف فيـما إذا كان أبـو قسـورة قـد قطـع الخـط أم أن جهاز التشـويش بدأ يعمل، فألقى حارث سـماعة الهاتف على مقعـد الراكب ووضع يديه عـلى عجلة القيادة، فقد كان آخـر شيء يريده هو أن يموت في داخل تلك السيارة وهو خائف ومغمور بالمطر.

شـعر منـاف بطعنة الذعر الخاصـة به، ما الذي كان يفعله شـقيقه بالهاتف؟ فصرخ مناف في وجه سـائقه أن يبقى قريبا من سـيارة الكيا قدر الإمكان، واتصل لاسـلكيا بالسيارة الثانية بالسير مباشرة خلف حـارث، لم يكن هنـاك وقت للتوقـف، لذلك أومأ مناف إلى شـقيقه بأنه سـيأخذ زمـام المبادرة، كان الطريق الذي يسـلكونه على وشـك الاندمـاج بالطريق الدائري الشـمالي لبغـداد، والذي يتجاوز وسـط المدينـة ويقودهم شرقا باتجاه مدينة الصدر وصولا إلى بغداد الجديدة وبيت الصقور الآمن حيـث يمكن لوحدة تفكيك المتفجرات إبطال القنبلة.

الطريق لم يكن به توقفات مرورية، وكان بعيدا عن الأحياء المكتظة بالسكان، وظل حارث يشير إلى مناف بأن ذلك ليس الطريق الذي أمره أبو قسورة أن يسلكه، لكن منافًا لم يبطِّئ من سيره والهواتف انقطعت، لذلك استسلم حارث للقدر، عندما مرت القافلة المكونة من ثلاث سيارات بمدينة الصدر، فكر بأن عائلته على بعد أميال قليلة، فدعا بدعاء قصير، فقد كانوا على بعد عدة أميال عن المنزل الآمن، فدعا قائلا: دعونا ننهِ هذا الأمر بأمان، وبعد دقائق خرج الصقور عن الطريق السريع ودخلوا في منطقة صناعية قاحلة مليئة بالرمال وأكوام من نفايات البناء. كان الشارع شبه فارغ والمطر قد هدأ وشعر مناف بإحساس متجدد من الهدوء، حيث استدار سائقه يسارا عند فجوة في سياج من الكتل الرمادية المصبوبة، وانطلق في قطعة فارغة من الأرض مساحتها فدانٌ، حيث أوقف السيارة في ممر إسمنتي أمام منزل مهجور نصف مبني.

بدأ الرجال الأربعة داخل السيارة الثانية في تفكيك القنبلة، وبفضل كفاءة وخبرة طاقم تفكيك المتفجرات قاموا أولا بمساعدة حارث بالنزول من الشاحنة ثم قاموا بتفكيك الألواح الجانبية لسيارة الكيا، حيث كشفوا عن طبقين من الحزم بحجم الطابوق مربوطة بإحكام، وبعد دقيقتين قالوا لمناف إنهم استعادوا ربع طن من المتفجرات العسكرية من طراز سي فور خلف الكراسي في كابينة الشاحنة، كما عثروا على أكياس من سماد نترات الأمونيوم ومحامل الكرات الحديدية (الصچم) حيث كانت مكدسة في حزم منفصلة بعيدا عن المطر، كما أنه كان خلف لوحة العدادات شبكة عنكبوتية

من الأسلاك المفخخة والتي تربط الصواعق الكهربائية بالمتفجرات.

ظل حارث يسير جيئة وذهابا أمام سيارة مناف، وقال إنه يريد أن يدخن، وطلب من سائق مناف سيجارة، وهو أمر لم يره شقيقه يفعله من قبل، زفر نفسا عميقا من الدخان وأوضح بصوت يرتجف ما الخطأ الذي حدث قائلا لشقيقه مناف: إنهم يراقبونني، لا أعرف كيف، لكنهم يفعلون ذلك.

كافح مناف لإخفاء قلقه، فقد كان الوقوع في كذبة ثانية أمرًا سيئًا، لكن مشاهدة زلة ضبط النفس من حارث هي أسوأ، لذا أضحى بحاجة إلى مساعدة أخيه على استعادة هدوئه والقيام بذلك بسرعة، فليس لديهم سوى دقائق لإعادته وسيارة الكيا إلى الطريق، فسكب مناف كوبا صغيرا من الشاي من الترمس الذي يحتفظ به السائق دائما في صندوق السيارة وجلس في سيارته التويوتا بالقرب من المدفأة مراقبا ساعته وأكوام المتفجرات التي تتزايد على الطريق الخاص، ثم قال: حارث خذ الأمور ببساطة واشرب الشاي، لا يوجد أحد يراقبك، فلا أحد يعرف أين نحن الآن. دقق حارث في الأفق، لا توجد سيارة متوقفة على طول الطريق ولم يكن هناك أيٌّ من المارة على مرمى البصر من المنزل الآمن.

كانت هناك صرخة حماسية من أحد المتخصصين في تفكيك المتفجرات أعادت انتباه الأخوين إلى سيارة الكيا، فأسفل لوح السقف من الشاحنة تم العثور على لغم مضاد للدبابات، وكان هو وضابط آخر يقومان بعناية بنقل الذخيرة التي يبلغ وزنها عشرين

رطلا إلى مكان آمن، ثم صاح عضو آخر من الفريق على مناف وكان يحمل هاتف سامسونج صغيرًا وجده في صندوق القفازات، حيث كانت الأسلاك المتصلة به مرتبطة بولاعة السجائر داخل الشاحنة، فسأل مناف شقيقه عما إذا كان قد رأى هذا الهاتف من قبل، هز حارث رأسه، وخمن الفني أنه من المفترض أن يكون نوعا من الصواعق الثانوية للقنبلة، فغطى الأسلاك وأعاده الى حيث وجده. مرت خمس دقائق وكانت لديهم خمس دقائق أخرى قبل حاجتهم إلى العودة مجددا إلى الطريق، وحتى لا تقع شكوك أخرى على حارث سارع فريق المتفجرات بملء ألواح الشاحنة بأكياس الرمل لإظهار أن الشاحنة لم يتم العبث بها، كإجراء احترازي اتخذته الصقور للحفاظ على تغطية حارث. بعد دقائق تم تجميع السيارة بالكامل وتحويلها من عبوة ناسفة قاتلة إلى سيارة بالية غير مؤذية. أنهى حارث شايه وعاد إلى مقعد السائق، فلم يكن ليترك المهمة التي كلف بها غير منتهية.

توقفت الأمطار مع تحرك حارث جنوبا في وقت مبكر من بعد الظهر على شارع الدرويش، وهو حي للتسوق الشعبي في بغداد الجديدة، وتقدم ببطء على طول الشارع بينما كانت سيارات الأجرة والحافلات تتزاحم.

لطالما اعتبر العراق يوم رأس السنة عيدا وطنيًا، ليس لأن البلاد موطن لواحد من أقدم المجتمعات المسيحية وأكثرها حيوية في الشرق الأوسط فحسب بل لأن الحكومة العراقية أيضا أرادت تذكير

حلفائها بأن العراق يشاركهم قيمهم الغربية، وأن الدولة ليست مثل جيرانها الأصوليين شرقا وغربا في إيران والسعودية اللاتي ابتعدت عن الطرق الغربية.

سار حارث متجاوزا المتاجر الصغيرة التي تلبي احتياجات متسوقي الطبقة الوسطى، بما في ذلك متاجر الألعاب المتخصصة ببيع الدراجات ذات عجلات التدريب والدمى بالحجم الطبيعي المصنوعة في الصين. كانت الأمهات متلفعات بالحجاب والمعاطف الشتوية يتفحصن عروض ملابس الأطفال التي يعرضها الباعة في الشارع ومطعم قلعة بغداد يعرض شجرة عيد الميلاد عبر نافذته وتملأ العائلات مقصوراته الحمراء لتناول الهمبرغر وعصير الرمان.

عند التقاطع بعد مكتب البريد مباشرة استدار حارث يمينا في شارع الغدير(*) واتجه نحو محطة حافلات المدينة ومقر الشرطة المحلية وكنيسة مار گورگيس. كان أبو قسورة قد خيَّر حارثًا بأن الأمر متروك له في تحديد أيٍّ من تلك المعالم التي يجب استهدافها، فدار حارث حول الحي مرتين، وهو وقت كاف لاستكشاف مخطط الشارع ولكن ليس طويلا بما يكفي لجذب أي انتباه لا داعي له إليه.

كان آخر شيء بالنسبة له أن يوقفه شرطي مرور يشعر بالملل ويضايقه، واعتمد على قصة التغطية الخاصة به مع داعش في متابعة المهمة حتى النهاية، وهذا يعني أن حارثًا بحاجة إلى إيقاف السيارة وترك المشهد دون أن يلاحظه أحد، ثم ترك الصقور تنهي المهمة

(*) Ragheer Street هكذا كتبت المؤلفة واعتقد أن المقصود شارع الغدير.

بانفجار وهمي حتى يعتقد تنظيم داعش أن أبا صهيب قام بعملية ناجحة.

استطاع حارث أن يرى على الفور أن الكنيسة المسيحية كانت أكثر الأهداف صعوبة فقد كانت الشرطة العراقية تطوق المبنى بجدران خرسانية بسبب العيد، فيما كانت هناك مفرزة خاصة من شرطة وزارة الداخلية تقوم بدوريات في محيط الكنيسة، كما كانت محطة الحافلات مزدحمة بالمسافرين، لكنها تواجه تحديات خاصة، فممرات الدخول والخروج مزدحمة بالسيارات المتسخة، ولم يكن هناك مكان لركن سيارة الكيا، مما ترك مقر شرطة المرور بالقرب من السينما أحد الأهداف الأخرى التي حظيت بموافقة الجماعة الإرهابية.

قرابة الساعة الخامسة مساءً أوقف حارث الشاحنة أمام المدخل الرئيس وغاب وسط الحشود التي كانت متجهة، وأكياس التسوق في الأيدي، إلى محطة الحافلات. كان الشارع مظلما بالفعل، وهبت رياح قارسة تقشعر لها الأبدان، فكتب حارث إلى مناف رسالة نصية عندما كان بعيدا جدًّا عن السيارة أنه تغلب على الصعوبات وأنه مستعد لشن الهجوم.

شاهد مناف شقيقه وهو يدور في شوارع الحي، ثم أوقف الشاحنة أخيرا، حيث كان هو وفريقه من الصقور على الجانب الآخر من التقاطع بعيدا بما يكفي عن الانفجار المسيطر عليه الذي سيشنُّونه، وليكون أقرب إلى حارث بما يكفي في حال حدوث أي خطأ. ليحفظنا الله: قال مناف: دعونا نقم بالأمر، فاتصل حارث بالرمز الموجود على

هاتفه الذي يشغل المفجر في الشاحنة وعلى الفور سمع صوتًا مدوّيا حيث ارتفعت سيارة الكيا في الهواء مدفوعة بالضغط وأكياس الرمل بدلا عن المقذوفات القاتلة والمواد المتفجرة.

صرخ المارة من صوت الدوي وتسببت قوة الانفجار في إطلاق أجهزة الإنذار في السيارات مما زاد من مستوى الصوت والهستيريا في الشارع، ثم سمع مناف ضوضاء عالية، فقد كانت هناك شاحنة تحمل عبوات الغاز المضغوط للطبخ تسير على اليمين عندما أطلق حارث المفجر مما تسبب في انفجار ثانوي واندلاع حريق في مركز تجاري مكون من ثلاثة طوابق بالقرب من مبنى الشرطة، وفي غضون دقائق كان المبنى كله مشتعلا، فاندفعت العشرات من سيارات الإطفاء وعجلات الدفاع المدني إلى مكان الحادث بينما تشتّت المتسوقون بأسرع ما يمكن.

في تلك الفوضى انتهز حارث الفرصة لتصوير نفسه أمام النيران المتزايدة ثم أرسل الصورة إلى أبي قسورة وهو يشعر بالفرح الشديد، قائلا برسالة نصية يا شيخ أرأيت ما أنجز جنديك المخلص اليوم؟ حرائق الصالحين تقتل الكفار في بغداد، أولئك الذين يعبدون الآلهة الباطلة يدفعون ثمن خطاياهم.

في وقت لاحق من تلك الليلة، وبعد إحاطة مطولة شعر مناف بأن شقيقه كان أكثر استرخاء، فمن وجهة نظر الصقور كان يوم عمل جيد، ومن وجهة نظر الموصل كان لتنظيم داعش أن يتباهى بمهمة أخرى ناجحة.

ذكـرت وسـائل الإعـلام العراقيـة على شاشـات التلفاز أن سـتة عـشر عراقيـا قد قتلوا نتيجة تفجير شـاحنة مفخخـة في منطقة بغداد الجديـدة وجـرح العـشرات، وفي الحقيقـة لم يمـت أحد كالعـادة، و نـشر الصحفيون العراقيون ما أخبرتهم به السـلطات، في النهاية كان الشـخص المتضرر الوحيد من الحادث هو صاحب المركز التجاري، لكـن منافًـا كان يأمـل أن يقوم التأمـين بتعويضه عن الخسـائر الذي سببته عمليتهم.

اسـترخى حارث إلى الوراء على الأريكة الملطخة ببقع الشـاي في غرفـة المناوبـة ووضع يديه خلف رأسـه، ثم نظر إلى شـقيقه الأصغر قائلا: لقـد أنقذنا العراق الليلة. كلاهما يعرف أن هذا كان صحيحا، لكـن مـا لم يعرفاه هو أن غطـاء حارث قد انكشـف وبحلول الوقت الذي تم فيه اكتشاف ذلك كان الوقت قد فات.

الفصل الحادي والعشرون

الشدُّ إلى حدِّ الانهيار



لم يكن رجال الإطفاء في بغداد الجديدة قد أخمدوا النيران بالكامل عندما أجرى مناف مكالمة هاتفية عاجلة مع مديره قائلا: سيدي نحن بحاجة إلى سحب رجلنا من عملية عرين الأسد، فقد أخبر السوداني الأصغر أبا علي وهو يشاهد طواقم الطوارئ تنهي عملها والشوارع ممتلئة بالماء، إن الضغط وصل إلى حده مع حارث. فسأله أبو علي: مالذي حدث يا بني؟ ما هو الشيء الخطأ؟ لكن منافًا لم يستطع إيجاد الكلمات الصحيحة.

كانت الشمس قد غربت على عام ٢٠١٦ وانتهى النهار بمهمة أخرى ناجحة، كان هناك شيء ما خاطئ في شقيقه، لكن منافًا لم يكن لديه شيء محدد ليتحدث عنه أو يستطيع إخباره لمسؤول الاستخبارات، فقد كانت، بالأحرى، مجموعة من التفاصيل الصغيرة بدأت منذ الوقت الذي حاول فيه حارث التسلل إلى المنزل في نهاية الصيف فربما يكون الطيش أو جنون الشك، ولكن أيضا إلى جانب ذلك كانت المكالمتان المهددتان من الموصل.

لم يكن أبو علي علم بالرحلة غير المصرح بها إلى مدينة الصدر، فقد كانت الخطأ الذي بدأ كل شيء، لكن منافًا لم يخبره بها حتى الآن. إن ما يعرفه السوداني الأصغر هو أنه لم تكن هناك سوى مرة واحدة طوال واحد وثلاثين عاما من عمره كان فيه شقيقه الأكبر متوترا لهذا الحد كما كان خلال العملية في ذلك اليوم، كان ذلك التوتر الأول هو ما ميز حياته إلى الأبد وهو اليوم الذي كان على حارث فيه أن يخبر والده أنه تم طرده من الجامعة.

كان كل إخوة السوداني، يعرفون في ذلك الوقت، أن هناك سببا وجيها لخوف حارث، فقد كان من المحتمل أن يقوم والده بضربه ضربا مبرحا لأنه تسبب بذلك العار للأسرة، لكن في هذه المرة كانت المخاطر أكبر، فعقوبة الفشل ستكون أسوأ بكثير من الجلد، فإن كانت شكوك حارث صحيحة، وإذا كانت داعش قد تتبعته بطريقة ما أو اكتشفت شيئا فإن عقوبته ستكون التعذيب والموت.

لم يكن مناف يرغب بذلك، فقد كان يعلم مثل كل الصقور أن أبا علي قائد موزون يجمع بهدوء كل الحقائق ذات الصلة ويستمع إلى مساعديه ويفكر في عواقب الإجراءات ويتخذ القرار. لقد اعتبر بعض زملائه من القادة في مختلف الأقسام أن هذه السمة علامة ضعف، لكن أولئك القادة كانوا أيضا لديهم بعضٌ من أعلى معدلات الضحايا في قوات الأمن العراقية، أما الصقور فكانوا يثقون بقائدهم في اتخاذ القرارات الصحيحة للحفاظ على أمنهم وأمن البلاد.

قال مناف لقائده: سيدي، علينا إيجاد طريقة لمنحه بضعة أيام من الراحة، فعليه أن لا يعود إلى الطارمية الآن. تحدث مناف وأبو علي مع حارث بعد الحصول على إحاطة بشأن التفجير عشية رأس السنة، كان اليوم طويلا بالفعل والوقت متأخرا ليلا، لكن أبا علي حينما رأى ضابطه المتخفي كيف بدا منهكا، بدأ يدرك ما كان مناف يحاول أن يخبره به، فقد كشفت ظلال التعب تحت عيني حارث والطريقة التي يحني بها كتفيه مدى تأثير التوتر عليه، فقال له أبو علي وهو يرحب به في مكتبه: يبدو أنك لم تنم منذ أيام، ولذا فأنت بحاجة إلى فرصة

لتنشيط نفسك قبل العودة إلى الطارمية، أخبر خليتك أنك ستتأخر يوما واحدا بسبب إغلاق نقاط التفتيش للطريق واذهب هذه الليلة إلى بيتك، اذهب إلى منزلك لترى زوجتك وعائلتك.

كان العام الجديد يبلغ من العمر ساعتين فقط حينما عاد مناف إلى منزله مع حارث إلى مدينة الصدر، وأضواء الشوارع تتلألأ على الطريق السريع عبر المدينة، نفس الطريق الذي قاد فيه حارث شاحنته الملغومة في وقت سابق من ذلك اليوم. كانت الشوارع هادئة إلى حدٍّ كبير في ساعات الصباح الباكر باستثناء عدد قليل من سيارات المحتفلين، وأبطأ حارث السيارة بينما كان يمر ببعض من الزحام المروري إلى جانب حافلة صغيرة بيضاء من نوع كيا مليئة بالركاب، فنظر إلى حارث فبدا شقيقه هادئا ومكتئب المزاج في نفس الوقت؛ كما لو أنه يعوم في الزمن، كان شعورا غريبا أن يتذكر حياتهما القديمة عندما كان الأخوان يذهبان إلى مقر الصقور، وتحول حارث إلى أبي صهيب الجهادي الذي يريد قتل المدنيين.

عندما وصل الأخوان، بدأت الأسرة في التحرك لصلاة الفجر، وحينما رأت الأم ابنيها صرخت من الفرحة، وسرعان ما امتلأت غرفة المعيشة بثلاثة أجيال من السودانيين، فالجميع استقبل الأخوين حارثًا ومنافًا بالقبلات الفرِحة قبل أن ينسحب الأخوان إلى والدهما في المجلس المخصص للضيوف. لم يتغير شيء مذ كان حارث بعيدا عن المنزل، فلا تغيرت الجدران ذات اللون الأخضر الربيعي ولا طنين مروحة السقف ولا طاولات القهوة الخشبية المرصعة بطبقة

رقيقة التي كان أصدقاء والدهم يكسرون عليها الفستق ويضعون فوقها فناجين الشاي في أثناء الاستماع إليه وهو يقرأ الشعر أو يناقش أخبار اليوم.

عندما كان صغيرا، كان حارث هو الصبي المكلف بخدمة البالغين، حيث دأب ينظف قشورهم ويملأ أقداح الشاي مرارا وتكرارا لساعات، لكنه الآن يعامل كضيف شرف، وكأسلوب حياة في مدينة الصدر كان هناك جيل جديد من الأبناء يقومون بالخدمة بضمنهم ابنه الأكبر مؤمل الذي يخدمه.

قطع حارث الثرثرة من خلال مطالبة ابنه بالتوقف عن الخدمة والجلوس، لكن الصبي الذي أشار إليه كان ابن أخيه وليس ابنه، فانفجرت العائلة ضاحكة، كان الصبيان متشابهين، وظنوا أن حارثًا يلقي مزحة مما أربك مؤملًا مع ابن عمه، لكن منافًا كان يرى ما لا يستطيعون رؤيته، لم يكن حارث يحاول إلقاء نكتة، لكنه كان على وشك الانهيار، إن تنافر صوت بكاء الأطفال وثرثرة النساء في المطبخ وفي الغرفة والضوضاء التي اعتبرها مناف مهدئة، بدت أكثر من اللازم بالنسبة لحارث، فقد كان متوترا ويهز ساقه فوق إحدى ركبتيه، ومع وجود مؤمل إلى جانبه استمر بالقول كم أنه كان مصدوما للمدى الذي نما به ابنه، فقد بلغ الرابعة عشرة من العمر الآن.

رأى مناف الارتباك في عيني أخيه، فطول الأشهر التي ظل فيها حارث متخفيا جعل من ذكرى عائلته بلسما ضد الضغط والتوتر،

فبعد كل شيء قرر أن القيام بالمهمة كان بسبب الصدمة والخوف من فقدان ابنه في هجوم انتحاري، واحتمال حدوث ذلك لابن أي شخص في العراق، لكن أن تدرك أنك لا تستطيع التعرف على ولدك في منزلك؟ كان هذا هو نوع الإجهاد الذي أصيب به بعد عام ونصف العام من الضغوط الشديدة التي عاش في ظلها.

لم يبدِ والدهما أنه يلاحظ أي شيء، فقد كان على ما يرام، وفي أثناء سؤاله أولاده عن عملهم، استخدم أبو حارث نوعا من اللهجة المخصصة للضيوف الكرام، ففي زمن الحرب يدرك أن الساعات الطويلة التي يقضيها حارث في العمل تعني أنه يجب أن يكون مشاركا في شيء مهم، وهو شعور أكده مناف في كل مرة يشتكي فيه والدهم أو رغد زوجة حارث من أنه كان يتجاهل واجباته في المنزل.

لم يكن لدى حارث الكثير ليقوله، فهو بالكاد يسجل موقف المراعاة التي كان يقوم بها والده مع أبنائه، لذلك قرر مناف أن يعطي كلًّا منهما العذر، حتى يتمكن حارث من الصعود إلى الطابق العلوي نحو شقته حيث الهدوء النسبي والنوم.

أعدت رغد سريرهما له، فقد تعلمت بعد خمسة عشر عاما من الزواج أن زوجها سيصاب بالبرود إذا اقتربت منه على الفور بمشاكلها، ولم يكن هناك جدوى من محاولة ذلك في الصباح الباكر، فقد كانت ترى أنه بالكاد يستطيع فتح عينيه، فأخبرت مؤملًا أن يبقى في الطابق الأسفل مع أعمامه وأبقت ابنتيها مشغولتين بالأعمال المنزلية في الغرفة الثانية من شقتهما، لأنها أرادت طريقة للاقتراب من

حارث لاحقا في ذلك اليوم.

نام زوجها أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وكانت الشمس على وشك الغروب حينها استيقظ أخيرا ونهض من السرير، وحتى في ذلك الوقت كان بالكاد يرفع رأسه ليأكل، ولم تحركه ثرثرة الأطفال ولا حتى مناشدة ابنته الصغيرة أن يلعب معها، فشعرت أم حارث بالقلق على الفور معتقدة أن ابنها مريض للغاية، فهو لم يتناول (القوزي) يخنة من لحم الضأن والرز المطبوخ ببطء، والذي أعدته خصيصا لولديها الضابطين العائدين من الحرب، فأخبرها مناف أن لا تتضايق وطلب من رغد أن تتركه. لم يكن حارث مريضا، لكنه يحتاج إلى مزيد من النوم، فتم إخبار أطفاله أن يبقوا خارج الشقة، أما حارث فلم يطلب سوى العزلة. قال لهما مناف: إنه يستحق هذا، أقسم بالله لن تعرفا قط كم يستحق هذا القسط من الراحة. في اليوم التالي استيقظ حارث على أذان صلاة الصبح، لكن بنفس الشعور المزعج من التشوش، كان صوت الرجل الذي غطى الشارع بأذانه هو الصوت الذي سمعه في طفولته، وليس الصوت المتقطع لأبي مريم في الطارمية الذي يهز الجهاديين من أجل الاستيقاظ والقيام بواجبهم أمام الله.

نزل حارث إلى الطابق السفلي نحو المغسلة الموجودة مقابل المطبخ، حيث يعلم أن والده سيقوم بطقوسه الخاصة بالوضوء، وكان الهدوء سائدا في بقية المنزل ما عدا أمّ حارث التي كانت تشغل الطباخ الغازي لتحضير شاي الصباح. حيا حارث والديه بالقول

السلام عليكم وانضم إلى والده عند المغسلة، وكان والد حارث يراقب ابنه وهو ينحني ليصب الماء على وجهه ويديه مستخدما الحركات التي علمها له عندما كان صغيرا، فشعر أبو حارث أن في ولده قوة لم يلاحظها من قبل.

كان قبل ذلك يلاحظ إرادة قوية وعنادا، لكنه اليوم شعر بالتصميم، فاعتقد والده أن حارثًا وجد غرضا في وظيفته الجديدة، لكن كان هنا شيء ما يزعجه، شيء عاصف في عينيه البنيّتين الداكنتين.

سار حارث إلى الخزانة حيث كان والده يحتفظ فيها بسجادة الصلاة، ثم وضع سجادة والده على الأرض باتجاه القبلة(*)، ثم وضع سجادته على يمين والده، وبينما جثا والده على ركبتيه طوى دشداشته الفضفاضة تحت ركبتيه والتفت إلى ابنه قائلا: ماذا تقصد عندما راسلتني ذلك اليوم؟ ما الذي كان يفترض أن أدعو له من أجلك؟ نظر حارث طويلا بصمت، واستطاع أبو حارث أن يرى من خلال كتفيه أن ابنه يكافح بشأن ما سيقوله. لم يكن لدى الرجل العجوز فكرة عما يمكن أن يثقل كاهل ابنه، بالتأكيد لا توجد هناك مشكلة في العمل، فلو كان هناك شيء، أو أن هناك صراعا سياسيًا أو شخصيًّا كان مناف سيخبره بذلك قبل الآن. بل إن هناك شيئًا أعمقَ يحدث، لكنه لم يدقق في ذلك. لقد أخبرهم مناف أن يتركوا حارثًا

(*) خطأ فادح آخر للمؤلفة حيث ادعت أن «حارثًا وضع سجادة الصلاة نحو الشرق باتجاه مكة» ومكة تقع غرب العراق وليس باتجاه الشرق لذا قمنا بالتصحيح قدر الإمكان. المترجم

وشأنه وهذا ما كان سيفعله، ففي النهاية ظل حارث صامتا وأحنى الاثنان رأسيهما للصلاة.

اندلعت الأخبار، بينما كانت أم حارث تضع الأطباق على السفرة، فقد نزل مناف وهو يركض على الدرج من شقته صائحا: انتحاري!... هناك انفجار آخر في بغداد، عندما شاهد حارثًا جالسا إلى جانب والديه وهو يحتسي الشاي، فانكمش حارث بشكل واضح على وسائد الأرضية، وبدت علامات الخيبة على وجهه، فلم تمض سوى ست وثلاثين ساعة من الراحة بين عمليته في بغداد الجديدة وهذا الهجوم الثاني الذي لم يكن على علم به. لماذا لم يخبره أبو قسورة أن هناك (هدية) أخرى يتم التخطيط لها في العاصمة؟ لقد بدا كما لو أنهم لا يثقون به بعد الآن. فسأل حارث منافًا: القتلى؟ كم عدد القتلى؟ فأجاب شقيقه: لقد حدث الانفجار منذ دقائق قليلة في سوق السيارات المستعملة.

وقف حارث وهو يقول: لا بدَّ أن يكون الأمر سيئا، دعنا نذهب، اشرب شايك ودعنا نذهب. فقال له مناف وهو يرى التغيير الجذري الذي طرأ على أخيه: نذهب إلى أين؟.

لقد كان حارث مثل الزومبي خلال اليوم ونصف اليوم الماضيين، لكن فجأة بدا الأمر وكأنه حقن دواء في عروقه فلم يتمكن من الاستمرار بالجلوس.

رد حارث: نعود إلى العمل، أنا بحاجة للعودة إلى العمل، فشق طريقه متجاوزا شقيقه وخرج من غرفة العائلة ثم صعد الدرج إلى

شـقته. سـمعت رغد الضجة التي كان يحدثها في غرفـة النوم، حيث كان يفتـح ويغلق أبواب الخزانة ويجمع ملابسـه، فجاءت إلى مدخل البـاب لتفهم ما يجري، فقالت له متسـائلة: حارث ما هذه الفوضى؟ ما الذي تريده؟ لم تكن تستطيع فهم تصرفـات زوجها الغريبة، فقد عاد إلى المنزل كما لو أنه من عالم الأموات، لكنه الآن كالمجنون ولم يبدُ أنه سمع ما قالت.

هـل ستغادر مرة أخرى يا حـارث؟ إلى أين تذهـب؟ لا يمكنك الرحيـل بهـذه الطريقة، أنت بحاجة للبقاء هنا لمسـاعدتي ومسـاعدة أطفالنـا!. لم يعرهـا حـارث أي انتبـاه وأخرج حقيبـة رياضية قديمة وبدأ يدفع بعض الملابس في داخلها. توسلت رغد وأمسكت بذراعه محاولـة جعله ينظـر إليها وهي تقول: حارث اسـتمع لي، أي نوع من الأزواج أنت يتجاهل حاجات زوجته؟ ثم صاحت: أي رجل يهمل أطفاله كما تفعل؟ فرأت وجه حارث وكأن كلماتها أصابته بالرصاص، ودون أن تعرف كيف، أحست كما لو أنها سجلت ضربة مباشرة له.

رمـى حـارث بالحقيبـة في الغرفة وصـاح عليها: ليـس لديك أية فكـرة عـما أفعلـه بالنيابة عـن أطفالنا، وليـس لديـك أي تصور عن التضحيـة التـي أقدمها لهـم. كانت رغد في حيرة مـن أمرها، فكل ما تعرفـه أنـه ولعدة أشـهر كانت شـجاعتها ضعيفة لدرجـة أنها كانت قريبة من نقطة الانهيار، فقد كانت هموم وعمل الأم الوحيدة أكثر مما تحمله، فلم يكن لديها فكرة عن كيفية تنشـئة الصبي، ولم تكن ترغب أن تطلب من سـوداني آخر مساعدتها، فقد كان من المفترض أن يقوم

بذلك الزوج.

تذكرت الضحك اللطيف قبل ليلتين عندما فشل زوجها في التعرف على ابنه، ودون تفكير أعادت الطرفة على حارث بصوت لاذع في انتقاده قائلة «تضحية؟ أنت لا تعرف حتى ابنك في الشارع كي تنقذه إن كان في خطر. جاءها غضب من العدم، فقد أمسك بها حارث من ذراعيها ودفعها إلى الحائط، فصرخت حينما رأت قبضة حارث تقترب من وجهها، وفي اللحظة الأخيرة وجه حارث قبضته إلى مرآة الحائط بدلا من ضربها فتحطم الزجاج إلى اشلاء وتناثر الدم من يده.

ثم قال: أنا عائد إلى العمل

شعرت رغد أن وجهها قد احمرَّ من الخجل، فكل من في البيت قد سمع جدالهما والصوت العالي لتحطم المرآة. كان مناف قد طلب منها تركه وشأنه، لكنها لم تفعل ولم تستطع ذلك، فلديها الكثير من الأشياء كانت بحاجة إلى إخراجها من صدرها، وبالتأكيد كانت العائلة تعتقد أن الشجار كان نتيجة خطئها وليس خطأ حارث.

انحنت رغد على الأرض لتلتقط شظايا الزجاج الصغيرة، وحاولت أن تقسي قلبها وتكتم دموعها، فالأفضل بالنسبة للأطفال أن لا يروها تبكي.

بعد عشرة أيام، وفي الثاني عشر من كانون الثاني اتصل حارث بمناف من الطارمية وأخبر شقيقه: أن أبا قسورة لديه هدية جديدة لي لأسلمها، وسمع مناف الإثارة في صوت شقيقه والعزيمة القديمة

التـي كان يتذكرها مـن الأيام الأولى لأخيه في عملـه السري، لكنه لم يسـتطع تصديـق ما قاله له حارث بعد ذلك، فقـد قال له: ليس لدي الكثير من التفاصيل التي أستطيع تقديمها الآن، فالخلية تقوم بتغيير إجراءاتهـا، فبـدلا من مقابلة السيارة في بغـداد، أرسـلوني إلى منزل مزرعـة آخـر هنا في الطارميـة، فتنبه مناف على الفور، لمدة سـتة عشر شـهرا كان تنظيم داعش عملياته بنفس الطريقة فلماذا تتغير الأشـياء الآن؟ فسـأله مناف: ما هو بيت المزرعة الجديد الذي سـتذهب إليه؟ وصف حـارث مكانًا ما قريبًـا إلى الفلوجة وأكثر بعـدا، فلم يتعرف مناف إلى اسـم الطريق، وأدرك أنه لا يمكن إجراء استطلاع الآن، في هذه المرحلة المتأخرة دون علم أحد من خلية الطارمية.

السوداني الأصغر لم تعجبه الفكرة بالمرة، فسوف يخسر كل اتصال مع ضابطه المتخفي، والأسـوأ من ذلـك، أن حارثًا يبدو أنه لا يتفهم مدى تهور الأمر، لم يكن خائفا، قبل أسبوع، من أنه قد يكون مراقبا وأن تغطيته قد انكشـفت؟ فقال له: أخي، أتوسل إليك، فكر في هذا الأمـر، يجـب أن تخرج من هناك، اخـرج الآن، فقد يكـون هذا فخًا، لكـن حارثًـا لم يـتردد ولم يفكر حتـى في ما قالـه مناف، وقـال له: في المـرة الأولى التي قررت فيها أن أغادر دخلت قنبلة، ولذا لن أسـمح لواحدة أخرى أن تدخل بغداد إن شاء الله.

لقد تألم مناف بشأن ما يجب أن يفعله بعد ذلك، فأين يبدأ ويتوقف واجبه كأخ ومسـؤوليته كضابط أمـن؟ كان حارث أفضل فرصة لهم لوقـف هجـوم انتحاري آخـر، لكن اتضح لمنـاف أن حارثًـا لم يكن

يفكر بوضوح وتوقف عن حساب المخاطر. حث السوداني الأصغر شقيقه مرة أخرى على الانسحاب، لكن حارثًا رفض ذلك، لذا قرر مناف العثور على أبي علي، وركض عبر المرج نحو مجمع الصقور الذي يفصل مكاتب وحدته عن مكتب القائد، لكن أبا علي لم يكن موجودا، ولم يستطع المساعد تحديد موعد عودته، فاحتاج مناف إلى رأي آخر، لقد أراد أحدًا ما أن يساعده على تحمل المسؤولية، فلا ينبغي أن تكون حياة أخيه بين يديه وحده، وأمضى مناف ثلاث ساعات متوترا بانتظار القائد، فقام بتدخين الأرگيلة، ومضى يتأمل عبر مختلف السيناريوهات واحدا بعد آخر، وكان كل واحد منها أسوأ من الآخر.

كان عمل حارث أكثر أهمية من أي وقت مضى، فالمعركة ضد تنظيم داعش تركزت في الموصل في الشمال، والقوات المسلحة العراقية غارقة في القتال من شارع إلى شارع. كان من المتوقع أن يقوم المتطرفون بالهجوم حيثما أمكنهم، وبغداد دائما كانت الحلقة الأضعف في درع العراق، لكن حينما جلس مناف على الأريكة البنية المترهلة في غرفة العمل، اعترف في قرارة نفسه أنه خائف أيضا، لأن فقدان حارث في فخ لتنظيم داعش سيكون أسوأ من مقتل ضحايا مجهولين في تفجير، فعائلته لن تسامحه إذا علموا أن منافًا كان في وضع يسمح له بمساعدة حارث ولم يفعل ذلك.

عندما رأى سيارة أبي علي اللاندكروز تدخل في مكان وقوفها، ركض مناف عائدا إلى مكتبه ووضع المعضلة من منظور عملياتي

بحت، فقال للقائد: سيدي، اعتقد أن رجلنا لا يفكر بوضوح أبدا، فهو لا يفهم المخاطر التي يواجهها. رأى أبو علي الألم في عيني ضابطه، فقد كان يعلم أن ذلك لم يكن قرارا اتخذه كأخ، تماما كما علم أن حارثًا يدرك أنه ربما يموت عندما تطوع للمهمة، فرد عليه أبو علي قائلا: مناف، لقد اتخذ قراره ويجب أن نحترم اختياره، فهو يعرف أكثر منَّا الأشخاص الذين يتعامل معهم.

المرة الثانية التي رأى فيها مناف شقيقه كانت بعد ستة أشهر، وفي حزيران من عام ٢٠١٧ فقد قبضت الاستخبارات المحلية العراقية في صلاح الدين على مشتبه به بالإرهاب بالقرب من سامراء، وفي أثناء تنزيل محتويات هاتفه في بحثهم عن أدلة لإدانته، عثر الضابط المسؤول على مقطع فيديو مدته خمس دقائق مخزن على الهاتف، وأظهر المقطع رجلا بشعر كثيف أسود ولحية صغيرة راكعا على ركبتيه في قطعة أرض رملية في بستان من أشجار النخيل، كان يرتدي بدلة دافئة سوداء من ملابس هيللي هانس الرياضية ويداه مقيَّدتان بشريط أبيض، وهو يرتجف من البرد، وربما أيضا من الرعب.

لقد نشأ ضابط الاستخبارات الرائد علي الزعفراني في مدينة الصدر، وقد تعرف على السجين، فقد كان حارثًا السوداني، ولم يكن لديه أية فكرة عن كيفية القبض على حارث من قبل داعش، لكنه عرف أن الرجل في محنة حينما رآه، فتصفح هاتفه ووجد أحد أقاربه من بغداد يعرف عائلة السوداني، وترك رسالة مضمونها أن على مناف أن يتصل به على الفور، لذلك أجرى ضابط المخابرات

محادثة هاتفية قصيرة مع الزعفراني، لكن الرائد لم يخض في الكثير من التفاصيل مع مناف قائلا له: إنه من خلال ما قالوه له فإن مقطع الفيديو قد تم تصويره منذ أشهر، وربما في الشتاء الماضي، مضيفا «أنا لم أعرف أن أخاك خاض في أي مشكلة، فأجاب مناف أنه «لا أحد يعرف أنه كان في مهمة سرية».

أرسل الرائد الفيديو إلى مناف على الفور، ووصلت الرسالة عبر تطبيق الواتس آب برنة متفائلة وبهيجة، لكن منافًا لم يستطع فتح الملف، فقد كان مذهولا من الخبر.

بعد الأسابيع التي تلت اختفاء أخيه، فقد الأمل في العثور على حارث حيًّا، أو معرفة ما حدث له، لكنه الآن وبعد العثور على الدليل، شعر بألم شديد في معدته، فقام بتدوير هاتفه على مكتبه عدة مرات. كان مناف قد سمع قصصا عن رجال جُنِّدوا إلزاميا للقتال من أجل صدام في الحرب الدامية بين العراق وإيران في الثمانينيَّات، وكان لدى أولئك الرجال الكثير من القصص وكيف تم إجبارهم من قبل قادتهم على السير في الصحراء التي يعرفون جميعا أنها مزروعة بالألغام، بدلا من السير على بعد بضعة أميال شرقا أو غربا للوصول إلى هدفهم، وعندما كان الجنود يرفضون، كان الضباط يهددونهم بإطلاق النار عليهم إذا لم يطيعوا الأوامر، لقد فهم مناف خوفهم وهو يحدق في هاتفه.

لقد مات جزء في داخله عندما شاهد الفيديو وقال إنه متأكد منه، لم يكن يستطيع حمل نفسه على الضغط على زر التشغيل، فهو لم

يستطع ببساطة أن يفعل ذلك، لذلك قام من مكتبه ومشى عبر مجمع الصقور إلى غرف موظفي أبي علي وقال للمساعد إن لديه أنباءً عن النقيب حارث السوداني، تلك الكلمات جعلت أبا علي يلقي ما في يده ويجلب منافًا إلى مكتبه على الفور وشاهد الرجلان فيلما كان مدمِّرا لكليهما. من الثانية الأولى كان من الواضح أن أيًّا من صنع الفيديو كان يقوم بعمله دون الشعور بأي تأنيب للضمير، المشهد الافتتاحي كان لقطة مقربة لحارث وجسده ملقى على الأرض وذراعاه مقيدتان خلفه. كانت الأرض رملية وجافة وتنتشر فيها صفوف من أشجار النخيل الكبيرة خلف السوداني الأكبر، فيما ظهرت رجلا رجل من خارج المشهد تركله لإجباره على الجلوس منتصبا، ومن الواضح أنه كان أسير شخص ما، ويمكن لمناف أن يرى أن شقيقه كان يعاني من ألم شديد من مجرد محاولة تثبيت نفسه بشكل مستقيم.

فيما وراء الكاميرا، كان هناك رجل بلكنة من غرب العراق وهو ينبح بالشتائم على الرجل الراكع على ركبتيه قائلا: يا كلب، يا مخبر، أخبرنا اسمك الحقيقي! تعرَّفَ منافٌ فورا على صوت الرجل المتحدث، فبعد كل شيء كان يستمع إلى تسجيلات هذا الصوت لعدة أشهر من التنصت الذي وضعوه على هاتف حارث لدى تنظيم داعش، فقد كان صوت أبي مريم قائد خليته، والرجل الذي عاش معه حارث لستة عشر شهرا.

تابع أبو مريم «إن كنت تحب الله أخبرنا إذن، كخادم صادق، من أنت على وجه الحقيقة؟ حاول حارث الجلوس باستقامة على الأرض

الوعرة، كان صوته ضعيفا ومتقطعا، وبدا أنفه مكسورا، ويعاني من صعوبة في التنفس من البرد القارس. فقال حارث: اسمي وسام فلاح داود، كما أخبرتك سابقا وأنا من منطقة الدورة في بغداد. تشير البيانات الوصفية من الفيديو إلى أن المقطع قد تم تصويره بعد يومين من اختفاء حارث، وظن مناف أنها كانت ثمانيَ وأربعين ساعة مؤلمة، كانت لديه أفكار سوداوية بشأن ما فعله عناصر داعش بأخيه خلال اليومين، وحاول أن يتخيل قوة الإرادة التي يحتاجها شقيقه على ما يبدو للحفاظ على قصة تغطيته سليمة لهذه المدة الطويلة.

فقال له أبو مريم: نحن نعرف أنك خائن، لكن أخبرنا فقط كيف تمكنوا من تجنيدك؟ فتضخم جذع حارث واستهلكه سعال شديد، تجهم من الألم وبدأ يتحدث باستسلام في صوته قائلا: قبل شهرين تم اعتقالي من قبل الاستخبارات العراقية حينما كنت في بغداد، وأخبروني أنني يمكن أن أتخلص من السجن إذا تعاونت معهم.

رأى أبو علي ومناف أن حارثًا كان يكافح للتمسك بقصة كاذبة، وكانا مندهشين كيف أنه، ورغم ألمه الواضح، كان يتذكر مبادئ تدريبه، ومنها حافظ على تفسيراتك قريبة من الحقيقة، وبتلك الطريقة سيكون من الصعب على عدوك اكتشاف الكذبة.

واصل حارث: أخبرني العراقيون أنني يمكن أن أنقذ نفسي وعائلتي من السجون، ومن أجل مصلحة عائلتي وافقت على العمل معهم، وكل ما أرادوا مني فعله هو أن أخبرهم عندما أتسلم قنبلة حتى يتمكنوا من استبدال المتفجرات الحقيقية بأخرى مزيفة.

كانت هناك فترة من الصمت على الفيديو، والصوت الوحيد هو صوت الرياح في أشجار النخيل العالية فوق رأس حارث وأزيزها، وراء الكاميرا كان أبو مريم يبدو أنه يتحدث إلى شخص آخر، لكن الصوت كان مكتوما جدًّا، بحيث يتعذر إخراج الكلمات، ثم عاد قائد الخلية إلى أسيره قائلا: زين، لقد بدا الأمر كما لو أنه يسرع بقائمة الأسئلة، كم مرة أبلغت الرافضة؟

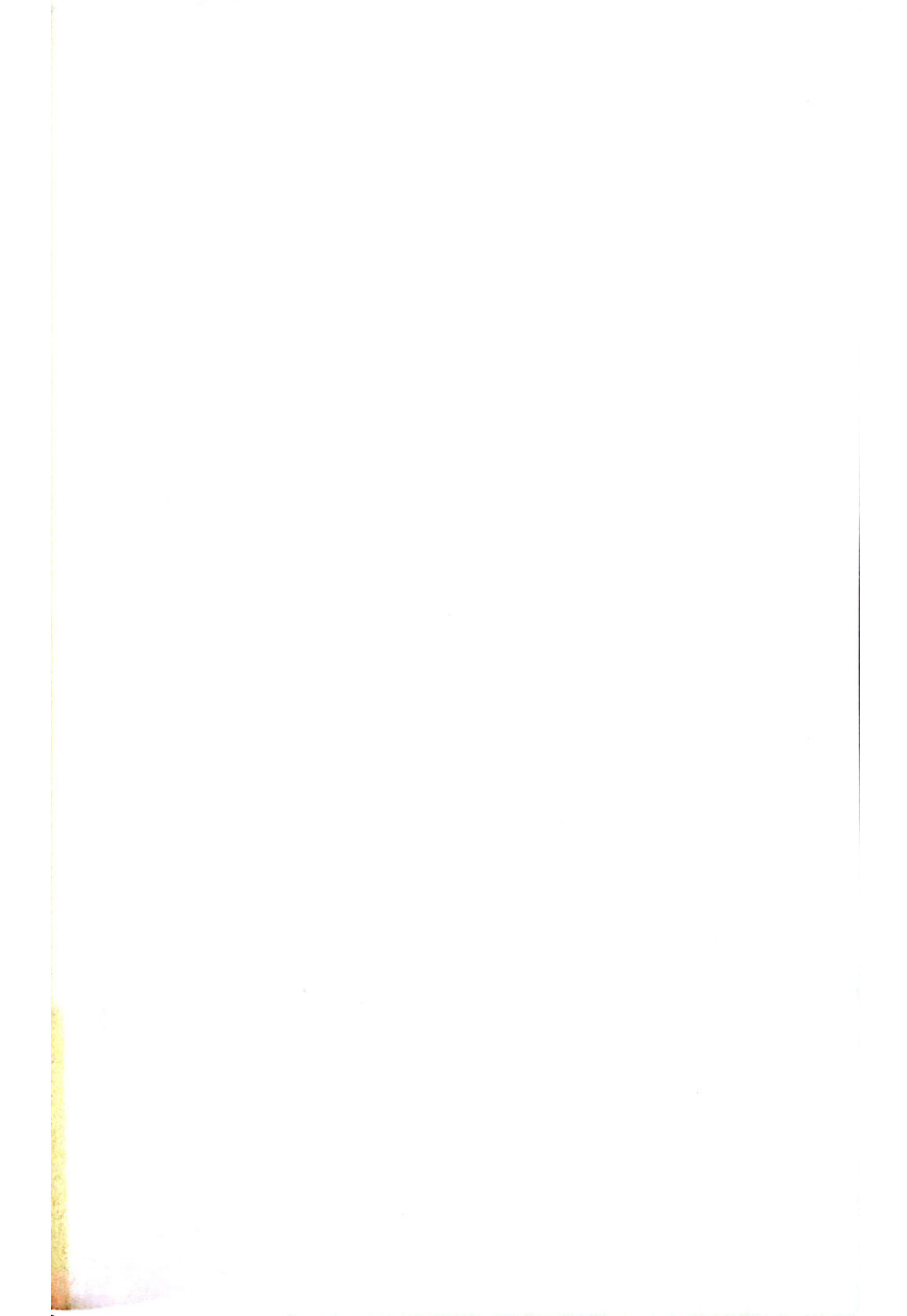
فرد حارث بالقول: مرة واحدة، وكان ذلك بعد أن أخبرني الحاج أبو قسورة عن الشاحنة التي يجب أن استقلها من الأعظمية خلال العملية الأخيرة، وعندما أخذت السيارة، أوضح حارث لمختطفيه، اتصلت بالاستخبارات وأخبرتهم بأن لدي سيارة مفخخة. تذكر مناف على الفور ليلة رأس السنة الجديدة ومظهر الخوف في عيني أخيه، فقد كان يشعر بالقلق من أنه مراقب، ولم يستطع مناف أن يرى كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا، لكنه في ومضة تذكر الشيء الوحيد المختلف في تلك العملية، فقد كانت المكالمة الهاتفية من الموصل والهاتف المحمول الإضافي الذي كان لدى الفريق الذي وجد في سيارة الكيا، فهل هكذا علمت داعش من هو شقيقه حقا؟ هل كان ذلك هو من كشف تخفيه؟

واصل حارث شرحه المعذب عن كيفية قيام الاستخبارات العراقية بإحباط هجوم العام الجديد عن طريق إزالة المتفجرات من الكيا وتنظيم تفجير وهمي. التفت مناف إلى أبي علي ورأى نظرة القلق على وجهه، فقد كانا يعلمان أن اعتراف حارث سيحسم مصيره، ظل

أبو مريم يتعقب أسيره قائلا: إذن الأخبار عن القنبلة كانت كاذبة؟ القنبلة لم تقتل أحدا؟. عند هذه النقطة أحنى حارث رأسه، ويبدو أنه ليس لديه المزيد من الطاقة لمواصلة النظر إلى آسره قائلا: لا. القنبلة لم تحدث قط. فقال أبو مريم: يا أبا صهيب دعني أشغل لك شيئا، شيئًا قد يبدو لك مألوفا، سمع مناف شيئا جعل جلده يقشعر، فوراء الكاميرا شغل شخص ما جهاز التسجيل، كان صوته هو من يعطي الأوامر لخلية الصقور للتخلص من القنابل، فقطع مقطع الفيديو عند ذلك، ولم يستجوب حارثًا مرة أخرى.

الفصل الثاني والعشرون

الانكشاف



في منتصف شهر كانون الثاني من عام ٢٠١٧، عندما سمع أبو علي أن حارثًا مفقود، شعر أنه يسقط في حفرة مظلمة، هي نفس حفرة الفراغ عندما وجد نفسه في تلك الليلة التي اعتقل فيها والده، وعلى الرغم من أنه كان صبيًّا في ذلك الوقت، لكن الرعب الذي كان في عيني والده، والوحشية الظرفية للمخابرات جعلت من الواضح أنه لن يستطيع رؤية والده مرة أخرى أبدا. ذلك لم يمنعه من أن يلعب دوره في التمثيل الصامت الفظيع للحياة في العراق خلال الأيام التي قضاها في مرافقة والدته من سجن إلى سجن في البصرة متشبثًا بالأمل.

حتى لو لم يتم الكشف عنه، لم تكن أمام حارث فرصة للبقاء على قيد الحياة، كان أبو علي وحفنة قليلة من الصقور الذين درسوا المهمة يعرفون ذلك، لكن ذلك لم يمنع منافًا من القيام بشكل يائس من لعب نفس الدور الذي لعبه أبو علي منذ سنوات طويلة مضت.

اتصل مناف بأبي علي يوم ١٤ كانون الثاني بعد ظهر اليوم الذي ذهب فيه حارث إلى موعده في بيت المزرعة الثاني، ومرت ثلاث ساعات وأربع ساعات، لكن فريق استطلاع الصقور لم ير حارثًا، ولم يتمكنوا من المرور في المزرعة أو الطريق خارجها، فقد كان المكان بعيدًا جدًّا وخطيرًا جدًّا، ولما غربت الشمس ولم ترد كلمة منه، كان أبو علي قد قبل بالفعل أن الأسوأ قد حصل، لكن منافًا رفض تصديق ما يعرف الآخرون في فريقه أنه صحيح.

رد أبو علي على الأقل على عشرِ مكالمات من الأخ السوداني

الأصغر في فترة ما بعد الظهر، لم تكن هناك جدوى من محاولة أن تكون عقلانيًّا معه، فقد كان الوقت مبكرا جدا على ذلك، وكانت عواطف الضابط الشاب قد جعلته متطلبا ومتناسيا بروتوكول الرتب الرسمية، قائلا مرارا وتكرارا يجب أن ننقذه، لقد أرسلناه إلى هناك وسمحنا له بالذهاب. فكر أبو علي في نفسه أن كل ذلك كان صحيحا، لكن لا شيء من ذلك مهم الآن، وفي تلك الليلة حينما كان يسير في قيادة عمليات بغداد عابرا في الممر الطويل والمغطى بالخرائط الطبوغرافية التي يبلغ ارتفاعها ثمانيَ أقدام من المعارك العراقية ضد تنظيم داعش، وهي المسوَّدة الأولى لتاريخ هذه الحرب المرمزة بالألوان، أصبحت كل الأسماء المكتوبة بخط اليد العربي على المناطق في كل خريطة تمثل تذكيرا حيًّا بالتضحية التي قدمها الآلاف من الرجال الذين قاموا بطرد العدو من الأراضي العراقية في سامراء والفلوجة والحويجة والآن في الموصل، العاصمة المعلنة لداعش.

كان على أبي علي بطريقة ما إقناع أولئك القادة العسكريين بضرورة المخاطرة بحياة رجالهم من أجل مهمة إنقاذ لواحد منهم، لكن لماذا يجب عليهم فعل ذلك؟ فقد كان أولئك الجنرالات يفقدون العشرات من الرجال يوميًّا، وهو يخوضون واحدة من أعنف المعارك في المناطق الحضرية منذ الحرب العالمية الثانية.

في يوم ١٣ كانون الثاني، قبل يوم من ذهاب حارث إلى آخر لقاء مع الجهاديين استعادت القوات العراقية السيطرة على جامعة الموصل، وقد اكتشف أنه تم تحويل المختبرات هناك إلى منشآت

أبحاث أسلحة كيميائية للغزاة، مكان أتقن فيه علماء داعش طرقًا جديدة للقتل.

كان أبو علي يعرف ما يكفي من قواعد الحرب ليدرك أن لديه فرصة ضئيلة لكسر شدة التركيز على الموصل، وأن ينقل إلى الجنرالات مدى أهمية ضابطه المفقود بالنسبة لهم وجهوده الحربية. لم يكن لدى سلسلة القيادة أي فكرة عن وجود جاسوس داخل خطوط العدو، وكان ذلك أكبر عائق يواجه أبا علي الآن، لم يستطع إخبارهم عن سلاحه السري، فهو منذ البداية لم يكن ضمن سلسلة القيادة بشكل رسمي، وهو موجود ليجيب على تساؤلات رئيس الوزراء وليس على تساؤلاتهم، الأمر الثاني والمهم هو أنه إن كانت هناك نسبة ضئيلة في أن يكون حارث على قيد الحياة، فلن يكون أبو علي الشخص الذي يكشف تغطيته ويخاطر بتسريب المعلومات وأن يكون سببا في موته.

لجأ أبو علي بدلا من ذلك إلى نوع من عمل الارتباط الذي يعرفه العراقيون بشكل أفضل، فقد تواصل مع جهات اتصال فردية يعرفها ويثق بها، وهم مجموعة من الرجال في مختلف المسؤوليات والإدارات من الاستخبارات العسكرية إلى استخبارات الداخلية وقوات مكافحة الإرهاب. استغرق الأمر ثلاثة أيام، لكنه نجح في النهاية، فقد هاجم فصيل من ستة عشر رجلا المزرعة التي كانت آخر موقع معروف بالنسبة لحارث، وقتل الفريق خمسة انتحاريين تركوا هناك في كمين وقتل ضابط عراقي واحد، ولم يقبض على أحد حيًّا، لذا لم يكن من الممكن استجواب أحد، وخرجوا من المكان بدون أي

معلومات استخبارية عما حدث لحارث.

مع ذلك، كان الأمر الأكثر فائدة هو الخدمة التي طلبها أبو علي من ضابط في الاستخبارات العسكرية، فقد كان لدى الصقور اتصالات الهاتف الخلوي لأبي مريم وأبي قسورة، كلا القياديين قد اختفيا، لكن بمساعدة الأصدقاء الأجانب، ربما يمكن إنقاذ شيء من اتصالاتهما عبر الانترنت، شيء ربما يحمل دليلا، وعلى مدى أسابيع جمع أبو علي كميات من المعلومات لم تكن مقنعة، ولم يكن بإمكان الصقور حتى شهر حزيران بعد مشاهدة فيديو استجواب حارث أن يبدؤوا في تجميع ما حدث بالضبط عن الضابط الذي ساعد في وقف ٤٨ من العمليات الانتحارية والهجمات على بغداد.

ووفقا لعامل مزرعة أبي مريم الذي اعتقل بعد عدة أشهر، فإن خلية داعش أسرت حارثًا فور وصوله إلى بيت المزرعة المجهولة في الرابع عشر من كانون الثاني، وكما كان يخشى مناف، فقد كانت تلك الحيلة فخًا، لأن داعش علمت أن حارثًا كان يعيش نوعا من الحياة المزدوجة.

لقد وضعوا اثنين من أجهزة التنصت في شاحنة الكيا التي قادها حارث ليلة رأس السنة، وقد أكدت المكالمة الهاتفية التي أجراها أبو قسورة بينما كان حارث يقود سيارته عبر شوارع بغداد ما يشتبهون به بالفعل في أن أبا صهيب قد خانهم.

كان أبو قسورة قد أمر الرجال في الطارمية بقتل حارث في نفس المكان، لم يكن لدى القيادي في الموصل، الصبر على إجراء المحاكمة،

فهو لم يعد بحاجة إلى مزيد من الأدلة أكثر مما كشفته أجهزة التنصت بالفعل، لكن أبا مريم المزارع الذي تحول إلى جهادي لم يستطع فعل ذلك، فقد عاش معه لمدة ستة عشر شهرا وظن أنه فهمه كرجل أصغر منه سنا، لكنه لا يختلف كثيرا في نواح مهمة، كان أبو مريم رجلا ذا عزم، ويفتخر أنه شخص كانت شكواه من الحكومة الشيعية ومن الوجود المهين الذي أجبر جميع السنة العراقيين على تحمله((*))، ولم يكن متطرفا دينيًّا، وليس مثل المتطرفين في الموصل، كما أنه لم يكن يستطيع الاعتراف بأنه خدع من قبل وكالة مخابرات حكومية. وإذا فعل ذلك فقد يخسر حياته. في ذلك الوقت، كان القياديون في الموصل يحاولون النجاة بأنفسهم من هجوم القوات العراقية على مدينتهم، لكن في مرحلة ما في المستقبل سيكون لديهم الوقت للتفكير في الهزيمة وتحميل الرجال المسؤولية عنها. من هذا المنظور لم يكن

(*) مرة أخرى تتدخل المؤلفة في قضية الصراع بين داعش والحكومة العراقية، وكأنها تحاول التبرير لمجرم داعشي مثل أبي مريم أنه كان يرسل السيارات الملغومة والانتحاريين إلى بغداد لقتل الأبرياء بدعوى مظلوميته، فهل في رأيها أن السيارات الملغومة وقتل الناس مبرر لذلك السبب؟ ثم ما معنى قولها (الوجود المهين الذي أجبر جميع السنة العراقيين على تحمله) هل كان أبو مريم يمثل كل السنة؟ المؤلفة تدرك جيدا أن السنة في الحكومة العراقية الجديدة لديهم ما لا يقل عن ست وزارات ورئاسة البرلمان الذي يعتبر أعلى سلطة تشريعية في البلاد ضمن استحقاقهم في الدستور العراقي المتفق عليه وضمن العملية الديمقراطية، ما عدا المحافظين ووكلاء الوزارات والمديرين العامين، فأين الوجود المهين والمظلومية في هذا؟ ثم كيف عرفت بما يدور في تفكير أبي مريم وأنه لم يكن متطرفا دينيًّا، وهو قيادي في خليه لداعش؟ لقد نقلنا ما قالت حفاظا على أمانة الترجمة، لكنها في الواقع أكاذيب تدل على تجاهل متعمد للواقع العراقي واستغفال للقارئ الأجنبي الذي لا يعرف شيئا عن العراق. المترجم

لـدى أبي مريـم خيار آخر، فقد كان عليه أن يحمي نفسـه من التواطؤ مع الخائن، فأخذ حارثًا إلى المعتقل وأخبر بقية الخلية أن شـقيقهم قد خانهم، وبذلك يمكن لغضبهم أن يحقق ما لم يستطع القيام به بمعاقبة الرجل الذي جعله أضحوكة.

امتلأ اليومـان التاليان بالعقاب البـدني، وانطلق الغضب البدائي على جسـد حارث من قبل الرجـال الذين قضى معهم عددا لا يحصى مـن الليالي يأكل وينـام معهم، لم يكن لدى أبي مريـم طبيب يفحص مقـدار الألم الـذي أصابه، لكن كان من السـهل تخمين مـا يمكن أن يفعله الضرب من قبل عشرة رجال للجسـم وليلتان من النوم عاريا في الـبرد القـارس. جـاء اعتراف حـارث في اليـوم التـالي ١٦ كانون الثاني، فقد كان الفيديو الذي شـاهده أبو علي ومناف قد تم تصويره لإرضاء الموصل، فقد احتاج إلى التسـجيل لإرسـاله إلى أبي قسـورة، حتى يتمكن بيروقراطيُّو داعش من إصدار حكمهم في قضية حارث.

لم يكـن هناك شـك في أنه سـيموت، لكن ما هـو غير معروف هو متـى وأين، وبعـد إرسـال الفيديو إلى الموصـل، كان لـدى أبي مريم وأبي قسـورة عـدة محادثات بشـأن الخائن، فقـد قال أبو مريـم إنه تم اخـتراق الخليـة بأكملهـا، وردًّا على ذلك أمـره أبو قسـورة أن يأخذ رجاله ويتراجع بعيدا خلف خطوط داعش نحو برِّ الأمان، فقد كان بقاؤهم على قيد الحياة موضع تساؤل أيضا.

قبـل غروب شـمس يـوم ١٦ كانون الثـاني، تحرك أعضـاء خلية الطارمية شـمالا خـارج المدينة بقافلة من شـاحنات (البيك أب)، ولم

تتوقـف إلا عند وصولها إلى القائم، المدينـة الحدودية التي سرعان ما أصبحت آخر معقل لداعش في العراق. قاموا بعد ذلك بإلقاء حارث في سجن تابع للتنظيم الإرهابي هناك، وهو مبنى نتن حيث يتم تقييد الرجـال هناك بسلاسـل من الحديد وتركهم يتعفنـون، يتم إطعامهم في بعـض الأحيان وأحيانا أخرى لا يتم ذلك، البعض من السـجناء يضمحلون من المرض، والبعض يفقدون عقولهم، أما البعض الآخر فيموتون نتيجة التعذيب.

في حزيـران علمـت الصقـور من معتقـل آخر لتنظيـم داعش أن حارثًا عانى من نفس النوع من المعاملة على يد قيادي كبير في التنظيم من الموصل كان يعمل مع أبي قسـورة، الرجل يدعى أبا ثابت، وكان غاضبا من الطريقة التي انقلبت فيها الحرب على الإرهابيين، فقد كان مقاتلو التنظيم في حالة انسـحاب كامل من جميع مواقعهم الرئيسة في العـراق، فالتحالف الدولي أهلك القسـم الأكبر من قواتهم بعشرات الضربات الجوية يوميًا، وكان القيادي الغاضب أبو ثابت يصب جام غضبه على حارث.

قـال معتقل الصقور لأبي علي إن حارثًا تحمَّل ما لا يمكن تصوره مـن الألم، وكان يتـضرع مـن أجل المـوت، لكنه في وجـه جلاده كان بالـكاد يتكلم، باسـتثناء إنـكار أنه كان جاسوسـا، ولم تجـد الصقور في سـجن القائم شـاهدا يمكـن أن يخبرهم كيف قضى حـارث أيامه الأخـيرة، لكن بعد شـهرين، وفي آب تلقت الصقـور الدليل الأخير الذي أزال كل الشـك بشـأن مصـير رجلهم، فقد أرسـل زميل لأبي

علي من استخبارات الداخلية مقطع فيديو استعاده محققوه من هاتف سجين آخر، وهو بطول خمس دقائق بعنوان «يوم القصاص» مكانه على ما يبدو جرف رملي خارج القائم يطل على السهول غرب المدينة، مرورا بالشريط الرقيق المتسخ من نهر الفرات الذي يفصل بين العراق وسوريا.

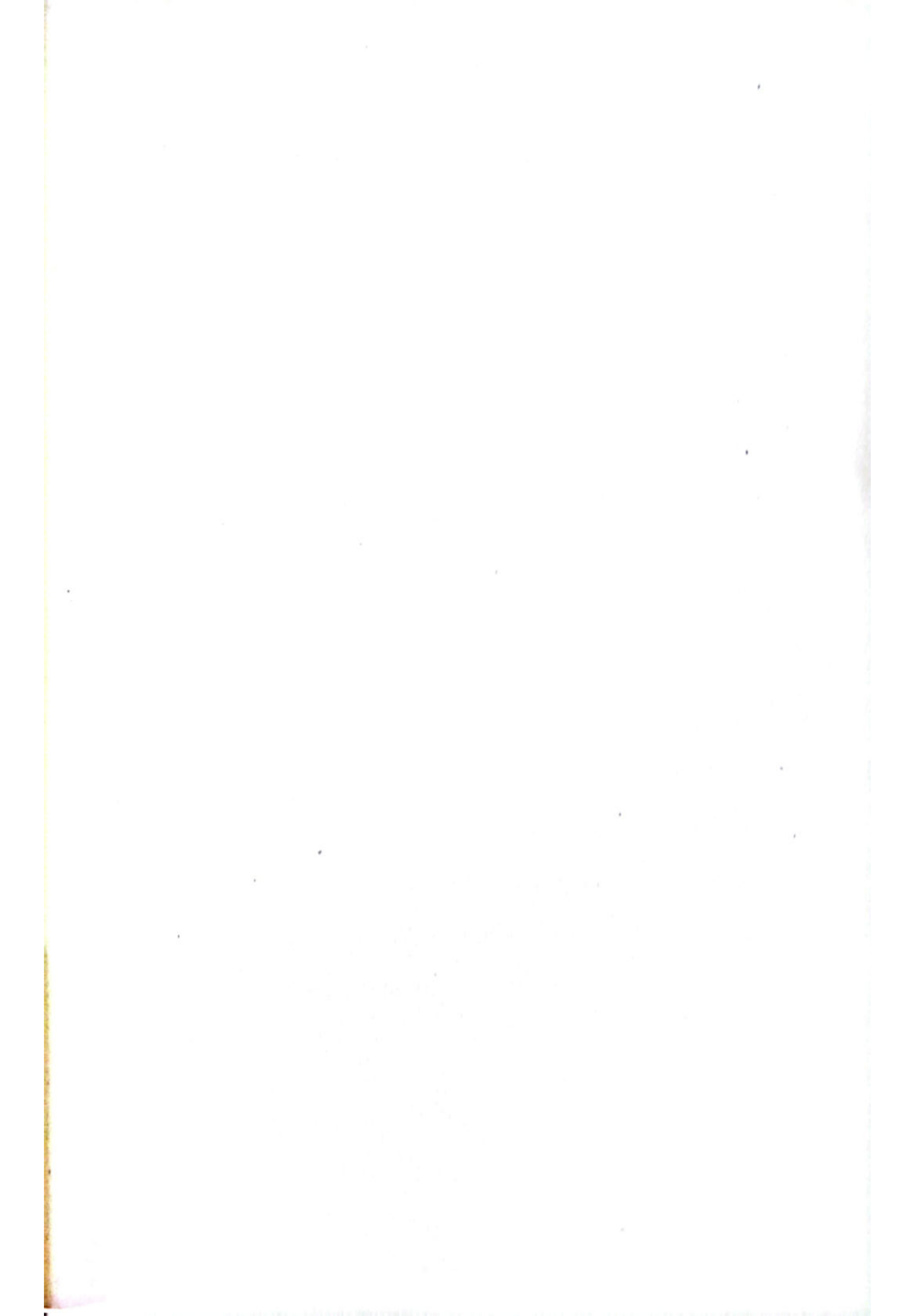
لم يتمكن مسؤولو الاستخبارات من معرفة ما إذا كان الملف الإعلامي قد تم إنشاؤه للاستهلاك على نطاق واسع، كما كانت عادة تنظيم داعش، أو ما إذا كان عرضا قد تم تنظيمه لجمهور خاص مثل قادة المجموعة الإرهابية، حيث لم تكن قيمة الإنتاج لامعة مثل معظم دعايات المجموعة، فبالنسبة لأولئك الذين درسوا مئات مقاطع الفيديو لعمليات الإعدام التي أصدرتها الجماعة الإرهابية كان المقطع الذي شاهده الصقور يوم ١٨ آب عاديًا، فقد كانت الموسيقى التصويرية صوت رجل يتلو آيات قرآنية بصوت منخفض تم تضخيمه رقميًا ليشبه الترنيمة الجنائزيَّة.

كانت المجموعة الإرهابية قد جمعت ثمانية سجناء يرتدون بدلات برتقالية وأقنعة سوداء على رؤوسهم، وركع كل رجل منهم على ركبتيه على الرمل، بينما وقف إرهابيون مجهولون بمسدسات وراءهم، كما كان اثنان من الآسرين يعلِّق كلٌّ منهما غمد سيف على حزامه، ثم قطع صوت رجل آخر نغمة التلاوة، وأعلن حكم الإعدام على المرتدين الخونة وهو يصرح بأنهم ضباط لدى الحكومة العراقية.

بعـد هذا البيـان المقتضب أعدم المسـلحون السـجناء بطلقات في الـرأس، ثـم شرع الإرهابيان السـيَّفان بالمهمة البشـعة بقطع رؤوس السـجناء من أجسادهم واستغرق العمل وقتا طويلا ومؤلما، فقد بدأ الـدم بالقرب من الجثـث بالاختفاء وهو يتسرب إلى الأرض، وفجأة ودون سابق إنذار، غدا شريط الفيديو مظلما.

شـاهد أبو علي ومناف الفيديو بشـكل منفصل في المرة الأولى، ثم أعادا مشـاهدته معا مرة أخرى، وبمجـرد أن فهم مناف ما كان يراه، دخل إلى مكتب أبي علي وهو يكافح للسـيطرة على دموعه، فكل يوم تقريبا ولمدة عشرين عاما، كان هو وحارث ينامان معا في نفس الغرفة في منـزل والدهمـا، فقد ترعرع وهو يرتـدي ملابس أخيه ويجلس إلى جانبه في كل وجبة تقريبا.

لم يتم تعريف الرجال الذين أعدموا رسـميًا من قبل قتلتهم، لكن منافًـا كان يعلم أن الرجل الذي ظهر على الشاشـة، الرجل الثاني من جهة اليسـار كان حارثًا، ولم يكن لديه شـك في ذلك. جلس أبو علي إلى جانب ضابطه الشاب على الأريكة المنجَّدة في مكتبه وهو يشاهده يبكـي، فتمتـم مدير الاسـتخبارات لـلأخ المنكوب قائـلا: رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، رحمنا الله جميعا.



خاتمة

حمل هواء المساء في أواخر تشرين الأول، والقادم من نهر دجلة حرارة صيف بغداد الطويل، كان ذلك في خريف عام ٢٠١٩، والأضواء تتلألأ في أنحاء العاصمة العراقية، كانت فرق الزفاف تحتفل والعائلات تستريح بسلام في هدوء الليل متحررة من التفجيرات والرعب.

خرج أبو علي من مكتبه الخانق وتنفس رائحة المدينة المتربة، فقد انتهى الكابوس الذي انطلق عنانه في جميع أنحاء العراق عندما استولى تنظيم داعش بالقوة على ثلث البلاد وهدد حياة عشرات الملايين من السكان، وحافظ على تعهده لعائلة السوداني في الأيام التي أعقبت اختطاف حارث، فقد أقسم أبو علي لمناف أنه لن يرتاح حتى يعثر على المسؤولين عن مقتل شقيقه.

في الساعات الأولى من يوم ٢٧ تشرين الأول، وتحت ظلام القمر الجديد، قتلت القوات الخاصة الأمريكية أبا بكر البغدادي، العراقي الذي قاد أكثر الجماعات الإرهابية وحشية في القرن الحادي والعشرين، ودمر الكثير من الأرواح. فقد استغرق الأمر عامين من جمع المعلومات الاستخبارية المتأني والمضني للعثور في نهاية المطاف عن الرجل المسؤول عن جميع جرائم داعش، الإرهابي العراقي الذي ارتقى من رتبة رجل دين مغمور إلى لقب الخليفة الوهمي الذي يتزعم جميع مسلمي العالم.

لقد عمل أبو علي وصقوره، طوال عام ٢٠١٨، مع فريق القوات الخاصة الأمريكية المكرس لتتبع الرجل الذي كان ذات مرة أستاذا للدراسات الإسلامية، مستخدمين نفس الأساليب التدريجية الدقيقة التي استخدموها قبل عقد من الزمن لقتل القيادات العليا للقاعدة في العراق. إن عمليات مكافحة الإرهاب الناجحة تبدأ من الأشياء الصغيرة وتراكم المعرفة في الملفات التي يحتفظ بها أبو علي دائما في أكوام ضخمة على مكتبه.

في الربيع وأوائل الصيف كان أبو علي كبير محققي الصقور الذي عمل مع قوات الدلتا المسؤولة عن مقتل أبي عمر البغدادي وأبي أيوب المصري، يحلق مع القوات الأمريكية الخاصة بين العراق وسوريا لملاحقة مقاتلي داعش من العراقيين المعتقلين بحثا عن المزيد والمزيد من المعلومات بما فيها الارتباطات العشائرية والعائلية التي يمكن الاستفادة منها من أجل التعاون.

جاءت أولى الاختراقات في مطاردة زعيم داعش في شباط من عام ٢٠١٨، فقد أخبرت خلية الصقور الأمريكان أنهم اكتشفوا أحد كبار مساعدي البغدادي يعيش باسم مستعار في مدينة جامعية تركية هادئة ومحافظة هي بلدة سكاريا، وهي مكان يستطيع فيه باحث إسلامي سني مثله أن يندمج فيه.

كان عصام العيثاوي من أقدم زملاء البغدادي في التنظيم، فقد انضم إلى القاعدة عام ٢٠٠٦ وتم اعتقاله من قبل الجيش الأمريكي عام ٢٠٠٨، وبعد تشكيل تنظيم داعش عاش العيثاوي في الموصل

مع (الخليفة) وأصدر أوامرَ رفيعة المستوى إلى قادته. بعد أن استعادت القوات العراقية السيطرة على الموصل هرب العيثاوي إلى سوريا مع زوجته السورية، ثم تسلل عبر الحدود مع عائلته إلى تركيا باستخدام أوراق هوية أخيه.

سلم أبو علي ملف العيثاوي إلى الأمريكان الذين سيروا القضية بالضغط على الأتراك من أجل اعتقال الرجل وتسليمه إلى السلطات العراقية، وقد استغرق الأمر خمسة أشهر ليستخلص منه العراقيون أنه، وطبقا للمعلومات الاستخبارية، فإن البغدادي يتواصل بشكل مباشر مع خمسة رجال فقط، وكذلك تم التعرف على كلمات السر التي يستخدمونها لإخفاء نواياهم، والطرق التي يستخدمها أولئك الرجال لتهريب أنفسهم من الموصل إلى سوريا للتملص من الأمريكان، وأخيرا موقع البيوت الآمنة التي سيحاول الرجال استخدامها للابتعاد عن طريق الأذى.

بعد ذلك ساعدت الصقور في إحراز نقطة إضافية بإقناع العيثاوي بالمشاركة بعملية تمويهية في آيار من عام ٢٠١٨ مصممة لإغواء أربعة أشخاص من الدائرة الداخلية المقربة للبغدادي المتبقية له، وهم ثلاثةُ عراقيينَ وسوريٌّ بالعودة إلى العراق حيث كانت القوات العراقية والأمريكية بانتظارهم لاعتقالهم.

من تلك اللحظة فصاعدا، كان الأمر مجرد مسألة متى، وليس مسألة ما إذا كان الحلفاء سيجدون البغدادي، وخلال عام ٢٠١٩ سافر كبير المحققين أبو علي ذهابا وإيابا إلى سوريا مع مجموعة من

عناصر الدلتا وهم يتقدمون نحو هدفهم.

في منتصف عام ٢٠١٩ توصلت المخابرات العراقية والأمريكية إلى استنتاج أن أكثر الرجال المطلوبين بالنسبة لهم كان مختبئًا في مدينة أدلب السورية بالقرب من الحدود مع تركيا، حيث تولى الأمريكان مهمة المراقبة اليومية للمنطقة.

في ٢٦ تشرين الثاني وحينما كان الريف يرقد في الظلام، أقلعت ثماني مروحيات تحمل فصيلا من القوات الخاصة من شمال العراق نحو المنطقة المستهدفة في سوريا وهي قرية باريشا، حيث قامت القوات الخاصة الأمريكية مدعومة بغطاء جوي من طائرات الهليكوبتر باقتحام الفيلا المبيضة بالجص المكونة من طابق واحد حيث كان زعيم داعش يختبئ مع اثني عشر شخصا من أفراد أسرته.

مع مطاردة القوات الأمريكية انسحب زعيم داعش واثنان من أبنائه إلى شبكة من الانفاق والمخابئ تحت الأرض التي تخترق المجمع، لكنه حينما وصل إلى طريق مسدود فجر سترة ناسفة كان يرتديها وقت الهجوم مما أدى إلى مقتله وأولاده.

بالعودة إلى بغداد، سر أبو علي لسماع النهاية المهينة للرجل الهمجي، فقد كانت لحظة حلوة ومرة في ذات الوقت لمدير الاستخبارات، فهي لحظة تذوق النصر الكبير في حرب الظل الطويلة الأمد للاستخبارات المضادة وفي سعيه لجعل العراق دولة اكثر أمنا وديمقراطية، لكنها في ذات الوقت لحظة حداد وحسرة على حارث السوداني وآلاف العائلات العراقية، حيث يقدر أن تنظيم داعش قتل ١٠٠ ألف مدني

عراقـي. تزينت الشـوارع في جميع أنحاء البلاد بوجـوه الجنود الذين سـقطوا، وفي حـين أن البلاد كانت مليئة بإحسـاس جديد بالوطنية، ظل الحزن هو الخيط المهيمن الذي يوحد العراقيين.

في مدينـة الصـدر شرقيَّ بغـداد كان هذا الأمر صحيحـا بالتأكيد بالنسـبة لعائلة السـوداني، فمنـذ أن علم باستشـهاد ابنـه الأكبر عام ٢٠١٧، ظهـرت عـلى أبي حـارث علامـات الذبـول وغـدا مريضا، وخف قوامه المنتصب، وكذلك أسـلوبه الاستبدادي، مما خلق خللا متنافرا، وبدلا من الجلوس على الكرسي ذي الذراعين وبظهر صلب، أخذ أبو حارث يستلقيّ على سرير في مجلس السودانيين. لا يزال رب الأسرة يبدي رأيه في الشعر والسياسة، لكنه أضاف موضوعا جديدا لحواراته، فالآن حينما يأتي الجيران والوجهاء لتقديم احترامهم، يقضي أبو حـارث معظم الوقت في الحديث عن أعظم ضابط اسـتخبارات في تاريخ العراق، ابنه، لكنه حينما يخلو إلى نفسـه بعد رحيل الضيوف ويتأمـل، تنهمر دموعه بحرية على وجهه المُضنـى وهو يعد ما يعتبره أخطاءه كأب.

مع هذا المزيج المؤلم من القلق والندم، كان يتساءل في نفسه عما إذا كان حـارث سـيظل على قيد الحياة لو كان أبًا مـن نوع مختلف، أو إذا أظهر له المزيد من المودة أو فعل أي شيء بشكل مختلف.

عندمـا أدركـت الأسرة طبيعـة عمل حـارث السري وشـجاعته وإنجازاتـه، كان الأوان قـد فات لإخبار ابنه أن يكـون فخورا بأبيه، وفـات الأوان لأن يقـول إنـه أحبـه. في الطابـق العلـوي كانت رغد

تشارك والدة زوجها تأنيب الضمير، فقد كانت آخر محادثة مع زوجها محادثة مريرة من الاتهامات، فلو كانت تعرف أهمية المهمة التي أبعدته عن واجباته في المنزل وعن أطفالهما، لم تكن لتصرخ بوجهه، ولربما كانت ستصبح أكثر تفهما وأكثر دعما له، لكنه بدلا من ذلك غادر المنزل للمرة الأخيرة في طريق عودته إلى الحياة خلف خطوط العدو وهو غاضب ووحيد.

كان إحساس مناف بالذنب لسماحه لحارث بالذهاب إلى فخ داعش في صباح ذلك اليوم البارد من شهر كانون الثاني قد قلب حياته رأسا على عقب، ففي العامين اللذين استغرقتهما مهمة إيجاد البغدادي وقتله، أنجبت زوجته طفليهما التوأمين الأولين، وقد أكسبته إنجازاته المهنية ترقية في الرتبة، لكنه منذ اللحظة التي شاهد فيها إعدام شقيقه امتلأ قلبه بالحزن، لقد كان نفس الإحساس الذي وصفه له حارث عندما أخبره بالكابوس الذي غرق فيه، وبعد شهر ذهب إلى مكتب أبي علي وقدم استقالته وقال لمدير الاستخبارات إنه لم يعد بإمكانه تحمل مسؤولية حياة العملاء بين يديه.

لم يكن لدى أبي علي الأدوات النفسية للتعامل مع الحزن، ففي عالمه، يندفع الرجال ببساطة في أي فورة عاطفية، وكان البلسم الوحيد الذي استطاع تقديمه لضابطه الشاب هو تعهده بالانتقام والتوصية بوظيفة جديدة كمحقق بوحدة الجرائم الكبرى الجديدة في بغداد.

في غرب بغداد كانت عائلة الكبيسي أيضا حزينة، حيث يقضي

الأستاذ الكبيسي معظم فترات الظهيرة وهو جالس على الكرسي المنجد بذراعين بلون البيج وذقنه تستريح على يده اليسرى الملتوية كالحجر، الهواء في غرفة المعيشة ثقيل، وضوء الشمس النابض في الخارج في الحديقة بالكاد يصل من خلال طبقات متعددة من الستائر الرقيقة المعتمة التي تتدلى على النوافذ مثل الكفن. إنه يجلس في هذه الغرفة غير المألوفة وفي حي غريب اصبح يدعوه وزوجته الآن بالمنزل، ويتأملان كيف انهارت أسس حياتهما.

في الأيام التي أعقبت اعتقال أبرار وجد الكبيسيون أنفسهم معزولين ببطء في حيهم، مما خلق جدارا اجتماعيًا من الصمت مبني على نفس غرائز الخوف التي نشأت خلال جمهورية الخوف لدى صدام، فلم ترغب أيٌّ من العائلات المحلية لأبنائهم وبناتهم أن يعتقلوا لارتباطهم بالكبيسي، والجميع كانوا يفترضون أن المخابرات ما زالت تراقبهم، واشتكى جاره من عشرات الآلاف من الدولارات من الأضرار التي لحقت بمنزله على أيدي قوات الأمن في أثناء المداهمة، مصرا على أن يدفع الكبيسي ثمن الإصلاحات، أما بالنسبة للعائلة التي احتفظت بسمعتها العزيزة كأي عنصر مادي كانت الوصمة لا تطاق، ولذا عرض والد أبرار منزلهم - المكان الذي تشبَّثوا به مثل طوق النجاه خلال سنوات إراقة الدماء والعنف الطائفي، للبيع.

لقد أصبحت بغداد الآن أكثر أمنا مما كانت عليه عام ٢٠٠٣، لكنه الآن وعائلته يغادرون، فقد وجد إخوته للعائلة منزلا جديدا

أصغر بكثير على بعد سبعة أميال في حي أقل شهرة حيث لا أحد يعرف وصمة العار التي لحقت بهم.

حدق الأستاذ الكبيسي بهدوء بعينيه الخاليتين من البصر، وهو يكافح للتنقل بين المشاعر غير المألوفة والزوايا والممرات الغريبة في أروقة منزله الجديد، فلأكثر من عام بعد اعتقالها رفض الكبيسي تصديق ما قاله لهم أبو علي البصري عن ابنتهم بأنها انضمت إلى الخلافة وخططت للقيام بهجوم إرهابي ضد مسقط رأسها.

إنها لم تكن الفتاة التي ظنوا أنهم ربوها، ولم يكن ذلك إلا حينما نقلت أبرار من زنزانتها في سجن بغداد إلى سجن سري في أربيل شمال العراق، حيث يتم استجواب معتقلي الإرهاب ذوي القيمة العالية من قبل الأمريكان، وعند ذلك أدرك والدا الفتاة خطورة وضعها.

في النهاية أنفقت الأسرة أكثر من ١٠ آلاف دولار على الدفاع القانوني عن أبرار متجاهلين نصيحة العديدة من المحامين العراقيين بأن قضيتها ميؤوس منها. فقد قالوا لهم: حينما يشارك الأمريكان فلا أحد يحصل على بطاقة خروج من السجن، وإن أفضل ما يمكن لهم فعله هو مناشدة قاضي محكمة الإرهاب في بغداد للرأفة بحياتها.

في أيلول من عام ٢٠١٩ حكم على أبرار بالسجن المؤبد، وأم مصطفى تزور ابنتها في كل شهر مرة في سجن النساء الشديد الحراسة في بغداد، حيث تقيم ثلاثون امرأة في الزنزانة، وبعضهن مثل أبرار، حيث تقول لوالدتها: إن الشابات متدينات من عائلات طيبة،

وبعضهن قرويات أميَّات، وأسوأ زميلاتها في الزنزانة هن ممتهنات الجرائم، ومدمنات المخدِّرات والقاتلات. كانت أم مصطفى تعود من هذه الزيارات التي تستمر لساعة وهي ممتلئة باليأس، فكيف استطاعت ابنتها الذكية تدمير حياتها؟ كيف كانت تعتقد أن القتل أمر أرادها الله أن تقوم به؟.

كان الأستاذ الكبيسي يقضي ساعات على كرسيِّه في محاولة تبرير ظروفه، لكنه في العلن يرفض إلقاء اللوم على ابنته الشابة، وبدلا من ذلك يجد الراحة في نظريات المؤامرة التي أدت إلى تطرفها في كل تلك السنوات الماضية، فهو كما يقول: إن أبرار نشأت من نفس الشيعة الذين اضطهدوها والذين أغلقوا الأبواب أمام أحلامها المهنية»، مضيفا: «إذا كان بإمكان العراق أن يعود إلى أيامه المجيدة، ولو استطاع رجل قوي أن ينهض ويتسلم زمام الأمور، ويضع أولئك الشيعة المدعين في مكانهم الصحيح، فربما تتحسن الحياة» كما يتصور(*).

بالعودة إلى المقر الرئيس للصقور، في أواخر مساء تشرين الأول، كان أبو علي يجلس لوحده في مكتبه، وعقله يتجه بالفعل نحو

(*) هذا بالطبع كلام رجل طائفي ما زال يحلم بجمهورية الخوف الصدامية وبالرجل القوي الذي يضع «الشيعة في مكانهم الصحيح «وليس كلام استاذٍ جامعي، فمشكلته كما يبدو ليس حجم الجريمة التي ارتكبتها ابنته المنتمية لداعش ومحاولتها تسميم الملايين من الأبرياء، بل مشكلته مع الشيعة وحكمهم فهو ما زال ينظر بنفس الروح العنجهية للديكتاتوريات السابقة وتسلطها بالقهر والخوف وتكميم الأفواه وعدم تقبل الآخر المختلف عنه. المترجم

المستقبل، لم يكن ليتحلى بالصبر على الحزن واضطرابه، وبدلا من الحزن كان يفضل التركيز على الفخر. حدق مدير الاستخبارات في بغداد من فوق نظارته ذات الإطار السلكي إلى الأريكة المحشوة، حيث وقف حارث قبل أربع سنوات معلنا عن رغبته بالتطوع لمهمته السرية، كان لأبي علي أربعة أبناء كبار يحبهم كثيرا، لكن ذلك الظل من الشجاعة التي أظهرها حارث السوداني جعلته فخورا بطريقة لم تكن في لحمه ودمه.

ربما يكون خطر الإرهاب قد انحسر في ذلك الأسبوع بمقتل البغدادي، لكن أبا علي لم يتحمل الرضى عن الذات، فطوى مدير الاستخبارات يديه على مكتبه ودعا صامتا من أجل تضحية النقيب السوداني وجميع العراقيين الذين ضحوا بحياتهم في المعركة ضد تنظيم داعش، ثم مد يده وفتح ملفا جديدا بحثا عن المهمة التالية للحفاظ على وطنه آمنا.


@BLOG_BIB

حارث السوداني.. كابوس داعش وكلمة السر في دمار التنظيم...

- قناة سكاي نيوز

حارث السوداني اعظم جاسوس في العراق وواحد من القلة في العالم التي تمكنت من التسلل الى القيادات العليا لتنظيم داعش ....

- نيويورك تايمز

بموته حقق حارث السوداني شهرة غير عادية في العالم السري للاستخبارات...

- صحيفة نيويورك بوست الامريكية.

في كتابها عن حارث السوداني تبنت مارغريت كوكر منظورا مختلفا للطريقة التي ينظر بها الى الحرب على داعش، وبدلا من ان تنظر من خلال عيون الجنود والسياسيين الامريكان، بدأت كوكر بالتركيز على تجارب العراقيين، مجادلة بان العالم يجب أن يعرف ان العراقيين هم الذين كانوا أبطال الحرب ضد داعش والتي ادعى ترامب أنها انتصار للولايات المتحدة.

- صحيفة فاينيشيال تايمز البريطانية.







دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com